جامعة القاهرة

كلية الآداب

al-Mu'arrikh al-Misri

يصدرها قسم التاريخ

المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العدد الرابع عشر

يناير ١٩٩٥

١ – الأبحاث والدراسات :

- **قراءة جديدة فى عهد عمر**

د. عبادة عبد الرحمن كُحيلة

- **النشاط التجارى فى حلب خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة العاشر والحادى عشر للميلاد**

د. محمد زيود

- **التجارة فى أفريقيا فى عصر الأغالبة**

د. عبد الحميد حسين محمود حموده

- **مدينة سبتة وخططها فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى**

د. حسن خضيرى أحمد

- **ثورة الزنج هل هى ثورة عبيد ؟؟**

د. فايزة إسماعيل أكبر

- **بنو إينجو فى فارس ونشاطهم السياسى**

د. محمد أحمد محمد أحمد

- **أضواء جديدة على تاريخ بلغاريا تحت الحكم البيزنطى**

د. ليلى عبد الجواد إسماعيل

٢ – عرض الكتب :

- **قيام وسقوط الفاشية مع مقدمة فى منهج التحليل النفسى للتاريخ**

للأستاذ الدكتور/ سيد أحمد على الناصرى

عرض الدكتور/ السيد عشماوى

قواعـــد النشـــر

• ترحب المؤرخ المصرى بنشـــر الأبحـاث والدراســـات الأصليـة ذات المستوى الأكـاديمى الجـاد بعد التحكيم ، فضـلاً عن مراجعات وعـرض الكتب الجديدة .

• تقبل المؤرخ المصـرى للنشر الأبحـاث التاريخية والحضاريـة المكتوبـة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد صفحـات البحث أو المقال عن ٣٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة على ورق حجم كوارتر بما فـى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع .

• المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثاً سبق أن نشـرت أو معروضـة للنشر فـى مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطـار المؤلفين بإجـازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم .

• تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسـها بحق القبول أو رفض الأبحـاث أيا كـان قرار هيئة التحيكم .

• النشـر فـى المؤرخ المصـرى متـاح لأعضـاء هيئـة التدريـس بالجامعـات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية .

• الآراء الـواردة بالمــؤرخ المصـري تعبر عن وجهة نظـر أصحابها .

المؤرخ المصري

العدد الرابع عشر — يناير ١٩٩٥

المراسـلات :

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الأستاذ الدكتور/ **سيد أحمد الناصرى**

رئيس التحرير على العنوان التالى :

كلية الآداب — جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

بريد الأورمان — محافظة الجيزة

البحوث والدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد

الصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد سيد الخلق وبعد:

أنه لمن مزيد من الشرف أن نصدر العدد الرابع عشر يناير ١٩٩٥ محملاً بمقالات مختارة من موضوعات مختلفة لمؤلفين وباحثين على طول الوطن العربى، لأن رسالة المؤرخ المصرى هى الإشعاع الحضارى والثقافى بين أركان الأمة العربية وتوثيق عرى الصداقة بين الباحثين من المحيط إلى الخليج.

غير أن حادثاً مؤسفاً تعرضت له المجلة فى العدد الثالث عشر، فبالرغم من أننا حريصون على فحص وتحرى المقالات بحيث تكتشف أى محاولات نقل أو تلاعب أو سرقة ، إلا أننا بسبب ضغط العمل أحياناً أو إرهاق الفاحصين، أو تحت إلحاح قوى النفوس الضعيفة من سارقى البحوث تتسلل إلى المجلة بعض البحوث الهزيلة أو المسروقة والمسئولية تقع على الفاحصين بالدرجة الأولى، وليس على هيئة تحرير المجلة، لأن هذه البحوث عادة تنشر على مسئولية صاحبها، فليس فى مقدورنا أن نتحرى عن كل مقال، وجذوره وأصوله وعما إذا كان مأخوذاً عن آخرين، وإلا عطل ذلك عملية النشر، كما أن حداً أدنى من الثقة مفروض أن تكون موجودة بين الباحثين .

ولهذا كله فنعلن عن آسفنا لما قام به الدكتور محمد رضا عبد العال فى مقالة بعنوان (الموالى والرقيق فى نجد والحجاز فى العصر الأموى) والذى نشر فى مجلة المؤرخ المصرى العدد الثالث عشر يوليو ١٩٩٤، فقد قام السيد المذكور بتضليل المحكمين واستغلال مرض أحدهم، واستطاع بإلحاحه أن يحصل على موافقتهم بنشر الموضوع ثم تلقينا خطابا من السيد أ. د/ عبد الله بن محمد السيف من جامعة الملك سعود يتهم فيه الدكتور / محمد رضا عبد العال بكلية التربية بالعريش جامعة قناة السويس لسرقته علميا، عندما نقل بحثه بالنص من كتاب

"الحياة الاقتصادية فى نجد والحجاز فى العصر الأموى" للدكتور / عبد الله السيف والذى كان أصله رسالة دكتوراه أعدها الدكتور السيف لقسم التاريخ جامعة القاهرة تحت إشراف أ.د. حسن أحمد محمود . وفور تلقى هذه الشكوى قمنا بتشكيل لجنة للتحقيق أفادت بتقرير مما يلى : **(ويؤسفنا أشد الأسف إننا وجدنا د. محمد رضا عبد العال قد قام بسرقة علمية سافرة بدون أدنى مجهود إذ نقل بحثه المذكور عاليه من كتاب د. عبد الله السيف المذكور آنفا ونقله كلمة بكلمة فى متنه وهامشه دون أدنى حياء يجعله يفكر فى أى تبديل أو تحويل ولم يزد عليه من عنده إلا صفحة واحدة هى ص ١٨٩ جعلها مقدمة للموضوع المسروق ولأنه لا يعرف شيئاً عن مصادر الموضوع الذى سرقه ولا عن مراجعه لم يلحق به أى قائمة من مصادر ومراجع على النحو المتبع فى البحوث العلمية إن السرقة واضحة جليه يمكن اكتشافها بجلاء من النظرة الأولى).**

وبناء عليه فقد أخطرنا جهة عمله كلية التربية جامعة قناة السويس بما حدث، وطلبت جهة عمله الأدلة والوثائق على ذلك لتقديمه إلى المحاكمة التأديبية. والمؤرخ المصرى تعلن اعتذارها إلى الدكتور/ عبد الله بن محمد السيف وتعده بأنها قررت حرمان الدكتور المذكور من المساهمة فى أى بحوث قادمة وتبليغ ذلك إلى كافة المجلات العلمية وإلى لجان الترقية ، وتعلن تجريسه حتى يكون عبرة لأمثاله من المحتالين واللصوص.

والله ولى التوفيق .

رئيس التحرير

قراءة جديدة فى عهد عمر

د. عبادة عبد الرحمن كحيلة

أستاذ مساعد بآداب القاهرة

هذا بحث فى موضوع قديم جديد...سبقنا إليه فضلاء ، ويلحق بنا – نزعم – فضلاء آخرون .

والسبب فى قدم هـذا الموضوع وجدته معاً أنه موضوع خلافى أو أنه إشكالية لم يتم حسمها ، وربما لا يتحقق هذا الحسم فى مستقبل منظور ، وما نورده فى هذه الأطروحة إضاءة – نزعم أيضاً – لبعض جوانبها .

وعهد عمر (أو العهدة العمرية أو الشروط العمرية) موضوع يقع على التخوم بين التاريخ الإسلامى والفقه الإسلامى ، وهو يتسع لعمل المؤرخ والفقيه معاً ، فهما يعاودان فى بعض الأحيان مصادر واحدة ، والخلاف بينهما يتحدد فى التوجه والمنطلق ، أو بين ما كان وبين ما كان يجب أن يكون .

والعهد – عهد عمر – وثيقة ، وليس جديداً أن نقرر أولية الوثائق وأهميتها كمورد من موارد المؤرخ ، وقد تنبه الفرنج – قبلنا – إلى الوثائق فأنشئوا لها فى فرنسا مدرسة خاصة بها . École des Chartes

– 1 –

إذا نحن راجعنا مصادرنا فيما يختص بعصر النبوة والخلافة الراشدة تروعنا ندرة ما تناهى إلينا من وثائق أصلية ، وهى لا تجاوز عند باحث فاضل متخصص فى الوثائق الإسلامية وثيقتين أو ثلاث(١) ، أما ما عدا ذلك من وثائق ، فقد وردت صور منها فى المصادر الأدبية المتاحة مطبوعة ومخطوطة .

ولا نناقش هنا السبب أوالأسباب فىفقدالوثائق الأصلية،علىأنه يترجح لدينا أن بعضها فقد بسبب حرق الديوان إبان ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ومعركة

---

(١) محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ٢٤.

دير الجماجم فى سنة ٨٢هـ ، وفى ذلك يقول أبو يوسف(ت ١٨٢هـ)(٢) : "فلما كانت الجماجم أحرق الناس الديوان ، فذهب ذلك الأصل ودرس" .

على أنه إذا كانت ثم ندرة فيما تناهى إلينا من وثائق أصلية ، فإنه وجدت وفرة(نسبية) فيما تناهى إلينا من وثائق منتحلة ، وضعت لأسباب معينة ، وحققت الغرض منها على نحو أو آخر،وتبين بعد فترة قصيرة أو طويلةزيفها أو زيف بعضها.

من أشهر هذه الوثائق(٣) وثيقة عرفت باسم العهد النبوى (أو العهدة النبوية، أو العهدة الموحدية) يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم كتبه إلى النصارى

---

(٢) الخراج نشر قصى محب الدين الخطيب ص ٦٣ ، وانظر أيضاً البلاذرى: فتوح البلدان تحقيق صلاح الدين المنجد ، جـ٢ ص ٣٣٤ ، الجهشيارى . الوزراء والكتاب. تحقيق مصطفى السقا وآخرين ص ٣٨ .

(٣) عرف الفرنج فى فترة باكرة تزييف الوثائق ، وأشهر هذه الوثائق وثيقة عرفت بهبة قسطنطين Donatio Constantino ، وتعود فى أصلها إلى وثيقة صدرت فى سنة ٧٥٥م منح بمقتضاها بيبن القصير ملك الفرنجة (٧٥٢ - ٧٦٨م) حقوقاً للبابا فى شبه الجزيرة الإيطالية وعرفت هذه الوثيقة بهبة بيبن . على أن البابوية - فى مرحلة لاحقة - لم تلبث أن توسعت بهذه الوثيقة التى ضاع أصلها ، فنسبتها إلى قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧م) وزعمت أنه إعترافاً منه بصنيع البابا سلفستر Sylvester الأول (٣١٤ - ٣٣٥م) فى إبلاله من مرضه وتعميده فإنه يقر بسيادته الروحية على الكنيسة المسيحية فى أقطارها كافة ، وسيادته الزمنية على روما وإيطاليا والغرب كله .

وغير خاف أن البابوية أفادت من هذه الوثيقة المزيفة فى صراعاتها مع ملوك أوربا وأباطرتها وبخاصة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، ولم يتم التحقق من زيف (هبة قسطنطين) إلا فى عصر النهضة ، حين نشر العالم الكبير لورنزو فالاً Lorenzo Valla فى سنة ١٤٤٠م أطروحته الشهيرة التى يبرهن فيها على هذا الزيف .

Cambridge Medieval History : Vol II pp 699 - 700, Vol IV p. 76, Vol V pp - 85, 90. Vol VII p- 769

ورهبانهم كافة ، وتوافرت نسخ عديدة من هـذا العهد(٤) ، أهمها نسخة كـانت موجودة بدير سانت كاترين فى شبه جزيرة سيناء ، انتزعها السلطان سـليم الأول العثمانى (٩١٨ - ٩٢٦هـ) لدى غزوه مصر فى سنة ٩٢٣ / ١٥١٧، وأتـى بهـا إلى الآستانة بعد أن ترك لدى رهبان الدير صورة منها وترجمتها التركية(٥) .

ومع أن بعض الباحثين العرب(٦) يذهبون إلى صحة هذه الوثيقة ، أو صحـة الأصل المفقود لها ، من حيث أنها لا تفارق - فـى مجملهـا - مـا ورد فـى القـرآن الكريم ، وما أثـر عـن النبـى صلـى الله عليـه وسـلم ، إلا أن بـاحثين آخريـن(٧)، يذهبون إلى انتحالها ، ونؤيدهم فيما يذهبون .

---

(٤) منها نسخة وردت فى "كتب النبى (ص) إلى الناس كافة" لمؤلـف مجهـول عـاش فـى العصر المملوكى مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٨٤٥ تاريخ تيمور لوحة ١ .

(٥) لويس شيخو . عهود نبى الإسلام والخلفاء الراشدين للنصارى ، مجلـة المشـرق مجلـد ١٢ لسنة ١٩٠٩ ص ٦١٠ - ٦١٤ جرجى زيدان . تاريخ التمدن الإسلامى جـ٤ ص ١٠٦ - ١٠٧ ، وانظر أيضاً محمد حميد الله المرجع نفسه ص ١٨٠ - ١٩٠ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ .

(٦) سيدة إسماعيل كاشف : مصر الإسـلامية وأهـل الذمـة ص ٢١ - ٢٣ وانظـر أيضـاً على حسنى الخربوطلى: الإسلام وأهل الذمة ص ٣٨ - ٣٩ .

(٧) يذهب لويس شيخو فى مقاه الآنف الذكر إلى خلو المصادر العربية المتقدمة من هـذا العهد ، فضلاً عن طوله النسبى ثم إن العهد مؤرخ بالسنة الثانية للهجرة ، ولم يكـن المسـلمون قد تعمقت صلاتهم بالنصارى بعد ، كما أنهم لم يستخدموا التاريخ الهجرى إلا فى عهد عمـر رضى الله عنه ، وتعود اقدم نسخة للعهد إلى أربعمائة سنة فقط وبعض نسخة إملاءً إلى معاويـة ابن أبى سفيان ، ولم يكن قد أسلم بعد ، وأسماء الشهود بعضها مصحف وبعضها الآخر لا يرد له ذكر فى كتب الطبقات . المشرق جـ١٢ ص ٦١٤ - ٦١٨، وانظر جرجى زيدان : المرجع نفسه جـ٤ ص ١٦٠ - ١٠٧ .

وثمة عهد آخر أغفله البعض - أو تغافلوا عنه - هو هذا العهد الذى يدعى فيه اليهود (الخيابرة)(٨) أن النبى صلى الله عليه وسلم ، أعفاهم بمقتضاه من الجزية.

ولم يصل إلينا هذا العهد(٩)، ولكن الأخبار تتواتر بشأنه فى بعض مصادرنا، وعن طريقه نجح اليهود الخيابرة ، فى أن يصيروا - حسب بعض الروايات - بمنأى عن القيود التى فرضها الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ) على أهل الذمة فى سنة ٣٩٥ وسنة ٤٠٣هـ(١٠) .

---

(٨) نسبة إلى أهل خيبر اليهود الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم قد غزاهم فى سنة ٧هـ ، وبعد أن نصره الله عليهم ، أبقاهم حيث هم ، على أن يؤدوا إليه نصف غلة أرضهم ، ولم يقرر عليهم الجزية لأن آية الجزية ، لم تكن قد أنزلت بعد ، ثم أجلاهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه لدى خلافته إلى بلاد الشام ، حيث تقررت عليهم الجزية ، وصارت حالهم حال غيرهم من الذمة .

(٩) يذكر ولفنسون (أبو ذؤيب) أنه عثر فى مقبرة يهودية قديمة بالفسطاط على كتاب أعطاه النبى صلى الله عليه وسلم لأهل خيبر ويهود آخرين مؤرخ بالعام الهجرى الخامس ، يشهد عليه عمار بن ياسر وسلمان الفارسى وأبو ذر ورد به "وليس عليكم أداء جزية ولا تجز لكم ناصية ولا توطأ أرضكم ولا تحشرون ولا تقتلون ، ولا يجعل أحد عليكم ، ولا تمنعوا من لباس المشققات والملونات ولا من ركوب الخيل ولباس أصناف السلاح" ويذهب إلى تلفيق هذا الكتاب . تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٧٩ - ١٨١ . وربما كان هذا الكتاب صورة من صور هذا العهد المزعوم .

(١٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان تحقيق إحسان عباس جـ٥ ص ٢٩٣ ، النويرى . نهاية الأرب جـ٢٨ ص ١٧١ - ١٧٩ ، ١٩١ حيث قرأ المحقق (محمد محمد أمين) كلمة الخيابرة مرة الحبابرة ومرة الجبابرة وانظر أيضاً يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ص ١٨٧ ، ٢٠٢ على أن هناك من المصادر من يذكر اليهود على الجملة - دون استثناء الخيابرة . ابن أيبك الداوادارى: كنز الدرر. جـ٦ تحقيق صلاح الدين المنجد ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ٢٨٦ - ٢٨٧، المقريزى : الخطط جـ٢ . ص ٢٨٦ - ٢٨٨ ، ٤٩٥ - ٤٩٦ .

على أن الخيابرة إذا كانوا قد نجحوا فى مصر، فإنهم لم ينجحوا فى العراق، ففى عهد وزارة أبى الحسن بن الفرات (ت ٣١٢هـ) ببغداد ادعى يهودى هذا العهد ، لكنه بعد أن طالع كتابه كشف عن تزويره(١١) .

انصرف اليهود إلى إقناع فقهاء المسلمين بصحة هذا العهد ، ونجحوا مع بعضهم(١٢) لكن جمهورهم أفتى بزيفه .

من جملة هؤلاء الفقهاء الفقيه الحنبلى الكبير أبو يعلى (ت ٤٥١هـ) ، فهو يقرر فى كتابه (الأحكام السلطانية)(١٣) أن "يهود خيبر وغيرهم فى الجزية سواء" و لم يكتف بذلك ، إنما صنف كتاباً دعاه (تكذيب الخيابرة فيما يدعون من اسقاط الجزية)(١٤) .

وعندما تجدد الأمر فى بغداد حول منتصف القرن الخامس الهجرى أرسل الوزير أبو القاسم ابن المسلمة (ت ٤٥هـ) يسأل أبا بكر الخطيب (ت ٤٦٣هـ) صاحب تاريخ بغداد فى هذا الشأن فعاود التأكيد على تزويره ، وبرهن على ذلك بشهادة معاوية بن أبى سفيان و شهادة سعد بن معاذ ، ومعاوية أسلم عام الفتح ٨هـ ، فى حين أن خيبر فتحت فى سنة ٧هـ ، أما سعد بن معاذ فمات يوم بنى قريظة فى سنة ٥هـ(١٥) .

---

(١١) الصابى : تحفة الأمراء ص ٦٧ – ٦٨ .

(١٢) ابن كثير : البداية والنهاية. تحقيق احمد أبو ملحم وآخرين جـ٤ ص ٢٢٠ .

(١٣) ص ١٣٨ .

(١٤) ابن أبى يعلى : طبقات الحنابلة تصحيح محمد حامد الفقى جـ٢ ص ٢٣٠ .

(١٥) ابن النجار (ت ٦٤٣) ذيل تاريخ بغداد. تصحيح قيصر فرح جـ٤ (جـ١٩ من تاريخ بغداد) ص ٦٠ ، ابن الجوزى : المنتظم. تحقيق محمد عبد القادر عطا وآخرين جـ٦ ص ١٢٩ – ١٣٠ ، وانظر أيضاً : الذهبى : سير أعلام النبلاء تحقيق الأرناؤط جـ١٨ ص ٢٨٠، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ ص ١٤ .

وبعد سنوات طويلة تجدد الأمر فى دمشق ، وعقد مجلس خاص لمناقشته فى سنة ٧٠١هـ(١٦)، وأفتى شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) بتزوير هذا الكتاب، وفصل وجهة نظره بأن صلح النبى صلى الله عليه وسلم مع أهل خيبر فى سنة ٧هـ ، لم يتضمن جزية ، لأن آية الجزية لم تكن قد أنزلت بعد ، وإنما يتضمن مشاركة المسلمين لهم فى نصف غلة أرضهم . وبعد أن أجلاهم عمر رضى الله عنه (١٣ - ٢٣هـ) ، إلى بلاد الشام ، صار حكمهم حكم غيرهم من أهل الكتاب ملزمين بأداء الجزية ، ثم نوه إلى شهادة معاوية وسعد بن معاذ - التى سبق ونوه إليها الخطيب البغدادى - وأضاف أن الكتاب يتضمن أن النبى صلى الله عليه وسلم اسقط عنهم الكلف والسخر ، ولم يكن فى عهده شىء من ذلك(١٧) .

وقد وقف مؤرخنا ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) على هذا الكتاب ، ويقول أنه(١٨) رآه وبين بطلانه فى كتاب مفرد(١٩) .

---

(١٦) ابن كثير : المصدر نفسه جـ١٤ ص ٢٠ .

(١٧) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد جـ٢ ص ٧٩ ، أحكام أهل الذمة. تحقيق صبحى الصالح جـ١ ص ٦ - ٩ ، وانظر أيضاً تاريخ ابن كثير جـ٤ ص ٢٢٠ ، جـ١٤ ص ٢٠ ، تفسيره جـ٢ ص ٣٠٠ ، ابن النقاش : المذمة فى استعمال أهل الذمة . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦٩٣ فقه شافعى لوحة ٩٦ .

(١٨) تاريخه جـ١٤ ص ٢٠ .

(١٩) المصدر نفسه جـ٤ ص ٢٢٠ .

- 2 -

يصعب علينا أن نورد نصاً محدداً لعهد عمر ، فقد وردت نصوص عديدة منه فى كتب الفقه والتاريخ والأدب ، يصعب علينا تقصيها . ويرد بعد نصوص عهد عمر كما وردت فى تسعة عشر كتاباً ، رتبناها حسب وفاة المؤلف .

ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) المحلى فى الفقه جـ٧ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

البيهقى (ت ٤٥٨هـ) السنن الكبرى جـ٩ ص ٢٠٢ .

الطرطوشى (ت ٥٢٥هـ) سراج الملوك ص ١٣٥ - ١٣٦ .

ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) تاريخ دمشق مجلدة ١ ص ٥٦٣ - ٥٦٩ (أربع روايات للعهد) .

الشيرزى(ت حوالى٥٨٩هـ) نهاية الرتبة ص١٠٦-١٠٧،ص١٢٠- ١٢٢.

ابن قدامة الحنبلى (ت ٦٣٠هـ) المغنى جـ١٠ ص ٦٠٦ - ٦٠٧ .

ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٥٨ - ٥٩ .

ابن الإخوة (ت ٧٢٩هـ) معالم القربة ص ٩٤ - ٩٥ .

النويرى (ت ٧٣٣هـ) نهاية الأرب جـ٣١ ص ٤٢٠ - ٤٢٤ .

ابن القيم (ت ٧٥١هـ) أحكام أهل الذمة ق٢ ص ٦٥٧ - ٦٦٣ (ثلاث روايات للعهد) .

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٣٠١ .

ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) تاريخه جـ٥ ص ٤١٦ - ٤١٧ .

ابن جماعة (ت ٨١٩هـ) تحرير الأحكام لوحة ١٥٩ - ١٦١ .

القلقشندى (ت ٨٢١هـ) صبح الأعشى جـ١٣ ص ٣٥٧ - ٣٥٩ .

ابن بسام المحتسب (ت قبل ٨٤٤هـ) نهاية الرتبة ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

الأبشيهى (ت ٨٥٠هـ) المستطرف جـ١ ص ١٥١ - ١٥٢ .

ابن زَبْر (ت بعد ٨٥٩هـ) شروط النصارى لوحة ٢ - ٨ (أربع روايات للعهد)(٢٠) .

السيوطى المنهاجى (ت ٨٨٠هـ) إتحاف الأخصا جـ١ ص ٢٣٣ - ٢٣٥ .

مجير الدين الحنبلى (ت ٩٢٧هـ) الأنس الجليل ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

ويذهب أرنولد(٢١) إلى أن ابن حزم هو أول من ذكر هذا العهد ، ولا نوافقه فى مذهبه . الصحيح أنه ربما كان المحلى فى الفقه لابن حزم هو أقدم الكتب التى وردت إلينا وورد بها عهد عمر ، لكنه يتبين لنا أن هناك كتباً أخرى أقدم من المحلى لكتاب آخرين أقدم من ابن حزم وردت بها صور أخرى للعهد .

من هذه الكتب - كما يأتى بعد - " أحكام أهل الملل للخلال (ت ٣١١هـ)" و"شروط عمر" أو "شروط أهل الذمة" لأبى الشيخ (ت ٣٦٩هـ) و"شرح كتاب عمر بن الخطاب" لأبى القاسم الطبرى المعروف باللالكائى (ت ٤١٨هـ) .

ونأتى هنا بصورة متقدمة لعهد عمر وصورة أخرى متأخرة . الصورة الأولى ينقلها ابن القيم فى كتابه (أحكام أهل الذمة)(٢٢) عن الخلال فى كتابه (أحكام أهل الملل) بحيث جاز أن نعتبرها أصلاً(٢٣) .

---

(٢٠) توجد صورة خامسة مضطربة ذات إسناد غريب ، ربما اضيفت إلى الكتاب فيما بعد لوحة ٩ - ١١ نصرف النظر عنها .

(٢١) الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ص ٧٧ .

(٢٢) ق ٢ ص ٦٦١ - ٦٦٢ .

(٢٣) ووجه الشبه كبير بين نص العهد هنا ونصه فى المحلى لابن حزم .

"عن عبد الرحمن بن غنم(٢٤) : كتبت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى الشام ، وشرط عليهم فيه ألا يحدثوا فى مدينتهم ، ولا فيما حولها ، ديراً ولا كنيسة ولا قلاية(٢٥) ولا صومعة راهب ، ولا يجددوا ما خرب ، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم ، ولا يؤوا جاسوساً ، ولا يكتموا غشاً للمسلمين ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا يظهروا شركاً ، ولا يمنعوا ذوى قراباتهم من الإسلام أن أرادوه ، وأن يوقروا المسلمين ، وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذ أرادوا الجلوس ولا يتشبهوا بالمسلمين فى شىء من لباسهم ولا يتكنوا بكناهم ، ولا يركبوا سرجاً ، ولا يتقلدوا سيفاً ، ولا يبيعوا الخمور ، وأن يجزوا مقادم رؤسهم ، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا ، وأن يشدوا الزنانير(٢٦) على أوساطهم ، ولا يظهروا صليباً ، ولا شيئاً من كتبهم فى شىء من طرق المسلمين ، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفياً ، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة فى كنائسهم فى شىء من حضرة المسلمين ، ولا يخرجوا شعانين(٢٧) ، ولا يرفعوا أصواتهم مع موتاهم ، ولا يظهروا النيران معهم ، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين ، فإن خالفوا شيئاً مما شرطوه ، فلا ذمة لهم ، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق" .

---

(٢٤) ويأتى الحديث عنه بعد .

(٢٥) أو قلية وتعنى صومعة فى دير .

(٢٦) جمع زنار وهو المنطقة أو الحزام .

(٢٧) أى لا يخرجوا سعف النخيل فى عيد الشعانين (أى التسبيح) وهو عيد الزيتونة ، ويوافق يوم دخول المسيح عليه السلام القدس ، والناس يسبحون بين يديه ، النويرى : المصدر نفسه جـ١ ص ١٩١ ، المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٢٦٤ .

الصورة المتأخرة للعهد - ويتضح فيها أثر الإدراج عليه - يوردها القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى(٢٨) نقلاً عن كتاب (الزبد المجموعة فى الحكايات والأشعار والأخبار المسموعة) لجمال الدين محمد بن يحيى بن على بن عبد الله القرشى (ت ٦٨٦هـ) "عن عبد الرحمن بن غنم قال : كتبت لعمر بن الخطاب ، حين صالح نصارى الشام : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها قلية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ديراً ولا كنيسة ، ولا نخفى ما كان منها فى خطط المسلمين ، ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ، ولا نؤوى فى منازلنا ولا كنائسنا جاسوساً ، ولا نكتم غشاً للمسلمين ، ولا نعلّم أولادنا القرآن ولا نظهر شركاً ، ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه ، وأن نوقر المسلمين ، ونقوم لهم فى مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم فى شىء من لباسهم ، فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمور ، وأن نجز مقادم رؤسنا ، وأن نلزم ديننا(٢٩) حيث ما كنا ، وأن نشد زنانيرنا على أوساطنا ، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا ولا كتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب بنواقيسنا فى كنائسنا إلا ضرباً

---

(٢٨) جـ١٣ ص ٣٥٧ - ٣٥٩ .

(٢٩) يترجح زيناً وهو ما يقتضيه السياق وكما هى فى نص ابن القيم .

خفيفاً ، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا ، ولا فى شىء من حضرة المسلمين، ولا نخرج سعانين ولا باعوثا(٣٠)،ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم فى شىء من طرق المسلمين ، ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما يجرى عليه سهام المسلمين ، ولا نطلع عليهم فى منازلهم".

قال عبد الرحمن بن غنم : "فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب أحداً من المسلمين . شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا عن شىء مما شرطناه لكم ، وضمناه على أنفسنا ، فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ، ما يحل لأهل المعاندة والشقاق" .

- 3 -

حظى عهد عمر باهتمام بعض المؤرخين المحدثين - عرباً وغير عرب - خصوصاً بعد أن ترجمه المستشرق بيلان M. Belin(٣١) ونشره فى المجلة الأسيوية فى فترة باكرة ، تعود إلى سنة ١٨٥٢م .

تراوحت مواقف هؤلاء المؤرخين بين القبول بنسبة هذا العهد إلى عمر ، أو إنكار هذه النسبة ، أو درجات بين القبول والإنكار .

بين من قبلوا هذا العهد المؤرخ الأسبانى سيمونيت F.J.Simonet وبخاصة فى الفصل الثالث من كتابه عن (تاريخ مستعربى إسبانيا)(٣٢) ، وهو الفصل الخاص بالتشريع . ونلاحظ إشاراته العديدة إلى ابن النقاش (ت ٧٦٣هـ) وهو من الفقهاء المتأخرين الذين جعلوا كتبهم شرحاً للضوابط التى وردت فى عهد عمر .

---

(٣٠) الباعوث للنصارى كالإستسقاء للمسلمين وهو اسم سريانى . ابن منظور : لسان العرب جـ١ ص ٣٠٨ ، الفيروز أبادى : القاموس المحيط جـ١ ص ١٦١ .

(31) Belin : Fetoua Relatif a La Conditiones Zimmis .
Journal Asiatoque, Quatriéme Série Xix, 1852. pp126 - 140 .

(32) Historia de Ios Mozárabes de España. Capitulo III. pp. 69 - 103.
ونشر ترجمة كاملة للعهد فى الملحق الثانى فى كتابه ص ٨٠٢ - ٨٠٤ .

وقبل بهذا العهد أيضاً عدد من العرب يأتون به ، دون أن يعلقوا عليه(٣٣) ، أو يأتون به ، ويتعجبون من إنكار البعض له ، أو "الإعتذار لأهـل الكتـاب ، عمـا حصل مـن الخلفـاء الراشـدين ومـن تبعهـم مـن وضـع الشـروط علـى أهـل الذمـة وأخذهم بها ، وصدق الفاروق رضى الله عنه ، إذ قـال : لا تعزوهـم وقـد أذلهـم الله"(٣٤) .

فى المقابل لدينا فريق ينكر نسبة هـذا العهـد إلى عمـر ، وربمـا كـان مويـر Muir(٣٥) ، هو أول من نفى هذه النسبة ، بل أنه يتعجـب لهـا ، ويـرى أن العهـد تطور تاريخيا. ويذهب لويس B. Lewis(٣٦) المذهب نفسه ، ويشير إلى مـا جـرى من تطورات فى العلاقات بين المسلمين والذميين فى عصور متأخرة .

ويعد ترتون A.S. Tritton(٣٧) أهم من تناول هذا العهد فى كتاب اصـدره حوله ، وصدرت طبعته الأولى فى عام ١٩٣٠م .

ينوه ترتون إلى أن العهد ينسب تارة إلى عمر ، وتارة أخرى إلى قائده (يعنى عبد الرحمن بن غنم) ، كما ينوه إلى أنه لا يذكر فيه اسم المدينة ، ويتعجب من أن يشترط المغلوبون على الغالبين ، وهم يتعهدون بعدم تناول القـرآن ، ثـم يقتبسـون

---

(٣٣) عارف باشا العارف : تاريخ القدس ص ٤٧ - ٤٨ وجدير بـالذكر أنـه يقـول أن عمر "أعطاه لأهل إيلياء" (القدس) ، على حسنى الخربوطلى : المرجع نفسه ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣٤) غالب بن عبد الكافى القرشى : أوليات الفـاروق السياسـية ص ٢٥٠ ومـا بعدهـا والكتاب فى أصله أطروحة جامعية .

(35) The Caliphate. p. 149.

(36) Islam From the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople. Vol II pp. 217 - 219 The Jews of Islam . pp.24 - 25,
Perlmann, B. M.Anti Christian Propaganda in the Mamluk Empire. B.O.A.S. Vol. X. 1939 - 1942.

(٣٧) أهل الذمة فى الإسلام . ترجمة حسن حبشى ص ٤ - ٧ .

منه فى خطابهم ، كما أن العهد لا يشبه سائر العهود التى أمضاها المسلمون فى بلاد الشام ، ولم يكن عمر ليشرع للمستقبل ، ولا نجد للعهد تطبيقاً فى حياته ، وفى نهاية كتابه يقرر ترتون(٣٨) أن هذا العهد ، وضع فى المدارس الفقهية ، بعد سنوات طويلة من موت عمر .

وفى دراسة حديثة - نشرت مؤخرا - تذهب الأستاذ سيدة كاشف(٣٩) المذهب نفسه ، وتركز على التطور التاريخى من صليبيات ، وتورط بعض الذميين فيها ، فضلاً عن تسلط بعض آخر على المسلمين ، وتشير إلى خلو المعاهدات مع المدن المفتوحة من شروط كهذه، كما تشير إلى رفق عمر رضى الله عنه بأهل الذمة.

ثمة فريق ثالث يذهب إلى أن عمر أسهم - جزئياً - فى صنع العهد فهو - كما يقرر الأستاذ ماجد(٤٠) - وضع شروطاً تنظم تصرفات الذمة فى المجتمع الإسلامى ، عرفت (بالشروط العمرية) زاد عليها الفقهاء بعد ذلك . أما فيليب حتى(٤١) فيزعم أن عمر أصدر هذا العهد فى مؤتمر الجابية فى سنة ١٧هـ ، وضمنه مبادئ فى طليعتها عزل المسلمين عن سائر الناس ، ثم تطور العهد فى عصور تالية ، وأضيفت إليه أشياء لم تكن موجودة فيه أصلاً ، وهو فى هذا الإبان، يشير إلى القيود التى فرضها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه (٩٩ - ١٠١هـ) على رعاياه الذميين (كذا)(٤٢) .

---

(٣٨) المرجع نفسه ص ٢٨٠ .

(٣٩) المرجع نفسه ص ٤٤ - ٤٨ .

(٤٠) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٨٢ - ٨٣ .

(٤١) تاريخ سورية جـ٢ ص ١٩ - ٢١ .

(٤٢) المرجع نفسه جـ٢ ص ١٠٠ - ١٠١ ، تاريخ العرب جـ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

ولعل أهم من يذهب هذا المذهب هو جرجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي)(٤٣)، فيرى أن عمر كتب هذا العهد لنصارى الشام أو استكتبهم إياه ، وكان يقصد به بلاد الشام تحديداً ، بحكم موقعها الحساس على التخوم مع الروم ، ولم يقصد أن يجعله عاماً لسائر النصارى في سائر أقطار الدولة. ثم يقرر أيضاً أنه اضيفت إليه فيما بعد إضافات لم تكن موجودة في الأصل ، وجرى تعميمه على سائر الذمة .

- 4 -

نزعم - بداءة - إن (عهد عمر) لم يصدر عن عمر ، ولا في عهد عمر ونبدأ بتحرى إسناد هذا العهد .

العهد - كما نوهنا - يرتبط بعلم الفقه ارتباطه بعلم التاريخ ، وفي علم الفقه ، فإن للسند أهمية كبيرة ، لكننا نلاحظ في الكتب التي عاودناها وتحوى سبعاً وعشرين رواية للعهد ، أن بعض هذه الروايات تأتي بدون إسناد ، باعتبار أن شهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها كما يقرر ابن القيم(٤٤) .

ومع ذلك نستطيع أن نؤلف من الصور المسندة(٤٥) أربع سلاسل من الإسناد(٤٦) ، تنتهي جميعها بعبد الرحمن بن غنم الأشعري الراوي الأصلي لهذا العهد وكاتبه في معظم الروايات .

---

(٤٣) جـ٤ ص ١٠١ - ١٠٨ .

(٤٤) المصدر نفسه ق ٢ ص ٦٦٣ .

(٤٥) نستثنى صورة واحدة فقط تشكل الرواية الرابعة لابن زبر ، ويرتفع فيها الإسناد إلى عياض بن غنم الفهري لوحة ٦ - ٧ .

(٤٦) في الكتب الآتية مرتبة ترتيباً زمنياً . المحلى لابن حزم جـ٧ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ ، السنن الكبير للبيهقي جـ٩ ص٢٠٢ ، تاريخ دمشق لابن عساكر : مجلدة ١ ص ٥٦٣-٥٦٩، المغني لابن قدامة جـ١٠ ص ٦٠٦ - ٦٠٧ ، نهاية الأرب للنويري ، جـ٣١ ص ٤٢٠ - ٤٢٤ ، أحكام أهل الذمة لابن القيم ق ٢ ص ٦٥٧ - ٦٦٣ ، صبح الأعشى للقلقشندي جـ١٣ ص ٣٥٧ - ٣٥٩ ، شروط النصارى لابن زبر لوحة ٢ - ٧ .

الرواية الأولى - وهى الأشهر - يرتفع فيها الإسناد(٤٧) إلى يحيى بن عقبة ابن أبى العيزار (ت أواخر القرن الثانى للهجرة) عن سفيان الثورى (ت ١٦١ أو ١٦٢هـ) والوليد بن نوح (أو روح) والسرى بن مصرف (عاش فى القرن الثانى) عن طلحة بن مصرف (ت ١١٢هـ) عن مسروق (ت ٦٣هـ) عن عبد الرحمن بن غنم (ت ٧٨هـ) .

الرواية الثانية : عن عبد الرحمن بن حميد بن أبى غنية (ت أواخر القرن الثانى) عن سفيان الثورى والوليد بن نوح (أو روح) والسرى بن مصرف عن طلحة بن مصرف عن مسروق عن عبد الرحمن بن غنم .

الرواية الثالثة : أبو المغيرة عبد القدوس بن حجاج (ت ٢١٢هـ)(٤٨) عن إسماعيل بن عياش (ت ١٨١ أو ١٨٢هـ) عن غير واحد من أهل العلم عن عبد الرحمن بن غنم .

الرواية الرابعة : إسحق بن راهوية الحنظلى (ت ٢٣٨هـ) عن بشر بن الوليد (ت ٢٣٨هـ) أو بقية بن الوليد (ت ١٩٦ أو ١٩٧هـ)(٤٩) عن عبد الحميد ابن بهرام (ت قبل ١٧٠هـ) عن شهر بن حوشب (ت ٩٨ أو ١١٠ أو ١١٢هـ) عن عبد الرحمن بن غنم .

---

(٤٧) نكتفى هنا بذكر رجال السند الذين ينتمون إلى عصر التابعين وتابعى التابعين أى حتى أوائل القرن الثالث الهجرى .

(٤٨) ويضيف ابن القيم إليه عمر أبا اليمان ص ٥٦ ، ولا نجد فى كتب الطبقات شخصاً بهذا الاسم ، فى حين أن ابن زبر فى شروط النصارى يكتفى بذكر اسم أبى المغيرة . لوحة ٧ .

(٤٩) كما ورد شروط النصارى لوحة ٢ .

إذا نحن راجعنا أسماء رجال السند ، نجد أن بعضهم لا يعدون من الثقات أو أنهم من المجاهيل ، ونستعين على ذلك بما ورد عنهم فى كتب الرجال .

ففى الرواية الأولى :

يحيى بن عقبة بن أبى العيزار ، ليس له ذكر فى طبقات ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) ولا فى مشاهير ابن حبّان (ت ٣٥٤هـ)(٥٠) ويقول عنه البخارى (ت ٢٥٦هـ) ، منكر الحديث ، ويقول النسائى (ت ٣٠٣هـ) وغيره ليس بثقة ، ويقول يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) "كذاب خبيث عدو الله كان يسخر به"(٥١).

أما الوليد بن نوح (أو روح) فلا نجد عنه خبراً فى كتب الرجال ، فى حين ورد ذكر السرى بن مصرف فى مصدر واحد هو لسان الميزان لابن حجر (ت ٨٥٢هـ)(٥٢) قال : "ابن أبى حاتم عن أبيه(٥٣) ، لم يكن بصاحب حديث وقال ابن القطان (ت ١٩٨هـ) لا يعرف" .

الرواية الثانية :

إسنادها متضمن فى إسناد الرواية الأولى فيما عدا عبد الملك بن حميد بن أبى غنية وهو ثقة(٥٤) .

---

(٥٠) يقول ابن حبان فى مقدمته (أردت أن أملى فى مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار دون الضعفاء والمتروكين واضداد العدول من المجروحين) . مشاهير علماء الأمصار. تصحيح فلايشهمر ص ١ .

(٥١) الذهبى : ميزان الإعتدال . تحقيق على محمد البجاوى جـ٤ ص ٣٩٧ ، ابن حجر: لسان الميزان جـ٦ص٢٧٠،وانظر أيضاً الخطيب البغدادى.تاريخ بغداد جـ١٤ص ١١٢-١١٣.

(٥٢) المصدر نفسه جـ٣ ص ١٣ .

(٥٣) وأبو حاتم هو ابن حبان صاحب المشاهير .

(٥٤) ابن حجر:تهذيب التهذيب جـ٦ ص٣٩٢-٣٩٣،تقريب التهذيب جـ١ص ٥١٨.

الرواية الثالثة :

إسماعيل بن عياش ويضعفه ابن حزم(٥٥) كما يضعفه النسائى ، أما البخارى وابن حنبل (ت ٢٤١هـ) ويحيى بن معين وعلى بن المدينى (ت ٢٣٤هـ)، فيوثقونه فى روايته عن أهل بلده (الشام) ويضعفونه فى غيرها(٥٦) . ويعلق الذهبى(٥٧) (ت ٧٤٨هـ) بقوله : "حديث إسماعيل عن الحجازيين والعراقيين لا يحتج به. وحديثه عن الشاميين صالح من قبيل الحسن ، ويحتج به إن لم يعارضه أقوى منه" .

الرواية الرابعة :

فيما عدا إسحق بن راهوية الحنظلى(٥٨) فإن سائر رجالها مختلف فى أمرهم، فبشر بن الوليد . وقد مات عن سن عالية (٩٧سنة) - وأن وثقة الدارقطنى (ت ٣٨٥هـ) وأثنى عليه أحمد بن حنبل ، فلم يوثقه أبو داود (ت ٢٧٥هـ) ويصفه صالح بن محمد جزرة (ت ٢٩٤هـ) بأنه "صدوق ، ولكنه لا يعقل ما يحدث به كان قد خرف"(٥٩) .

---

(٥٥) المحلى جـ٤ ص ١٥٤ ، جـ٧ ص ٣٧٧ ، ٣٩٦ ، جـ٨ ص ٢٥ ، جـ٩ ص ٥٨.

(٥٦) الخطيب البغدادى : المصدر نفسه جـ٦ ص ٢٢١ - ٢٢٨ ، ميزان الاعتدال جـ١ ص ٢٤٠ - ٢٤٤ .

(٥٧) سير أعلام النبلاء جـ٨ ص ٣١٢ .

(٥٨) يوثقه الدارمى والنسائى وابن حنبل . الخطيب البغدادى : المصدر نفسه جـ٦ ص ٣٤٥ - ٣٥٥ ، الذهبى : ميزان الاعتدال جـ١ ص ١٨٢ - ١٨٣ ، ويجعله أبو نعيم قريناً للشافعى وابن حنبل. حلية الأولياء جـ٩ ص ٢٣٤ .

(٥٩) الذهبى : ميزان الإعتدال جـ١ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ، سير أعلام النبلاء جـ١٠ ص ٦٧٥ ، وانظر أيضاً ابن حجر : لسان الميزان جـ٢ ص ٣٥ .

أما بقية بن الوليد ، فلا يحتج به أبو حاتم ، ويوثقه ابن عدى (ت ٣٢٢هـ) فى أهل الشام ، ويضعفه على بن المدينى فى أهل الحجاز والعراق[٦٠] .

أما عبد الحميد بن بهرام ، فيوثقه يحيى بن معين وأبو داود ، ولا يحتج به أبو حاتم ، ويعيب عليه على بن المدينى أنه يروى عن شهر بن حوشب[٦١] .

وآخر هذه السلسلة هو شهر بن حوشب ، فيوثقه ابن حنبل والبخارى ويحيى بن معين ، ولا يحتج به أبو حاتم ، ويروى النسائى وابن عدى أنه ليس بالقوى[٦٢] .

يتضح لدينا أن المسانيد الأربعة تشوبها شوائب ، ونعلم أن الإسناد له مكانة خاصة عند الفقهاء ووثاقته من وثاقة المتن .

- 5 -

يرتفع الإسناد إلى عبد الرحمن بن غنم الأشعرى ، فهو راوى العهد وكاتبه فى معظم الروايات[٦٣] ، ولا نعلم الكثير عن حياته....ما نعلمه بوضوح أن غنم ابن سعد قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أبى موسى الأشعرى

---

(٦٠) الخطيب البغدادى : المصدر نفسه جـ٧ ص ١٢٣ - ١٢٥ ، الذهبى : ميزان الإعتدال جـ١ ص ٣٣١ - ٣٣٩ .

(٦١) ابن حبان : المشاهير ص ١٧٥ ، الذهبى : سير النبلاء جـ٧ ص ٣٣٤ - ٣٣٥ ، ميزان الإعتدال جـ٢ ص ٣٨ - ٣٩ .

(٦٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ٣٧٢ - ٣٧٤ ، ميزان الإعتدال جـ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٥ .

(٦٣) ينفرد ابن القيم فى إحدى رواياته الثلاث ق٢ ص ٦٥٧ - ٦٥٩ وابن قدامة المغنى جـ١٠ ص ٦٠٦ باسناد الكتاب إلى الذميين أنفسهم .

رضى الله عنه فى الأشعريين ، وصحبه إلى أن قتل فى بعض المغازى بعد وفاة الرسول(٦٤) .

أسلم عبد الرحمن بن غنم بإسلام أبيه ، ولا نعلم عن نحو مؤكد أن له صحبة ، وهو عند غالب من أرخوا له(٦٥) مختلف فى صحبته ، أو أنه لم يصحب النبى صلى الله عليه وسلم ...وعلى هذا يعده البعض من التابعين أو أنه رأس التابعين(٦٦) ، وهم جميعاً يوثقونه . وقد لازم معاذ بن جبل رضى الله عنه حين أرسله النبى صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فى سنة ١٠هـ ، ونعلم أن معاذاً فارق اليمن فى العام التالى بعد أن إنتهى أمر الردة(٦٧) .

ليست لدينا معلومات واضحة عن عبد الرحمن بن غنم ، بعد مغادرة معاذ اليمن فى سنة ١١ ، على أن يترجح لدينا ، أنه صحب معاذاً ، عندما غادر اليمن إلى المدينة ، ثم صحبه عندما غادر المدينة - مجاهداً - إلى بلاد الشام ، حيث مات فى طاعون عمواس سنة ١٨هـ(٦٨) .

يعيننا على هذا الفهم أن بعض المصادر المتقدمة(٦٩) تصف عبد الرحمن ابن غنم ، بأنه (صاحب معاذ بن جبل وختنه) كما يقرر ابن عبد البر

---

(٦٤) طبقات ابن سعد جـ٧ ص ٤٤١ .

(٦٥) مثل مشاهير ابن حبان ص ١١٢ ، ابن الأثير : أسد الغابة جـ٣ ص ٤٨٧ .

(٦٦) الذهبى: تاريخ الإسلام جـ٣ ص١٨٩، ابن حجر الإصابة جـ٣ ص ٩٧ - ٩٨.

(٦٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم جـ٣ ص ٣٤٢ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٢ ص ٣٨٣ .

(٦٨) طبقات ابن سعد جـ٧ ص ٣٨٧ - ٣٨٩ ، ابن حجر : الإصابة جـ٣ ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٦٩) ابن مزاحم المنقرى : وقعة صفين . تحقيق عبد السلام هارون ص ٤٥ .

(ت ٤٦٣هـ)[٧٠] ، وابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)[٧١] أنه لازم معاذا منذ بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، إلى أن مات فى خلافة عمر .

لدينا شواهد على مقام عبد الرحمن بن غنم فى بلاد الشام ، واتخاذها مهجراً له ، فبعض أخبار ابن عساكر (ت ٥٧١هـ)[٧٢] عن معركة اليرموك فى سنة ١٥ / ٦٣٦ يستقيها من رواية تصعد إلى عبد الرحمن بن غنم ، كما أن البلاذرى[٧٣] (ت ٥٢٧٩) يأتى برواية تؤيد إشتراك عبد الرحمن بن غنم فى فتح قنسرين ، بل أن سحنون بن سعيد[٧٤] (ت ٢٤٠هـ) يروى عنه أن عمر بن الخطاب أرسل كتاباً إلى المسلمين بالشام "ونحن محاصرو قيسارية" وقيسارية آخر ما فتح من بلاد الشام فى سنة ١٩ / ٦٤٠ .

إلى جانب ذلك فقد وردت أخبار فى مصادرنا عن أن عمر أرسل عبد الرحمن بن غنم إلى الشام ليفقه أهلها ، وبذا يصبح عبد الرحمن هذا فى الطبقة الأولى من "الأنصار أهل الشام"[٧٥] .

استقر عبد الرحمن بن غنم فى بلاد الشام - وفى فلسطين على نحو محدد - وعندما وقعت الفتنة بالمدينة المنورة ، وحوصر عثمان رضى الله عنه ، وكتب إلى أهل الأمصار يستمدهم ، كان عبد الرحمن بن غنم من المحضضين على

---

(٧٠) الاستيعاب جـ٢ ص ٤٢٤ .

(٧١) أسد الغابة جـ٣ ص ٤١ - ٤٢ .

(٧٢) المصدر نفسه مجلدة ١ ص ٥٥ .

(٧٣) المصدر نفسه جـ١ ص ١٧٣ .

(٧٤) المدونة الكبرى : تصحيح محمد ساسى المغربى. جـ٣ ص ٤١ - ٤٢ .

(٧٥) ابن سعد : المصدر نفسه جـ٧ ص ٤٤١ ، طبقات خليفة بن خياط . تحقيق أكرم العمرى ص ٣٠٧ .

نصرته(٧٦)، واتخذ جانب معاوية فى نزاعه مع على رضى ا لله عنه(٧٧).....وبعد سنوات طويلة نجده يأتى إلى مصر صحبة مروان بن الحكم فى سنة (٦٥هـ)(٧٨) ، وذلك إبان الفتنة الثانية – فتنة عبد ا لله بن الزبير – وربما أقام فترة فى مصر قبل عوده إلى بلاد الشام لأن ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)(٧٩) يجعله أحد رواة الحديث من أهل مصر .

إبان مقامه فى بلاد الشام ، فإن عبد الرحمن بن غنم ، فقه عامة التابعين ، وروى عنه عدد منهم إلى أن ما ت فى سنة (٧٨هـ) .

نتساءل...بعد....هل كتب عبد الرحمن بن غنم هذا العهد المنسوب إلى عمر بن الخطاب أو رواه؟؟

يترجح لدينا أنه لم يكتب هذا العهد و لم يروه ، لسبب بسيط ، هو أنه استقر على نحو دائم فى بلاد الشام ، حيث قضى معظم سنوات عمره المديد .

الأكثر من ذلك أن المصادر(٨٠) ، حين تتحدث عن كتاب عمر رضى ا لله عنه لا تذكر بينهم عبد الرحمن بن غنم ، وكان جديراً بها أن تذكره ، إذا كان هو الذى كتب هذا العهد ، لما له من أهمية .

---

(٧٦) الطبرى : المصدر نفسه جـ٤ ص ٣٥٢ .

(٧٧) ينفرد المنقرى : المصدر نفسه ص ٤٥ وابن عبد البر : المصدر نفسه جـ٢ ص ٤٢٤ بأنه ناصر علياً .

(٧٨) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٣ ص ٤٨٧ .

(٧٩) فتوح مصر وأخبارها ص ٣١٩ .

(٨٠) يذكر خليفة بن خياط وهو مصدر متقدم (ت ٢٤٠هـ) فى تاريخه تحقيق سهيل زكار كاتبين لعمرهما زيد بن ثابت ومعيقيب جـ١ ص ١٥٨ أما الجهشيارى (ت ٣٣١هـ) فيذكر زيد بن ثابت وعبد ا لله بن الأرقم. الوزراء والكتاب ص ١٦ .

وإذا كان ابن غنم هو الذى روى هـذا العهـد أو كتبـه أو صـاغ شـروطه ، فلابد وأن يكون من قواد المسلمين الكبار فى فتوح الشام والجزيرة ، ولم يكن هـو أحدهم .

إذا كنا قد استبعدنا علاقة ما بين عبد الرحمن بن غنم وهذا العهـد ، فلمـاذا إذن نسب إليه؟

نرجح أنه ربما يكون الأمر قد اختلط على أجيال من المؤرخين والفقهاء بـين عبد الرحمن بـن غنـم الأشعرى (ت ٧٨هـ) وبـين عيـاض بـن غنـم الفهـرى (ت ٢٠هـ)(٨١) .

وعياض بن غنم رضى الله عنـه صحـابى جليـل شـارك فـى فتـوح الشـام ، وولاه أبو عبيدة (ت ١٨هـ) فتوح الجزيرة ، وأقر عمـر ولايتـه ، ومـات فـى سنة (٢٠هـ)(٨٢) .

لدينا كتاب عياض إلى أهل الذمة من بلاد الجزيرة وهو كالآتى :

---

(٨١) يذكر ابن كثير فى أحداث سنة ١٦ - نقلاً عن الواقدى - أن عمـر بـن الخطـاب استخلف على الجزيرة "عياض بن غنم الأشعرى" جـ٧ ص ٧٥ ، ثـم يذكـر فـى وفيـات سـنة ٢٠هـ وفاة "عياض بن غنم أبو سعد الفهرى من المهاجرين الأولين شهد بدراً وما بعدها وكـان سمحاً جواداً شجاعاً وهو الذى افتتح الجزيرة" جـ٧ ص ١٠٥ ، ثم يذكر فى وفيـات سـنة ٧٧ (الصحيح٧٨) "وفاة عياض بن غنم الأشعرى شهد اليرموك وحدث عـن جماعـة مـن الصحابـة وغيرهم وتوفى بالبصرة رحمه الله" جـ٩ ص ٢٣ . وهناك خلط مشابه نجده فـى الإصابـة لأبـن حجر جـ٣ ص ٥٠ وخلاصة تذهيب الكمال للخزرجى ص ٢٥٦ .

(٨٢) البلاذرى : المصـدر نفسـه جــ١ ص ١٧٤ ، ١٧٦ ، ٢٠٤ - ٢٠٧ وانظـر أيضـاً اليعقوبى : تاريخه جـ٢ ص ١٠٥ ، الطبرى : المصدر نفسه جـ٤ ص ٥٣ - ٥٦ .

"بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، لا تخرب ، ولا تسكن ، إذا أعطوا الجزية التى عليهم ، ولم يحدثوا مغيلة ، وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ، ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثا ولا صليباً . شهد الله وكفى بالله شهيدا"(٨٣) .

نلاحظ فى الجزء الأخير من هذا العهد - وهو الخاص بعدم إظهار شعائرهم - وجه شبه (بعهد عمر) ولا نجده فى معظم العهود التى يأتى الحديث عنها بعد ويشير خليفة بن خياط(٨٤) . إلى أن أهل الجزيرة كانوا على أيامه ما يزالون يحتفظون بهذا الكتاب.

كذلك نلاحظ أن (عهد عمر) ترد منه صورة وحيدة موجهة من ذمة حمص إلى عياض بن غنم (الأشعرى)(٨٥).

- 6 -

ننتقل الآن إلى متن إلى العهد .. فنجده حافلا بالتناقضات..

أول هذه التناقضات فى تحديد شخص الكاتب، فهو ابن غنم فى معظم صور العهد، وهو عمر(٨٦)، أو أهل الجزيرة (٨٧)، أو نصارى مدينة كذا وكذا(٨٨) فى صور أخرى.

---

(٨٣) البلاذرى : المصدر نفسه جـ١ ص ٢٠٦ .

(٨٤) تاريخه جـ١ ص ١٣١ ويحدد ابن عبد البر المكان بالجزيرة والرقة : المصدر نفسه جـ٣ ص ١٢٨ .

(٨٥) ابن زبر : لوحة ٦ - ٨ .

(٨٦) ابن عساكر:المصدر نفسه مجلدة١ص٥٦٣، ابن زبر : المصدر نفسه لوحة ٢-٣.

(٨٧) ابن قدامة: المصدر نفسه جـ١٠ ص٦٠٦، ابن القيم:المصدر نفسه ق٢ص ٥٦٧.

(٨٨) ابن الإخوة : معالم القربة ص ٩٤ .

كما أن هناك تناقضاً آخر فى لغة الخطاب ، فالعهد فى معظم صوره[٨٩] صادر من المغلوب، وليس صادراً من الغالب، والعادة أن الغالب هو الذى ينسب إليه الخطاب ، وهناك أيضاً تناقض فى شخص المغلوب، فهو نصارى الشام[٩٠]. (أو أرض الشام)[٩١]،أو أهل الجزيرة[٩٢]،أو نصارى أهل الشام ومصر[٩٣]، أو نصارى مدينة كذا[٩٤]،(أو مدينة كذا وكذا[٩٥]أو بلد كذا وكذا[٩٦]).وتناقض فى تحديد المخاطَب فهو عمر فى معظم صور العهد وهو ابن غنم فى بعضها[٩٧].

ولا بد للعهد من شروط... هنا نصل إلى تناقض أكبر، ففى معظم صور العهد وبعضها مبكرة[٩٨]، نجد أن المغلوبين شرطوا على أنفسهم، وهو ما يتعارض

---

(٨٩) ينفرد ابن حزم المصدر نفسه : جـ٧ ص ٣٤٦ وابن القيم فى احدى صور العهد ق ٢ ص ٦٦١ فيجعلا الخطاب صادراً من عمر .

(٩٠) ابن حزم:المصدر نفسه والصفحة نفسها،البيهقى: السنن الكبرى جـ٩ ص ٢٠٢ .

(٩١) ابن عساكر : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، ابن زبر : المصدر نفسه لوحة٣ .

(٩٢) ابن قدامة : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، ابن القيم : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٩٣) النويرى : المصدر نفسه جـ٣١ ص ٤٢٢ ، ابن خلدون : المصدر نفسه جـ٥ص٤١٦ .

(٩٤) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٣٥ .

(٩٥) ابن عساكر : المصدر نفسه مجلدة ١ ص ٥٦٥ - ٥٦٦ ، ابن الإخوة : المصدر نفسه ص ٩٤ ، ابن القيم : المصدر نفسه ص ٦٦٢ ، ابن كثير : تفسيره جـ٢ ص ٣٠١ .

(٩٦) ابن عساكر : المصدر نفسه مجلدة ١ ص ٥٦٨ .

(٩٧) ابن قدامة: المصدر نفسه جـ١٠ص٦٠٦، ابن القيم:المصدر نفسه جـ٢ص٦٥٧ .

(٩٨) ينفرد ابن حزم المصدر نفسه جـ٧ ص ٣٤٦ ، وابن القيم فى احدى صوره ق ٢ ص٦٦١ فيجعلا عمر هو الذى يشرط عليهم .

مع منطق العهود - أية عهود - فالشرط يضعه فى العادة الغالب، ويلتزم به المغلوب عن كراهة أو رضى.

كذلك يوجد تناقض فى مضمون هذه الشروط ، فمن جملتها " ولا نبيع الخمور " فكيف يتلاءم ذلك مع ما ورد عن عمر نفسه، من أنه أقر بأخذ العشر على خمور أهل الذمة، ماداموا هم الذين يقومون ببيعها، أى أنه أقر لهم بيعها(٩٩).

هناك تناقض آخر، فقد ورد معظم صور العهد أن ابن غنم حين أتى به إلى عمر، أضاف إليه "ولا نضرب أ حدا من المسلمين " وهذا لا يتلاءم مع روح العصر فكيف يتعهد مغلوب بعدم ضرب غالب، ثم أن ضربه للمسلم - بنص العهد - ينقض العهد، ومعنى نقض العهد - بنص العهد أيضاً - أن يصير الذمى من "أهل المعاندة والشقاق" أى يسفك دمه، و لم يرد فى القرآن الكريم ولا فى الحديث الشريف - وهما المرجعان الأساسيان ما يجعل عقوبة الذمى الذى يضرب مسلماً سفك دمه ، ويبدو أن ابن القيم(١٠٠) فى تعليقه على مسألة الضرب هذه، قد أدرك هذا التناقض،فينتقل مباشرة،ليناقش زنا الذمى بمسلمة،وهو فعل عقوبته القتل.

إلى جانب ذلك فقد ورد فى متن العهد كلمتان نجدهما فى معظم صوره، هاتان الكلمتان هما زنانير (جمع زُنار)(١٠١) وقلاية (أو قلية)(١٠٢). وهما كلمتان اعجميتان عربتا فى مرحلة لاحقة بعد أن اختلط العرب بالأعاجم، ولا نشاهدهما فى النصوص المعاصرة، وبينها القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

---

(٩٩) ابن قدامة : المصدر نفسه جـ٥ ص ٤٤٣ ، جـ١٠ ص ٦٠١ .

(١٠٠) المصدر نفسه ق ٢ ص ٧٩٠ وما بعدها .

(١٠١) يضيف سيبوية "ليس فى كلام العرب نون ساكنة بعدها راء" الجواليقى : المعرب . تحقيق أحمد محمد شاكر ص ١٧٢ .

(١٠٢) "وهى تعريب كَلاَّذة وهى من بيوت عباداتهم" لسان العرب جـ٥ ص ٣٧٣٣.

الأهم أن زنــار علـى وزن فُعَّـال، والصيغـة القيمـة لجمعهـا يجـب أن تكـون زنارات، وهى جمع مؤنث سالم، فى حين أن جمعها ورد العهـد زنانـير وهـو جمـع تكسير .

أخيراً فإن العهد يرتبط فى معظم صوره ببلاد الشام، وربما ذهب البعـض إلى تبرير ذلك بحساسية موقع الشام علـى حـدود الدولـة مـع الـروم..لكـن هـذا ليـس صحيحا تماماً، لأن بلاد الجزيرة (الفراتية) كانت أكثر تعرضـاً لأخطـار الـروم مـن بلاد الشام(١٠٣) ، ولم يـرد ذكـر بـلاد الجزيـرة إلا فـى صورتـين فقـط مـن صـور العهد(١٠٤).

- 7 -

وإذا نحن عقدنا مقارنة بين (عهد عمر) وبين العهـود التـى تعـود إلى المرحلـة ذاتها – مرحلة النبوة والخلافة الراشدة – نجـده يفـارق هـذه العهـود مـن جوانـب شتى.. أولها ، أن الطابع العام لهذه العهود أنها قصيرة، فصلـح الحديبيـة لـدى ابـن هشام(١٠٥) (ت ٢١٣أو ٢١٨)، الطبرى (ت ٣١٠هـ)(١٠٦) لا يجاوز ستة سطور، وربما كان العهد الوحيد – بين عهود الفتوح – الذى يتسم بطول نسبى هو عهـد عمر رضى الله عنه لأهل ايلياء (بيت المقدس)(١٠٧).

وأى عهد لا بد وأن تكون به حقوق وواجبات، والعهـد (عهـد عمـر) فـى صورة كافة – كما سبق ونوهنا – يلزم طرفا واحداً بواجبـات، ولا يـلزم الطـرف

---

(١٠٣) ترتون : المرجع نفسه ص ٦ .

(١٠٤) ابن قدامة:المصدرنفسه جـ١٠ص ٦٠٦ ، ابن القيم المصدر نفسه ق٢ص٦٥٧.

(١٠٥) سيرة النبى (ص) تحقيق إبراهيم الإبيارى وآخرين جـ٣ ص ٣٣٢ .

(١٠٦) المصدر نفسه جـ٢ ص ٣٦٤ .

(١٠٧) المصدر نفسه جـ٣ ص ٦٠٩ .

الآخر بواجبات مقابلـة، حتـى لـو كـانت شـكلية. والمعـروف أنـه فـى العهـود أو العقود، عادلة كانت أم جائرة، يلتزم كل طرف بقدر من الواجبات.

فى مراجعتنا للعهود العائدة إلى عصر الفتوح ، نجد فيها تأكيدا على حقـوق المغلوبين، ففـى عهـد خـالد لأهـل دمشـق "أعطـاهم أمانـا علـى انفسـهم وأموالهـم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شئ من دورهم"(١٠٨).

وفى عهد خالد لأهل عانـات "أن لا يهـدم لـه بيعـة ولا كنيسـة، وعلـى أن يضربوا نواقيسهم فى أى ساعة شاءوا من ليل أو نهار ، إلا فى أوقات الصلـوات، وعلـى أن يخرجـوا الصلبـان فـى أيـام عيدهـم" (١٠٩) بـل أن عهـد عمـر لأهـل ايلياء(١١٠) - وهو عهد طويل نسـبياً - نجـده فـى معظمـه حقوقـاً للمغلوبـين ، وليـس فيـه مـن حقـوق عليهـم سـوى الجزيـة، وأن يخرجـوا الـروم واللصـوت (اللصوص) فقد.

١ - "أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها."

٢ - "أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقـض منهـا ولا مـن حيزهـا ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود".

---

(١٠٨) البلاذرى : المصدر نفسـه جـ١ ص ١٤٤ وانظـر أيضـاً سـعيد بـن البطريـق : التاريخ المجموع ص ١٥ .

(١٠٩) أبو يوسف : المصدر نفسه ص ١٥٨ .

(١١٠) الطبرى : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، وانظـر أيضـاً سـعيد بـن البطريـق : المصدر نفسه ص ١٧ .

٣ - "ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم".

ونشاهد فى هذا العهد وفى عهود أخرى(١١١) النص على أن للمغلوبين عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، كما ترد أسماء شهود(١١٢) أو ترد عبارة شهد الله(١١٣).. كما نشاهد بعض هذه العهود مؤرخة(١١٤). وهذا كله لا نشاهده فى (عهد عمر).

ومن الطريف أننا لا نجد فى (عهد عمر) خبرا عن جزية سوى فى صور أربع(١١٥) بين سبع وعشرين صورة ، فى حين أنه فى العهود التى عقدها المسلمون مع أهل البلاد المفتوحة، فإن الجزية تذكر على نحو أو آخر، بل يتحدد مقدارها فى بعض الأحيان(١١٦).

- 8 -

هذا العهد (عهد عمر) إذا نحن وافقنا - نظراً - على نسبته إلى عمر، فهو عهد خطير، أو هو دستور ينظم علاقة الدولة الإسلامية برعاياها من الذميين،

---

(١١١) مع اختلاف فى الصياغة مثل عهد خالد لأهل دمشق .

(١١٢) مثل عهد خالد لأهل بانقيا . الطبرى : المصدر نفسه جـ٣ ص ٣٤٤ .

(١١٣) مثل عهد أبى عبيدة لأهل بعلبك. البلاذرى : المصدر نفسه جـ١ ص ١٥٤ .

(١١٤) مثل عهد عمر لأهل إيلياء الآنف الذكر ، وإن ورد فى تاريخ الطبرى جـ٤ ص ٣٨ أن عمر أمر بالتأريخ حسب الهجرة فى ربيع الأول سنة ١٦هـ .

(١١٥) ابن عساكر : المصدر نفسه مجلدة ١ ص ٥٦٣ ، ابن جماعة : تحرير الأحكام لوحة ١٥٩ ، ابن بسام : نهاية الرتبة ص ٢٠٨ ، ابن زبر : المصدر نفسه لوحة ٢.

(١١٦) مثل عهد النبى صلى الله عليه وسلم ليحنة بن رؤبة . الواقدى المغازى . تحقيق مارسدن جونس جـ٣ ص ١٠٣١ وعهد خالد لأهل الحيرة . الطبرى : المصدر نفسه جـ٣ ص ٣٦٤ ، وعهد عمر وبن العاص لأهل مصر . المصدر نفسه جـ٤ ص ١٠٩ .

وأهميته تعدل أهمية عهـد عمـر المشـهور لأبـى موسـى الأشـعرى، وبعـد دسـتور القضاء فى الإسلام.

لكن هذا العهد لا نجده عند مـؤرخ كبـير كالطـبرى (ت٣١٠هـ) ولا عنـد مؤرخـين متقدمـين كـالواقدى (ت ٢٠٧هـ) والأزدى (ت ٢٣١هـ) والبـلاذرى (ت٢٧٩هـ) كما لا نجده فى سيرة عمر لابن الجوزى (ت ٥٩٧هــ) بـل لا نجـده كذلك فيما تناهى إلينا من كتب الفقهاء المسلمين المتقدمـين، وأقـدم كتـابين وردا إلينا . وورد بهما هذا العهد هما: المحلى لابـن حـزم (ت ٤٥٦هـ) والسـنن الكبـير للبهقى (ت٤٥٨هـ)(١١٧).

وليس صحيحا ما يذهب إليه لويس(١١٨) من أن (عهد عمر) ورد فى كتـب الغير المسلمين، مثلما ورد فى كتب المسلمين، فالمصادر النصرانيـة التـى عاودناهـا، وبعضها قريب من العصر الذى ينتمى إليه هذا (العهـد) نجدهـا خلـوا منـه، مـع أن بعض هذه المصادر(١١٩) يشير إلى قيود أو مظـالم(١٢٠)، اصـابت الذميـين مـن قبـل مسلمين أو حكام مسلمين.

---

(١١٧) بالنسبة للشيعة فإن المرجعية عندهم بعد القـرآن الكريـم والحديـث الشـريف – الذى يرويه رواة من أهل البيت – هى لأهل البيت ، وعليه لا نجد (عهد عمر) فى كتـاب مـن كتبهم ، الأهم أننا لا نجد عندهم عهوداً شبيهة بهذا العهد . راجع ما ورد فى "باب الجهاد" فى كتبهـم الأساسية مثـل "مجمـوع الإمـام زيـد (ت ١٢٢هــ) والكــافى للكلينــى (ت ٣٢٨ أو ٣٢٩هــ) ومن لا يحضره الفقيه" لابن بابويه القمى (ت ٣٨١هـ) "والاستبصار" للطوسـى (ت ٤٦٠هـ) "ودعائم الإسلام" و"الاقتصار" لأبى حنيفة النعمان المغربى (ت ٣٦٣هـ) .

(118) The Jews Of Islam . pp. 24 - 25 .

(١١٩) ومنها تاريخ النقيوسى (عـاش فـى القـرن الأول الهجـرى) وتـاريخ ديونسـيوس التلمحرى (عاش فى القرن الثانى الهجرى) .

(١٢٠) ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الأسكندرية جـ٣ ص٥١، ٦٨، ٧٥، ٧٦.

على العكس وصل الينا عهد منحول على عمر، أعطاه لنصارى المدائن، يؤكد فيه أن لا تؤخذ منهم جزية(١٢١)، ويعلق مارى بن سليمان (عاش فى القرن السابع الهجرى)(١٢٢) بأن "هذا الكتاب محتفظ به إلى هذه الغاية".

الأخطر من هذا كله أن (عهد عمر) وأن صار تكأة لبعض القيود (أو المظالم) - كما نشرح بعد - لا نجد تنويها إليه فى واقعة خطيرة جرت بالأندلس فى سنه ٥١٩/ ١١٢٥ نقض الذمة خلالها عقد الذمة، وناصروا اخوانهم فى الدين ضد اخوانهم فى الوطن ، وأفتى أبو الوليد بن رشد (الجد) ت ٥٢٠ بتغريبهم(١٢٣).

ولدى مراجعة كتب ابن رشد هذا وأهمها المقدمات - وقد شرح فيه المدونة لسحنون - والبيان والتحصيل - وشرح فيه العتبية لمحمد العتبى القرطبى (ت ٢٥٤هـ) - فإننا لا نجد هذا العهد وكذا الحال بالنسبة لحفيده الفيلسوف (ت ٥٩٥هـ) فى كتابه بداية المجتهد .

---

(١٢١) نشره محمد حميد الله : المرجع نفسه ص ١٩٥ - ١٩٧ وثيقة ١٠٢ .

(١٢٢) فطاركه كرسى المشرق ص ١٦٢ .

(١٢٣) فى سنة ٥١٩ / ١١٢٥ غزا ابن رذمير ، وهو الفونسو المحارب **El Batallador** ملك أرغونة ١١٠٤ - ١١٣٤م الأندلس ، واخترقها من أقصاها إلى أدناها ، ووصل إلى ساحل البحر الرومى فيما يلى غرناطة ، وأيده النصارى المعاهدون (المستعربون) بعد خمسة آلاف من خيرة مقاتلتهم وأخفق المرابطون فى التصدى له . وبعد انصراف أذفونش هذا اصدر الأمير على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ - ٥٣٧هـ) أمراً بتغريب المعاهدين إلى العدوة بناء على فتوى لابن رشد . انظر ابن عذارى : البيان المغرب جـ٤ ص ٦٩ - ٧٢ ، ابن الخطيب : الإحاطة جـ١ ص ١٠٨ - ١١٤ . وانظر أيضاً عبادة كحيلة . تاريخ النصارى فى الأندلس ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

وما دام عمر قد أصدر "الشروط العمرية" فلا بد أن نجد فى سيرته أو عصره أو هما معاً ما يشى بما ورد فى هذه الشروط أو بعضها .

وردت فى مصادرنا (الفقهيه أساساً) أخبار عن تعسف (أو شبهة تعسف) لعمر فى تعامله مع أهل الذمة .

يذكر أبو عبيد (ت ٢٤٤هـ)(١٢٤) .

"حدثنا عبد الله بن عمر عن نافع عن أسلم أن عمر أمر فى أهل الذمة أن تجز نواصيهم ، وأن يركبوا على الأُكُف(١٢٥) ، وأن يركبوا عرضاً ، وأن لا يركبوا كما يركب المسلمون ، وأن يوثقوا المناطق - قال أبو عبيد - يعنى الزنانير .

"حدثنا النضر بن إسماعيل عن عبد الرحمن بن إسحق عن خليفة بن قيس قال: قال عمر: يايرفأ(١٢٦)! أكتب إلى أهل الأمصار فى أهل الكتاب : أن تجز نواصيهم، وأن يربطوا الكستيجان(١٢٧) فى أوساطهم، ليعرف زيهم من زى أهل الإسلام"(١٢٨).

---

(١٢٤) الأموال ص٥٥،وانظر أيضاً الأموال لابن زنجويه (ت ٢٥١هـ) جـ١ ص١٨٥، كما يأتى ابن زنجويه برواية أخرى مشابهة ص ٨٦ يصعد بها إلى الهيثم بن عدى (ت ٢٠٧هـ) وهو كذاب عند يحيى بن معين وأبى داود والبخارى ، وصاحب أخبار ومدلس عند ابن حنبل، متروك عند النسائى وأبى حاتم، ولا يرضاه ابن المدينى فى شىء.راجع ميزان الإعتدال جـ٤ ص ٣٢٢-٣٢٥، سير أعلام النبلاء جـ١٠ ص ١٠٣-١٠٤. لسان الميزان جـ٦ ص ٢٠٩-٢١٠.

(١٢٥) جمع أكاف بضم الهمزة أو كسرها وهى البرذعة . لسان العرب جـ١ ص ١٠٠ ، القاموس المحيط جـ ٣ ص ١١٤ .

(١٢٦) غلام عمر .

(١٢٧) الكُسْتيج بالضم خيط غليظ يشده الذمى فوق ثيابه دون الزنار معرب كُسْتى . القاموس المحيط جـ١ ص ٢٠٣ .

(١٢٨) وانظر أيضاً . ابن القيم : أحكام أهل الذمة ق ٢ ص ٧٦٢ .

إذا نحن راجعنا إسناد الرواية الأولى نجده إسناداً عجيباً ، فكيف يحدث عبد الله بن عمر عن مولى له عن مولى لأبيه عن أبيه(١٢٩) .

وإذا نحن راجعنا إسناد الرواية الثانية ، نجده إسناداً ضعيفاً ، فيه النضر ابن إسماعيل البجلى أبو المغيرة (ت ١٨٢هـ) يضعفه يحيى بن معين ويقول ليس بشىء ويقول النسائى ليس بالقوى ، أما ابن حبان فيقول : "فحش خطؤه حتى استحق الترك"(١٣٠) وفيه عبد الرحمن بن إسحق الواسطى أبو شيبة ضعفه ابن سعد والنسائى وابن حنبل، كما يضعفه يحى بن معين مرة، ويقول أنه متروك مرة(١٣١).وفيه خليفة بن قيس يقول البخارى، لم يصح حديثه، ويقول ابو حاتم شيخ ليس بالمعروف، ويجعله العقيلى (ت ٣٢٢هـ) فى الضعفاء(١٣٢).

وغير خاف أن كلمة كستيجان كلمة أعجمية، لم تكن قد شاعت بين العرب بعد.

ومع أن مؤرخا كبيراً كالطبرى لا يذكر شيئاً عن هذه القيود ، فربما يكون عمر قد أمر أهل الذمة بأن لا يتشبهوا بالمسلمين وذلك لسبب بسيط ، هو أن تعبير مسلمين فى عصره ، كان يرادف تعبير جنود ، وكانت الدولة الإسلامية تخوض حرباً استغرقت سنوات حكم عمر

---

(١٢٩) الأموال لابن زنجويه جـ١ ص ١٨٥ حاشية ٦ .

(١٣٠) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ١٣ ص ٤٦٢ - ٤٦٥ ، الذهبى : ميزان الإعتدال جـ٤ ص ٢٥٥ ، ابن حجر : تقريب التهذيب جـ٢ ص ٣٠١ .

(١٣١) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٦ ص ٣٦١ ، الذهبى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٥٤٨ ، ابن حجر : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٧٢ .

(١٣٢) الذهبى : المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٦٥ ، ابن حجر : لسان الميزان جـ٢ ص ٤٠٨ .

جميعهاً "وما من دولة ترضى أن تبيح أزياء جنودها لمن يشاء" كما يقول العقــاد (ت ١٩٦٤م)(١٣٣) .

أما ما يتصل بضيافة المسلمين ثلاثة أيام ، فقد وردت أخبار بشأنها ، وأن جعلها البعض يوماً وليلة(١٣٤) ، وهي ليست - على أية حال - أمراً عسراً ، ويترجح أنها تعود إلى أيام النبي صلى الله عليه وسلم(١٣٥) .

هناك مسألة تكميلية ، وهي وإن لم ترد في (عهد عمر) ، إلا أنها وردت في بعض مصادرنا ، فيذكر البلاذري(١٣٦) في سياق حديثه عن بعث عمر حذيفة ابن اليمان (ت ٣٦هـ) وعثمان بن حنيف (ت في خلافة معاوية) لمسح السواد أنه أمرهما بختم أعناق الذمة لدى جباية الخــراج(١٣٧) . ومع أن ختم الأعناق عادة

---

(١٣٣) عبقرية عمر ص ١٨٤ - ١٨٥ . ويرى ترتون - في سياق نقده لعهد عمر - أن مسألة إلزام الذمة بلباس بعينه ، يخالف ما يلبسه المسلمون ، لم تكن له ثم ضرورة ، لأن كلا الطرفين كانت له ثيابه الخاصة به ، ولم تقتد الشعوب الخاضعة للعرب بالعرب في لباسهم إلا في فترة تالية . المرجع نفسه ص ١٢٧ - ١٢٨ . أما سيدة كاشف - في سياق نقلها كذلك - فترى أن المعقول هو أن يتشبه العرب بأهل البلاد المفتوحة وليس العكس ، وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك . المرجع نفسه ص ٤٧ .

(١٣٤) أبو عبيد: المصدر نفسه ص ١٤٥ ، البلاذري : المصدر نفسه جـ١ ص ١٤٨.

(١٣٥) الشافعي : الأم جـ٤ص١٠٢ - ١٠٣، ابن القيم : المصدر نفسه ق٢ص٧٨٣.

(١٣٦) المصدر نفسه جـ٢ ص ٣٣٤ .

(١٣٧) لا يرد في بعض المصادر التاريخية خبر عن ختم الأعناق لدى مسح حذيفة وابن حنيف للسواد . راجع اليعقوبي : تاريخه جـ٢ ص ١٥٢ ، الطبري : المصدر نفسه جـ٤ ص ١٣٩ ،ابن الجوزي : سيرة عمر ص ٨١ ، كما لا يرد الخبر أيضاً في كتب الرجال الآتية : مشاهير ابن حبان ص٢٦، ٤٣ ، الاستيعاب لابن عبد البر جـ١ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ، جـ٣ ص ٨٩ - ٩٠، أسد الغابة لابن الأثير جـ١ ص ٤٦٨ - ٤٧٠ ، جـ٣ ص ٥٧٧ سير أعلام النبلاء للذهبي جـ٢ ص ٣٢٠ ، ٣٦١ ، تقريب التهذيب لابن حجر جـ١ ص ١٥٦ ، جـ٢ص٧ - ٨ ، الإصابة لابن حجر جـ١ ص ٣١٧ - ٣١٨ .

قديمة لدينا شواهد عليها(١٣٨) ، إلا أنه يتضح من رواية أبى يوسف(١٣٩) أن هذه الخواتيم كان يتم كسرها بعد الفراغ من الجباية ، أى أنها كانت تعلق إلى رقبة الذمى ولا يتم طبعها.

أخيراً فإن هذه القيود التى نراها فى (عهد عمر) تتناقض مع ما نعرفه عن هذا الحاكم العظيم الذى كان العدل والرحمة أهم صفاته ، وضرب المثل به فى العدل ، كما ضرب المثل به فى الرحمة(١٤٠) . وكان أظهر الصحابة فى استعمال الرأى ، وروى عنه الشيء الكثير فى هذا الخصوص(١٤١) .

وقد استعمل عمر رأيه ليخفف عن رعاياه ، فأسقط حد السرقة فى عام الرمادة (المجاعة)(١٤٢)، واسقط الجزية عن نصارى تغلب ، وجعلهم يؤدون العشر مضاعفاً(١٤٣) ، ولم يقسم السواد ، وجعله وقفاً على المسلمين ، لما رآه من مصلحة لعامة المسلمين(١٤٤) .

---

(١٣٨) ترتون : المرجع نفسه ص ١٣٩ وانظر ايضاً : متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة أبى ريدة ص ٥٨١ حاشية ٤ .

(١٣٩) المصدر نفسه ص : ١٣٨ .

(١٤٠) العقاد : عبقرية عمر الفصل الثالث .

(١٤١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٣٦ .

(١٤٢) ابن القيم : أعلام الموقعين جـ٣ ص ٧ - ٩ .

(١٤٣) حتى لا يلحقوا بالروم ، إذا هى فرضت عليهم . يحيى بن آدم القرشى : الخراج ص ٢٤ - ٦٢ - ٦٤ ، أبو عبيد : المصدر نفسه ص ٤٨١ ، وانظر أيضاً البلاذرى : المصدر نفسه جـ١ ص ٢١٦ .

(١٤٤) أبو يوسف: المصدر نفسه ص ٣٨ ،يحيى بن آدم: المصدر نفسه ص٤٢ - ٤٤.

ولا نشاهد في حياة عمر تطبيقاً للقيود التي وردت في (عهد عمر) ، فإذا كان العهد صحيحاً، ما توانى عمر المعروف بشدته في تطبيقه ، وهو الذي كان حريصاً على مراقبة عماله وتتبع أخبارهم ، ويتلقاهم في موسم الحج ويحاسبهم . وكان قميناً به أن يحاسب عماله ، قبل أن يحاسب رعيته ، عما كان يصدر من عماله أو من رعيته(١٤٥) .

ولدينا روايات عديدة عن رفق عمر بأهل الذمة ، خصوصاً في استيدائهم الجزية(١٤٦) ، وكان يعطى المرضى وكبار السن منهم من بيت مال المسلمين ومن صدقات المسلمين(١٤٧)، كما أوصى الخليفة بعده خيراً بهم(١٤٨) ، وتذهب بعض الروايات إلى أن أهل الذمة هم الذين اطلقوا عليه اللقب الذي عرف به فيما بعد وهو الفاروق(١٤٩) .

ومع أن عصر عمر كان عصر فتوح ، أو أنه كان عصر جهاد في سبيل الله، إلا أنه كان في الوقت نفسه عصر تسامح مع الغير المسلمين وكان المسلمون يعتبرون الجزية التي يجمعونها من الذمة مقابلاً لحمايتهم ، لهذا فإنهم قبيل معركة

---

(١٤٥) أبو يوسف : المصدر نفسه ص ١٢٤ - ١٢٥ ، الطبري : المصدر نفسه جـ٤ ص ٢٠١ وما بعدها .

(١٤٦) أبو يوسف : المصدر نفسه ص ١٣٥ ، الأزدي : فتوح الشام ص ٢٦٤ .

(١٤٧) أبو يوسف: المصدر نفسه ص١٣٦، البلاذري: المصدر نفسه جـ١ ص ١٥٣.

(١٤٨) أبو يوسف : المصدر نفسه ص ١٥ ، ١٣٥ - ١٣٦ ، ابن سعد : المصدر نفسه جـ٣ ص ٣٣٩ ، وانظر أيضاً ابن الجوزي : سيرة عمر ص ١٨٩ ، ١٩٦ .

(١٤٩) ابن سعد : المصدر نفسه جـ٣ ص ٢٧ ، الطبري : المصدر نفسه جـ٤ ص ١٩٥ - ١٩٦ ، وانظر أيضاً : أبو نعيم : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٠ وابن الجوزي : المصدر نفسه ص ١٥ .

اليرموك ردوا إلى أهل حمص ما سبق أن أخذوه منهم ، مما جعل هؤلاء يقولون : "لولا يتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم"(١٥٠) .

يبقى سؤال ...

إذا لم يكن عمر قد أصدر (عهد عمر) فلماذا إذن نسب إليه هذا العهد؟ في تقديرنا أن السبب هو ارتباط عهد عمر بالفتوح ، وما ترتب عليها من وجود واضح لجماعة كبيرة من الغير المسلمين من ناحية ، وما اشتهر عنه من تنظيم للدولة الإسلامية من ناحية أخرى ، فضلاً عما عرف عنه من شدة - ولا نقول تشدداً - في سياسته وكانت عادة الفقهاء المسلمين أن يردوا أحكامهم إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة وإلى ما كان عليه السلف الصالح ومنهم عمر ، وكان الفقهاء يعولون عليه في (باب الجهاد) وهو الباب الذى يبين علاقة الغالبين بالمغلوبين ويجعلونه العمدة في هذا الباب"(١٥١) .

في معرض تعليقه على صحة الشروط العمرية وشهرتها ، يقول ابن القيم(١٥٢) : "إن الأئمة تلقوها بالقبول ، وذكروها في كتبهم واحتجوا بها ، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم ، وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها" .

---

(١٥٠) البلاذرى:المصدر نفسه حـ١ص١٦٢وانظر أيضاً:الخراج لأبي‌يوسف ص١٥٠.

(١٥١) أحمد أمين : المرجع نفسه ص ٢٣٦ .

(١٥٢) أحكام أهل الذمة ق ٢ص٦٦٤ وانظر أيضاً ص٧٨٧، ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ص ٦١ .

يذكر ابن القيم من هؤلاء على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأنه إلتزم بهذه الشروط فى علاقته بنصارى نجران بعد هجرتهم إلى العراق ، وناوله هؤلاء كتاب عهدهم فقال لهم على "إن عمر كان رشيد الأمر، ولن أغير شيئاً صنعه عمر".

الحقيقة أن ابن القيم - مع إجلالنا له - خلط بين أمرين : بين عهد عمر المزعوم وبين عهد النبى صلى الله عليه وسلم لأهل نجران ، وتجديد أبى بكر لهذا العهد ، ثم تجديد عمر له بعد هجرتهم إلى العراق(١٥٣) ، والذى قاله على رضى الله عنه ينصرف إلى تجديد عمر عهد النبى ثم أبى بكر لنصارى نجران ، ولا ينصرف إلى (عهد عمر) .

إذا كانت نسبة (عهد عمر) قد زالت عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فإن بعض المؤرخين يحاولون أن ينسبوا هذا العهد إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، ويستدلون على ذلك بما تردد عن عمر هذا من تمييز لأهل الذمة فى لباسهم وركوبهم، وعدم احداثهم كنائس جديدة، فضلاً عن صرفهم عن وظائف الدولة(١٥٤).

وإذا نحن راجعنا مصادرنا نجد أن معظم هذه الأخبار ترد ، على نحو أساسى فى كتب الفقهاء(١٥٥) ، وليس فى كتب المؤرخين ، بل أن البلاذرى وهو مؤرخ

---

(١٥٣) راجع فى شأن نصارى نجران . أبو يوسف : المصدر نفسه ص ٧٨ - ٨١ ، أبو عبيد : المصدر نفسه ص ١٨٢ ، ابن سعد : المصدر نفسه جـ١ ص ٣٥٧ - ٣٥٨ ، البلاذرى المصدر نفسه جـ١ ص ٧٨ - ٧٩، الطبرى : المصدر نفسه جـ٣ ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(١٥٤) ترتون: المرجع نفسه ص ١٣٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ،Lewis : The Jews of Islam. p.25 ،حتى تاريخ العرب جـ٢ ص٣٠١ - ٣٠٢، تاريخ سورية جـ٢ص١٠٠-١٠١.

(١٥٥) راجع : الخراج لأبى يوسف ص ١٣٧ - ١٣٨ ، الأموال لأبى عبيد ص٥٥ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٢٨ - ١٢٩ ، اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٥٩ أحكام أهل الذمة لابن القيم ق١ ص ٢١٢ - ٢١٤ ، ق ٢ ص ٧١٩ - ٧٢٠ ، ٧٤١ - ٧٤٣ ، ٧٥٧ - ٧٥٨ .

وله فى الفقه نسب ، لا يأتى بخبر عن هذه القيود ، كما لا يأتى خبر عنها فى تواريخ لكتاب نصارى منهم سعيد بن البطريق(ت ٣٢٨) ، أما ابن الراهب(١٥٦) فيصف عمر بن عبد العزيز بأنه "كان فى الزهد والعدل والعبادة إلى النهاية ، ويؤثر دينه على دنياه" .

يترجح لدينا أن عمر بن عبد العزيز ، وقد جعل جده العظيم قدوة له، فإنه كان شديداً فى الحق مثلما كان جده شديداً فى الحق ، وصارت تلك سياسته مع رعاياه مسلمين ونصارى ، وبدت هذه الشدة فى بعض جوانبها قيوداً جديدة فرضها عمر بن عبد العزيز على أهل الذمة(١٥٧) .

ولدينا فى مصادرنا أخبار عن رفق عمر هذا بأهل الذمة ، وانصافهم من مظالم وقعت بهم ، وحفظه لكنائسهم ودور عبادتهم ، بل ترد فيها أخبار أخرى عن بكاء عدد منهم عليه حين وصل إليهم خبر وفاته(١٥٨) .

- 10 -

من المسئول إذن عن عهد عمر؟؟

فى تقديرنا إن المسئولية نجدها عند الفقهاء...بتحديد أدق عند بعض الفقهاء، وهم فقهاء فضلاء مجتهدون ، أداهم اجتهادهم إلى أن يقرروا قواعد قد لا نرضى

---

(١٥٦) تاريخه ص ٥٧ .

(١٥٧) يذكر الكندى أنه فى عهد عمر بن عبد العزيز نزع القبط عد الكور واستعمل المسلمون عليها . الولاة والقضاة ص ٦٩ ونستطيع أن نفسر ذلك فى أنه نتيجة طبيعية بعد أن قطعت مصر مرحلة طويلة من انتشار الإسلام بها وتعريبها . انظر أيضاً ساويرس بن المقفع : المصدر نفسه جـ٣ ص ٧١ - ٧٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٣٨ .

(١٥٨) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٨٩ .

عنها ، أو قد لا يرضى البعض عنها، لكنها كانت تجد استجابة فى بعض العصور، ولا نقول كل العصور...هذه الاستجابة تتحدد بالمناخ العام الذى كان يسود فى بعض الأحيان فى بعض البلدان .

فى غضون القرن الثانى للهجرة كان علم الفقه قد بدأ يدخل عهد أئمته الكبار ، خصوصاً بعد أن نشطت حركة جمع الحديثالنبوى الشريف ، والتى يعود إلى عمر بن عبد العزيز نفسه الفضل فى التشجيع عليها . والمعلوم أن من مهام علم الفقه تقرير القواعد المنظمة لله جتمع الإسلامى بعناصره كافة ، ومن جملة هذه العناصر أهل الذمة .

ومع أن القرآن الكريم والسنة الصحيحة هما المصدران الأساسيان عند الفقهاء المسلمين كافة ، إلا أن هناك مصادر أخرى اعتمد عليها هؤلاء الفقهاء ، تفاوتت أهميتها بين فقيه وبين فقيه آخر ، كما تفاوتت أهميتها بين مذهب وبين مذهب آخر .

ولن نخوض فى تفاصيل فقهية - فهذا ليس عملنا - ولكننا يمكن أن نقرر - على نحو عام - أن الفقه الإسلامى فيه عنصر بشرى ، يرتبط بشخص الفقيه ، ومبلغ علمه واجتهاده ، ومدى فهمه للتنزيل العزيز ، وحديث النبى صلى ا لله عليه وسلم ، وما كان عليه السلف الصالح رضى ا لله عنهم ، كما يرتبط أيضاً بظروف العصر الذى عاش فيه ، وهذا كله أدى إلى أن يختلف الفقهاء أحياناً فيما كانوا يتوصلون إليه من نتائج .

قبل أن ينته القرن الثانى ظهرت محاولتان لفقيهين جليلين من تلامذة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان (ت ١٥٠هـ) هما أبو يوسف (ت ١٨٢هـ) فى كتابه

"الخراج"(١٥٩) ، ومحمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ) فى كتابه "السير الكبير"(١٦٠). ونجد عند هذين الفقيهين الكبيرين اقتراحات ، بما ينبغى أن تكون عليه علاقة الدولة بأهل الذمة ونجد فى بعض هذه الاقتراحات أوجه شبه (بعهد عمر) .

على أن هذه المحاولات ، صارت أكثر نضجاً عند الإمام الشافعى رضى الله عنه (ت ٢٠٤هـ) فى كتابه الأساسى "الأم"(١٦١) حيث أورد نموذجاً بما يجب أن يكون عليه صلح الإمام ، (أى عهده) مع أهل الذمة .

ومع أن هذا العهد - فى ذاته - معقول ومتوازن ، إلا أنه يبدو أنه صار سابقة للفقهاء المسلمين ، أو بعض الفقهاء المسلمين ، درجوا عليها وأدرجوا عليها، وبعد سنوات لا نستطيع أن نحددها ، ظهرت النسخة الأولى (لعهد عمر) .

نرجح من ناحيتنا أن هذه النسخة ظهرت فى النصف الثانى من القرن الثالث، لسبب هام أننا لا نجد إشارة إلى (عهد عمر) فى سياسة الرشيد(١٦٢) ولا فى سياسة المتوكل(١٦٣) مع أهل الذمة ، كما لا نجد

---

(١٥٩) ص ١٣٧ - ١٤٩ .

(١٦٠) جـ١ ص ٥٥ - ٥٨ ، ١٣٧ ، ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(١٦١) جـ٤ ص ١١٨ - ١١٩ ، وانظر أيضاً ص ١٢٠ - ١٢١ .

(١٦٢) الطبرى : المصدر نفسه جـ٨ ص ٣٢٤ ، الكندى : المصدر نفسه ص ١٣١ - ١٣٢ ، وانظر أيضاً مارى بن سليمان : فطاركة كرسى المشرق ص ٧٣ .

(١٦٣) اليعقوبى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٤٨٧ ، الطبرى : المصدر نفسه جـ٩ ص ١٧١ - ١٧٤ ، ١٩٦ وانظر أيضاً مارى بن سليمان : المصدر نفسه ص ٧٩ ، عمرو بن متى: فطاركة كرسى المشرق ص ٧١ .

إشارة إليه فى قمع المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) لثورة الأقباط بمصر سنة (٢١٧هـ)[١٦٤] .

وحسب ما توافر لدينا من اجتهاد ، نذهب إلى أن هذه النسخة الأولى وردت فى كتاب "أحكام أهل الملل" للخلال (ت ٣١١هـ) .

والخلال هو أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون فقيه كبير اشتهر بكتابه "الجامع لعلوم أحمد" فى عشرين مجلداً[١٦٥] ، والمقصود بأحمد هنا هو الإمام أحمد ابن محمد بن حنبل الشيبانى رضى الله عنه (ت ٢٤١هـ) ، كما إن له كُتباً أخرى بينها كتاب "أحكام أهل الملل" الذى ورد به هذه النسخة من (عهد عمر) والتى اعتبرناها فى موضع سابق أصلاً .

لم يصل إلينا كتاب الخلال هذا، إنما وصلت منه مقتبسات، من بينها (عهد عمر) فى كتب تالية من بينها " أحكام أهل الذمة " لابن القيم (ت ٧٥١هـ) .

ومع أن الخلال لم يكن شافعياً إلا أن النموذج الذى أورده الإمام الشافعى عرف طريقه - نزعم - إلى فقهاء آخرين شافعية وحنابلة ، وكما هو معروف فالإمام أحمد ابن حنبل فقيه كبير تلقى العلم على أيدى عدد من الفقهاء الكبار ، بينهم الإمام الشافعى والإمام أبو يوسف[١٦٦] .

---

(١٦٤) الكندى : المصدر نفسه ص ١٩٢ ، ابن تغرى بردى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(١٦٥) وردت ترجمته فى عدة كتب بينها تاريخ بغداد للخطيب جـ٥ ص ١١٢ - ١١٣ ، طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى جـ٢ ص ١٢ - ١٥ ، المنتظم لابن الجوزى جـ١٣ ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، سير أعلام النبلاء للذهبى جـ١٤ ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ، تاريخ ابن كثير جـ١١ ص ١٥٩ .

(١٦٦) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ٢ ص ٣٠ .

حـول منتصـف القـرن الرابـع ظهـر كتـاب آخـر لأبـى الشـيخ (ت ٣٦٩هـ)(١٦٧) اسمـه شـروط عمـر أو "شـروط أهـل الذمـة" ويتضـح مـن اقتباسـات ابـن تيميـة(١٦٨) وابـن القيـم(١٦٩) أنـه أورد فـى هـذا الكتـاب شـروط عمـر وشـرحها .

صار عهد عمر إذن شائعاً ، ولدينا أخبار عن كتـاب لابـى القاسـم الطبرى المعروف باللالكائى (ت ٤١٨هـ)(١٧٠) اسمه "شرح كتاب عمر بن الخطاب" ينقل منه ابن القيم(١٧١) ، ولدينا أخبار أخرى عن كتاب آخـر اسمه " شـروط أهـل الذمة " للقـاضى الحنبلى الكبير أبـى يعلى (ت ٤٥٨هـ)(١٧٢) وربما وردت فيه

---

(١٦٧) عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الاصفهانى فقيه ومحدث صنف فى التفسير والأحكام وله كتاب عن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم فى ستة أجـزاء وصلت شهرته إلى الأندلس ويذكره ابن خير (تـت ٥٧٥هـ) فى فهرسته . انظر سير أعـلام النبـلاء جـ١٦ ص٢٧٦، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ٣ص ٦٩،فهرسة ابن خير ص ٢٧٦.

(١٦٨) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٥٩ – ٨٦ .

(١٦٩) أحكام أهل الذمة ق ٢ ص ٧١٧ ، ٧١٩ ، ٧٤١ – ٧٤٣ .

(١٧٠) هو هبة الله بن الحسين الرازى فقيه شافعى صنف فى الحديث والسـنن ، ومـن تلامذته أبو بكر الخطيب صاحب "تاريخ بغداد" انظر ترجمته فى تـاريخ بغـداد جـ١ ص ٧٠ ، ابن الجوزى : المصدر نفسه جـ١٥ ص ١٨٨ ، جـ١٦ ص ٢٠٧ ، سير أعـلام النبـلاء للذهبى جـ١٧ ص ٤١ .

(١٧١) المصدر نفسه ق ٢ ص ٧٤٤ – ٧٤٥ .

(١٧٢) هو محمد بن الحسين الفراء فقيه حنبلى كبير له تصانيف عديدة ، بينها الأحكام السلطانية عاودناه فى هذا البحث ، وأفتى ودرس وإليه انتهى المذهب وانتشر انظـر فـى ترجمته طبقات الحنابلة لابن أبى يعلـى جـ٢ ص ٤٣ ، تـاريخ بغـداد جـ٢ ص ٤٥٦ ، المنتظـم لابـن الجوزى جـ١٦ ص ٩٨ .

نسخة من (عهد عمر) وهو ما نرجحه لأن له كتاباً يفند دعاوى اليهود الخيابرة بشأن اسقاط الجزية عنهم، وقد نوهنا إليه فى موضع سابق .

عاصر أبا يعلى فقيه شافعى كبير هو البيهقى (٤٥٨هـ)(١٧٣) وكتابه "السنن الكبير" فى عشرة مجلدات من الكتب المعتمدة عند أهل الحديث وأهل الفقه معاً ، ويعد هذا الكتاب - فيما نعلم - أول كتاب مشرقى يصل إلينا وبه صورة من (عهد عمر) .

ومع أن الماوردى (ت ٤٥٠هـ) كان معاصراً لأبى يعلى والبيهقى، إلا أنه لايشير إلى عهد عمر فى شروطه المشهورة المستحقة والمستحبة فى كتاب"الأحكام السلطانية"(١٧٤) .

وبعد أن كان عهد عمر يرتبط بالمشرق ، فإنه انتقل إلى الأندلس ، ووجد طريقه إلى ابن حزم (ت٤٥٦هـ) فى كتابه "المحلى" ، وغنى عن الذكر أن ابن حزم - شأنه شأن أستاذه داود (ت ٢٧٠هـ)(١٧٥) كان شافعياً ، قبل أن يتحول إلى

---

(١٧٣) هو أحمد بن الحسين بن على الخسروجردى من تصانيفه "المبسوط فى جميع نصوص الشافعى" وله أيضاً "مناقب الشافعى" و"مناقب أحمد" وعنه يقول إمام الحرمين (الجوينى ت ٤٧٨هـ) ما من شافعى المذهب إلا وللشافعى عليه منة إلا أحمد البيهقى فإن له على الشافعى منة انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان تحقيق إحسان عباس جـ١ ص ٧٦ ، سير أعلام النبلاء ، جـ١٨ ص ١٦٣ - ١٧٠ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ ص ١٤٠ .

(١٧٤) ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(١٧٥) داود بن على الأصفهانى المعروف بالظاهرى موسس المذهب الظاهرى ، وهو أول من صنف فى مناقب الشافعى . طبقات الشافعية الكبرى جـ١ ص ٣٤٣ وفى القرن الرابع وبعض القرن الخامس صار المذهب الظاهرى أحد المذاهب الأساسية بالمشرق إلى أن انحسر لصالح الحنابلة بفضل جهود القاضى أبى يعلى إلى أن أحياه ابن حزم بالأندلس ، ثم انتعش فى الأندلس والمغرب معاً عندما أخذ به الخليفة الموحدى المنصور (ت ٥٩٥هـ) . راجع ابن الأثير : تاريخه جـ١٢ ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، المعجب لعبد الواحد المراكشى تحقيق العريان والعلمى ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ، وانظر أيضاً تاريخ المذاهب الإسلامية لأبى زهرة ص ٥١١ .

القول بالظاهر، ثم إن ابن حزم -مع تقديرنا له- عرف بتشدده (ربما نقول تعصبه) ضد من خالف مذهبه وضد من خالف دينه(١٧٦)،وكانت نبرته عنيفه فى الاتجاهين.

يقول ابن العريف (ت ٥٣٦هـ) "كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج (بن يوسف) شقيقين"(١٧٧) .

على أننا لا نشاهد فيما لدينا من موارد صوراً أخرى (لعهد عمر) وردت فى كتب أندلسيين أو مغاربة(١٧٨) . ولا نجد فى "فهرسة ابن خير" ولا فى "كشف الظنون" عناوين كتب أندلسية ورد بها العهد .

منذ بداية القرن السادس ، وبعد الهجمة الصليبية ثم الهجمة التترية وتورط بعض الذميين فى الهجمتين صارت الإشارة إلى (عهد عمر) مسألة معتادة ، وبدأنا نشاهد صوراً عديدة له . وبعد أن كان العهد قصراً على كتب الفقهاء وحدهم ، فإنه لم يلبث أن انتقل إلى كتب الحسبة ، مثل نهاية الرتبة للشيزرى (ت ٥٨٩هـ) ونهاية الرتبة لابن بسام (عاش قبل ٨٤٤هـ) كما انتقل إلى كتب التاريخ ، كتاريخ دمشق لابن عساكر (ت ٥٧١هـ) ونهاية الأرب للنويرى (ت ٧٣٣هـ) وصبح الأعشى للقلقشندى (ت٨٢١هـ) بل أنه انتقل إلى كتب الأدب كالمستطرف

---

(١٧٦) فارق ابن حزم جمهور الفقهاء بأن ألزم غير المسلمين بحكم (أى قضاء) أهل الإسلام رضوا أم سخطوا جـ٩ ص ٣٦٣ ، ٤٢٥ ويلزمهم بالجزية ذكراً أو أنثى عبداً أو حراً فقيراً أو غنياً وراهباً جـ٧ ص ٣٤٧ ، وإن قتل مسلم ذمياً أو مستأمناً عمداً أو خطأ فلا قود عليه ولا ولاية ولا كفارة جـ١٠ ص ٣٤٧ ، وإن قذف كافر مسلماً وجب عليه الحد بقتله جـ١١ ص ٣٧٤ .

(١٧٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣٢٨ .

(١٧٨) أورد الطرطوشى (ت ٥٢٥هـ) نص عهد عمر فى كتابه سراج الملوك ومع أنه أندلسى الأصل إلا أن كتابه صنفه فى مصر بعد أن غادر الأندلس ولم يعد إليها بعد ذلك .

للأبشيهى (ت ٨٥٠هـ) ووصلت الحال إلى أن نظمه الدنيسرى (ت ٧٩٤هـ)(١٧٩) مرجزاً ، وإن لم يصل إلينا كتابه ، على أنه وصل إلينا ما نظمه أبو البلاغ عبد الغنى الصباغ(١٨٠) فى سنة (٨٤٠هـ) .

يلاحظ فى صور العهد فى العصور المتأخرة ، أنه يأتى كثيراً بدون إسناد باعتبار أن "شهرة هذه الشروط تغنى عن اسنادها" كما يقرر ابن القيم . على أن ثمة ملاحظة أخرى هامة ، وهى كثرة الإدراج على هذا العهد ، ويصعب علينا أن نحصى هذه الإدراجات ، وبعد أن كان المغلوبون هم أهل الشام أو أهل الجزيرة ، صاروا فى بعض النسخ أهل الشام ومصر .

فى هذه المرحلة أيضاً بدأ العهد يتخذ طريقه إلى التطبيق ، ففى السابق لم تكن الدولة تشير إلى هذا العهد فى تقريرها بعض القيود على أهل الذمة ، مثلما حدث فى عهد المتوكل العباسى (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) وفى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى (٣٨٦ - ٤١١هـ) .

وربما وردت الإشارة إلى العهد على استحياء فى سنة (٤٨٤هـ) ، عندما أخرج توقيع الخليفة العباسى المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧هـ) بالزام أهل

---

(١٧٩) شهاب الدين أحمد بن محمد بن الدنيسرى المعروف بابن العطار القاهرى فقيه مصرى تولع بالأدب ، وجمع كتاباً سماه "نزهة الناظر فى المثل السائر" كما أن له مدائح نبوية وموشحات . ابن حجر . الدرر الكامنة جـ١ ص ٣٠٦ - ٣٠٨ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ٢ ص ١٧٧ - ١٧٨ ، وانظر أيضاً شذرات الذهب لابن العماد جـ٦ ص ١٣٣ .

(١٨٠) لم نستدل على ترجمته فى كتاب الطبقات ونظمه لعهد عمر يقع فى ٢١١ بيتاً يتضمنها مخطوط صغير بدار الكتب المصرية اسمه "نظم شروط الإمام عمر بن الخطاب" مخطوط ١٠٩٠ تاريخ تيمور .

الذمة بالغيار (ولبس ما شرط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه)[١٨١] .

على أن أقدم إشارة واضحة إلى العهد - وقفنا عليها - تعود إلى سنة (٧٠٠هـ) حين وفد إلى مصر وزير ملك المغرب فى طريقه إلى الحج ، وراعه ما شاهد من ارتفاع أحوال الذمة ، فأنكر ما شاهده ، ووصل الخبر إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون (ت ٧٤١هـ)[١٨٢] فأمر بعقد مجلس حضره قاضى القضاه وجماعة من الفقهاء ، كما حضره بطرك النصارى وديان اليهود ، وجماعة من أهل الذمة "وسئلوا عما أقروا عليه فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه من عقد الذمة ، فلم يأتوا عن ذلك بجواب" وبحث الفقهاء الأمر واستقرت الحال فى النهاية على مجموعة من القيود "وألزموا بما شرطه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه والتزموا ذلك" وكتب إلى سائر الأعمال بالديار المصرية والشامية[١٨٣] .

وما جرى فى عام (٧٠٠هـ) تكرر فى أعوام تالية[١٨٤] ، وكان يصحبه فى بعض الأحيان هدم لبعض الكنائس ، قيل أنها محدثة ، وتضييق على أهل الذمة وإرهاق ، دفع بعضهم إلى اعتناق الإسلام .

---

(١٨١) ابن الأثير : الكامل جـ١٠ ص ١٨٦ .

(١٨٢) ولى وعزل أكثر من مرة بين سنتى ٦٩٣ و ٧٤١هـ .

(١٨٣) النويرى : نهاية الأرب جـ٣١ تحقيق العرينى ص ٤١٦ - ٤١٨ ، ابن خلدون: المصدر نفسه جـ٢ ص٤١٦، المقريزى:السلوك جـ١ق٣ تحقيق زيادة ص٩٠٩-٩١٢.

(١٨٤) مثل ما حدث فى سنة ٧٥٥هـ وسنة ٨٦٨هـ انظر السلوك جـ٢ ق ٣ تحقيق زيادة ص ٩٢١ - ٩٢٥ ، ابن كثير : المصدر نفسه جـ١٤ ص ٢٦٢ ، القلقشندى : المصدر نفسه جـ١٣ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٦ ص ٢٨١ .

على أن ما كان يحدث أحياناً فـى العصـور المتـأخرة مـن اضطهـاد أو شبهة اضطهاد لأهل الذمة كان استثناء ، و لم يكـن بذاتـه قـاعدة ، وهـو يرتبـط بسـياق تاريخى معين لا نفصله عن الأحداث .

- 11 -

وردت فـى بعـض كتـب المؤرخـين - العـرب والفرنـج - معـاً - إشـارات تتفاوت بين مؤرخ وآخر إلى و'بقة عرفت (بعهد عمر) .

المحتوى العام لهذا العهد ض ,ابط (أو قيـود) تنتظـم علاقـة الدولـة الإسـلامية برعاياها من الذميين ، استخرج البعـض منهـا شـواهد علـى مـا كـان يعانيـه الغـير المسلمين من المسلمين ، واستخرج البعض الآخر قواعـد لمـا يجـب أن تكـون عليـه علاقة المسلمين بغير المسلمين(١٨٥) .

يتضح لدينا أن هذا (العهد) منتحـل ، ولا صلـة لـه بعمـر ولا بعهـد عمـر ، (فالعهد) فى سنده مضطرب ، وبـه رجـال ضعفـاء أو مجـاهيل ، وراويـه الأصلـى وكاتبه (فى معظم الروايات) - نرجح - لا علاقة له به .

(والعهد) فى خطابه مضطرب ، فكيف يصـدر عـن مغلـوب ، بـل كيـف يشرط مغلوب على غالب .

(والعهد) فى مضـمونه يفارق العهود المعاصرة مـن غـير جهـه ، ولا يـرد عنـد مؤرخين كبار - كالطبرى - ولا عند مؤرخين متقدمـين - كـالبلاذرى - ولا نجد فى سـيرة عمر رضى الله عنه، ولا فى عصره،ما يشى ببعض ما ورد فيه.

نذهب - من ناحيتنا - إلى أن (عهد عمر) نشأ نتيجة لاجتهاد بعض الفقهاء فى مجال تقنين العلاقة بين الدولة الإسلامية وبين رعاياها من الغير المسلمين .

---

(١٨٥) مثلما عليه الحال لدى بعض من ينتسب إلى الإسلام فى عصرنا .

ولما كان عمر هو "العمدة" عند الفقهاء ، يعولون عليه فى باب الجهاد ، فإن هؤلاء نسبوا هذا (العهد) إليه .

ظهرت النسخة الأولى من (عهد عمر) - ندعى - فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ثم جرى إدراج على هذه النسخة ، لدى الهجمة الصليبية ، ثم الهجمة التترية ، كما شاعت روايته دون اسناد . وبعد أن كان (العهد) قصراً على كتب الفقه ، فإنه انتقل إلى كتب التاريخ وإلى كتب الأدب ، بل نظمه البعض مرجزاً ، ووصل إلينا ما نظموه .

ورغماً عن قدم العهد (بعهد عمر) فإن أول تطبيق واضح له - نرجح - يعود إلى سنة (٧٠٠هـ) .

وكلمتنا أخيرة ، وقد لا تكون الأخيرة ، لكنها - نزعم - إضاءة...

والله الموفق قبلاً وبعداً .

المصادر والمراجع

المصـــــادر :

(أ) مصادر مخطوطة :

ابن جماعة : عز الدين محمد بن أبى بكر بن عبد العزيز الكنانى الحموى المصرى (ت ٨١٩هـ) .

١ - تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ب ٢٣٨٤١.

ابن زَبْر : أبو محمد عبد الله بن أحمد بن زبر القاضى (ت بعد ٨٥٩هـ) .

٢ - شروط النصارى : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢١٩ حديث .

الصباغ : أبو البلاغ عبد الغنى الصباغ (ت بعد ٨٤٠هـ).

٣ - نظم شروط الإمام عمر بن الخطاب التى اشترطها على أهل الذمة. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٠٩٠ تاريخ تيمور.

مجهول (عاش فى العصر المملوكى).

٤ - كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٨٤٥ تاريخ طلعت.

ابن النقاش : شمس الدين أبو إمامة محمد بن على بن عبد الواحد المغربى الشافعى المصرى (ت ٧٦٣هـ).

٥ - المذمة فى استعمال أهل الذمة. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦٩٣ فقه شافعى.

(ب) مصادر مطبوعة :

الأبشيهى : شـهاب الدين أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور المحلى الشافعى (ت ٨٥٠ هـ) .

٦ - المستطرف فى كل فن مستظرف (جزءان). مصر، المطبعة المحمودية ١٣٤٨هـ.

ابن الأثير :عز الدين أبوالحسن على بن محمد الشيبانى الجزرى (ت٦٣٠هـ).

٧ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة (سبعة مجلدات).القاهرة،دار الشعب ١٩٧٠م.

٨ - الكامل فى التاريخ(١٣ مجلداً) بيروت دار صادر ١٩٨٢ (عن نشرة تورينبرج ١٨٦٧).

ابن الإخوة : محمد بن محمد بن أحمد القرشى (ت ٧٢٩هـ) .

٩ - معالم القربة فى أحكام الحسبة. تحقيق محمد محمود شعبان ، صديق أحمد عيسى المطيعى. القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٦م.

الأزدى : أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدى البصرى (ت ٢٣١هـ) .

١٠ - فتوح الشام. تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر. القاهرة ، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠م.

ابن أيبك الدوادارى : ابو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت ٧١٣هـ) .

١١ - كنز الدرر وجامع الغرر. الجزء السادس تحقيق صلاح الدين المنجد. القاهرة المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة ، ١٩٦١م.

ابن بسام المحتسب : محمد بن أحمد بن بسام (ت قبل ٨٤٤هـ).

١٢ - نهاية الرتبة فى طلب الحسبة. تحقيق حسام الدين السامرائى. بغداد مطبعة المعارف ، ١٩٦٨م.

البلاذرى : أحمد بن يحى بن جابر (ت ٢٧٩هـ).

١٣ - فتوح البلدان (ثلاثة أجزاء) تحقيق صلاح الدين المنجد . القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧م.

البيهقى : أبو بكر أحمد بن الحسين بن على (ت٤٥٨هـ) .

١٤ - السنن الكبرى (عشرة أجزاء) مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٥٥هـ.

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (ت ٨٧٤هـ) .

١٥ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى (نشر سبعة أجزاء) حـ٧ تحقيق محمد أمين . القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

١٦ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (ستة عشر جزء). القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب (عن طبعة دار الكتب).

ابن تيمية : أبو العباس أحمد بن عبد السلام بعد تيمية الحرانى(ت ٧٢٨هـ).

١٧ - إقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم، ط ١ القاهرة ، المطبعة الشرقية، ١٩٠٧م.

الجهشيارى : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفى (ت ٣٣١هـ).

١٨ - كتاب الوزراء والكتاب . ط١. تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الابيارى، عبد الحفيظ شلبى. القاهرة ، مصطفى البابى الحلبى، ١٩٣٨م.

الجواليقى: أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر (ت ٥٤٠هـ).

١٩ - المعرب من الكلام الأعجمى.تحقيق ابى الأشبال أحمد محمد شاكر. القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٦١هـ.

ابن الجوزى : أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن على بن محمد القرشى البغدادى (ت ٥٩٧هـ) .

٢٠ - سيرة عمر بن الخطاب. تحقيق طاهر النعسان الحلبى ، أحمد قدرى كيلانى. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٣١هـ.

٢١ - سيرة عمر بن عبد العزيز. تصحيح محب الدين الخطيب. القاهرة. مكتبة المنار، ١٣٣١هـ .

٢٢ - المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم (١٨ جزءا) ط١. تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مصطفى عبد القادر عطا. بيروت ، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.

حاجى خليفة : ملا كاتب جلبى (ت١٠٦٧هـ).

٢٣ - كتاب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (جزءان). اسطنبول در سعادت ، ١٣١١هـ.

ابن حِبَّان : أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستى (ت ٣٥٤هـ).

٢٤ - كتاب مشاهير علماء الأمصار. تحقيق م. فلا يشهمر، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٩م.

ابن حجر : شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ).

٢٥ - الإصابة (أربعة أجزاء) ط١ . مصر، ١٣٢٨هـ.

٢٦ - تقريب التهذيب (جزءان) ط٢ . تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف.بيروت. دار المعرفة ١٩٧٥م.

٢٧ - تهذيب التهذيب (١٢ جزءا) مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن ١٣٢٥هـ.

٢٨ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (خمسة أجزاء) تحقيق محمد سيد جاد الحق. القاهرة دار الكتب الحديثة، ١٩٦٧م.

٢٩ - ذيل الدرر الكامنة. تحقيق عدنان درويش. القاهرة ، معهد المخطوطات العربية، ١٩٩٢م.

٣٠ - لسان الميزان (سبعة مجلدات) ط٢ . بيروت ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات (عن طبعة دائرة المعارف النظامية ، حيدر أباد الدكن ، ١٣٢٩هـ) .

ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبى(ت ٤٥٦هـ).
٣١ - المُحلّى (١١جزءاً) بيروت ، المكتب التجارى (عن تحقيق أحمد محمد شاكر.مصر إدارة المطبعة المنيرية ، ١٣٤٩هـ) .
الخزرجى: صفى الدين أحمد بن عبدا لله الخزرجى الأنصارى(ت بعد٩٢٣هـ).
٣٢ - خلاصةتذهيب الكمال فى أسماء الرجال.ط١.مصر المطبعةالخيرية، ١٣٢٢هـ.
الخطيب البغدادى: أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى (ت ٤٦٣هـ).
٣٣ - تاريخ بغداد (خمسة عشر مجلداً) بيروت ، دار الكتب العلمية د. ت.
ابن الخطيب:لسان الدين أبو عبدا لله محمد بن عبدا لله السلمانى(ت٧٧٦هـ).
٣٤ - الإحاطة فى أخبار غرناطة (أربعة أجزاء) ط٢ . تحقيق محمد عبد الله عنان. القاهرة ، الخانجى ، ١٩٧٧ .
ابن خلدون : أبو زيد ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى (ت ٨٠٨هـ) .
٣٥ - تاريخه (سبعة مجلدات) بيروت ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ١٩٧٩م . (عن طبعة المطبعة الأميرية . بولاق . مصر) .
ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت ٦٨١هـ) .
٣٦ - وفيات الأعيان وأنباء الزمان (٨ مجلدات) تحقيق إحسان عباس. بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٢م .
خليفة بن خياط : أبو عمر وخليفة بن خياط المعروف بشباب العصفرى (ت ٢٤٠هـ).
٣٧ - تاريخ خليفة بن خياط (قسمان) تحقيق سهيل زكار. دمشق، وزارة الثقافة ١٩٦٨م.
٣٨ - كتاب الطبقات تحقيق أكرم ضياء العمرى . بغداد ١٩٦٧م .

ابن خير الإشبيلى : أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الإشبيلى (ت ٥٧٥هـ) .

٣٩ - فهرسة ما رواه عن شيوخه . نشر فرنششكه قداره زيدين وتلميذه خليان ربارة طرغوة. بغداد . مكتبة المثنى ١٩٦٣م (عن طبعة سرقسطة ١٨٩٣م).

الذهبى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨هـ) .

٤٠ - تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (خمسة أجزاء) . القاهرة ، مكتبة القدسى ، ١٣٦٨هـ .

٤١ - سير أعلام النبلاء. (خمسة وعشرون جزءاً) ط٨ . تحقيق شعيب الأرناءوط. بيروت. ١٩٩٢م .

٤٢ - ميزان الإعتدال فى نقد الرجال (أربعة مجلدات) تحقيق على محمد البجاوى. بيروت ، دار المعرفة ١٩٦٣م .

ابن الراهب : أبو شاكر بطرس بن أبى المكرم بن المهذب .

٤٣ - تاريخ ابن الراهب . نشر الأب لويس شيخو اليسوعى . بيروت . مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٣م .

ابن زنجويه : حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخراسانى أبو أحمد الأزدى (ت ٢٥١هـ) .

٤٤ - كتاب الأموال (ثلاثة أجزاء) ط١ . تحقيق شاكر ذيب فياض . الرياض ، مركز الملك فيصل للبحوث ، ١٩٨٦م .

ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (عاش فى القرن الرابع الهجرى) .

٤٥ - تاريخ بطاركة الإسكندرية (ثلاثة أجزاء) نشر ايفتس . باريس ١٩٠٤ .

السبكى : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين (ت ٧٧١هـ) .
٤٦ - طبقات الشافعية الكبرى(ستة أجزاء) ط١ . مصر. المطبعة الحسينية المصرية.

سحنون بن سعيد التنوخى (ت ٢٤٠هـ) .
٤٧ - المدونة الكبرى (١٦ جزءا) تصحيح محمد ساسى المغربى التونسى . مصر مطبعة السعادة ١٣٢٣هـ .

ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى (ت ٢٣٠هـ) .
٤٨ - الطبقات الكبرى(٨مجلدات).تحقيق إحسان عباس.بيروت،دار صادر د. ت.

سعيد بن البطريق : إفتيشيوس (ت ٣٢٨هـ) .
٤٩ - كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . بيروت ، مطبعة الاباء اليسوعيين ١٩٠٩م.

السيوطى المنهاجى : أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد بن على بن عبد الخالق المنهاجى شمس الدين السيوطى (ت ٨٨٠هـ) .
٥٠ - إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى (جزءان). تحقيق أحمد رمضان أحمد القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢م.

الشافعى : الإمام محمد بن إدريس المطلبى (ت ٢٠٤هـ) .
٥١ - الأم (سبعة أجزاء) القاهرة. الدار المصرية للتأليف والترجمة (عن طبعة بولاق ١٣٤١هـ).

الشيبانى : محمد بن الحسن (ت١٨٩هـ).
٥٢ - كتاب السير الكبير(ثلاثة أجزاء)إملاء محمد بن أحمد السرخسى(ت ٤٨٣هـ) تحقيق صلاح الدين المنجد. القاهرة، معهد المخطوطات العربية، ١٩٥٨م.

الشيزرى : عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله (ت حوالى ٥٨٩هـ).

٥٣ - كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة. ط٢. تحقيق السيد الباز العرينى. بيروت ١٩٦٩م.

الصابى:أبو الحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم الصابى،الكاتب(ت٤٤٨هـ).

٥٤ - تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء . بيروت مطبعة الآبار اليسوعيين ١٩٠٤م.

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ).

٥٥ - تاريخ الرسل والملوك(عشرة أجزاء) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة دار المعارف مصر ١٩٦٤م.

الطرطوشى : أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى المالكى (ت ٥٢٥هـ).

٥٦ - سراج الملوك. مصر ١٢٨٩هـ.

ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى (ت ٤٦٣هـ) .

٥٧ - الإستيعاب فى تمييز الأصحاب (على هامش كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة).

ابن عبد الحكم : ابو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى (ت ٢١٤هـ).

٥٨ - سيرة عمر بن عبد العزيز . بيروت ، دار الفكر الحديث ، ١٩٨٧ م .

ابن عبد الحكم: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم(ت٢٥٧هـ).

٥٩ - فتوح مصر وأخبارها . القاهرة ، مكتبة مدبولى ١٩٩١ (عن نشرة تورى ١٩٢١م) .

أبو عبيد : القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ).

٦٠ - كتاب الأموال . تحقيق محمد خليل هراس. القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨١م.

ابن عذارى : أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشى (ت٧١٢هـ).

٦١ - البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب (اربعة أجزاء) تحقيق ليفى بروفنسال وآخرين أعاد نشره إحسان عباس بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٧م.

ابن عساكر :أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعى (ت٥٧١هـ) .

٦٢ - تاريخ مدينة دمشق. المجلدة الأولى، المجلدة الثانية ق١٠. تحقيق صلاح الدين المنجد. دمشق المجمع العلمى العربى، ١٩٥١م.

ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد الدمشقى (ت ١٠٨٩هـ) .

٦٣ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (ثمانية أجزاء) بيروت ، دار الآفاق الجديدة د.ت.

عمرو بن متى (ت بعد ٧١٧هـ).

٦٤ - أخبار فطاركة كرسى المشرق من كتاب المجدل. رومية الكبرى، ١٨٩٦م.

الفيروز ابادى : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى الشيرازى (ت ٨١٧هـ).

٦٥ - القاموس المحيط (أربعة أجزاء) القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧. (عن طبعة بولاق ١٣٠١ هـ) .

ابن قدامة : موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلى (ت٦٣٠هـ) .

٦٦ - المغنى (عشرة أجزاء) بيروت ، دار الكتاب العربى، ١٩٨٣م.

القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على القلقشندى (ت٨٢١هـ).

٦٧ - صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (١٤ جزءا) الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

ابن قيم الجوزية : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى الدمشقى (ت ٧٥١هـ) .

٦٨ - أحكام أهل الذمة (قسمان) ط١ . تحقيق صبحى الصالح دمشق ١٩٦١م.

٦٩ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (أربعة أجزاء) مصر، إدارة الطباعة المنيرية، د.ت.

٧٠ - زاد المعاد فى هدى خير العباد (أربعة أجزاء) القاهرة المطبعة المصرية ومكتبتها ١٣٧٩هـ.

ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى (ت ٧٧٤هـ) .

٧١ - البداية والنهاية (أربعة عشر جزءاً) ط١. تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين القاهرة دار الريان ١٩٨٨م.

٧٢ - تفسير القرآن العظيم (أربعة أجزاء) ط٢ تصحيح خليل الميس بيروت. دار القلم د.ت.

الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى (ت٣٥٠هـ).

٧٣ - كتاب الولاة وكتاب القضاة. تصحيح رفن كست القاهرة، مؤسسة قرطبة.

مارى بن سليمان (عاش فى القرن السابع الهجرى).

٧٤ - فطاركة كرسى المشرق من كتاب المجدل. رومية الكبرى ١٨٩٩م.

مجير الدين الحنبلى أبو اليمن (ت٩٢٧هـ).

٧٥ - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل . مصر ، المطبعة الوهبية، ١٢٨٣هـ.

المراكشى : محى الدين عبد الواحد بن على التميمى (ت بعد ٦٢١هـ).
٧٦ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ط١. تحقيق محمد سعيد العريان ، محمد العربى العلمى. القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٤٩م.
المقريزى : تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد (ت ٨٤٥هـ).
٧٧ - السلوك لمعرفة دول الملوك (أربعة أجزاء) الجزءان الأول والثانى تحقيق محمد مصطفى زيادة القاهرة، ١٩٣٤ - ١٩٧١م.
٧٨ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (جزءان) القاهرة بولاق ١٢٧٠هـ.
ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد المصرى (ت٧١١هـ).
٧٩ - لسان العرب (ستة أجزاء) تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله ، هاشم الشاذلى. القاهرة، دار المعارف ، ١٩٨١م.
المنقرى : نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ) .
٨٠ - وقعة صفين ط٣.تحقيق عبد السلام هارون.القاهرة،مكتبة الخانجى ١٩٨١م.
ابن النجار : محب الدين أبو عبدالله محمد بن الحسن البغدادى(ت٦٤٣هـ).
٨١ - ذيل تاريخ بغداد (خمسة أجزاء) تصحيح قيصر فرح. بيروت. دار الكتب العلمية د.ت.
أبو نعيم : أحمد بن عبد الله الأصبهانى (ت ٤٣٠هـ).
٨٢ - حلية الأولياء (عشرة مجلدات) ط٢. بيروت دار الكتاب العربى، ١٩٦٧م.
النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ).
٨٣ - نهاية الأرب فى فنون الأدب (صدر ٣١ مجلداً) حـ١، حـ٢٨ تحقيق محمد محمد أمين القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، حـ٣١ تحقيق السيد الباز العرينى ١٩٩٢م.

ابن هشام:أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى(ت٢١٣أو ٢١٨هـ).
٨٤ - السيرة النبوية (أربعة أجزاء) تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الابيارى ، عبد الحفيظ شلبى. بيروت ، دار القلم، د.ت.
الواقدى : أبو عبد الله محمد بن عمر (ت حوالى ٢٠٧هـ).
٨٥ - كتاب المغازى (ثلاثة أجزاء) ط٣. تحقيق مارسدن جونس بيروت ، عالم الكتب، ١٩٨٤م.
يحى بن آدم القرشى (ت ٢٠٣هـ).
٨٦ - كتاب الخراج.تحقيق أحمد محمد شاكر.المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٨٤هـ.
يحى بن سعيد الأنطاكى (ت بعد ٤٢٥).
٨٧ - تاريخ يحى بن سعيد الأنطاكى. ملحق بتاريخ سعيد بن البطريق.
اليعقوبى: أحمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت٢٨٤هـ).
٨٨ - تاريخ اليعقوبى (مجلدان) بيروت ، دار صادر، د.ت.
أبو يعلى:محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء (ت٤٥٨هـ).
٨٩ - الأحكام السلطانية ط١. تصحيح محمد حامد الفقى. القاهرة ، مصطفى الحلبى ١٣٥٧هـ.
ابن أبى يعلى : أبو الحسن محمد بن الحسين بن محمد بن خلف(ت ٥٢٥هـ).
٩٠ - طبقات الحنابلة (جزءان) تصحيح محمد حامد الفقى. القاهرة، مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٢م.
أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم الخزرجى صاحب أبى حنيفة (ت ١٨٢هـ).
٩١ - الخراج . نشر قصى محب الدين الخطيب القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٩٦هـ.

المراجـــع :

أرنولد : سير توماس .

١ - الدعوة إلى الإسلام ط٣ . ترجمة حسـن إبراهيـم حسـن وآخريـن. القـاهرة ، النهضة المصرية ١٩٧٠م.

أمين : أحمد .

٢ - فجر الإسلام ط١٢. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨م.

ترتون : أ. س.

٣ - أهل الذمة فى الإسـلام ط٣. ترجمـة وتعليـق حسـن حبشـى القـاهرة ، الهيئـة العامة للكتاب ١٩٩٤م.

حتى : فيليب.

٤ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (جزءان) ترجمة كمال اليازجى. بـيروت ، دار الثقافة ، ١٩٥٩م.

٥ - تاريخ العرب (مطول) ترجمـة إدورد جرجـى، جـبرائيل جبـور. بـيروت، دار الكشاف ١٩٤٩م.

الخربوطلى : على حسنى.

٦ - الإسلام وأهل الذمة . القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٦٩م.

أبو زهرة : محمد.

٧ - تاريخ المذاهب الإسلامية (جزءان) القاهرة، دار الفكر العربى د.ت.

زيدان : جرجى.

٨ - تاريخ التمدن الإسلامى (خمسة أجزاء) ط٣. القاهرة، دار الهلال ١٩٢٢م.

العارف : عارف باشا.

٩ - تاريخ القدس القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١م.

العقاد : عباس محمود.

١٠ - عبقرية عمر ط١. القاهرة ، المكتبة التجارية ١٩٤٢م.

القرشى : غالب بن عبد الكافى.

١١ - أوليات الفاروق السياسية ط١. المنصورة،دار الوفاء للطباعة والنشر، ١٩٩٠م.

كاشف : سيدة إسماعيل.

١٢ - مصر الإسلامية وأهل الذمة : القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

كُحيلة : عُبادة عبد الرحمن رضا.

١٣ - تاريخ النصارى فى الأندلس . القاهرة ، ١٩٩٣ .

متز : آدم .

١٤ - الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (جزءان) ط٣. ترجمة محمد عبد الهادى أبى ريدة. القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧م.

محمد حميد الله.

١٥ - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ط٥. بيروت، دار النفائس ١٩٨٥.

ولفنسون : اسرائيل (أبوذؤيب).

١٦ - تاريخ اليهود فى بلاد العرب . القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٢٧م.

References in Foreign Languages :

1 - Cambridge Medieval History. Cambridge Univ Press. Reprinted 1980.

Muir, Sir William:

2 - The Caliphate. its rise, decline and fall London . Smith Elder & Co. 1898.

Lewis , Bernard

3 - Islam Fram The Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople. (2.vols). Walker and Company.

4 - The Jews of Islam, London. Routledge & Kegan Paul, 1981

Simonet, D. Francisco Javier:

5 - Historia de los Mozárabes de España Madrid 1897 - 1903.

دوريات :

لويس شيخو اليسوعى .

عهود نبى الإسلام والخلفاء الراشدين للنصارى مجلة المشرق بيروت حـ١٢، ١٩٠٩ م ص ٦٠٩ - ٦١٨، ٦٧٤ - ٦٨٢.

Periodicals :

Belin, M :

1 - Fetoua Relalif a la Condition des Zimmis . Journal Asiatique, Quatriéme Série, tome XIX, 1852. pp 97 - 140.

Perlmann B. M :

2 - Notes on Anti - Christian Propaganda in the Mamluk Empire. Bulletin of the School of Oriental and African Studies. vol X. 1939 - 1942.

النشاط التجارى فى حلب

خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة العاشر والحادى عشر للميلاد

(٣٠١هـ - ٥٠٠هـ) (٩١٢م - ١١٠٧م)

دكتور محمد زيود

كلية الآداب - جامعة دمشق

ملخص البحث : تناول هذا البحث الحديث عن حلب وحدودها وإلى أى مدى وصلت إليه فى هذه الفترة ، وتطرق تفصيلاً للعوامل المؤثرة فى التجارة إيجاباً وسلباً ، وكان أهمها الموقع المهم والإستراتيجى لحلب ، ثم ما وفره الإسلام والحكام العرب المسلمون والعلماء من أمور أسهمت فى التطور الحضارى بشكل عام ، كما تطرق البحث لبعض معوقات التجارة التى كان على رأسها الإخلال بالأمن الناتج عن الحروب والأطماع والصراعات الكثيرة على المنطقة ، ثم تناول الحديث التجارة الداخلية وخص الأسواق التجارية ونشأتها وتطورها ومواقعها وأنواعها والسلع التى كانت تباع فيها ، أما الحديث عن التجارة الخارجية فقد ركز على السلع المصدرة من مواد أولية وصناعات نسيجية على مختلف أنواعها ، ثم جرى التأكيد على أهم السلع المصدرة من زجاج وورق وغيرهما.

أما المحاصيل الزراعية فكانت كثيرة وأهمها الزيتون وما ينتج عنه ثم الفستق، ونظراً لكثرة نباتات حلب وبذورها وأزاهيرها ورياحينها فقد كثرت صناعة العطور ومشتقاتها وتصديرها إلى أماكن بعيدة .

أما السلع المستوردة فقد كانت قليلة ، ويأتى على رأسها الكتان والمصنوعات الكتانية ، والثياب الفاخرة والنفيسة وبخاصة ما كان يدخل من هذه الثياب فى الطراز وأخيراً التمور....

هذا البحث طويل وشائك ومتعدد الطرق والمغارز ، لهذا حرصت أن أحدد بعض النقاط المهمة كى يتم الإفادة منه قدر المستطاع ، منها :

١ - حلب وأقصى اتساعها .

٢ - العوامل المؤثرة فى التجارة .

٣ - التجارة الداخلية (الأسواق التجارية) .

٤ - التجارة الخارجية (السلع المصدره والمستوردة) .

حلب وحدودها :

جاء فى المصادر العربية الإسلامية أن الشام كانت مقسمة إلى كور أربعة قبل الفتح العربى الإسلامى ، واستمر الحال كذلك ، وسميت فى عهد الخليفة عمر (١٣هـ - ٢٣هـ) (٦٣٤م - ٦٤٤م) أجناداً وهى جند دمشق ، والأردن ، وفلسطين وحمص ، وهذا يعنى أن حلب وقنسرين كانتا تابعتين لجند حمص(١) ، وفى بداية العصر الأموى فصلت قنسرين وحلب عن حمص ، وجعل منهما ومن أنطاكية ومنبج جنداً واحداً وهكذا غدت الشام خمسة أجناد أو كور وهى دمشق، والأردن ، وفلسطين ، وحمص ، وقنسرين(٢) ، واستمر الحال كذلك إلى خلافة هارون الرشيد (١٧٠هـ - ١٩٣هـ) (٧٨٦م - ٨٠٩م) الذى صير قنسرين بكورها جنداً ، وأفرد عنها منبج ودلوك ، ورعبان وقورس ، ومعرة النعمان ، وأنطاكية ، وتيزين ، وسماها العواصم لأن المسلمين يعتصمون بها فى

---

(١) البلاذرى : البلدان وفتوحها وأحكامها ص ١٥٤ بيروت ١٩٩٢ .

، ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ص ٩/٨ دمشق ١٩٨٤ .

(٢) ابن خطيب الناصرية : الدر المنتخب فى تاريخ حلب ١ ص ٩/٨ مخطوط ابن الشحنة الدر ص ١٠ .

الثغور فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم ، وجعل مدينة العواصم منبج ، وجاء في بعض المصادر أن أجناد الشام خمسة ، فأولها جند قنسرين ومدينته العظمى حلب(٣) ، ومن ساحلها أنطاكية ، ومن ثغورها المصيصة وطرسوس ، وهى أكبر أجناد الشام وأكثرها مدناً وحصوناً ، ويذكر أن قنسرين كانت أكثر مدن هذا الجند حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ثم أخذت حلب تتدرج فى العمارة وبالمقابل قنسرين فى الخراب حتى صارت مضافة إلى حلب(٤) التى غدت مركز الجند ، وعاصمة الدولة . وقد اضيفت الثغور والعواصم إلى حلب أيام سيف الدولة الحمدانى (٣٣٣هـ - ٣٥٦هـ) (٩٤٤م - ٩٦٧م) لكن بعد وفاته ضعف أمر حلب ومزقتها الخلافات الداخلية والأطماع الخارجية ، فأعاد البيزنطيون الكرة عليها ، وأخذوا مناطق متعددة منها أنطاكية وما حولها وطرسوس والمصيصة وبقيت تحت سيطرتهم حتى استعادها السلاجقة (سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م) . كما شهدت حلب نهضة كبيرة وتوسعت فى عهد آق سنقر السلجوقى ، حيث قاتل البيزنطيين وخلص منهم حصن برزوية من أعمال أنطاكية سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٩م ، ووصلت إمارة حلب فى عهده إلى أقصى امتدادها واتساعها التى كانت عليه فى عهد سيف الدولة . واستمرت كذلك إلى الغزو الصليبى للمنطقة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م حيث أخذت بالتقلص فيما بعد على حساب هؤلاء الغزاة(٥) . وهكذا فإن حدود حلب تغيرت(٦) ، ويذكر

---

(٣) المصادر السابقة .

(٤) ابن العديم: بغية: جـ١ ص ٤٩ - أبو الفداء: المختصر فى اخبار البشر جـ١ ص ١٦٠.

(٥) انظر : سعيد عبد الفتتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص ١٩٥ وما بعدها وانظر مصادر الحركة الصليبية .

(٦) ابن الشحنة : الدر ص ١٠ .

أن حدها من جهة الغرب البحر المتوسط ومن الشرق الفرات وبعض البادية إلى منتهى المناظر ، ومن الشمال درب الروم ومن الجنوب حدود حمص ، وتنتهى إلى قرية تتعرف بالقرشية القريبة من اللاذقية وإلى حدود سلميه ، وامتدت حلب فى بعض الجهات ، وتقلصت فى أخرى ـ وأقصى امتدادها كان كما أشرنا فى عهد أميرها العربى سيف الدولة ثم فى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وأوائل القرن السادس ، وتغيرت من حين لآخر، فبعض المؤرخين عد الرصافة ، وصفين وبالس، وحصن كيفا مع الجزيرة الفراتية ، وبعض الآخر ذكرها ضمن حدود حلب وإمارتها ، وبعضهم جعل حماه وشيزر ومعرة النعمان تابعة لإمارة حلب ، وعدتت فى بعض الأحيان مستقله وحدها أو لحقت بحمص...واستمرت حلب بين مد وجزر وتبدلت واتسعت حدودها تبعاً لقوة حاكمها ، كما أن ضعفهم كان يؤثر فى تبعية الثغور والعواصم لها من جهة ، ومن ناحية أخرى كان يضعف من سيطرة حلب على المدن والقرى والثغور التابعة لها....

العوامل المؤثرة بالتجارة :

يأتى فى مقدمة العوامل الإيجابية الموقع الهام والإستراتيجى لحلب ، حيث كانت تشكل القلب النابض بالحياة بين مجموعة كبيرة من الممالك والمدن الهامة فى التاريخ القديم والوسيط ، وكانت قبلة أهالى المدن المجاورة كونها حلقة هامة بين أقاليم كثيرة ومفتوحة على معظم المنافذ البشرية وهذه الخاصة جعلت من حلب أهم مدينة ولؤلؤة بلاد الشام الشمالية ، وكانت السيطرة عليها تعنى الإشراف على الطرق الواصلة ما بين ممرات طوروس شمالاً ومصر جنوباً ، وما بين البحر غرباً ومخاضات الفرات شرقاً ، ومما زاد فى أهميتها أنه كان يتوافر فيها من المواد والسلع ما لا يتوافر فى غيرها من المدن العربية والإسلامية حتى قيل إن تجارتها

فاقت القاهرة....(٧)وهذا الموقع الممتاز وهذه الأهمية لحلب جعلها الغرب يطلق عليها اسم تدمر الجديدة لأهميتها التجارية التى ورثت بها مكانة تدمر المشهورة حضارياً وتاريخياً....(٨) وبهرت حضارة حلب الروم الغزاة وغيرهم ، وغدت أثناء النفوذ البيزنطى عليها منفذاً من المنافذ الرئيسة المهمة لتجارة بيزنطة مع العالمين العربى والإسلامى فى الشرق ، وحلت بذلك محل أرمينية التى فقدت أهميتها فى هذه الفترة .

إضافة لذلك هناك أماكن ومشاهد مقدسة ومزارات كثيرة فى حلب دفعت بالكثيرين للتوجه إليها وهذا مما ساعد على التجارة ونشط عملياتها التجارية، وهذه الأماكن المقدسة كثيرة ومتعددة ذكرها مؤرخو حلب كابن شداد وابن العديم فى مؤلفاتهما المشهورة . حيث اشاروا إلى أن حلب كانت قبل الإسلام وبعده من المدن المقدسة ، فهى معقل الإله الحلبى الشهير " حدد " ، وقد احتفظت بهذه المكانة الدينية خلال وجودها الطويل وبقيت بعد الإسلام مركزاً دينياً كبيراً وما تزال أغلب مساجدها وزواياها وتكاياها وتربها تضم قبوراً مقدسة

---

(٧) ابن العديم : بغية : مجلد ١ ص ٥٠ / ٥٦ – ابن شداد : الأعلاق مخطوطه قنسرين ورقة ٦ / ٧ / ١٧ .

القرمانى : أبو العباس أحمد بن يوسف : أخبار الدول وآثار الأول : ص ٤٣٣/٤٤٦/٤٥٧ بيروت طبعة مصورة .

(٨) انظر : الأصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٦ – محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولونى حتى نهاية العصر الفاطمى ص ٣١٥ نقلا عن ابن العديم : بغية – ابن شداد : الأعلاق جـ١ ق ١ ص ١٥٣ .

سامى الكيالى : سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص ٥٧ – أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٣٣٤ .

ومزارات لمشاهير الأولياء والأتقياء والرسل وهى تدفع بجميع الناس من مختلف الطوائف لزيارة هذه الأضرحة والأماكن المقدسة(٩) .

كما كانت للإسلام وتعاليمه ، ثم ما وفره الإسلام والمسلمون من مبادىء وتعاليم وقيم نبيلة حضت على العمل التجارى النزيه ورفعت من مكانة التجارة والتجار فى نظر الناس ، وباعتماد الصدق والأمانة والربح المشروع وإلى غير ذلك من نظم ومبادىء سمت بالتاجر وجعلته فى مرتبة الصديقين والطيبين(١٠) ، ومعلوم أنه كان للإسلام دوره الواضح على التجارة وتجاوز تأثيره ما كان سائداً من نظم وتعاليم فى ذلك الوقت ، ومن المناسب أن نعيد للأذهان بأن الإسلام انتقل إلى الشرق وبخاصة إلى بعض مناطق باكستان والهند والصين وغيرها بوساطة التجار ، وهؤلاء كانوا رسل الإسلام الأوائل هناك ، ولم ينتقل الإسلام لأول وهلة كما يعتقد بعضهم بوساطة السيف الذى استعمل لحماية الأقوام التى آمنت بالإسلام .

كما كان لدور العلماء العرب والمسلمين واسهاماتهم الفعالة فى خدمة النهضة العلمية الحضارية بشكل عام والحركة التجارية بشكل خاص أكبر الأثر فى التجارة ونشاطها ، وذلك بما قدموه فى هذا الإتجاه من كتب ومصورات

---

(٩) انظر : ابن خرداذبه : المسالك ص ١٥٠ - قدامة ص ١٩١ - ابن حوقل : صورة الأرض ص ٢٧ - المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٥ - ابن شداد : الأعلاق جـ١ ص ٢٤ / ٥٩ /١٣١ - ابن الشحنة الدر ص ١٠٤/٧٩ - خير الدين الأسدى: أحياء حلب وأسواقها ٢٥/٢٤ .

(١٠) انظر : الشيبانى - الكسب ص ٦٥/١٠ - الجاحظ : البخلاء : ص ٣٠١.
آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ٣٧٣/٣٦٩ - أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٤٥٠ - أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ٢ ص ٢٤١ - زيود : حالة بلاد الشام ص ٣٦٩ .

وملاحظات قيمة فى وصفهم الممالك والأقاليم وتوضيح الطرق والمسالك وبيان المسافات وأوضحت هذه الكتب والمعارف مناطق السلع والمنتجات ولفتت الإنتباه بكل دقة للأهمية الاقتصادية لكل مدينة أو بلد ووضعوا خلاصة تجاربهم فى كتب علمية قيمة ، ويعد كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى خير مثال عنها[١١] .

كذلك كان للعرب الدور الإيجابى فى القضاء على الصراعات الدولية والحفاظ على المراكز التجارية وإزالة الحواجز الجمركية ، وكل ذلك عمل على النشاط التجارى ، كما عمل العرب على إقامة دولة عربية إسلامية كبيرة خدمت التجارة ، ووثقت كل ذلك بالعناية والإهتمام بالطرق التجارية البرية منها والبحرية ، وحمتها ، وسعت لصيانتها وإبعاد المخاطر عنها ، وكان الإهتمام بالطرق التجارية لهذه الفترة كبيراً ، حيث حفرت الأبار لمياه الشرب ، وأقيمت الأربطة والفنادق والخانات والأسواق الكبيرة ورفعت المنارات فى الثغور وبنيت الأساطيل والجسور والقناطر ، وكل ذلك عمل على تسهيل الحركة

---

(١١) يعد أهم هذه الكتب فى هذه الفترة : قدامة ابن جعفر (ت٣١٠هـ/٩٠٣م) وكتابه الخراج وصفة الأرض - والبلخلى (٣٢٢هـ/٩٣٤م) وله كتاب صورة الأقاليم - والهمذانى (ت٣٣٤هـ/٩٤٥م) وكتابه : صفة جزيرة العرب - والاصطخرى (حوالى ٣٤٠هـ/٩٥١م) وكتابه مسالك الممالك - ثم المسعودى (ت٣٤٥هـ/٩٥٦م) وله عدة كتب منها مروج الذهب ، والتنبيه والأشراف - ابن حوقل (ت٣٦٦هـ/٩٧٧م) وكتابه المسالك والممالك وصورة الأرض - والمقدسى : (حوالى ٣٧٨هـ/٩٨٨م) وكتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم - ثم البيرونى (٤٠٧هـ/١٠٤٨م) له عدة كتب منها الأثار الباقية على القرون الخالية وكتاب الهند ثم ناصر خسرو (٤٥٣هـ/١٠٦٤م) وكتابه سفر نامه - والبكرى (٤٧٨هـ/١٠٩٤م) وكتابه معجم ما استعجم والمسالك والممالك...إلخ.

التجارية....وكان من نتائج كل ذلك تضخم الأمور التجارية ووضوح الحاجة لظهور المؤسسات المصرفية والشركات التجارية ، وعمليات السفتجه والصكوك والحوالات وظهور وكلاء للتجار لهذه المؤسسات المصرفية والشركات التجارية في المراكز التجارية المهمة ، وهذا وذاك أدى لإنتشار الطمأنينة بين الناس وإلى نشاط الحركة التجارية في حلب وغيرها من المدن الشامية ، وتورد المصادر القصص الكثيرة حول استعمال السفاتج والصكوك وغير ذلك[١٢] من النظم التي اتبعت في هذه الفترة ، وهي تعطي الدليل الأكيد على النشاط التجاري وما رافقه من رقي وتقدم في النظم والسس التي دعمت التجارة وخدمتها .

ومن العوامل التي ساعدت على النهوض الاقتصادي وبخاصة التجاري اعتماد معظم الحكام العرب المسلمين سياسة التسامح مع أهل الذمة وإعفاؤهم من بعض القيود التي كانت تفرض عليهم في بعض الحالات الإستثنائية ، وظهر ذلك في ظل الدولة الحمدانية وبخاصة في عهد سيف الدولة الحمداني[١٣] (٣٣٣هـ - ٣٥٦هـ) (٩٤٤م - ٩٦٧م) .

---

(١٢) اليعقوبي : تاريخه ص ٥٩٠ - ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٩ - زيود المرجع السابق ص ٣٧٢/٣٧١، وانظر : المقدسي : أحسن : ص ١٦١ وناصر خسرو : سفر نامه ٦٠/٤٠ - سليمان إبراهيم العسكري: التجارة والملاحة في الخليج العربي ص ١١٦ - أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ٢ ص ٢٤١/١٠٧ - ابن القلانسي : ذيل ص ٣٢ - الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ص ٥١ . الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص ١٢١ .

(١٣) المقدسي : ص ١٥٠ - ابن حوقل : صورة ١٦٥/١٥٣/١٨٤/١١٥ سبط بن الجوزي :ص ١٧٥ - كنار : أخبار سيف الدولة ص ٢٠٤/١٥٤/١٥٠/١٤٩ - أحمد أمين : ظهر الإسلام ص ١١٥ - زيود / المرجع السابق ص ٤٥٢/٣٧٣/٣٧٢.

كما بالغ الفاطميون بسياسة التسامح الكبيرة مع اليهود والنصارى واستخدموهم فى أعلى المناصب الإدارية فى الدولة لا فى القاهرة إنما فى الشام أيضاً ، واقتفى آثار الخلفاء الفاطميين وتسامحهم الوزراء والولاة وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان وادى ذلك لتمتع البلاد بمستوى عال من التقدم والرخاء على الرغم مما تعرضت له المنطقة من مشكلات داخلية وخارجية....

العوامل المؤثرة سلباً فى التجارة :

هناك أمور كثيرة كانت ولا تزال تعيق التجارة والعمل التجارى يأتى على رأسها الإخلال بالأمن الناتج عن الحروب والأطماع الدولية والعسكرية والصراعات على المنطقة والمشكلات الكثيرة التى كانت تؤدى إلى عدم الإطمئنان وإلى نهب الأموال والممتلكات وخوف التجار على بضائعهم وأموالهم وبالتالى تعطيل السير على بعض الخطوط التجارية والبحث عن طرق آمنة طويلة وأكثر كلفة ، مما كان يؤدى إلى أضعاف النشاط التجارى وجموده(١٤) .

كما كان لظاهرة الإحتكار والمصادرات التى كثرت فى هذه الفترة الأثر الكبير فى التجارة ، وعملت على الحد من العمليات التجارية ، وهناك إشارات عديدة تذكرها مصادر الفترة تؤكد هذا التوجه وتشير إلى بعض الحكام الأخشيديين والحمدانيين والفاطميين(١٥) وغيرهم ، وتتهمهم بالطمع ومصادرة

---

(١٤) ابن حوقل:ص ٣٤/٣٥-الطبرى:جـ١٠ص١٠٣/١٢٢/١٢٤/١٣٥/١٣٧. - ثابت بن سنان وابن العديم:تاريخ القرامطة ص ٦٩/٩١-ابن العديم: زبده جـ٢ص٩٧- زيود:المرجع السابق ص٣٩٥/٣٩٦.

(١٥) الدورى:تاريخ العراق الاقتصادى:ص١٤٤/١٢٠-زيود ص ٣٩٨/٣٩٩.وانظر: التنوخى:نشوار المحاضر:جـ٢ ص١٦١/١٦٣-ابن سعيد المغرب:ص ١٥٥/١٨٦/١٩٧-ابن حوقل - صورة ص ١٦٣/١٦٥- مسكويه : تجارب الأمم جـ١ ص ٢١/١٤٥ - ابن العديم: زبدة جـ١ ص ١٠٥/١٨٠/١٨١.

الأموال والممتلكات . واحتكار بعض الموارد بغرض الإستفادة منها أثناء الأزمات الاقتصادية وغيرها من الملمات...

التجارة الداخلية :

كان النشاط التجارى الداخلى يتركز فى الأسواق التجارية ، ونشأت الأسواق التجارية فى حلب كغيرها من المدن الشامية المهمة منذ القديم وفى العصر الإسلامى أثر العرب تأثيراً كبيراً فى الأسواق التجارية ، ولم يكن للأسواق اسوار تحددها وإنما تركوها دون بناء وقد ذكر عمر بن الخطاب[١٦] "الأسواق على سنة المساجد" من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته ويفرغ من بيعه" ومع مرور الزمن أخذ العرب يهتمون بالأسواق ، وباختيار الموقع الملائم لها. وبمواد بنائها ، ومع بداية القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى بنيت الأسواق وسقفت الحوانيت بالأجر والجص ، وأصبحت غالبية الأسواق فيما بعد مغطاة واستعمل فى بناء الأسواق الحجارة تارة والخشب تارة أخرى ، وكانتت الأسواق فى المدن الشامية تتجمع فى مكان واحد أو ربما تمتد على جانبى الشوارع ، وفيما بعد أصبح يخصص لكل صنف من أصناف التجارة موقع خاص ، وقد سرى هذا النظام فى معظم المدن الشامية[١٧] ، وكانت كل طائفة من التجار تقيم فى قسم معين من هذه الأسواق وكانت الأسواق تقام فى أماكن مخصصة من المدينة ، وليس بين المنازل ، وكان التجار يمكثون فى هذه الأسواق إلى ما بعد الظهر ،

---

(١٦) أبو عبيد : الأموال : ص ١٢٢ - الطبرى : حـ٣ ص ١٤٩ - البلاذرى : البلدان ص ٣٦٦ .

(١٧) اليعقوبى: البلدان ص ٣١١-الطبرى: حـ٤ص٤٤-الشيزرى: نهايةالرتبةص ١١. البلاذرى : البلدان ص ٣٥٠ /٣٦٦- المقدسى : ص ١٣٤/١٣٨ - آدم متز حـ٢ص٣٨٠/٣٨٨ - جمال سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ١٤٢ .

كانتت الأسواق لا تخلو من جامع وفندق أو خان(١٨) ، ومن حمام أيضاً وسبيل ماء وكان للأسواق كما كان للطرق في الشام أوقاف خاصة بها تقوم على إصلاحها ورصفها .

كان ريف حلب وما يزال يمد أسواق المدينة بما تحتاجه فهو يقدم القمح وغيره من الغلال والمحاصيل المختلفة ، وكانتت حلب تستقبل السلع الواردة إليها من الريف والمناطق وبخاصة المحاصيل الزراعية ، بينما كانت المدينة تقدم الصناعات المعدنية والحلى والمجوهرات والصياغة والنحاس والمواد الأخرى المصنعة ولهذا كثيراً ما كان يوجد فى حلب سوق ريفية لها خصائص معينة منها أنها أرض خلال واسعة وسهلة الدخول والخروج للناس والدواب فى ساعة الأزدحام وأنها مكان لا يحس فيها إنسان أنه تحت(١٩) رحمة آخر ، وأنها تستعمل فقط على نحو غير دورى فذلك يخفف من تكاليفها .

وكما أشرنا عرفت الأسواق المتخصصة فى هذه الفترة وتجمع أصحاب الحرف فى أسواق متخصصة ، وكانت الدوافع كثيرة منها رغبة الصناع والجماعات الحرفية والمهنية فى كل مكان إلى التجمع فى مكان واحد لما بينهم من روابط حرفية ومصالح مشتركة من أجل حماية أنفسهم وتنظيم أمورهم . وربما تكون ضرورة الاشراف الحكومى على المهن والحرف عن طريق المحتسب هى التى دفعت الحكومات إلى إيجاد أسواق متخصصة لتسهيل عملية الرقابة على الأسواق

---

(١٨) آدم متز : الحضارة جـ٢ص٣٢٧/٣٦٣ - الأسدى : أحياء حلب ص ١١٨.

(١٩) بدور شالميتا : الأسواق فى المدينة الإسلامية ص ١١٠/١١٣(كمبردج١٩٨٣) زريق المعايطه : الأسواق فى بلاد الشام فى العصر العباسى ص ٢٤٩ - مؤتمر بلاد الشام الخامس إذار ١٩٩٠عمان - عرفان محمد حمور : أسواق العرب ص ٦٣/٩٥ - زيود حالة بلاد الشام ص ٤٠٢ .

وهذه الرقابة ربما ساعدت على بروز ظاهرة التخصص ، وكانت تسمية الأسواق وتخصصها متوقفين على نوع المواد التى تعرض فيها(٢٠) .

لهذا فقد تجمع أصحاب كل حرفة فى سوق واحدة فرعية صغيرة داخل السوق الكبير ، وغداً لكل تاجر وتجارة شارع معلوم لا يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف من غير صنفه ولا يختلط أصحاب المهن بغيرهم......(٢١) وربما تكون ضرورة الفرز بين الحرف المختلفة قد أدت إلى إيجاد الأسواق المتخصصة حتى لا تختلط البضائع النفسية بالبضائع(٢٢) الوضيعة والتخصص فى الأسواق وتنظيماتها كان البدايات الأولى لإنتظام ذوى الحرف فى هيئات ومنظمات أطلق عليها اسم الأصناف .

وكما كان لظاهرة تخصص الأسواق مزاياها الحسنة ، فقد كان لها مضارها ومن مزاياها سهولة(٢٣) الإشراف الحكومى والتنافس الشريف بين التجار وتمكن الشارى من الحصول على السلع الجيدة والرخيصة بعيداً عن الإحتكار والغش

---

(٢٠) الجاحظ : رسائل جـ٢ص١٦٩ - الطبرى : تاريخ جـ٧ ص ٦١٠ - ابن الأثير: الكامل جـ٧ ص ٣٠٦ - الشيزرى : نهاية ص ١١ - ابن عساكر : دمشق جـ٢ ص ٢٢٧ - ابن جبير : رحلة ص ١٨٨ .

(٢١) اليعقوبى : البلدان ص ١٤ - المقدسى : احسن التقاسيم ص ٨٧٤ - ياقوت جـ٤ ص ١٢٢ - ابن عساكر : جـ٢ ص ٢٢٧ .

(٢٢) الحسن بن عبد الله : أثار الأول فى ترتيب الدول ص ١٦٥ - الأصفهانى : الأغانى جـ٦ ص ٦٢ .

(٢٣) الشيزرى : نهاية ص ١١ - الراغب الأصفهانى أبو القاسم حسين بن محمد الراغب : محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء جـ٢ ص ٤٦٦ ، بيروت ١٩٦١- ابن عساكر : جـ٢ ص ٢٢٩ - الأدريسى : نزهة : جـ٦ ص ٦٤٧ - ياقوت : بلدان جـ٣ ص ٦٦ - زريق المعايطة : المرجع السابق ص ٢٤٩ .

والغلاء فى الأسعار غير الطبيعية فى اقصر الأوقات أما عيوب التخصص فى الأسواق فأهمها أن المشترى إذا ما رغب فى الحصول على بضائع متنوعة وسلع مختلفة عليه أن يجوب أسواقاً متعددة وإذا ما أراد الحصول على كل مبتغاه ، عليه أن يجوب اسواق المدينة كافة حتى يتمكن من جمع كل ما يحتاجه .

كانت الأسواق محلية ودائمة ولها أيام معينة فى الأسبوع أو أنها موسمية وأهمها ما كان يعقد فى مناسبات معينة كمواسم الحج حيث كان يجتمع فيها الأعداد الكبيرة من تجار الشرق والغرب مع القوام الصغيرة القادمة للزيادة والعبادة والحج إلى الأماكن المقدسة ، وهذه التجمعات كانت تشكل عوامل هامة لقيام الأسواق التجارية النشيطة ، كما كانت هناك أسواق موسمية تعقد فى موسم ورود التوابل والمنتجات الشرقية من بلاد الهند والصين لأسواق الشام والحجاز ومصر وهى تخضع لمواعيد هبوب الرياح الموسمية(٢٤) وتصل فى مواعيد سنوية محددة قد لا تتغير وتنشط بذلك حركة البيع والشراء والمعاملات وكانت الأسواق تسمى بأسماء من يشرف عليها أو بأسماء الأقوام التى وردتها وكان يراعى فى اختيار أسماء الأسواق أمور كثيرة منها تسميتها باسم يوم معين فى الأسبوع كسوق الحد وسوق الجمعة وسوق الخميس فى حلب لكل من النصارى والمسلمين واليهود فى حلب(٢٥) .

---

(٢٤) المقريزى: المواعظ جـ٢ ص ١٠٣ ، جـ٣ ص ٤٩/ ٥١/ ٥٢/ ١٥٩/ ١٦٦/ ١٦٧/ ١٦٨ - آدم متز جـ٢ ص ٣٢٥/ ٣٢٦ - نعيم زكى سليمان : طرق التجارة الدولية ومحطاتها فى العصور الوسطى ص ٢٨٠/ ٢٨٣ - الأسدى : أحياء ص ٢٢٩/٢٢٥ - زيود ص ٤٠٤ .

(٢٥) الأسدى : أحياء ص ٢٢٩/٢٢٥ - القلقشندى : الأعشى جـ٤ ص ٢٢٢ - ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٠ - نقولا زيادة : الحسبة والمحتسب فى الإسلام ص ٢٣ (يذكر سوق البربر فى الفسطاط) زيود : ص ٤٠٤/٤٠٢ .

ولا تزال بعض الأسواق فى معظم مدن بلاد الشام وغيرها تحتفظ بمثل هـذه الأسماء حتى الأن ، كما فى مدينة حلب وغيرها . وكانت أسـواق حلـب تمتلىء وتعمر دكاكينها فى يوم السوق(٢٦) ، ولم يقتصر نشاطها على بيع منتجاتها المحلية الدائمة والتى كانت تـرد مـن الريـف والمدينـة بـل نشـطت التجـارة ببيـع السـلع الأجنبية حيث كانت تصلها تجارة الشرق والغرب عن طريق البر والبحر .

وأشارت بعض المصادر إلى السـويقات فـى حلـب وغيرهـا والسـويقة هـى تصغير السوق وفى المعاجم أماكن عدة تسمى السويقه وذكـر منهـا سـويقة حـاتم وهذه كانت تسمى بالسهلية وتقع بـين سـوق أصـلان وسـويقه علـى ثـم سـويقة الحجارين وكان فيها حمام يدعى بحمام سويقة الحجارين...ثم سويقة علـى وكـان بها مسجد اسمه مسجد على "وفيـه قـبر يسـمونه علياً ، وفيهـا الزاويـة الجوشـنيه وعرفت بالجوشنيه لقربها من صناع الجواشن والدروع وقد كان هذا السوق تحتله صناعة السيوف والجواشن" قال الغزى عنها وهى"من أعظم محلات حلب الداخلة فى السور وأعظمها موقعاً وأكثرها اسواقاً وأروجها تجارة" . ولابـد مـن الإشـارة إلى أن الأسواق كانت مركـزاً تعقـد فيهـا الصفقـات السياسـية والمؤامـرات أيضـاً وكانت مجالاً للاتصـال والإختـلاط واقـتراح الآراء وكـانت تسـاعد علـى تقصـى الأخبار والتجسس ، ولهذا كانت الأسواق توضـع تحـت مراقبـة دقيقـة تغلـق بعـد الغروب ويمنع الناس من الدخول إليها والخروج منها(٢٧) .

---

(٢٦) فتحى عثمان : الحـدود الإسـلامية البيزنطيـة بـين الإحتكـاك الحربـى والإتصـال الحضارى ص ٢٣١ - نعيم زكى سليمان : الطرق التجارية : ص ٢٨٣ - زيود : ص ٤٠٥ .

(٢٧) الأسـدى : أحيـاء ص ٢٤٤ /٢٤٦/٢٤٧ - سـوفاجيه : حلـب ص ١٣٥ - الغزى : نهر الذهب جـ٢ ص ١٧٧ - فتحـى عثمـان : المرجـع السـابق ص ٢٣١ - حمـور : أسواق ص ٥٩/٤٧.

باختصار كانت أسواق حلب عامرة وجميلة وغنية ومتنوعة السلع والمنتجات ، وكانت مقصد التجار من كل حدب وصوب ونشطت التجارة فيها على الرغم من عوادى الأيام والحروب . وظهر نشاطها ومكانتها فى ظل كل من سيف الدولة الحمدانى وآق سنقر السلجوقى ، وقد تطورت هذه الأسواق والقيساريات التى غدت عريضة ورائعة واصبحت حوانيتها من خزائن الخشب البديع الصنعة وعلى هذا الأساس اتسعت التجارة ونشطت الحركة التجارية فى حلب على الرغم من أن فترات الهدوء لم تكن طويلة وظهر ذلك بإزدياد الأسواق والسويقات التجارية وتطور بناء القيساريات وزاد عدد اسواق حلب التجارية على الأربعين سوقاً ، ومن أهمها أسواق النطاعين فى شرق الجامع وسوق الطير العتيق وسوق العطارين العتيق وسوق العطر وسوق الخشابين وسوق الأساكفه ، والبز وسوق الماء وسوق البنائين ، ثم سوق التين وسوق الغنم وسوق السلاح والزجاجين وسوق الأعلى وسوق الفرائين وسوق القطانين وسوق التركمان ودار البطيخ ، ودار كورة البرانيه والعنب ودكة الرقيق وصبغ الحرير... ومن عجائب حلب سوق الزجاج وكذلك سوق المزوقين فيهما آلات عجيبة مزوقه ، وأيضاً كانت جميع المدن والضواحى والقرى المحيطة بمدينة حلب حافلة بالأسواق المتخصصة والتجارات الرابحة وكان الكثير منها يشكل مراكز هامة للقوافل التجارية القادمة(٢٨) . وهذه المكانة الهامة لحلب وهذه الثروة الهائلة تفسر اصرار نقفور فوكاس والإمبراطورية البيزنطية ومدى الإهتمام بحلب واعادتها للسيطرة البيزنطية وتجلى ذلك فى سنة (٣٥٩هـ / ٩٧٠م) حيث فرضت بيزنطة معاهدة

---

(٢٨) ابن شداد : الأعلاق جـ١ق١ص٢٩/١٩٦/١٩٧ - ابن الشحنه : الدر ص ٢١٧ - ابن العديم : زبده جـ٢ص٤٢٩/٤٢٥،جـ١ ص١٥٨/١٦٧/١٦٨ - ياقوت : معجم جـ٢ ص ٦٦، جـ٣ ص٦٦ - القلقشندى : جـ٤ ص ١٢٥ - الأسدى : أحياء ص٤٤٦ - ابن جبير : رحلته ص٢٢٥/٢٦٦/٢٦٧ - ابن القلانسى : ذيل ص١٢/١٤ - القفطى : تاريخ الحكماء - ترجمة ابن بطلان فى تاريخ الحكماء ابن بطوطه : رحلته جـ٢ص٩١.

مشينة على قرعوية(٢٩) المستبد فى حلب ، ونصت صراحة فى بنودها على التعاون التجارى مع الروم وتقديم مصالح بيزنطة على المصالح العربية الإسلامية ، وإخراج حلب من الدائرة الاقتصادية العربية الإسلامية ، وهكذا حصلت بيزنطة على ميزات تجارية وجعلت من حلب منطقة نفوذ فعليه ومن حاكم حلب المسلم مجرد تابع اقطاعى للإمبراطورية البيزنطية وغدت حلب منفذاً من المنافذ الرئيسية لتجارة بيزنطة مع العالمين العربى والإسلامى ، وغدت أهم قواعد التبادل التجارى مع فارس والمناطق الشرقية بدلاً من طرابيزون ولقت معاملة خاصة من بيزنطة .

التجارة الخارجية لحلب :

من أهم السلع المصدرة المواد الأولية وأهمها الخشب الذى كان يصدر إلى مصر بكميات كبيرة ، كما اشارت المصادر إلى وجود الحديد والنحاس فى مناطق متعددة وأهمها فى جبل جوشن(٣٠) القريب من حلب ، وقد استخدمت هذه المعادن فى الصناعات المعدنية التى أمتازت بها حلب وغيرها من المدن الشامية ، وكانت تصدر منتجاتها إلى مناطق مختلفة . كما عد الملح المستخرج من الجبول من المواد الهامة المصدرة إلى بعض مناطق الجزيرة وغيرها(٣١) .

---

(٢٩) وعن هذه الإتفاقية وبنودها انظر : ابن العديم : زبده جـ١ص١٦٧/ ١٦٨ - ابن حوقل : صورة ص١٩٦- ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص٦٠٤ - فتحى عثمان : الحدود ص٢٥٣ - زيود ص ٤٢٧ .

(٣٠) الأصطخرى : المسالك ص١٤٧ - ابن حوقل : صورة ص١٥٩/١٦٧ - المقدسى :ص١٧٢/١٨٤/١٤٨ - ابن العديم : بغية جـ١ص١٧٩ وورقة ١٦١ - ياقوت : معجم جـ١ص٤٢٦/٦٣١ ،جـ٢ص١٦٨ - ابن شداد : الأعلاق جـ١ق١ص١٥٢ - الفارقى: تاريخ أمد وميافارقين ورقة ١٢٩ ب - ابن كثير : البداية جـ٢ ص ١٩١.

(٣١) ابن شداد : الأعلاق جـ١ق١ص١٥٢ - ابن الشحنة : الدرص٤٧/٤٨ - ياقوت معجم جـ٢ص١٠٧.

الصناعات النسيجية :

كان للصناعات النسيجية الحريرية منها وغيرها الحريرية وتصديرها أهمية خاصة وكانت حلب كغيرها من المدن الشامية من أهم المراكز ، وكان لحلب شهرة خاصة بالصناعات النسيجية الحريرية ، وبخاصة فى العصر الحمدانى ، وكانت حلب من أهم المدن الشامية تصدر إلى العراق والمناطق الشرقية المنتجات الحريرية والقطنية من ديباج وخز وميازر وغيرها ، كما صدرت إلى مصر القطن مصنعاً ومواد خاصة وكانت منطقة الثغور تعمل نوعاً من الثياب كان يسمى الشفايا وهى مثل رفيع الدبيقى ، وكانت تحمل إلى كل بلد ، كما كانت المصيصة تعمل نوعاً من الفراء يحمل إلى جميع الآفاق ، وربما بلغ الفرو الواحد منها ما قيمته ثلاثون ديناراً(٣٢) .

أما الزجاج :

فكان صناعة راقية وعريقة ومتطورة فى حلب وغيرها من المدن الشامية وكان الزجاج الشامى والحلبى موضع الطلب حتى فى الأماكن البعيدة كالصين وأوربا وكان الزجاج والأدوات الزجاجية الجميلة من جملة المواد التى كان العراق

---

(٣٢) وعن النسيج وصناعته وتجارته فى حلب انظر : محمد زيود حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولونى حتى نهاية العصر الفاطمى ص١٩١/٢٠٠/٣٣٩ - والنشاط الصناعى والتجارى لبلاد الشام فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ص٢٢٤ مؤتمر بلاد الشام الخامس عمان ١٩٩٠ ، وانظر : ابن حوقل : المسالك ص١٠١/١٠٢ المقدسى أحسن : ص١٨٠/١٨١ - الثعالبى : يتيمه الدهر جـ١ص٣٤ - سعيد خليفه : تاريخ المنسوجات ص٩٥/٢٢٤ - ابن حوقل : صورة ص١٦٥/١٦٦ - ابن العديم : بغية ورقة ٣٩ط، جـ٢ص٥٠/٥١ - لومبار : الإسلام فى فجر عظمته ص٢١٣/٢٢٣ .

يستوردها من الشام ، كما صدر الزجاج الشامى إلى الشمال الأفريقى وبلاد الأندلس وبيزنطة ومناطق أوربه الغربية ، وزاد ذلك فى الفترة الصليبية ، كما أن الزجاج الحلبى اشتهر فى اليمن ، ولهذا فقد كان مصدر طلب هناك ، لشهرته وذاع صيت إنتاج الزجاج فيه وتصديره إلى مناطق مختلفة وبعيدة ، وكانت السوق الزجاجية القديمة والعريقة مقصداً للتجار وقبلة للأثرياء والهواة ، وكانت مصنوعات حلب الزجاجية تعد من أثمن الهدايا لميزاتها الفنية الراقية(٣٣) .

أما الورق :

فقد كانت صناعته فى حلب كثيرة ومشهورة بهذه الفترة أمتازت حلب فى إنتاجه وتصديره ، ونظراً لذلك فقد دعى حى من أحيائها باسم الوراقه حيث اقيمت معامل الورق هناك ، واستمر الورق الحلبى المصقول المتين محافظاً على شهرته حتى العصر الحديث...وصدر ورق الشام ومنها حلب إلى كل من مصر والعراق وبيزنطة(٣٤) ومن ثم إلى أوربا أيضاً ، ويجب أن نتذكر أنه من المآثر الهامة لبلاد الشام ومنها حلب على الغرب الأوربى نقل الورق إليه ، ومعلوم أن الأوربيين فى القرون الوسطى كانوا يكتبون على رقوق من الجلود الغالية الثمن ،

---

(٣٣) وعن الزجاج وصناعته وتجارته انظر : زكى حسن : كنوز الفاطميين ص١٥٦/١٧٤/١٧٨ – الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص٥٩ – لومبار : الاسلام ص٢١٩ – ديماند : الفنون الإسلامية ص٢٣٨/٢٣٩ – زيود : حالة ص٢٢٦/٢٣٣/٣٤٠ – المقدسى : ص١٨٠/١٨١ – أبو الفداء : تقويم ص٢٧٩ – الثعالبى : لطائف ص١٥٠/١٥٧ – العشى : الزجاج السورى ص٤٧ .

(٣٤) القلقشندى : الأعشى جـ٢ ص٤٨٧/٤٨٨ – كرد على : خطط جـ٤ص٢٢٣/٢٤٣ – لومبار : الإسلام ص٢٢٤ – المقريزى : السلوك جـ١ ق١ص٤٥ – خسرو : ص٢٨ – زيود :ص٣٧/٣٤٠ .

ومع تقدم الزمن أصبحت الرقوق نادرة وقليلة مما اضطر الرهبان إلى حك المؤلفات المكتوبة والقيمة لعظماء الرومان والأغريق ليكتبوا مواعظهم الدينية عليها ، ولولا العرب لفقدت أكثر المؤلفات الخالدة القديمة(٣٥) ويكفى أن نتذكر هذه المأساة ثم ننظر إلى فضل العرب فى هذا الميدان لندرك القيمة الكبيرة للعرب فى هذا المجال ومساهمتهم فى تطوير ركب الحضارة البشرية والنهضة الأوربية بشكل خاص .

أما المحاصيل الزراعية :

كانت الحبوب وأهمها القمح والشعير من أهم صادرات حلب إلى الجزيرة العربية وإلى العراق ، وكانت حبوب حلب تصدر أحياناً على شكل أكياس من الطحين تحملها المراكب التى تمخر نهر الفرات مخترقة قناة نهر عيسى إلى بغداد(٣٦) ومنها إلى بقية المدن العراقية .

وأما الزيتـــون :

فقد أشتهرت زراعته فى بلاد الشام ، وكانت منطقة حلب من المناطق المهمة بذلك ، ولهذا كان الزيت من أكثر السلع الزراعية التى تصدرها حلب إلى مصر والجزيرة العربية وإلى العراق والأقطار الشرقية وغيرها من الأقطار الأخرى ، كما كان يعمل من الزيت الصابون الذى كان يحمل إلى سائر البلاد المصرية والشامية والحجازية وإلى غيرها من جزائر البحر المتوسط ، وكان هذا الصابون من النوع الجيد ومن أنجح الصناعات ، وأشتهرت كل من حلب والرقة وبالس

---

(٣٥) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٦ – جان س – ريسلر : الحضارة العربية ص١٢٠ – لومبار : الإسلام ص٢٢٤ – جلال مظهر : الحضارة الإسلامية ص١١٠/١١١.

(٣٦) اليعقوبى : البلدان ص٢٥٠ – لومبار : ص١٩٢ – محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة ص١٥٠ .

وسرمين فى صناعة الصابون وتصديره إلى كل من ممالك الروم والعراق وديار بكر وغيرها(٣٧) .

أما الفســـتق :

فتعد حلب من اشهر مناطق زراعة الفستق فى العـالم ولكثرة زراعتـه فيهـا فإنه نسب إليها حيث عرف بالفستق الحلبى ، وانتجـت حلـب أشـهر الأصنـاف وأجودها ثمناً ، وعدت الإقليم المثالى لزراعة هـذه الشجرة ، كمـا امتـازت معـرة النعمان بزراعته ، وكانت تصدره إلى مصر ومناطق بلاد الشام كافة(٣٨) كما قيـل عن معرة مصرين إلى جبل السماق بلد التين والزبيب والفستق والسماق يخرج عن الحد فى الرخص ويحمل إلى مصر والعراق ويجهز إلى كل بلد .

وتذكر المصادر أن حلب كانت تصدر الفستق ، وكان غالى الثمـن خـارج حلب لذلك كان الأغنياء فقط هم القادرون على شرائه ، وكان ينقل على الجمال إلى مصر ، أما الأوربيون فكانوا يشحنونه عن طريق البحر إلى بلادهم حيث كـان يباع باسعار مرتفعة فى أوربا .

---

(٣٧) المقدسى :ص١٨٠/١٧٤/١٦٢ - الأصطخرى : المسالك ص١١٩/٥٨ - ابن العديم : بغية جـ٢ص٢٢، جـ١ص٣٩/٤٣ - ياقوت :جـ١ص٣٨٣/٥٦٧/٣٥٢، جـ٤ص٤٧٦ - ابن حوقل : صورة ص١٦٦/٧٣/٥٤ - لومبار : ص١٩٤ - الثعالبى : لطائف ص١٥٧ وثمار ص٤٢٢ - ابن شداد : جـ١ص١٥٣ - اليعقوبى : البلدان ص٢٥٠ - الجهشيارى : الوزراء ص٢٨٧ - كرد على : جـ٤ص١٨٣ - الكبيسى : أسواق بغداد ص١٩١/١٩٥/٢٥٠ - الغزى : نهر الذهب : جـ١ص١٢٥/٤٢ .

(٣٨) ابن العديم : بغية : ورقة ١٠ط١٦ط١٦٧،٤١ - كرد على : خطط جـ٤ ص١٨٣ - ابن الشحنة : تاريخ حلب ص٢٥٢/٢١٥ - ابن شداد : الأعلاق جـ١ص١٥٣ - زيود : حالة ص٣٤١ ومؤتمر بلاد الشام ص٢٣٤ .

العطور وصناعتها وتصديرها :

وهى من الصناعات التى اشتهرت حلب بصناعتها وتصديرها ، وكان يصنع فى حلب الورد واستخلاص الأدهان من النباتات والبذور والأزهار ، وكانت حلب عامرة بأزاهيرها ورياحينها ، وكان يستفاد من هذه العطور والدهون فى الطب وفى التقطير وفى التطيب أيضاً...وعرف عن حلب أنها كانت مختصة بماء الورد النصيبى الذى كان يستخرج من مدينة الباب وهى من أعمالها وقيل عنه لا يوجد فى الدنيا مثله وكان ينقل إلى مصر وغيرها وله بمصر شهرة خاصة ، ويستخدم فى التطيب ويعطى كذلك دواء فعالاً للمرضى(٣٩) .

وكان الثلج من المواد التى كانت الشام تقوم بتصديرها دون أن تذكر المصادر مكان التصدير حيث كان ينقل إلى العراق ومصر والجزيرة(٤٠) ، ولابد أنه صدر من حلب إلى العراق بطريق الفرات نظراً لسهولة ذلك .

كما أشتهرت الشام ومدنها كحلب وغيرها بتصدير الفواكه الطازجة والمجففة ، ومن أهمها مما ينتج فى حلب الأعناب والتين والمشمش والدراق والخوخ والجميز والرمان واللوز والجوز والبندق . وكانت هذه المواد تنمو فى حلب ومناطقها كأنطاكية ومنبج ومعرة النعمان وشيزر وحماه والقرى التابعة

---

(٣٩) القلقشندى : جـ٤ص٨٧ - ياقوت : معجم جـ٢ص٢٨٢/٢٨٦ ، انظر ديوان كل من الصنوبرى وكشاجم - ابن سعد : المغرب ص١٥٠/١٦٠ - النجوم الزاهرة : جـ٥ص٥٩ - ابن الشحنة : حلب ص٢١٥/٢٥١/٢٥٢ - المقدسى : ص١٧٥ - ابن العديم: بغية ورقة ٤ط .

(٤٠) المقريزى : الخطط جـ٢ص٣٦ - آدم متز : الحضارة جـ٢ص٢٤٨ - ناصر خسرو : سفرنامه ص١٥٨ - راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى ص٢٦٢ البيهقى : المحاسن والمساوئ ص٤٤٧ - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ١٢٦.

لها(٤١) ، كما كان الطلب على الفواكه المجففة الشامية كبيراً باستمرار وذلك لأن أنواعاً قليلة من الفواكه كانت تنمو فى المناطق المجاورة للشام كمصر والعراق والجزيرة العربية ، إضافة إلى أن إنتاج هذه الأقاليم كان محدوداً ولا يقارن بالإنتاج الصناعى الشامى ، ولهذا كان مصدر طلب فيها....

السلع المستوردة :

كان المستورد قليلاً إذا ما قيس بالمصدر ، ويمكن أن نذكر منه الكتان(٤٢). والمصنوعات الكتانية التى كانت حلب تقوم باستيرادها من مصر ، كما كانت حلب تستورد الثياب الفاخرة والنفيسة والمعمولة فى بعض مدن مصر التى امتازت بها وليس لها نظير ، وتباع كل زنة درهم بدرهم فضة ، ثم ما كان يدخل من هذه الثياب فى الطراز فكان يباع بقيمة وزنه مرات عديدة من الفضة ، ولوحظ أنه فى العصر الفاطمى ارتفعت وارتقت صناعة دور الطراز فى مصر وذاعت شهرة مصر بهذا النوع من المصنوعات(٤٣) .

كما اشتهرت مصر بإنتاج الصناعات النسيجية الكتانية والحريرية أيضاً وقامت بتصديرها إلى مختلف البلاد ومنها حلب ، وبخاصة الكتانية ، كما صدر

---

(٤١) انظر : زيود المرجع السابق ص١٢٢/١٣٠/١٤٣ ، وانظر أيضاً المقريزى : الخطط جـ٢ ص٤٥٤ - المقدسى :ص١٧٤/١٨٠/١٨١ - ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص٨٥ - البكرى : المغرب ص٢٠ - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص٦١٦ تاريخ الإسلام جـ٢ ص ٣١٧ .

(٤٢) لومبار : الإسلام ص٢١٢/٢١٣ - زيود : ص٤٧٧ .

(٤٣) المقريزى : الخطط جـ١ص١٦٣/٢٦٦ - لومبار : ص٢١٢ - ابن حوقل: ص١٠٥ - زيود : ص٤٧٧/٤٧٨.

الكتان كمادة خام أيضاً إلى حلب وغيرها من المدن الشامية ، وكانت مصر تصدر الصناعات الجلدية لتقدم صناعتها ، ولهذا فقد كانت الشام تستورد أنواع الأنطاع والكمرانات ، وخرائط الجلد والسيور والقسى وغيرها من الصناعات الجلدية المختلفة....أما العراق فكان تمرها أهم مادة مصدره للشام .

والخلاصة يؤكد البحث على نقاط كثيرة منها :

١ - أصالة أهالى حلب وقدرتهم على تجاوز المحن والخطوب ، والخروج من الملمات بأقل زمن ممكن .

٢ - موقع حلب المهم والاستراتيجى المميز ، وهذا ما جعلها محط الأنظار وقبلة القاصدين وهدف التجار ، ومحط رؤوس الأموال ، وكانت من المراكز المهمة والبوابات العربية الكبيرة على طريق الحرير .

٣ - كانت حلب متقدمة زراعياً ومتطورة صناعياً ، ونشطة تجارياً ، وفاقت غيرها من العواصم والحواضر العربية والإسلامية ، وكان يباع فى أسواقها وقيسارياتها أكثر بكثير مما كان يباع فى غيرها من المدن الكبيرة والهامة ، والتى كانت تفوقها عدداً فى السكان وكبراً فى المساحة .

٤ - أكدت المصادر على زيادة صادراتت حلب بالنسبة لوارداتها ، وهذا يجعلنا نستنتج أن ميزانها التجارى كان رابحاً جداً ، وكان ذلك مصدر غناها وتقدمها .

٥ - ثبت من الوقائع والأحداث التاريخية والعسكرية أن حلب استمرت لفترة طويلة تتحمل وزر الدفاع عن الأمة العربية والدولة العربية الإسلامية كما انعقدت الآمال والأحلام على قائدها العربى سيف الدولة الحمدانى قبيل منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . كذلك ترنو الآمال المخلصة الآن للشام

أيضاً ونضالها القومى من أجل السلام والحرب ، وبذلـك تتـأكد الحتميـة التاريخيـة القائلة إن الشام رمز قوة العرب ومنها يدعم السلام ويتأكد الكفاح .

وإذ نقول هذا لا نريد أن نحمل الأحداث التاريخية أكثر ما تستحق ولا نريد الخروج عن الموضوع فالحضارة والاقتصاد والنشاط التجارى خاصة لا يتحقـق إلا فى ظل الأمان والاستقرار المتبادل للجميع .

وكم نتمنى الاستفادة من التاريخ ودروسه وعبره .

والله ولى الأمر والتوفيق ،،،

" التجارة فى أفريقية فى عصر الأغالبة "

(١٨٤هـ - ٨٠٠م / ٢٩٦هـ - ٩٠٨م)

الدكتور عبد الحميد حسين محمود حموده

مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

كلية التربية بالفيوم - جامعة القاهرة

مقدمة :

لم تنعم بلاد المغرب فى ظل السيادة البيزنطية بالاستقرار السياسى حيث انحصرت سيطرتهم على الشريط الساحلى للبلاد، وكان جل همهم سلب ثروة البلاد وائف سكان المغرب تلك السياسة، فرحبوا بالفتح العربى لبلاد المغرب سنة ٢٢هـ / ٦٤١ - ٦٤٢م، والذى استمر حتى سنة ٩١هـ / ٧١٠م لأسباب تتعلق بالظروف الطبيعية فضلاً عن طبيعة البربر إلى جانب الأحداث التى شهدتها عاصمة الخلافة فى عصر الراشدين وبنى أمية.

وعجلت الحرب التى قامت بين العرب والبربر بتدهور الأوضاع الاقتصادية، فضلاً عن تصرفات الكاهنة زعيمة البربر التى أحرقت البنية الاقتصادية للبلاد، بهدف طرد العرب، فأرتكبت خطأ فادحاً فى حق الحضارة الإنسانية، لا يمكن أن يغتفر لها.

و لم يستسلم العرب لمقاومة البربر بل واصلوا فتوحاتهم إلى ساحل المحيط الأطلسى، ونجحوا فى استمالتهم إلى جانبهم، واعتنقوا الإسلام فكانوا ساعد العرب الأيمن فى فتح الأندلس، وعلى الرغم من جهود موسى بن نصير فى فتح المغرب والأندلس فقد قوبل بالنكران من قبل الخلافة الأموية واستدعوه إلى دمشق ليعطوه الجزاء بالضرب والتنكيل.

وبعودة موسى بن نصير إلى دمشق تبدأ صفحة جديدة فى تاريخ البلاد، تعرف بعصر الولاة (٩٢ - ١٨٤هـ) حيث عانت البلاد الأمرين، باشتعال نيران الفتنة بين العرب والبربر، وظهور الخوارج على مسرح الأحداث.

وبسقوط خلافة بنى أمية سنة ١٣٢هـ دانت بلاد المغرب بالتبعية إلى الخلافة العباسية وفشلت جهود العباسيين لوقف نزيف الفتن بالمغرب، ومما زاد الموقف خطورة فرار الأدارسة إلى المغرب الأوسط فوصلوا إلى مدينة تلمسان، وشعر العباسيون بالخطر ازاء تلك التطورات، فلم يقفوا مكتوفى الأيدى فلجاؤا إلى سياسة الكيد فدبروا مؤامرة لقتل أدريس بن عبد الله للقضاء على تلك الدولة التى مازالت فى طور التكوين، ونفذ تلك الجريمة النكراء أحد أعوان البلاط العباسى المعروف بالشماخ.

وعلى الرغم من ذلك واصل الأدارسة تدبير أمورهم بنجاح، فبات أمر المغرب من أهم الأمور التى تشغل بال رجال السياسة فى البلاط العباسى، فوقع اختيارهم على والى أقليم الزاب إبراهيم بن الأغلب، الذى قام بمناورة عندما طرد الأهالى عامل العباسيين محمد بن مقاتل العكى، فانتهز ابن الأغلب الفرصة ليظهر على مسرح الأحداث فزحف إلى القيروان وأعاد محمد بن مقاتل العكى.

وباعتراف الخليفة هارون بن الرشيد بولاية ابراهيم بن الأغلب على بلاد المغرب، وتوارث أبنائه الحكم من بعده تبدأ صفحة جديدة مشرقة ناصعة البياض فى تاريخ البلاد بقيام دولة الأغالبة التى حكمت من سنة ١٨٤هـ حتى ٢٩٦هـ. وأعاد الأغالبة سطوة الخلافة العباسية فى الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط، وأنزلوا ضربات موجعة للروم فى عقر دارهم بغزوهم لصقلية، ووقفوا بالمرصاد

لمحاولة الأمويين بالأندلس المتكررة بشن غاراتهم على سواحل أفريقية ومنعوا توغل الأدارسة صوب المغرب الأوسط.

وقد خصصت هذا البحث لدراسة النشاط التجارى بأفريقية فى عصر الأغالبة، ومما دفعنى إلى ذلك أن الأغالبة منذ توليهم مقاليد الأمور رفعوا شعار الأعتماد على النفس، وبذلوا قصارى جهدهم لتقوية البنية الاقتصادية، فاهتموا بالزراعة وشيدوا المواجل لحفظ المياه، وشجعوا الفلاحين وظهرت نتائج تلك الثورة الخضراء واضحة المعالم فى الشريط الساحلى الذى نال أعجاب اليعقوبى الجغرافى المعاصر للأغالبة الذى زار البلاد انذاك.

كما دخلت المدن الأفريقية فى منافسة قوية مع مدن العالم الأخرى فى المجال الصناعى، فانتجت المصانع الأفريقية كافة أنواع المنسوجات التى اشتهرت بجودتها، فضلاً عن صناعة الزيوت.

وتعرضت فى بحثى إلى عوامل ازدهار النشاط التجارى، وإلى أهم مراكز التجارة الداخلية، وإلى الأسواق ونظامها ودور المحتسب فى الرقابة على الأسعار، وإلى الموازين والمكاييل ثم القيت الضوء على عملات الأغالبة التى ضربت من الذهب الخالص والفضة ثم أشرت إلى المنشآت التجارية وإلى طرق التجارة الداخلية.

وخصصت القسم الثانى للتجارة الخارجية فأشرت إلى مراكزها وطرقها وإلى علاقات أفريقية التجارية مع العالم الخارجى .

المدخل الجغرافى لأفريقية :

كانت تمتد ولاية أفريقية(١) فى العصر الرومانى من لبدة(٢) شرقاً إلى المسيلة(٣) غرباً وفى التعديل الذى أدخله موريق مد الحد الشرقى إلى صرت(٤).

وعندما أذعنت أفريقية للسيادة الإسلامية كانت حدودها تمتد من طرابلس شرقاً إلى طبنة(٥) غرباً.

---

(١) اختلفت المصادر العربية فى قراءة كلمة أفريقية فيذكر ياقوت الحموى "أن أفريقية بكسر الهمزة" (معجم البلدان ، حـ ١ ، دار صادر ، بيروت ، ص ٢٢٨) بينما يذكر أبو الفداء "أن أفريقية بفتح الألف وسكون الفاء وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة من تحت وكسر القاف ومثناة من تحت وفى أخرها هاء" .(أبو الفداء:تقويم البلدان،باريس١٨٤٠م،ص ١٢٦).

(٢) لبدة مدينة بين برقة وأفريقية وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة .

(ياقوت:معجم البلدان ، حـ ٥ ، ١٠) وهى كثيرة النخيل والزيتون تسكنها قبائل هوارة.

(الإدريسى : نزهة المشتاق ، الجزء الأول ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ص ٣٠٨) .

(٣) مدينة بالمغرب الأوسط (الإدريسى : نزهة المشتاق ، حـ ١ ، ص ٢٥٤) شيدها أبو القاسم بن عبيد الله الشيعى سنة ٣١٣هـ / ٩٢٥م.

- (البكرى : المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ص ٥٩) .

- المراكشى : الأستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، جامعة الأسكندرية ١٩٥٨م ص ١٧٢ . بينما يذكر ياقوت أن المدينة شيدت سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧م.

- ياقوت:معحم البلدان ، حـ ٥ ، ص ١٣٠ ، أبو الفداء : تقثويم البلـدان ، ص ١٣٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى، حـ ٥ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ص ١٠٧ .

(٤) تقع مدينة صرت على ساحل البحر المتوسط .

(اليعقوبى : البلدان ، ليدن ١٨٩١م ، ص ٣٤٤. البكرى : المسالك ، ص ٦

- المراكشى : الأستبصار ، ص ١٠٩ . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١٤٩) فى نهاية حدود برقة (اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٤٤) .

(٥) حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، المجلد الأول ، الدار السعودية للنشر ١٩٩٠م ؛ ص ١٩٦ طبنة هى أعظم مدينة بأقليم الزاب (اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٥٠) .

واختلف جغرافيو العرب فيما بينهم فى تحديد موقع أفريقية فيذكر البكرى(٦) (ت ٤٨٧هـ) وينقل عنه الدمشقى(٧) (ت ٧٢٧هـ) وابن أبى دينار(٨) "أن حد أفريقية طولاً من برقة إلى مدينة طنجة وعرضاً من البحر الرومى إلى الرمال أول بلاد السودان".

بينما يحددها ياقوت(٩) (ت ٦٢٦هـ) بقوله "أفريقية اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية. وينتهى أخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس والجزيرتان فى شماليها وصقلية منحرفة إلى الشرق والأندلس منحرفة عنها إلى جهة المغرب من الشرق إلى الغرب) .

أما القزوينى(١٠) يحددها بقوله "كانت أفريقية قديماً بلاد كثيرة والأن صحارى مسافة أربعين يوماً بأرض المغرب".

ويطلق على المغرب(١١) الأدنى لفظ أفريقية أو بعبارة أخرى على ما يقابل الآن القطر التونسى ونصف ولاية قسطنطية

---

(٦) المسالك والممالك ، ص ٢١ .

(٧) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، بطرسبورج ١٨٦٥م ، ص ٢٣٤ .

(٨) المؤنس فىأخبار أفريقيا وتونس،تحقيق محمد تمام،الطبعة الثانيةتونس١٩٧٦م .ص٢٠.

(٩) معجم البلدان ، حـ ١ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(١٠) أثار البلاد وأخبار البلاد ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٩م ، ص ١٤٨ .

(١١) يشمل المغرب كل ما يقع غرب مصر وقد قسمه العرب إلى ثلاثة أقسام هى :

- المغرب الأدنى : كان يطلق على ولاية أفريقية وسموه بالأدنى لأنه أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة .

- المغرب الأوسط : سمى بالمغرب الأوسط لتوسطه المغربين الأدنى والأقصى .

- المغرب الأقصى : سمى بالأقصى لأنه أبعد الثلاث عن دار الخلافة فى صدر الإسلام .

بالجزائر(١٢) وفيما يختص بحدود أفريقية فيحدها من الشمال البحر المتوسط(١٣)، أما الحدود الشرقية والغربية والجنوبية تحتاج إلى تحديد معالمها نظراً لما يكتنفها من غموض.

فاعتبر بعض الجغرافيين العرب مثل عبد الواحد المراكشى(١٤) أن برقة هى الحد الشرقى لأفريقية ويؤيده فى هذا المراكشى(١٥) والدمشقى(١٦) ويزيد هذا الأمر وضوحاً ما ذكره أبو الفداء بقوله "...... أفريقية وتمتد إلى برقة إلى حدود ديار مصر"(١٧).

وهناك بعض الروايات تجعل من أقليم طرابلس الحد الشرقى لأفريقية فيذكر الأصطخرى(١٨) (المتوفى فى النصف الأول من القرن

= السلاوى:الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، القاهرة ١٣١٢ هـ ، ص ٣٣ - ٣٤.
الجزناءى : زهرة الأس فى بناء مدينة فاس ، المطبعة الملكية الرباط ١٩٦٧م ، ص ٤ .
السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، الطبعة الثانية ، مؤسسة شباب الجامعة الأسكندرية ١٩٨٢ م ص ٤١ .

(١٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، الجزء الثالث ، تحقيق أحمد مختار العبادى وأخرين ، الدار البيضاء ١٩٦٤م ص ٢ هامش(٢) .

(١٣) حسنى إسماعيل مبارك : التطور الاقتصادى لولاية أفريقية فى عهد الأغالبة، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٨٩م ص١٢.

(١٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ضبطه وصححه محمد سعيد العريان وآخرين ، القاهرة ، ص ٣٤٧ .

(١٥) الاستبصار ، ص ١١١ .

(١٦) نخبة الدهر ، ص ٢٣٤ .

(١٧) تقويم البلدان ، ص ١٢٢ .

(١٨) المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٣٣ .

الرابع الهجرى) "أما طرابلس الغرب فهى من عمل أفريقية" أما ابن حوقل(١٩) المتوفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى فيذكر قوله "فأما طرابلس فكانت قديماً من عمل أفريقيا وسمعت من يذكر أن عمل أفريقية لما كانت طرابلس مضافة إليها معروف معلوم".

أما المراكشى(٢٠) يبدوا أنه يناقض نفسه حيث أشار إلى برقة هى حد أفريقية وتارة أخرى يذكر أن "أول مدن أفريقية طرابلس" بينما يذكر ياقوت(٢١) بقوله "طرابلس أيضاً مدينة فى آخر برقة وأول أرض أفريقية".

ويشير القلقشندى إلى أن حد أفريقية الشرقى يتمثل فى آخر حدود طرابلس(٢٢).

واختلفت المصادر العربية حول الحد الفاصل بين أقليمى طرابلس وبرقة فياقوت(٢٣) يجعل من مدينة سرت آخر الحدود شرقاً فى حين يؤكد أبو الفداء(٢٤) والقلقشندى(٢٥) أن مدينة قصر أحمد هى الحد الشرقى لطرابلس "قصر أحمد معروف ... وقال ابن سعيد : وهو حد أفريقية من الشرق وحد برقة من الغرب وهى قرية صغيرة وحوله قصور نحو اثنى عشر ميلاً" وظل قصر أحمد الحد الشرقى لملك الأغالبة حتى نهاية دولتهم(٢٦) .

---

(١٩) صورة الأرض ، الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٦٧م ، ص ٦٨ .

(٢٠) الأستبصار ، ص ١١٠ .

(٢١) معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٢١٧ .

(٢٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٩٩.

(٢٣) معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٢٤) تقويم البلدان ، ص ١٤٧ .

(٢٥) صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ١٠٥ .

(٢٦) القلقشندى : صبح الأعشى هـ ٥ ، ص ١٠٥ .

- محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ٨٧ .

- حسنى إسماعيل مبارك : التطور الاقتصادى لولاية أفريقية فى عهد الأغالبة ،ص ١٤ .

أما عن الحد الغربى لأفريقية فى عهـد الاغالبـة مدينـة أربـة وهـى آخـر مـدن الزاب(٢٧) . وحدودها من الجنوب المنطقة الصحراوية التى تعتبر حاجزاً طبيعياً بين بلاد السودان، وبلاد الجريد التى تعتـبر آخـر أقـاليم أفريقيـة العمرانيـة علـى طـرف الصحراء(٢٨) .

وقد اختلف فى تبعية هذه الصحراء فـأبن أبـى دينـار(٢٩) يجعلهـا بدايـة بـلاد السودان فيذكر "وحد أفريقية .... وعرضها البحـر الشـامى إلى الرمـال التـى أول بلاد السودان فى حين يعتبرها صـاحب كتـاب الاستبصار فـى عجـائب الأمصـار حاجزاً بين أفريقية وبلاد السودان ويصفها بأنها "جبال من الرمال مـن المشـرق إلى المغرب"(٣٠) ويتفق مع ما أورده القلقشندى"(٣١) وحدهـا مـن الجنـوب الصحـراء الفاصلة بينها وبين بلاد جناوة المسكونة بأمم من السودان".

ويمتد الحد الجنوبى شرقاً مقترباً مـن البحـر - فيتمثـل فيمـا يفصـل بـين أقليـم طرابلس وجبـل نفوسـة ظـل خارجـاً عـن نفـوذ الأغالبـة وخاضعـاً للرسـتمين(٣٢) وبذلك كانت السفوح الشمالية لجبل نفوسـة هـى الحـد الجنوبـى لاقليـم طرابلـس الذى يمثل الحد الشرقى لأفريقية فى عهد الأغالبة(٣٣) .

(٢٧) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٢٨) المراكشى : الأستبصار ، ص ١٥٠ .

(٢٩) المؤنس ، ص ٢٠ .

(٣٠) المراكشى : الأستبصار ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٣١) صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٩٩ .

(٣٢) جوليان : أفريقيا الشمالية ، تعريب محمد مزالى وآخرين،تونس ١٩٦٩م ، ص٢٥.
- حسنى إسماعيل مبارك : التطور الاقتصادى ، ص ١٧ .

(٣٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، الجـزء الثـانى ، منشـأة المعـارف الأسكندرية ١٩٧٩م ، ص ٤٨٩ .

وتنقسم ولاية أفريقية إلى ثلاث أعمال هى طرابلس وأفريقية والزاب .

وكان أقليم طرابلس فى العصر الإسلامى يشمل الأقسام الإدارية الرومانية الثلاث المعروفة صرت وطرابلس وصبرة ، ومد العرب حدود هذه الناحية إلى الجنوب فشملت جبل نفوسة،وكان العمران يمتد جنوبًا حتىأقليم فزان(٣٤) ولذلك شملت طرابلس العربيةأقليم فزان كله بحدوده الحاليةتقريبًا وجزءاكبيرًامن كوار(٣٥).

أما عن أفريقية فحدها الشرقى يبداء من قابس وينتهى غربًا عند بونة ومن مدن أفريقية تونس والقيروان وسبيبة(٣٦) وسبيطلة(٣٧) والكف والأريس(٣٨) وقسطيلية بمدنها تورز والهامة وتقيوس ونقطة وأقليم الجريد وقمونية أو قموده(٣٩)

أما الأقليم الثالث من أفريقية وهو الزاب(٤٠) ومن مدنه طبنه وباغاية وتنيجس وميلة وجيجل وسطيف وبلزمة وكقاوس ومدينة أجه واربة(٤١) .

---

(٣٤) تمتد حدود فزان فى المنطقة الواقعة بين الفيوم وطرابلس الغرب ياقوت : معجم البلدان ، حـ ٤ ، ص ٢٦٠ . البغدادى : مراصد الأطلاع ، حـ ٣ ، ص ١٠٣٥ .

(٣٥) حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، المجلد الأول ، ص ١٩٧ . كوار من بلاد السوادن جنوبى فزان (ياقوت : معجم البلدان ، حـ٤ ، ص ٤٨٦) .

(٣٦) سبيبة من أعمال أفريقية من توابع القيروان.

ياقوت : معجم البلدان ، حـ ٣ ، ص ١٨٦ .

(٣٧) سبيطلة من مدن أفريقية القديمة تبعد عن القيروان سبعون ميلاً .

ياقوت : معجم البلدان ، حـ ٣ ، ص ١٨٧ .

(٣٨) تبعد الأربس عن القيروان ثلاث مراحل .

الأدريسى : نزهة المشتاق ، حـ ١ ، ص٢٩٢.

(٣٩) حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، المجلد الأول ن ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٤٠) نفسه ، ص ١٩٩ .

(٤١) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

ومما سبق يتضح أن أفريقية كانت تمتد من لبدة شرقًا إلى مدينة أربة غربًا والمنطقة الصحراوية جنوبًا والبحر المتوسط شمالاً .

عوامل ازدهار النشاط التجارى :

تضافرت عدة عوامل أدت إلى ازدهار النشاط التجارى بأفريقية إبان عصر الأغالبة وتتمثل فى الموقع الجغرافى وجودة المحاصيل الزراعية وشهرتها ببعض الحرف والصناعات بالإضافة إلى استتباب الأمن الذى يمثل حجر الزاوية لأى تقدم وسنلقى الضوء على كل منها على حدة :

١ - الموقع الجغرافى :

أتاح الموقع الجغرافى لأفريقية أهمية قصوى فى ازدهار النشاط التجارى فتقع على طريق التجارة العالمى الذى يسلكه تجار اليهود الراذانية الذين ياتون من مقاطعة بروفانس وأطلق عليهم المسلمون انذاك تجار البحر(٤٢) .

كما لعبت مدنها الساحلية كطرابلس وبنزرت وتونس وبونة دورًا ملموسًا فى مجال التجارة الداخلية والخارجية فى حوض البحر المتوسط وحفلت بحركة السفن المستمرة من كافة البلاد(٤٣) وكانت أفريقية تحظى بشبكة قوية من الطرق البرية التى تربطها بقلب الصحراء الكبرى والمغرب الأقصى ومصر .

وكانت الثروة الزراعية التى اشتهرت بها أفريقية من أهم عوامل ازدهار التجارة فحرص الأغالبة منذ توليهم حكم أفريقية على إعادة الأمن والهدوء إلى

---

(٤٢) ابن خرداذية : المسالك والممالك ، بغداد ١٨٨٩م ، ص ١٥٤ .
- ابن الفقيه : البلدان ، ليدن ١٣٠٢هـ ، ص ٢٧٠ .
(٤٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٦٩ .

البلاد فشعر المزارعون بنوع من الأستقرار النسبى الذى كانوا يفتقدونه منذ عهود طويلة(٤٤) .

فكان جل همهم زيادة مساحة الأراضى الزراعية حيث أشار اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) وهو جغرافى عاصر الأغالبة وزار أفريقية وأبدى دهشته لمظهر الخضرة وكثافة الأشجار فى المنطقة الممتدة ما بين قمودة(٤٥) وهى مسافة تقدر بمائة وخمسين كيلو متر(٤٦) .

ويأتى فى مقدمة تلك المحاصيل قصب السكر(٤٧) والقطن(٤٨) والقمح والشعير(٤٩) والنخيل(٥٠) والكتان(٥١)

---

(٤٤) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، الطبعة الثانية ، مؤسسة شباب الجامعة الأسكندرية ١٩٢٢م ، ص ٣٢١ .

Marais: La berberie Mus Lmaine et I' orient Au Moyen Age Paris 1946 p. 77.

(٤٥) اليعقوبى:البلدان، ص ٣٤٩ . السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٣٢١.

(٤٦) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٣٢١ .

(٤٧) كان يزرع قصب السكر بوفرة فى جبل نفوسة (الإدريسى : نزهة المشتاق حـ١ ، ص ٢٣ وقابس (ياقوت : معجم البلدان ، حـ ٤ ، ص ٢٨٩) وبسكرة (ياقوت : معجم البلدان ، حـ ١ ، ص ٤٢٢) .

(٤٨) قفصة مناطق زراعة القطن بأفريقية (الإدريسى:نزهة المشتاق،حـ ١ ، ص ٢٢٧٨).

(٤٩) كانت بونة من أهم مناطق إنتاج القمح والشعي.ر انظر ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٦.

(٥٠) انتشرت زراعة النخيل فى قفصة (الإدريسى : نزهة المشتاق ، حـ ١ ، ص ٢٧٨ .
- ياقوت : معجم البلدان ، حـ ٣ ، ص ٣٨٢ . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١٤٣
- الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٣٣٨) وجربة (الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٣٤) وبلاد الجريد (المراكشى : الاستبصار ، ص ١٥٧) .

(٥١) كان الكتان يزرع فى بونة (أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١٤١) .

والفـــول(٥٢) والحنـــاء(٥٣) فضـــلاً عـــن شـــهرتها بالفواكـــة كالرمـــان(٥٤) والعنـب(٥٥) والزيتـون(٥٦) والتفـــاح(٥٧) والفســتق(٥٨) .

كمـا أشـتد الطلـب علـى المنتجـات الصناعيـة بأفريقيـة الأمـر الــذى يجعلنـا نضعهـا فـــى اعتبارنـــا مـــن عوامـــل ازدهـــار النشـــاط التجـــارى آنـــذاك حيـــث اشـــتهرت بصناعـــة كافـــة المنســـوجات القطنيـــة بتونـــس(٥٩) والكتانيـــة

---

(٥٢) كان الفول يزرع فى باجة (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٣١٥) .

(٥٣) من مناطق زراعة الحناء قابس (المراكشى : الاستبصار ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ وقفصة (أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١٤٣) .

(٥٤) زرع الرمان فى تونس .

- ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٦١ . المراكشى : الأستبصار ، ص ١٢١ .

- القزوينى:آثار البلاد،ص ١٧٣وقفصة(المراكشى:الأستبصار، ص ١٥٣) وجبل نفوسة. (الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٢٧ - ٢٣٠) .

(٥٥) كان العنب يزرع فى قابس (المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٣٤ - المراكشى: المعجب ، ص ٣٤٩).

وقفصة (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٣٨٢) وتونس (ياقوت : معجم البلـدان ، جـ ٢ ، ص ٦١ - القزوينى : أثار البلاد ، ص ١٧٣) .

(٥٦) من أهم مناطق زراعة الزيتون قفصة (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٣٨٢، - الدمشقى : نخبة الدهر) وتونس (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٦٠) .

(٥٧) كانت جربة من أهم مناطق زراعة التفاح (الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٣٤) .

(٥٨) كانت قفصة من أشهر مناطق زراعة الفستق .

- البكرى : المسالك ، ص ٤٧ .

- ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٣٨٢ .

- المراكشى : الأستبصار ، ص ٣٨٢ .

(٥٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ١٠٢ .

بسوسة(٦٠) والحريرية فى قابس(٦١) والصوفية فى سوسة(٦٢) وقابس(٦٣) والقيروان(٦٤) .

وكذلك ازدهرت صناعة العسل فى طرابلس(٦٥) وبونة(٦٦) والزيوت التى يفد التجار إليها من سائر البلاد(٦٧) وصناعة الجلود التى برع فيها أهل المغرب(٦٨) وذاعت شهرة قابس بمدابغ الجلود التى تتميز بنعومة ملمسها(٦٩) وجلود الفنك

---

(٦٠) جوايتاين: دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوصى، الطبعة الأولى الكويت ١٩٨٥م ، ص ٢٣٩ .

- **Goitien** : A mediterranean Socity V.I. University Of California . Press Berkeley and Los Angeles 1967 p. 107 .

(٦١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٠ .

- **Goitien** : op cit V.L.P. 102 .

(٦٢) البكرى : المسالك ، ص ٣٦ . ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٢٨٢ .

- المراكشى : المعجب ، ص ٣٥٠ .

- إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، جـ ١ ، ص ٣٨٨ .

- رشيد عبد الله الجميلى : دراسات فى تاريخ الخلافة العباسية ، ص ٣٩١ .

(٦٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٠ .

(٦٤) عثمان الكعاك : الحضارة العربية ، ص ٧٣ .

ومحمد محمد زيتون : القيروان ودور هافى الحضارة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، دار المنار، القاهرة ١٩٨٨م ، ص ١٥٨ .

(٦٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٣٤ .

(٦٦) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٦ .

(٦٧) البكرى : المسالك ، ص ٢٠ .

(٦٨) إحسان حقى : المغرب العربى ، ص ٢٠٧ .

(٦٩) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٠ .

بتونس[٧٠] . كما اشتهرت - أفريقية بمعادنها كالفضة والحديد والنحاس والرصاص والكحل الخام التى ساهمت فى سد حاجات البلاد بها[٧١] .

وكان استتباب الأمن من أهم العوامل المباشرة فى ازدهار النشاط التجارى لأنه يمثل حجر الزاوية ليمارس التجار نشاطهم فى ظل مناخ يشعرون فيه بالإستقرار ولذلك أحكموا قبضتهم بيد من حديد على البلاد ويخبرنا ابن عذارى[٧٢] عن حالة البلاد أبان عهد إبراهيم بن الأغلب بقوله "لما ملك أفريقية قمع أهل الشر بها وضبط أمرها" .

كما أمن الأغالبة طرق التجارة من قطاع الطرق واللصوص وشرعوا فى بناء المحارس ونقاط التفتيش فأعادوا الثقة إلى التجار لممارسة نشاطهم[٧٣] .

---

(٧٠) الزهرى : الجغرافيا ، ص ١٠٨ .

(٧١) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٤٩ .

القزوينى : أثار البلاد ، ص ١٤٨ .

(٧٢) البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٩٢ .

(٧٣) ابن الثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ٥ .

- أدم متنر : الحضارة الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ٣٥٤ .

أولاً : التجارة الداخلية

١ – مراكز التجارة الداخلية :

ساهمت مراكز التجارة الداخلية فى رواج حركة التجارة ومن أبرزها قفصة وبنزرت وقابس وسوسة وباجة .

١ – قفصة :

كانت مدينة قفصة(١) من مراكز التجارة الداخلية فى عصر الأغالبة وقامت شهرتها فى النشاط التجارى على إنتاجها الزراعى من الفواكه(٢) والتمر(٣) الذى يصدر إلى القيروان(٤) والفستق الذى يصدر إلى سجلماسة(٥) والأندلس(٦) .

---

(١) قفصة من بلاد الجريد (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٣٨٢) .

– المراكشى : الاستبصار ، ص ١٥٠ – أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١٤٢ .

وتبعد عن قابس مسيرة ثلاث أيام (مراحل) (المراكشى : المعجب ، ص ٣٥٤ – ٣٥٥).

(٢) أبو الفداء:تقويم البلدان،ص ١٤٣. القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ١٠٧.

(٣) تشتهر قفصة بكافة أنواع التمر ومن أشهرها النوع المعروف بالكسبا الذى يتميز بكبر حجمه (المراكشى : الاستبصار ، ص ١٥٣) .

(٤) البكرى : المسالك ، ص ٤٧ . ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٣٨٢ .

(٥) سجلماسة من أهم مدن المغرب الأقصى تقع إلى الجنوب فى طرف بلاد السودان (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ١٩٢) .

– القزوينى : أثار البلاد ، ص ٤٢ . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١٣٧ .

– البغدادى : مراصد الأطلاع ، جـ ٢ ، ص ٦٩٢ .

– القرمانى : أخبار الدول وأثار الأول فى التاريخ ، عالم الكتاب ، بيروت ، ص ٤٥٤ شيدها مدرار بن عبد الله سنة ١٤٠هـ انظر لمزيد من التفاصيل .

– البكرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٨ – ١٤٩ .

– المراكشى : الاستبصار،ص٢٠١.القلقشندى:صبح الأعشى،جـ ٥ ، ص ١٦٣-١٦٤.

(٦) البكرى : المسالك ، ص ٤٧ . المراكشى : الاستبصار ، ص ٣٥٤ .

كما نالت مكانة مرموقة فى صناعة الأردية والطيالس والعمائم الصوف والصناعات الخزفية والزجاج(٧) .

٢ - **بنزرت** :

بنزرت(٨) مركز تجارى داخلى هام يقع على ساحل البحر المتوسط(٩) ، ومرسى مشهور لتونس(١٠) ، تحط بها مراكب التجار وزخرت بكافة الأسواق

---

(٧) المراكشى : الاستبصار ، ص ١٥٤ .

(٨) تقع بنزرت على خط طول ٥٣" ، ٩ شرقى جرينوتش وخط عرض ١٧' ، ٣٧ شمالاً وتشغل مكان المدينة الفينيقية هيردير تونس(دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٤ ، ص ٢٢٠).

وكانت بنزرت ثغرا يعتصم فيه المرابطين من هجمات الروم على مدن المغرب الساحلية (القزوينى : آثار البلاد، ص ١٥٩ - الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٣٥) .

وبها جامع وحمامات (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٥٠٠) .

وبالقرب من بنزرت بحيرة أسماك مشهورة بكافة أنواعه (ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٤ الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٨٨) .

- المراكشى : المعجب ، ص ٣٥٢ . المراكشى : الأستبصار ، ص ١٢٥ وتبعد بنزرت عن تونس مسيرة يومين.

ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٤٩٩ .

- المراكشى : الآستبصار ، ص ١٢٥ .

- البغدادى : مراصد الأطلاع ، جـ ١ ، ص ٢٥٥ .

(٩) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٤ .

- الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٨٨.

- ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٥٠٠ .

- المراكشى : الإستبصار ، ص ١٢٥ .

(١٠) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ١٠٥ .

والمرافق(١١) وترتبط بعلاقات تجارية مع كافة المدن الساحلية الأفريقية الأخرى(١٢).

٣ - قابس :

كانت قابس(١٣) من أهم مراكز التجارة الداخلية بأفريقية فى عهد الأغالبة وقامت شهرتها على خيراتها الوفيرة فى الفواكه(١٤) ، فكانت تمير القيروان بكافة أصناف الفواكه(١٥) إلى جانب مكانتها المرموقة فى مجال صناعة الحرير(١٦) ودباغة الجلود(١٧) والزيت الذى يصدر إلى سائر البلاد(١٨) .

ونالت قابس أعجاب الإدريسى(١٩) فامتدحها بعبارات رائعة بقوله "وهى حاضرة هذا الأقليم وقطبه وروحه وقلبه ومركز دائرته التى عليها يدور محيطه"

---

(١١) الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ .

(١٢) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، جـ ١ ، ص ٣٨٨ .

(١٣) تقع قابس على ساحل البحر المتوسط (اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٤٦ .
ياقوت:معجم البلدان،جـ٤،ص٢٨٩. البغدادى : مراصد الأطلاع ، جـ ٣ ، ص ١٠٥٤.
شيدها الرومان وهى محاطة بأسوار عالية (الوزان : وصف أفريقيا ص ٤٦٤ - ٤٦٥)
ويحيط بها خندق كبير يجرون إليه الماء عند الحاجة (البكرى : المسالك ، ص ١٧) .

(١٤) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

(١٥) البكرى : المسالك ، ص ١٧ . ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٨٩ .

(١٦) البكرى : المسالك ، ص ١٧ . الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .
- ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٨٩ . المراكشى : الأستبصار ، ص ١١٣ .

(١٧) ابن حوقل:صورة الأرض، ص ٧٠ . الإدريسى نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٧٩.

(١٨) الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ .

(١٩) نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

بينما يضعها التجانى(٢٠) من رحالة القرن الثامن الهجرى فى مكانة دمشق بقوله "فهى جنة الدنيا ودمشق الصغرى" وكانت تفد إليها السفن من كل مكان لحمل منتجاتها الزراعية والصناعية(٢١) .

٤ - سوسة :

سوسة(٢٢) مدينة شيدها الأغالبة سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠م(٢٣) ساهمت بنصيب كبير فى التجارة الداخلية ، ونشطت بها حركة التجارة فكانت أسواقها عامرة بالناس كثيرة المتاجر والمسافرين إليها قاصدون وعنها صادرون بالمتاع الذى يعدم قرينه من أنواع الثياب والعمائم المنسوبة إليها وهو جيد المتاع(٢٤) فضلاً عن اللحوم الطيبة والفواكه الكثيرة(٢٥) فكانت محط أهتمام التجار الذين يتدفقون

---

(٢٠) رحلة التجانى ، ص ٨٦ .

(٢١) البكرى : المسالك ، ص ١٨ . ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٨٩ .

(٢٢) سوسة مدينة كبيرة على سطح جبل مرتفع، يحيط بها سور شيده محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب سنة٢٣٦هـ ،ثم جدد سورها أخيه أبو إبراهيم أحمد بن الأغلب سنة ٢٤٩هـ، ومنها ركب أسد بن الفرات غازيًا جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ .

(التجانى: رحلة التتجانى، ص٢٥- ٢٦) وهنا يختلط الأمر على الوزان حيث ذكر أن سوسة من بناء الرومانى ولكن الثابت أن الأغالبة هم الذين شيدوا سوسة بما ورد فى كافة المصادر التاريخية . الوزان : وصف أفريقية - ص ٤٥٥ - ٤٥٦ وهى من حاضرة تونس ولها مرسى على البحر .

وخارج مدينة سوسة محارس وروابط للصالحين وهى ملجأ للصالحين (البكرى: المسالك، ص٢).

(٢٣) التجانى : رحلة ص ٢٦ .

(٢٤) الإدريسى : نزهة المشتاق جـ ١ ص ٣٠٣ .

(٢٥) البكرى : المسالك ص ٣٤ .

عليها(٢٦) من الشرق والغرب(٢٧) واتخذها الأغالبة مرفأ لأسطولهم بعيدًا عن غازات البيزنطيين على موانى أفريقية على الساحل الشمالى فجعلوها كما يذكر اليعقوبى(٢٨) "دار صناعة تعمل فيها المراكب البحرية" .

٥ - باجـــة :

تعد باجة من أهم مراكز التجارة الداخلية بأفريقة وقامت شهرتها فى النشاط التجارى على أنتاجها الزراعى، حيث تقع فى قلب مطقة زراعية فيحدثنا ابن حوقل(٢٩) عنها بقوله "بها من الغلات والزروع ما ليس بجميع المغرب" ومن منتجاتها الزراعية المشهورة القمح والشعير(٣٠) والحنطة(٣١) والتين الذى يصدّر إلى كافة البلاد(٣٢) ولا نغالى إذ قلنا أن باجة تعد بمثابة مخزن للغلال يمير كافة البلاد الأفريقية بحبوبها وخيراتها(٣٣) .

وحقق أهل باجة ثراء ملحوظًا من أشتغالهم بالتجارة فسجل لنا ابن حوقل(٣٤) وصفًا لتلك الحركة التجارية الرائجة بقوله "كثيرة الرخاء واسعة الفضاء غزيرة الداخل على السلطان وفرة الأرباح على تجارها والمزارعين بها" .

---

(٢٦) التجانى : رحلة التجانى ، ص ٢٦ .

(٢٧) المراكشى : الأستبصار ، ص ١١٩ .

(٢٨) البلدان : ص ٣٤٨ .

(٢٩) صورة الأرض ، ص ٧٤ .

(٣٠) نفسه ، ص ٧٤ .

(٣١) المراكشى : الأستبصار ، ص ١٦٠ .

(٣٢) الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٥١ .

(٣٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٣٤) صورة الأرض ، ص ٧٤ .

٢ - الأســـواق

ساعدت الأسواق التى كات تقام فى أفريقية على رواج حركة التجارة الداخلية إذ تتم فيها عملية البيع والشراء فى السلع التى يحتاج إليها الناس وعرفت مدينة القيروان نوعين من الأسواق . الأسواق الدورية التى تعقد فى يوم معلوم من كل أسبوع مثل سوق الخميس وسوق الأحد(٣٥) .

والنوع الثانى الأسواق المتخصصة بعرض سلع معينة كسوق العطارين الذى يضم كافة أنواع العطاره وسوق الرهادنة وسوق البرازين وسوق الصرافين وسوق الكتانيين وسوق الغزل وسوق السراجين وسوق الوراقين لبيع الرقق الجلدية وأدوات الكتابة(٣٦) .

أما سوق الصباغين فكان لصباغة الأقمشة والملابس وكان للصيارفة والسماسرة سوق وهو خاص بالعمليات المالية من أيداع وتحويل(٣٧) .

وتذكر أحدى الوثائق أن بعض الأسواق أستمرت لمدة عشرين يومًا وكان كثير من التجار المسافرين للخارج أثناء الصيف يمكثون فى فصل الشتاء فى القيروان ليبيعوا بضائعهم وقت فراغهم(٣٨) .

وكانت أسواق القيروان تقع فى وسط البلد تحيط بالمسجد ويعرف بالسماط الكبير وقد ورد فى وصفه بأنه عبارة عن شارع كبير أصطفت حوانيته

---

(٣٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
- حوريه عبد سلام : علاقات مصر ببلاد المغرب ، ص ١٩٩ .
(٣٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص٢٢٥ - ٢٢٦ .
(٣٧) حسنى إسماعيل مبارك : التطور الاقتصادى لولاية أفريقية ، ص ١٣٥ .
(٣٨) جوايتاين : دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية ، الطبعة الأولى ترجمة عطية القوصى ، الكويت ١٩٨٥م ، ص ٢٣٩ .

على الجانين "كان سطحًا متصلًا فيه جميع المتاجر والصناعات طوله من باب أبى الربيع وفى الجنوب إلى الجامع ميلان غير ثلث ومن الجامع إلى باب تونس ثلثا ميل(٣٩)" .

وكان هذا السوق محط أهتمام الأغالبة فشرعوا فى تنظيمة بما يتلاءم وأحجام السلع المختلفة فانشاء زيادة الله الأول ٢٠١ - ٢٢٣هـ / ٨١٧ - ٨٣٨م الصف الجنوبى من سوق الرهادنة - الأقمشة والملابس - وسميت بالحوانيت الجدد ونقل الناس من أسواقهم إليها(٤٠) .

وهناك بعض الصناعات والتجارات قد أبعدت أسواقها عن قلب المدينة مثل سوق الدجاج بجوار باب تونس وسوق الجمال بالقرب من باب سليم وسوق البرازين(٤١) أو التحاسين وكان مخصصًا لبيع واستئجار الخيول والبغال والحمير(٤٢).

وكذلك اقتضت الضرورة أن تقام بعض الأسواق خارج السور لأن متجاتها ذات رائحة تؤذى السكان كسوق الدباغين وسوق الفخارين وسوق الطوابين وسوق الحدادين(٤٣) .

وكان من الطبيعى بعد أن اتسعت المدينة أن تقام بها عدة أسواق تنسب إلى مؤسسيها الأولين كسوق دار الإمارة وسوق بنى هاشم المنسوب إلى صالح بن

---

(٣٩) البكرى : المسالك ص ٢٥ - ٢٦ .

حسنى إبراهيم إسماعيل مبارك:التطور الاقتصادى لولاية أفريقيةفىعهد الأغالبة ص ١٣٤.

(٤٠) اب الدباغ : معالم الإيمانن ، جـ ٢ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤١) حسنى إبراهيم إسماعيل مبارك : التطور الاقتصادى لولاية أفريقية ، ص ١٣٥ .

(٤٢) محمد المطلبى : تراجم أغلبية تونس ١٩٦٨م ص ٢١٦ .

(٤٣) حسنى إبراهيم إسماعيل مبارك : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

حاجب ابن هاشم وسوق إسماعيل الذى ينسب إلى إسماعيل بن عبيد الله الأنصارى المتوفى بالقيروان سنة ١٠٧هـ / ٧٢٥م وكذلك سويقة ابن المغيرة نسبت إلى عبد الله بن المغيرة الكوفى من كبار المحدثي الوافدين على القيروان(٤٤).

وكانت مدينة قابس تزخر باسواقها حيث أشار الإدريسى(٤٥) إلى حركة الرواج التجارى بقوله "وبقابس أسواق وعمارات وتجارات وبضاعات" وكانت تقع الأسواق فى ربض المدينة(٤٦) ويعرض فيها الفواكه والزيت والزيتون والصوف والحرير والجلود التى تدبغ وتصدر إلى سائر البلاد(٤٧) وكانت قابس تمير القيروان بمختلف أصناف الفاكهة وحفلت أسواق قابس بعرض المنسوجات الحريرية الرفيعة الشأن(٤٨) .

واشتهرت مدينة صفاقس بكثرة أسواقها(٤٩) وكان الزيتون والزيت من أهم السلع التجارية المعروضة بوفرة(٥٠) .

---

(٤٤) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقة التونسية ، مكتبة المنار ، تونس ١٩٦٤م ، ص ٦٠ - ٦١.

- حسنى إسماعيل مبارك : مرجع السابق ، ص ١٣٦.

(٤٥) نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

(٤٦) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٠ ، التجانى : رحلة التجانى ، ص ٨٧ .

(٤٧) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٠ .

(٤٨) ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ، ٢٨٩ .

(٤٩) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٠ .

- البكرى : المسالك ، ص ١٩ .

- الأدريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ .

- ياقوت : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٢٢٣ .

- البغدادى : مراصد الأطلاع ، جـ ٢ ، ص ٧١٧ .

(٥٠) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٠ .

كما حفلت تونس بكثرة أسواقها(٥١) وكان يعرض فى أسواق تونس الخزف الجيد(٥٢) والفواكه التى يحدثنا عنها القرمانى(٥٣) بقوله "وبتونس الفواكه التى لا نظير لها" كاللوز والرمان والتين والعنب(٥٤) إلى جانب الثياب الحريرية(٥٥).

واشتهرت مدينة قفصة بأسواقها العامرة(٥٦) وكان يعرض فيها منتجاتها الزراعية من الفواكه(٥٧) كالتين والعنب والتفاح فضلاً عن شهرتها بالفستق الذى نال إعجاب ياقوت فقال "وهى أكثر بلاد افريقيا فستقًا ومنها يحمل إلى جميع نواحى أفريقية والأندلس وسجلماسة" . بالإضافة إلى منسوجاتها الصوفية وصناعتها الخزفية والزجاجية(٥٨) والجلدية حيث اشتهرت بنوع من الجلود يسمى الأردى لصنع النعال(٥٩) .

---

(٥١) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٦١ . ابن أبى دينار : المؤنس ، ص ١٢ .

(٥٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٣ .

(٥٣) أخبار الدول ، ص ٤٤٠ .

(٥٤) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٦١ . المراكشى : الأستبصار ، ص ١٢١ .

- القزوينى : آثار البلاد ، ص ١٧٤ .

(٥٥) الزهرى : الجغرافيا ، ص ١٠٩ .

(٥٦) الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ١٠٧ .

(٥٧) معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٣٨٢ .

(٥٨) المراكشى : الأستبصار ، ص ١٥٤.

(٥٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ١٠٧ .

وكانت بسوسة أسواق حسنة[٦٠] تعرض فيها الثياب السوسية الرفيعة[٦١] ويصفها ابن حوقل[٦٢] بقوله "أسواق حسنة وفنادق وحمامات... وضياع جمة ووجوه جمة ووجوه من الجباية غزير وغلات واسعة" .

كما كان يعرض بأسواق سوسة الفواكه والتمر واللحوم السوسية الطيبة اللذيذة التى تميزت برخص أسعارها[٦٣] وانتعشت أسواق مدينة ويحدثنا عنها ابن حوقل[٦٤] بقوله "أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح متوسطة وفيها رخص وخصب موصوف" ومن السلع التجارية المعروضة بأسواقها الفواكه والقمح والشعير والغنم والصوف والماشية[٦٥] إلى جانب الالبان والعسل[٦٦].

وفى باشو من أقليم الجزيرة أسواق دورية تعقد فى يوم معلوم من كل شهر[٦٧]. كما حفلت مدينة طرابلس بالأسواق الجامعة[٦٨] يحدثنا عنها ابن حوقل[٦٩] بقوله "صالحة الأسواق وكان لها فى ربضها أسواق كثيرة " وكان

---

(٦٠) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٧٢ .
- أبو الفداء : تقويم البلدان، ص ١٤٥ .
- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥، ص١٠٣.
(٦١) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٣، ص ٢٨٢ .
(٦٢) صورة الأرض ، ص ٧٢ - ٧٣ .
(٦٣) البكرى : المسالك ، ص ٣٤
(٦٤) صورة الأرض، ص ٧٥ .
(٦٥) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٧٦ .
(٦٦) البكرى : المسالك، ص٥٥ .
(٦٧) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٧٣ .
(٦٨) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤، ص٢٥ .
(٦٩) صورة الأرض ، ص٦٩ .

يعرض فى أسواق طرابلس الفواكه الطيبة اللذيذة كـالخوخ والكمثرى فضـلا عـن الكحل الأسود والأبيض إلى جانب المنتجات الصوفية الراقية(٧٠) .

طرق البيع والشراء :

أما عن طرق البيع والشراء التى كانت تتم داخل هذه الأسواق فيحدثنا ابـن الأخوة(٧١) أنه "كانت لهم طرق عجيبة فى البيع والشراء فمنهم مـن يقـول بعتـك هذا الثوب على تبعنى ثوبك آو من يقول بعتك هذا الثوب بعشرة نـداً أو بعشرين نسيئة ومنهم من يبيع السلعة إلى أجل بجهول أو على موسم معين مثل قدوم الحـاج أو رأس السنة ".

ومن الوسائل التى كان يتبعها التجار أنه إذ دخل المشترى السوق أومر على دكان فأن من التجار من يناديـه ويغريـه ببضاعتـه بينمـا يكـون واقفـا أمـام دكـان آخر(٧٢) ويقول ابن الحاج "أن المساومة والمرابحة هما الوسيلتان المتبعتان بين البـائع والمشترى حيث يضع أحدهما يمينه فى يمـين الآخـر فـإذا قـال البـائع: بعـت وقـال الشارى أشتريت ترك كل يد صاحبه ويتم البيع والشراء(٧٣).

نظام الرقابة على الأسواق :

ساد نظام الرقابة على الأسواق فـى أفريقيـة قبـل الأغالبـة ولكنهـا اسـتقرت ورسخت فى عهدهم حيث حدث تطور على نظام الحسبة فكـان تقليـد المحتسـب

---

(٧٠) ابن حوقل: صورة الأرض ، ص ٦٩ .

(٧١) ابن الأخوة: معالم القرية فى أحكام الحسـبة، تحقيـق محمـد محمـود شـعبان ، الهيئـة المصرية العامة للكتاب القاهرة ص ٢١٣ .

(٧٢) ابن الحاج : المدخل إلى الشرع الشريف، الجزء الأول ، ص ٤٩ .

(٧٣) ابن الحاج : المدخل إلى الشرع الشريف، الجزء الثالث ، ص ٥١ .

من حق الأمراء كما كان متبعا من قبل فى حين كان دور القاضى ينحصر فى تزكية ذوى الكفاءة عند الأمراء(٧٤).

وكانت مهمة المحتسب النظر فى الأسواق لمنع الغش وتحرى الدقة فى سلامة الصنج والموازين والمكيال ويحرم من مزاولة مهنة التجارة من يتلاعب فى الموازين(٧٥).

وكان يراقب الأسعار كما أهتم بالمحافظة على النظام العام بداخل السوق(٧٦) فكان يأمر أصحاب الطرقات الضيقة بعدم الجلوس عليها ويحذرهم من بناء المصاطب أمام الدكاكين(٧٧).

وكان القاضى سحنون بن سعيد(٧٨) أول من نظر فى الأسواق من قضاة أفريقية فى عهد الأغالبة " فنظر

---

(٧٤) حسنى إسماعيل مبارك:التطور الأقتصادى لولاية أفريقية فى عهد الأغلبة ص ١٤١.

(٧٥) يحى بن عمران:النظم والأحكام فىجميع الأسواق،تونس١٩٩٧٥م. ص ٣١-٣٣.

(٧٦) يحيى بن عمران : المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٧٧) الشيرزى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العرينى القاهرة ١٩٤٦م ، ص ١١ .

(٧٨) هو أبو سعيدسحنون بن سعيد بن حبيب التنوخىأصله من مدينةحمص ببلاد الشام.

- القاضى عياض : ترتيب المدارك ، الجزء الرابع ، الرباط ، ص ٤٥ .

- ابن فرحون : الديباج المذهب فى أعيان المذهب ، القاهرة ١٣٢٣هـ ، ص ١٦٠ .

- السراج : الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ، الجزء الأول ، القسم الثالث ص ٧٦٨ ولد بالقيروان سنة ١٦٠هـ وتلقى العلم بأفريقية على يد زياد بن الفرات (حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، تونس ، ص ٨٥) وخرج فى عدة أسفار طلبًا للعلم فزار مصر سنة ١٧٨هـ/ ٧٩٣-٧٩٤م وبلاد الحجاز ثم عاد إلى أفريقية سنة ١٩١هـ/ ٨٠٦ - ٨٠٧م (القاضى عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٤٥ ، ٤٧).

فيمـا يصلـح مـن المعـايش وينفـى مـن الأسـواق مـا يسـتحق ذلـك(٧٩)".

ومما يدل على أهمية الحسـبة ودورها فى المجتمع الأفريقى إبان عهد الأغالبة فقد اجتهد بعض فقهاء القيروان فى وضـع مؤلفات تتناول مهمة الحسبة وتحديد واجبات المحتسب ومن هؤلاء يحيى بن عمران الذى توفى بمدينة سوسة عام ٢٨٩هـ / ٩٠١ - ٩٠٢ م حيث وضع مؤلفا باسم "أحكام السوق(٨٠)".

= - ابن الدباغ : معالم الإيمان ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .

- ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ٢٢ هامش (٢) .

واسند إليه قضاء أفريقية سنة ٢٣٤هـ / ٨٤٨ - ٨٤٩م فى ولاية محمد بن الأغلب (القاضى عياض ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٥٥، ٥٦م .

- المالقى:قضاة الأندلس، تحقيق لجنة أحياء التراث العربى ، دار الآفاق ، بيروت ص ٢٨.

- الزركلى : الأعلام ، جـ ٤ ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٤م ص ١٢٩ .

وهو صاحب المدونة التى أخذها عن أبى القاسم ووفاته المنية سنة ٢٤هـ .

ابن العماد: شذرات الذهب فىأخبار من ذهب،جـ٢ المكتبة التجارية ، بيروت ، ص٩٤.

اليافعى:مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ٢ ، ط٢. بيروت ١٩٧٠م . ص ١٣١ - ١٣٢.

(٧٩) القاضى عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٦٠ .

- محمد زينهم محمد عزب : فقيه أفريقية أبى سعيد عبد السلام بن سحنون ، رسالة دكتوراة آداب القاهرة ١٩٨٦م . ص ١١٠ .

(٨٠) يحيى بن عمران : أحكام السوق ، طبعة تونس ١٩٧٥م .

٣ - السلع والأسعار :

لم يدخر الأغالبة جهدًا فى إعادة الاستقرار والأمان إلى البلاد، فكانت ولايتهم على أفريقية إيذانًا بفجر جديد وصفحة مشرقة فى تاريخ البلاد السياسى والاقتصادى، بعكس ما كانت عليه حالة البلاد من كثرة الثورات والفتن، فانعكس الأضطراب السياسى على اقتصاد البلاد الذى يسير نحو الهاوية .

أما الأغالبة فاهتموا بتحسين أوضاع المزارعين، فلأول مرة يشعر الفلاح الأفريقى بالأطمئنان والثقة، وأدراك الأغالبة أن سر التطور الزراعى يكمن فى توفير كميات المياه المطلوبة للزراعة فبنوا البرك والصهاريج والمواجل، وأنعكس ذلك بنتائج طيبة فزادت رقعة البلاد الزراعية، فأمتدت الرقعة الزراعية على الشريط الساحلى إلى قمونية(٨١) .

---

(٨١) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٤٩ .

- د. حسن أحمد محمود وأحمد الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، الطبعة الخامسة، دار الفكر العربى، القاهرة د.ت ، ص ٤١٩ .

- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى االعصر الإسلامى ، ص ٣٢١ .

جدول يوضح حالة الرخاء الاقتصادى فى أسعار السلع
الزراعية واللحوم بأفريقية فى ظل سيادة الأغالبة

السلعة	الكمية أو المقدار	السعر	المكان
العمامة	واحدة	مائة دينار	سوسة[٨٢]
القمح	القفيز	خمسين درهمًا	تونس[٨٣]
الشعير	القفيز	أقل من خمسين درهمًا	تونس
الحنطة	أربعمائة رطل	درهم فضة	باجة[٨٤]
اللحوم الضأن	الرطل الأفريقى	درهم	تونس[٨٥]
الدجاجة	واحدة	درهمين	تونس
الزيت	الستين قفيز إلى مائة قفيز	دينار	صفاقس[٨٦]
اللحم	خمسة أمناء	درهم	القيروان[٨٧]

أما عن أسعار الفواكه فانخفض سعرها فى سوسة[٨٨] وقابس[٨٩] .

(٨٢) الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٣٠٣ .
- المراكشى : الاستبصار ، ص ١١٩ .
- ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٢٨٢ .
(٨٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ١١٥ .
(٨٤) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٣١٤ .
(٨٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ١١٥ .
(٨٦) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٠ .
(٨٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .
(٨٨) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٢٨٢ .
(٨٩) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٠ .

ولم تعان أفريقية من أزمات اقتصادية فى عصر الأغالبة سوى فترة حكم إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وبالتحديد فى سنة ٢٦٨هـ / ٨٨١ - ٨٨٢م حيث أشتد القحط، فأرتفع سعر القمح، وبلغ ثمن الفقيز ثمانية دنانير(٩٠) .

والراجح أن سبب هذه الأزمة راجع إلى عوامل طبيعية تتعلق بنقص الأمطار، مما أدى إلى نقص الإنتاج الزراعى، ولم تستمر هذه الأزمة سوى فترة قصيرة، وعادت البلاد بعدها إلى الإنتعاش والرخاء(٩١) .

٤ - الموازين والمكاييل

كانت الموازين والمكاييل من أهم وسائل التعامل بين الناس فى الأسواق ولخطورتها، فيمن يحاول التلاعب فيها بالغش والسرقة فقد جاء فى محكم كتابة متوعدًا أياهم بقوله تعالى : ﴿ويل للمطففين الذين إذا إكتالوا على الناس، يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾(٩٢) صدق الله العظيم .

وكانت الموازين السائدة فى أفريقية إبان عهد الأغالبة هى الرطل والأوقية فالرطل ست عشرة أوقية والأوقية هى مقدار أحدى وعشرون درهم من دراهمها(٩٣) وبلغ وزن الدرهم ٣,٢٥ جرام(٩٤) .

---

(٩٠) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ، تحقيق حسين نصار ومراجعة عبد العزيز الأهوانى الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص ١٣٠ .

(٩١) حورية عبده سلام : علاقات مصر ببلاد المغرب ، ص ٢٣٤ .

(٩٢) سورة المطففين : الآيات (١ - ٥) .

(٩٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ١١٤ .

(94) Goitien : A Mediterranean Socity V. I. p. 360 .

ويختلف مقدار الرطل من مكان لآخر، فكان رطل اللحم يساوى عشرة أرطال فلفلية بتونس(٩٥) .

ومن الموازين المستعملة بأفريقية المثقال(٩٦) والدرهم(٩٧) والصنجة(٩٨) والقنطار(٩٩) .

---

(٩٥) رشيدة بوروبية : الدولة الحمادية ، الجزائر ١٩٧٧م ، ص ١٤٧ .

(٩٦) المثقال أقدم وحدة للوزن عند العرب وهو يقابل Solidius عند الرومان ، وقد حعل المثقال ستين حبة وزن كل واحدة منها مائة حبة من حبوب الخردل البرى المعتدل . انظر الشيرزى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق ونشر السيد الباز العرينى ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٤٦م ، ص ١٦ ، هامش ٦ .

والمثقال لم يختلف مقداره فى الجاهلية ولا الإسلام وهو اثنتان وسبعون حبة من الشعير . ابن الرفعة : فى معرفة تحرير وزن الدرهم والدينار (مخطوط مصور بدار الكتب المصرية) تحت رقم ٣٥٩ رياضة تيمور ورقتان ٥ ، ٦ .

(٩٧) الدرهم مأخوذ من لفظ Drachme اليونانية وكان معروفًا فى الجاهلية مقدار بالدوانيق واختلف وزنه باختلاف العصور ثم حعله عمر بن الخطاب ستة دوانيق .

- الشيرزى : نهاية الرتبة ، ص ١٦ ، هامش ٦ .

ثم اعتبروها بالمثاقيل فتكون وزن سبعة مثاقيل على السواء .

ابن سلام : الأموال ، الطبعة الأولى ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ١٩٨١م ، ص ٢١٠ .

(٩٨) رشيدة بوروبية : الدولة الحمادية ، ص ١٤٧ .

(٩٩) القنطار حوالى مائة رطل .

- الشيخ الأمين عوض الله : تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربى وأثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادى ، ص ٩٣ مقالة من كتاب "تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر" المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، بغداد ١٩٨٤م .

وفيما يختص بوحدة المكاييل فى أفريقية فهى القفيز(١٠٠) السائد فى القيروان فكان مقداره ثمانى ويبات والويبة(١٠١) أربعة أثمان والثمنة ستة أمداد بمد(١٠٢) أوفى من مد النبى (صلى الله عليه وسلم) .

وبلغ مقدار قفيز الزيت ثلاثة أرطال(١٠٣) فلفلية ومن المكاييل التى استخدمها أهالى أفريقية فى كيلهم المطر، وهو كيل بلغت سعته خمسة أقفزة من الزيت(١٠٤) ، كما استخدموا الصفحة وهى أثنى عشر مدا(١٠٥).

---

(١٠٠) القفيز مقداره ٦٤ رطلا أو ٣٣ لترا أو ١٢ صاعا أو ٤٨ مدا أو ٨ مكاكيك ومقداره هو الويبة أى كيلتان من كيلنا الحالى .

- محمد ضياء الدين الريس : الخراج فى الدولة الإسلامية ، الطبعة الأولى نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٧ م ، ص ٣١٢ .

(١٠١) الويبة خمسة عشر منا والأردب ستة ويبات .

المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ .

Goitien : A Mediterranean Socity V.I. p. 361.

(١٠٢) المد رطل وثلث .

- ابن يوسف : الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة ، تحقيق حسين مؤنس مدريد ١٩٦٠ م ، ص ٨٣ .

- المقريزى : رسالة فى المكاييل والموازين ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٨٥ رياضيات ، المكتبة التيمورية ميكروفيلم ٣٨٦٧٦ ورقة ٦ .

- ابن الرفعة : فى معرفة تحرير الدرهم والدينار ، مخطوط رقم ١١ .

(١٠٣) الرطل مائة أربعة وأربعون درهما .

القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٤١ .

(١٠٤) البكرى : المسالك ، ص ٤٧ .

(١٠٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ١١٤ .

٥ – المعاملات المالية

كان الدينار الذهبى البيزنطى هو وحدة التعامل السائدة فى أفريقية حتى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) حيث أمر بسك الدينار العربى(١٠٦) وكانت العملة البيزنطية ينقش عليها كتابه باللاتينية وتزين برسوم الآباطرة وفى ولاية حسان بن النعمان(١٠٧) (٧٣ - ٨٦هـ) على بلاد المغرب أضاف على تلك العملة بعض التعديلات والنقوش الدينية الإسلامية .

---

(١٠٦) ابن يوسف : الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مدريد ١٩٦٠م ص٤٧.

– المقريزى: النقود الإسلامية ، تحقيق محمد السيد على، الطبعة الخامسة ، النجف ١٩٦٧م، ص١١.

– حسن محمود الشافعى : العملة وتاريخها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٠م، ص٨٧.

O'Godrington : Musalman Nunismatin London 1904 p. 12.

(١٠٧) أسندت ولاية أفريقية إلى حسان بن النعمان بعد مقتل زهير بن قيس البلوى على يد الروم أثناء عودته المشرق إلى فحزن عليه الخليفة عبد الملك بن مروان واختار حسان ابن النعمان بعد استشارة كبار الصحابة فكان حسان أول من دخل أفريقية من أهل الشام فى دولة بنى أمية.

المالكى: رياض النفوس، الجزء الأول، تحقيق حسين مؤنس ، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥١م، ص٣١.

وتمكن حسان بن النعمان من فتح قرطاجنة دار ملك أفريقية وأنزل الرعب فى قلوب الروم والفرنجة فهرعوا إلى صقلية.

(ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص٣١. ابن عذارى: البيان، جـ١، ص٣٥)

ويعلق الدكتور حسن أحمد محمود على النجاح الذى أحرزه حسان فى فتح قرطاجنة بأنه بمثابة تقدم ونمو للبحرية الإسلامية انظر.

ثم عربت بعد ذلك فى القيروان وغيرها من المدن المغربية الأخرى(١٠٨) وكتب عليها بسم الله الرحمن الرحيم وفى الوجه الثانى وحده لا شريك له ضرب بأفريقية(١٠٩) .

= حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية فى افريقية، الجزء الأول، ص٩٤ – ٩٥ وخاض حسان حرب قوية مع الكاهنة التى ملكت أفريقية بعد موت كسيلة ولكنه منى بهزيمة فى الجولة الأولى أنظر ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، نشر هنرى ماسية، ليدن ١٩٣٠م، ص٢٠٠.

البكرى: المسالك، ص٨، المالكى: رياض النفوس، حـ ١، ص٣٣.

– ابن الرقيق: تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق المنجى الكبى، تونس ١٩٦٧م، ص٥٦–٥٧.

– عبيد الله: نص جديد عن فتح العرب للمغرب، تحقيق ليفى بروفنسال، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، المجلد الثانى، مدريد ١٩٥٤، ص٢١٥.

– ابن الأثير: الكامل، حـ٤، ص٣٢. ابن عذارى: البيان، حـ١، ص٣٦. النويرى: نهاية الإرب، حـ٢٤ ص٣٦. ولكن حسان لم يستسلم للهزيمة فاعد العدة ووصله المدد من الخليفة عبدالملك بن مروان.

(١٠٨) عبدالمنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية، الجزء الأول، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٢م، ص١٨٣.

– محمد باقر الحسينى:تطور النقود العربيةالإسلامية،الطبعة الأولى،بغداد ١٩٦٩م ص٥٣.

– محمد محمد زيتون: القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية، ص١٥٤.

– طاهر راغب حسين: النقود الإسلامية الأولى، الكتاب الأول، الطبعة الأولى، مطبعة المدينةالقاهرة ١٩٨٤م، ص١٣٣ – ١٤٥.

(١٠٩) محمد محمد زيتون: المرجع السابق، ص١٥٤.

– محمد أبوالفرج العش: النقود العربية الإسلامية المحفوظة فى متحف قطر الوطنى، الطبعة الأوى الدوحة ١٩٨٤م، ص١٦٣.

وضربت بأفريقية دنانير مؤرخة بسنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠م كتب عليها لا اله إلا الله وحده محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق وعلى الوجه الأخر بسم الله الرحمن ضرب هذا الدينار بأفريقية سنة ١٠٢هـ.

كما وجدت عملات أفريقية ترجع إلى سنة ١٠٣هـ/ ٧٢١م (١١٠) وسنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م وسنة ١١٧هـ - ٧٣٥م وسنة ١٢٢هـ/ ٧٣٩م.(١١١).

وفيما يختص بعملات الأغالبة فلقد سكوا النقود الذهبية والفضية(١١٢) وهى الدينار والدرهم ثم الفلس .

١ - الدينار :

عندما اعترف الخليفة هارون الرشيد بولاية إبراهيم بن الأغلب كمؤسس لدولة الأغالبة بأفريقية أخذ على نفسه عهدا بإجراء اصلاحات اقتصادية واسعة المدى ومعالجة ما حل بالبلاد من الأضرار العظيمة فى فترة عصر الولاة حيث عانت البلاد من ثورات الخوارج فكان اقتصاد أفريقية يسير نحو الهاوية(١١٣).

والتزم إبراهيم بن الأغلب بالتخلى عن الأربعين ألف دينار التى كانت تدفعها مصر إعانة سنوية إلى بلاد المغرب، وتعهد بأن يرسل إلى بغداد ستين ألف دينار سنويا لبيت المال العباسى(١١٤) ومن أقدم الدنانير التى وصلتنا من عهد

---

(110) Walker: Catalogue of The Arab - By Zantine and post Reform umaiyad coins London 1950 p.99.

- Lowick: Islamic coins and trade in The Medieval world varbrum p.212.

(111) Walker: op cit p. 100.

(112) O 'Godrington: op cit p. 12.

(١١٣) أرشبيالد : القوى التجارية والبحرية فى حوض البحر المتوسط ترجمة احمد محمد عيسى، ومراجعة شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص١٩٣.

(١١٤) ابن الأثير: الكامل، حـ٥، ص١٠٤، ابن خلدون: العبر، حـ١،ص٤٢.

- حسن حسنى عبدالوهاب: ورقات عن الحضارة العربية، حـ١، ص٤٢٨.

- Jamil Abun-Nasr: A History of the Maghrib in The Islamic period London p. 54.

الأغالبة دينار مؤرخ بسنة ١٨٩هـ/ ٨٠٤ - ٨٠٥م فى ولاية إبراهيم بن الأغلب كتب عليه "محمد رسول الله غلب لا اله إلا الله وحده لا شريك له وعلى الوجه الأخير بسم الله ضرب هذا الدينر سنة ١٨٩ هـ محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله(١١٥).

وهناك عملات مؤرخة بسنوات ١٩١هـ/ ٨٠٦ - ٨٠٧م(١١٦) و١٩٢هـ(١١٧) واستمر ضرب الدنانير الذهبية فى ولاية أبى العباس(١١٨) عبد الله (١٩٧هـ - ٢٠١ هـ/ ٨١٢ - ٨١٩م) فوجد دينار من الذهب مؤرخ بسنة ١٩٧ هـ/ ٨١٢م(١١٩). واستمر ضرب الدنانير الذهبية فى ولاية أحمد بن

---

(115) Muhammed - Abul - Farage: Nonnales aglabdes Damas 1982 p.43.

- عبدالرحمن فهمى محمد: موسوعة النقود العربية، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٥م ص٨٢٩.

(116) Muhammed - Abu - Farage : op cit p. 60.

- Lavoix : catalog des Monnaies Musulnanes V. III Africa and Spain Paris 1887 p. 345 - 346.

(117) Muhammed - Abu - Lgarage : op cit p. 61.

(١١٨) أسندت ولاية أفريقية إلى عبدالله المعروف بأبى العباس سنة ١٩٦ هـ بعد وفاة والده وكان موجوداً بطرابلس وفرض عليه البربر حصاراً شديداً لمزيد من التفاصيل انظر :

- ابن عذارى البيان حـ١، ص٩٥، النويرى: نهاية الأرب، حـ٢٤، ص١٠٥-١٠٦.

- حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، الجزء الثانى، ص٢١٥ - ٢١٦.

- محمود اسماعيل عبدالرازق: الأغالبة سياستهم الخارجية، مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس ١٩٧٢م، ص١٨٤.

(119) Lavoix : op cit pp. 349 - 350.

Muhanned - Abu - 1 - Farage : ap cit p. 62

- عبدالرحمن فهمى محمد: مرجع سابق، ص٨٢٩، ٨٣٠.

الأغلب(١٢٠) (٢٤٢ - ٢٤٦هـ) وهناك دنانير مؤرخة ترجع إلى سنة (٢٤٤هـ - ٨٥٨ - ٨٥٩م) كتب عليها: غلب محمد رسول الله أحمد لا اله الا الله وحده لا شريك له(١٢١) وسنسوق نماذج على سبيل المثال لا الحصر من الدنانير الذهبية المضروبة بأفريقية أبان عهد الأغالبة فهناك دينار من الذهب مؤرخ بسنة ٢٥٠ هـ/ ٨٦٤ - ٨٦٥م(١٢٢) ٢٥٢هـ - ٨٦٦م، ، ٢٥٣هـ - ٨٦٧م، ٢٥٨هـ - ٨٧١م، ٢٦٠هـ(١٢٣)- ٨٧٣م، ٢٨٤هـ(١٢٤) ، ٨٩٧م ٢٨٩هـ(١٢٥) - ٩٠١م ٢٩٥هـ - ٩٠٧م، وفى ولاية زيادة الله ابن عبد الله (٢٩٠ - ٢٩٦هـ، ٩٠٢ - ٩٠٨م) أخر امراء الأغالبة بأفريقية(١٢٦).

٢ - الدراهم :

استعمل الأغالبة الدراهم فى تعاملهم المالى بأفريقية وأقدم درهم وصل إلينا من عهدهم مؤرخ بسنة ١٨٤هـ - ٨٠٠م مضروب فى مدينة العباسة وهناك على سبيل المثال دراهم ترجع إلى سنوات(١٢٧) ١٨٥ هـ/١ ٨٠م ،

---

(١٢٠) كانت ولاية أحمد بن محمد من أحسن فترات حكم الأغالبة بتونس فأحسن السيرة فى الرعية وأكثر العطاء للجند وبنى بأرض أفريقية عشرة ألاف حصن بالحجارة والكلس انظر: ابن الأثير، الكامل، حـ٥، ص٢٦٣.

(121) Lavoix : op cit p. 357.

(122) Lavoix : op cit p. 358.

(123) Lavoix : op cit p. 359.

(124) Lavoix : op cit p. 361.

(125) Lavoix : op cit p. 363.

(126) Lavoix : op cit p. 368

لمزيد من التفاصيل عن الدنانير الأغلبية ارجع إلى :

عبدالرحمن فهمى : موسوعة النقود العربية من ص ٨٢٩ إلى ٨٤١.

Lavoix : op cit p. V3.

(127) Abu - L - Farage : op cit p. 96.

١٨٦هـ(١٢٨)/٨٠٢م، ١٨٧هـ (١٢٩)/٨٠٢، ٨٠٣م ومن الجديــر بـالذكر أن الدراهم كانت تزين بالنقوش الدينية فى عبارات التوحيد فيكتب عليها اسم الـوالى ومكان الضرب. واستمر الأغالبة فى ضرب الدراهم لاستخدامها فى معاملاتهم اليومية إلى جانب الدنانير وهى على نوعين: درهم قديم وهو مخلوط من نحاس ودرهم جديد من الفضة والفارق بينهما أن كل عشرة دراهم قديمة تعادل ثمانية دراهم جديدة وقيمة العشرة دراهم القديمة تعادل دينار(١٣٠).

كما ضربت دراهم بأفريقية عندما ثـار منصـور بـن نصـر المعـروف بالطنبذى(١٣١). فى عهد زيادة الله الأول حيث استولى على القيروان وضرب بها دراهم من فضة كتب عليها أسمه تماثل دراهم الأغالبة فى الحجم والوزن ولكنه بدل كلمة (غلب) التى هى أشارة الأسرة الأغلبيه بلفظ (عدل) ثم غير اسم الأخير الأغلبى باسمه (منصور بن نصر) ومن النماذج التى وصلتنا درهم مـن فضة يرجع إلى سنة ٢٢٠هـ - ٨٢٥م مضروب فى القيروان التى تمكن الثائر منصور بـن نصر

(128) Abu - L - Farage: ob cit p. 97.

Lavoix: op cit p. 346.

(129) Abu - L - Farage : op cit p. 97.

(١٣٠) القلقشندى : صبح الأعش، حـ٥، ص١١٤.

(١٣١) خرج منصور الطنبذى بثورة سنة ٢٠٩هـ على زيادة الله فأرسل إليه قائده محمد بن حمزة بقوة مكونة من ثلاثمائة فارس للقبض على منصور الذى كان متواحداً بقصره بطنبذه وجرت محاولات الصلح قبل ذلك ترأسها وفد من قبل محمد بن حمزة يمثله قاض تونس وأربعون شيخاً، وتظاهر بالصلح ولكن عذر بهم وقتل عامل تونس إسماعيل بن سفيان بن سالم أحد أفراد البيت الأغلبى، وكسرت شوكة منصور وبسط سيادته على مدن باجه وسطفوره وأربس وزحف صوب القيروان وحاصرها لمدة أربعون يوماً وسرعان ما عادت عليه الدائرة ومنى بهزيمة قاسية.

- ابن الأثير : الكامل، ح٥، ص٩٩، ١٠٢.

من الاستيلاء عليها أكثر من أربعين يوما حيث طرده زيادة الله وأتباعه(١٣٢). كما وصل الينا درهم مؤرخ بسنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م من ضرب منصور بأفريقية(١٣٣).

ومن دراهم الأغالبه التى سكوها فى صقليه عندما غزاها القاضى أسد بن الفرات(١٣٤) ومن الدراهم التى وصلتنا من ضرب الأغالبه بصقلية درهم مؤرخ بسنة ٢١٤هـ/ ٨٢٩م كتب عليها لا إله إلا : محمد .. الله وحده... ابن الحوارى..لا شريك له(١٣٥) وهناك درهم آخر مؤرخ بسنة ٢٢٠هـ(١٣٦)/ ٨٣٥م.

كما ضربت دراهم للأغالبة فى مدينة بلـيرم(١٣٧) الصقلية سنة ٢٣٠هـ - ٨٤٤م كتب عليها لا اله الا الله وحده لا شريك له.. غلب .. محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم(١٣٨).

---

(١٣٢) حسن حسنى عبدالوهاب: ورقات عن الحضارة العربية، ص٤٣٠.

(133) Abu - L - Farage : op cit p. 46.

(١٣٤) هو ابو عبدا لله أسد بن الفرات بن سنان مولى بنى سليم ولد بحران سنة ١٤٢ هـ ويرجع أصله من مدينة نيسابور حاضرة خرسان ورحل إلى القيروان مع والده فى جيش محمد بن الأشعث وقام بعدة أسفار لطلب العلم (المالكى: رياض النفوس،حـ١، ص١٧٢ - ١٧٣) وأستند إليه ولاية القضاء سنة ٢٠٤ هـ فى عهد زيادة الله حيث أقر معه أبو عرز على القضاء المالكى: رياض النفوس، حـ١، ص١٨٥. الخشنى: قضاء قرطبة وعلماء أفريقية، ص٣٠٥.

- ابن عذارى: البيان، حـ١، ص٩٧.

(135) Abu - L - Farage : op cit pp. 101 , 102.

(136) Lavoix - op cit pp. 352 , 353.

(١٣٧) بليرم قاعدة حزيرة صقلية تقع على ساحل البحر المتوسط.

الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار. تحقيق أميرتو رينز تيانو القسم الخاص لصقلية مجلد ١٨ الجزء الأول بحلة آداب القاهرة ١٩٥٦م، ص١٤٦ - ١٤٧.

(138) Lavoix - op cit pp. 355 , 356.

ومن الدراهم التى سكها الأغالبه لبناء اقتصاد قوى فى محاولة منهم لتحسين الاقتصاد حيث عانت البلاد فى عصر إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ٢٦١- ٢٦٩هـ/ ٨٧٤ - ٨٨٢م من أزمة اقتصادية وبالتحديد فى سنة ٢٦٨هـ/٨٨١- ٨٨٢م. حيث اشتد القحط(١٣٩) وارتفعت الأسعار ويرجع سبب هذه الأزمة إلى عوامل طبيعية حيث ندر سقوط الأمطار مما أدى إلى نقص الإنتاج الزراعى(١٤٠) لذا أمر إبراهيم بن أحمد بن الأغلب يضرب دراهم صحيحة عرفت باسم العشرية فكل عشرة دراهم فيها تعادل دينار كمحاولة منه لمعالجة أثار تلك الأزمة فلذا هاجت العامة وأعلنوا رفضهم لتلك الدراهم وأغلق التجار حوانيتهم وعرفت ثورتهم باسم ثورة الدراهم ولكنه تغلب عليهم وأجبرهم على التعامل بها(١٤١).

٣ – الفلس :

استعمل الأغالبة الفلس فى تعاملهم اليومى لشراء الأشياء التى يقل ثمنها عن الدرهم أوجزء منه(١٤٢) فهناك فلس مضروب فى ولاية إبراهيم بن الأغلب كتب عليه: غلب محمد رسول الله.. إبراهيم وعلى الوجه الأخر لا اله الا الله وحده لا شريك له مما أمر به الأمير المأمون بن أمير المؤمنين باسم الله ضرب فى ... مئه(١٤٣) كما وجد فلس أخر مؤرخ بسنة ٢١٦هـ - فى ولاية زيادة الله الأول(١٤٤).

---

(١٣٩) النويرى: نهاية الأرب، حـ٢٤، ص١٣٠.

(١٤٠) حورية عبده سلام: علاقات مصر ببلاد المغرب، ص٢٣٤.

(١٤١) ابن عذارى: البيان، حـ١، ص١٢٠، ١٢١.

(١٤٢) حورية عبده سلام: علاقات مصر ببلاد المغرب، ص١٤٩.

(143) Abu - L - Farage : op cit p. 112.

(144) Abu - L - Farage : op cit p. 114.

ومن التقاليد المتبعة فى النقود العربية أنها تحمل مع اسم الأمير المتولى اسم ناظر دار الضرب القائم على جميع شئونها وكان الناظر فى ذلك الوقت من موالى بنى أمية وفتيانهم الصقالية أو الصقلين فنجد مثلا على نقود إبراهيم الأول اسم موسى وهو من فتيانه المقربين وفى نقود زيادة الله الأول مسرور وفى ولاية زيادة الله الثالث خطاب، وهو أخر من تولى النظر على دار الضرب الأغلبية(١٤٥).

أما عن حواضر الأغالبة التى ضربوا بها عملاتهم فهى القيروان والعباسه وصقليه وبليرم ويتضح ذلك من خلال أشارات كتب النميات والمسكوكات حيث يذكر اسم المدينة على العمله المضروبة بها. ومما يدل على الأنتعاش الاقتصادى وحالة الرواج التجارى. كما استعمل الأغالبه إلى جانب النقود فى تعاملهم المالى السفاتج والصكوك.

(أ) السفاتج :

هى محررات يكتبها التجار أو الصيارفة أو المشتغلين بالأعمال المالية والتجارية بقيمة المبالغ التى ياخوذنها وتكون قابلة للصرف فى أى بلد لاى واحد من عملائهم، وكانوا فى هذا يقومون بدور البنوك، وكانت كل سفتجة توقع أو تختم من صاحبها لصراف أو تاجر حتى تكون صالحة للتداول. وليس من المستعبد أن تجار أفريقية عرفوا السفاتج كنوع من التعامل فيما بينهم داخل بلادهم وفى تعاملهم الخارجى حيث أنها أكثر أمانا من حمل النقود خشية تعرضهم للسرقة من قطاع الطرق وغيرهم فى رحلاتهم الخارجية(١٤٦).

---

(١٤٥) حسن حسنى عبدالوهاب: ورقات عن الحضارة العربية، ص٤٢٩.
Abu - L - Farage : op cit pp. 101.

(١٤٦) حورية عبدالسلام: علاقات مصر ببلاد المغرب، ص١٥١، ١٥٢.

(ب) الصكوك :

من المحتمل أن الأغالبه استعملوا الصكوك فى تعاملهم التجارى برغم عدم توصلنا إلى أشارة واحده من المؤرخين والجغرافيين العرب ونعتقد أنهم استعملوها حيث كانت سائدة فى التعامل التجارى فى مدينة سجلماسة بالمغرب الأقصى فيذكر ابن هو قل أنه رأى صكا كتب بدين إلى محمد بن سعدون بأودغشت(١٤٧) وشهد العدول باثنين وأربعين ألف دينار(١٤٨).

٦ - المنشأت التجارية :

كانت أفريقية تزخر بكافة المنشآت التجارية فى عهد الأغالبة كالفنادق يقول البكرى(١٤٩) عن تونس " وفى تونس فنادق كثيرة رفيعة".

كما وجدت فنادق ليقيم فيها التجار الأجانب لانه كانت لافريقية علاقات تجارية واسعة فانتشرت الفنادق فى سوسة(١٥٠)وصفاقس(١٥١) وقابس(١٥٢)..

وكان الفندق يحتوى على كنيسة صغيرة يقيم فيها التجار شعارهم الدينية وبه فرن يصنعون فيه الخبز حسب عاداتهم ومكان يصرح فيه بشرب النبيذ،

---

(١٤٧) أودغشت فى صحراء الجنوب الغربى الأقصى. أبوالفداء : تقويم البلدان، ص١٣٩.

(١٤٨) ابن حوقل : صورة الأرض، ص٦١.

(١٤٩) المسالك، ص٤٠.

(١٥٠) ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٢.

(١٥١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٣، ص٢٢٣.

(١٥٢) ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص٢٨٩.

- المراكشى : الإستبصار، ص١١٢.

وكانوا عادة يختارون أحد أفراد الحالية للأشراف على تنظيم الأقامة فى الفنـدق أو يمثلهم أمام السلطات الحاكمة ويطلق على هذا الشخص اسم الفندقى(١٥٣).

٧ - طرق التجارة الداخلية

كانت افريقية فى عهد الأغالبة ترتبط بشبكة واسعة من الطرق التجارية الداخلية التى سهلت نقل السلع التجارية بين مختلف مدن أفريقية وسنذكر أهم هذه الطرق.

١ - الطريق من طرابلس إلى قابس :

يبداء هذا الطريق من طرابلس إلى صبره(١٥٤) ومنها إلى بئر الحمالين مرحلة ثم إلى قصر الدرق مرحلة ثم إلى بارجمت مرحلة ومنها إلى الفوارة مرحلة ثم تصل قابس(١٥٥) وتبلغ المسافة بين طرابلس وقابس مسيرة ثمانية أيام(١٥٦).

٢ - الطريق من قابس إلى صفاقس :

يبداء هذا الطريق من قابس ومنها إلى عين الزيتونة ثم إلى تاور فى إلى غايف ومنها إلىصفاقس(١٥٧) وتبلغ المسافةمن قابس إلىصفاقس حوالىسبعون ميلا(١٥٨).

٣ - الطريق من صفاقس إلى القيروان(١٥٩) .

---

(١٥٣) آدم متنر : الحضارة الإسلامية، حـ٢، ٣٢٧.

(١٥٤) البكرى : المسالك، ص١٧، صبرة تقع بالقرب من القيروان وتسمى بالمنصورية من بناء منادين بلكين (ياقون : معجم البلدان، حـ٣، ص٣٩١).

(١٥٥) المقدسى : أحسن التقاسيم، ص٣٤٥ - ٣٤٦.

(١٥٦) المراكشى : الاستبصار، ص١١٢.ا

(١٥٧) البكرى : المسالك، ص١٩.

(١٥٨) الأدريسى : نزهة المشتاق، حـ١ص٢٨٠.

(١٥٩) البكرى : المسالك، ص٣٠.

٤ - الطريق من القيروان إلى تونس وتبلغ مسافته ثلاث مراحل[١٦٠].

٥ - الطريق من القيروان إلى قفصة طوله مسيرة ثلاثة أيام[١٦١].

٦ - الطريق من تونس إلى طبرقة مسافته نحو عشرة مراحل[١٦٢].

٧ - الطريق من بنزرت إلى طبرقة طوله سبعون ميلا[١٦٣].

٨ - الطريق من القيروان إلى قلعة ابى طويل[١٦٤].

٩ - الطريق من القيروان إلى مدينة بونة[١٦٥].

١٠ - الطريق من القيروان إلى طبرقة مارا بمدينة باجة ثم باسلى[١٦٦].

١١ - الطريق من القيروان إلى مرسى الزيتونة[١٦٧].

١٢ - الطريق من القيروان إلى سوسة[١٦٨].

١٣ - الطريق من القيروان إلى قابس[١٦٩].

---

(١٦٠) الأصطخرى : المسالك، ص٣٧. المقدسى : أحسن التقاسيم، ص٣٤٦.
- البكرى : المسالك، ص٣٧. ويذكر الأدريسى أن المسافة بين القيروان وتونس مرحلتان. الأدريسى : نزهة المشتاق، حـ١، ص٢٨٤.

(١٦١) البكرى : المسالك، ص٤٧.

(١٦٢) الأصطخرى : المسالك، ص٣٧.

(١٦٣) الأدريسى : نزهة المشتاق، حـ١،ص٢٨٩.

(١٦٤) البكرى : المسالك، ص٤٩ - ٥٠.

(١٦٥) البكرى : المسالك، ص٥٤.

(١٦٦) البكرى : المسالك، ص٥٥ - ٥٧.

(١٦٧) البكرى : المسالك، ص٦٣ - ٦٤.

(١٦٨) البكرى : المسالك، ص٣٤.

(١٦٩) المقدسى : أحسن التقاسيم، ص٣٤٦.

١٤ - الطريق من أشير[١٧٠] إلى مرسى الدجاج[١٧١].

١٥ - الطريق من أشير إلى جزائر بنى مزغناى[١٧٢].

وهكذا ساعدت طرق التجارة البرية على ازدهار النشاط التجارى بالبلاد آنذاك.

(١٧٠) أشير مدينة فى جبال البربر بالمغرب فى طرف أفريقية المغربى مقابل بجاية.

- ياقوت : معجم البلدان، حـ١، ص٢٠٢.

- البغدادى : مرصد الأطلاع، حـ١، ص٨٥.

(١٧١) البكرى : المسالك، ص٩٤.

(١٧٢) البكرى : المسالك، ص٦٥.

تقع مدينة جزائر بنى مزغناى على البحر المتوسط.

- ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٦.

- المركشى : الاستبصار، ص١٣٢.

ثانياً : التجارة الخارجية

كانت أفريقية فى عصر الأغالبية منافساً تجارياً قوياً للجزء الغربى من حوض البحر المتوسط بفضل إنجازاتهم الهائلة فى الجانب الاقتصادى وانعكس ذلك بنتائج إيجابية على حالة الرخاء التى نعمت بها البلاد أنذاك وبرزت مدن على إمتداد الشريط الساحلى كتونس وطرابلس وصفاقس كمحطات للتجارة الخارجية.

وعلى الرغم من العداء التقليدى بين الأغالبة والقوى المتصارعة فى غرب البحر المتوسط بفرض كل منها سيادته وهيمنتها على الأخر فلم تنقطع حركة التجار إلى أفريقية من كافة البلاد.

١ - مراكز التجارة الخارجية

(أ) القيروان :

كانت القيروان(١) حاضرة المسلمين ومستقرهم بأفريقية منذ الفتح(٢) وأصبحت فى عهد الأغالبة أعظم مركز فى مجال التجارة الخارجية

---

(١) أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م لتكون مقراً للمسلمين لأن تجارب المسلمين مع البربر سكان بلاد المغرب أفادت من بدأ الفتح حتى ولاية عقبة بن نافع على المغرب بضرورة أتخاذ عاصمة لهم لأن أفريقية إذ دخلها أمام أحابوه إلى الإسلام وإذا خرج منها عادوا إلى الكفر.

- ابن عذارى : البيان، حـ١، ص١٩. - النويرى : نهاية الأرب، حـ٢٤،ص٢٢.
- حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، ص٢٥٣.
- حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته، حـ١، ص٨٨.

ولفظ القيروان فارسى معرب أصله كروان والقافلة هى محط الجيش.

- أبوالعرب : طبقات علماء افريقية وتونس، تحقيق على الشابى وآخرين تونس ١٩٦٨م،ص٥٧، هامش (٣).

بالمغرب(٣) فوصفها المقدسى(٤) بقوله " وهى فرضة المغربين ومتجر البحرين وهى مفخرة المغرب " وهى من قواعد الإسلام الأربعة المشهورة بغداد والقاهرة وقرطبة والقيروان(٥).

ونالت القيروان إعجاب المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب فنذكر منهم على سبيل المثال - لا الحصر - الأدريسى(٦) الذى وصف حالة الإنتعاش الاقتصادى للقيروان بقوله " أم الأمصار وقاعدة أقطار وكانت أعظم مدن المغرب قطراً وأكثرها بشر وأيسرها أموالاً وأوسعها أمولاً وأتقنها بناء وأنفسها همما وأربحها تجارة واكثرها جباية ".

ويضف الزهرى(٧) عنها بقوله " كان فى القيروان خمسة آلاف وضم للجزارين ربما كان منها فى كل حانوت عشرين ".

- السراج : الحلل السندسية، حـ١، ق١، ص٢٥٩، حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص١٥٣ - ١٥٤.

- Jerone carcopine : Histoire generale du Maghreb Paris 1966, p. 81.

- Chedly Bouyahia : La vie Litteraure in I Friqiye sous Ieszirudes Paris 1972 p. 231.

(٢) المراكشى : المعجب، ص٣٥٥.

- Jackson : Recordes of civilization p.53.

(٣) الأصطخرى : المسالك، ص٣٤. ياقوت : معجم البلدان، حـ٤، ص٤٢٠.

- أبو الفداء : تقويم البلدان، ص١٤٥.

(٤) أحسن التقاسيم، ص٣٣٤ - ٣٣٥.

(٥) الزهرى : الجغرافيا، ص١٠٩.

(٦) نزهة المشتاق، حـ١، ص٢٨٤.

- الحميرى : الروض المعطار، ص٤٨٦.

- حسن أحمد محمود وأحمد الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص٤١٩.

(٧) الجغرافيا، ص١٠٩.

وانعكست حالة الرخاء الاقتصادى على أهالى القيروان فمارسوا حرفة التجارة وكثرة أموالهم(٨).

(ب) تونس :

لقد تكاتفت عدة عوامل جعلت تونس(٩) مركزاً عظيماً فمنها موقعها الجغرافى الفريد على طريق التجارة العالمى القادم من المغرب إلى المشرق(١٠) فضلاً عن توسطها للمناطق الشمالية والشرقية الغنية بشتى المحاصيل الزراعية(١١) إلى جانب ما حققته من تقدم ملموساً فى صناعة المنسوجات الكتانية التى تصدر إلى كافة البلاد(١٢) فضلاً عن شهرتها بصناعة الخزف(١٣).

---

(٨) محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة، ص٧٣.

(٩) تونس مدينة إسلامية شيدت بعد الثمانين من الهجرة.

(ابن ابى دينار : المؤنس، ص٧).

على أن أنقاض مدينة قرطاجنة القديمة وكان اسمها ترشيش(البكرى: المسالك، ص٣٧).

- ابن حوقل : صورة الأرض ص ٧٣ ، الأدريسى : نزهة المشتاق، حـ١، ص٢٨٥.

- ياقوت : معجم البلدان، حـ٢، ص٦٠. البغدادى : مراصد الإطلاع، حـ١،ص٢٥٨.

- ابن ابى دينار : المؤنس،ص٨. - ابن السراج: الحلل السندسية، حـ١،ق٢، ص٥٥٩.

وهى فى جون خارج عن البحار لها فم يتصل بالبحر وهو المعروف بفم الوادى (ابن ابى دينار : المؤنس، ص٨. اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار، حـ١، ص٣٨٧.).

(١٠) ابن خرداذبة:المسالك والممالك، ص٨٧. ابن رستة : الأعلاق النفيسة، ص٣٤٨.

- القرمانى : أخبار الدول، ص٤٤٠.

(١١) حسنى اسماعيل مبارك : التطور الإقتصادى والاجتماعى لولاية أفريقية، ص١٤٧.

(١٢) الزهرى : الجغرافيا، ص١٠٨.

(١٣) البكرى : المسالك، ص٤٠. ياقوت : معجم البلدان، حـ٢، ص٦١.

- ابن ابى دينار : المؤنس، ص١٢.

لذا كانت تونس[١٤] قاعدة بلاد أفريقية وأم بلادها[١٥] فشهدت تدفق التجار من المغرب والأندلس[١٦] ويؤكد على ذلك الأدريسى[١٧] بقوله " يلجأ إليها القريب والبعيد " فحفلت بكافة المنشآت التجارية التى تلبى حاجة التجار[١٨].

(جـ) طرابلس[١٩] :

كانت مدينة طرابلس فى عصر الأغالبة من أعظم مراكز التجـارة الخارجية بفضل موقعها على ساحل البحر المتوسط[٢٠] فحفلت بحركة السفن التى تفد عليها من كافة البلاد محملة بضروب الأمتعة فى كل وقت[٢١].

واشتغل أهل طرابلس بالتجارة، واعتادوا على السفر بطريق البر والبحر[٢٢].

---

(١٤) ياقوت : معجم البلدان، حـ٢، ص٦٠. القزوينى: آثار البلاد، ص١٧٣.
- المراكشى : المعجب، ص٣٥١. أبوالفداء : تقويم البلدان، ١٤٣.

(١٥) ابن ابى دينار : المونس، ص٧.

(١٦) البكرى : المسالك، ص٤١. ياقوت : معجم البلدان، حـ٢، ص٦١.
- المراكشى : الاستبصار، ص١٢١. ابن ابى دينار : المونس، ص١٢.

(١٧) نزهة المشتاق، حـ١، ص٢٨٥.

(١٨) ابن ابى دينار : المونس، ص١٢.

(١٩) طرابلس بالرومية والإغريقية ثلاث مدن وسماها اليونانيون طرابليطة ومعناها ثلاث مدن.
- البكرى : المسالك، ص٦ - ٧. ياقوت : معجم البلدان، حـ٤، ص٢٥.
- الدمشقى : نخبة الدهر، ص٢٣٤.

(٢٠) اليعقوبى : البلدان، ص٣٤٦. الدمشقى : نخبة الدهر، ص٣٣.
- المقدسى : أحسن التقاسيم، ص٢٢٤. المراكشى : الاستبصار، ص١١٠.

(٢١) ابن حوقل : صورة الأرض، ص٦٩.

(٢٢) المراكشى : الاستبصار، ص١١٠.

ومما ساعد على أهمية طرابلس شهرتها الزراعية(٢٣) والصناعية(٢٤).

(د) صفاقس :

كانت صفاقس(٢٥) ثغراً تجارياً(٢٦) ساهم بنصيب كبير فى مجال التجارة الخارجية وقامت شهرتها على إنتاج الزيتون الذى قامت عليه صناعة الزيت الذى تحمله المراكب إلى كافة البلاد ويصدر إلى صقلية وإيطاليا وأنكبوردة ومصر ويفد إليها التجار من كافة البلاد لشراء الزيت(٢٧).

ويشير الأدريسى(٢٨) إلى وفرة الزيت بصفاقس بقوله " وجل غلاتها الزيتون والزيت وبها منه ما ليس يوجد بغيرها ".

(هـ) بونة :

كانت مدينة بونة(٢٩) من أهم مراكز التجارة الخارجية بأفريقية فهى تقع على ساحل

---

(٢٣) الأدريسى : نزهة المشتاق، حـذ، ص٢٩٧.

(٢٤) ابن حوقل : صورة الأرض، ص٦٩.

(٢٥) تقع مدينة صفاقس على ساحل البحر المتوسط.

- البكرى : المسالك، ص٢٩. - ياقوت : معجم البلدان، حـ٣، ص٢٢٣.

- التجانى : رحلة التجانى، ص٦٨.- البغدادى : مراصد الإطلاع، حـ٢، ص٧٦٧.

(٢٦) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار، حـ١، ص٣٨٨.

(٢٧) البكرى : المسالك، ص٢٠. ياقوت : معجم البلدان، حـ٣، ص٢٢٣.

(٢٨) نزهة المشتاق، حـ١، ص٢٨١.

(٢٩) تقع بونة على منطقة مرتفعة (المراكشى : الاستبصار، ص١٢٧) بين مرسى الخزر وجزيرة بنى مزغناى (ياقوت : معجم البلدان، حـ١، ص٥١٢، البغدادى : مراصد الإطلاع، حـ١، ص٢٣٢) وتبعد عن قسطنطية خمس مراحل (المراكشى: المعجب، ص٣٥٢) وتشتهر بطائر الكيكل.

(ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٦. الأدريسى : نزهة المشتاق، حـ١، ص٢٩١).

- ياقوت : معجم البلدان، حـ١، ص٥١٢. أبو الفداء : تقويم البلدان، ص١٤١.

- القلشندى : صبح الأعشى، حـ٥، ص١٠٦.

البحر(٣٠) وأتاح موقعها أن تتميز بمميزات المدينة البرية والبحرية(٣١) تشتهر بكثرة اللحوم والألبان والعسل(٣٢) فضلاً عن الفاكهة والقمح والشعير والكتان(٣٣) وتشتهر بمناجم الحديد الذى يحمل منها إلى كافة البلاد المجاورة ومن أهم صادرات بونة الغنم والصوف والماشية(٣٤).

كما أتاح موقعها الساحلى إلى توطيد علاقتها التجارية مع بلاد الأندلس(٣٥).

٢ - طرق التجارة الخارجية

كانت معظم مدن أفريقية تقع على ساحل البحر المتوسط وعلى طريق التجارة العالمية القادم من المغرب إلى المشرق فهيأ لها موقعها أن تكون حلقة وصل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فهى بمثابة المنفذ لتجارة الصحراء الكبرى الأفريقية ولذا ارتبطت بالبلاد المجاورة بعدة طرق بحرية وبرية مما أدى إلى أزدهار النشاط التجارى الخارجى.

١ - الطرق البحرية :

(أ) الطريق البحرى بين مصر وأفريقية :

كانت السفن المصرية المحملة بالبضائع تتحرك من القطائع عاصمة مصر فى عصر الطولونين، والعسكر عاصمة مصر فى عصر الأخشيديين وتسير فى بحرى

---

(٣٠) ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٥. البكرى : المسالك، ص٥٤.
- الأدريسى : نزهة المشتاق، حـ١، ص٢٩١. ياقوت : معجم البلدان، حـ١،ص٥١٢.

(٣١) البكرى : المسالك، ص٥٥.

(٣٢) البكرى : المسالك، ص٥٥.

(٣٣) ابن حوقل:صورة الأرض، ص٧٥-٧٦. الأدريسى:نزهة المشتاق،حـ١، ص٢٩١.

(٣٤) ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٦.

(٣٥) البكرى : المسالك، ص٥٥.

النيل فرع رشيد حتى تصل إلى مدينة رشيد على البحر المتوسط ثم تتجه صوب الغرب إلى الإسكندرية ومنها إلى السلوم ماراً بموانى ليبيا البحرية كطبرق وبرقة وأجدابية(٣٦) وطرابلس حتى تصل إلى سوسة وصفاقس(٣٧).

(ب) الطريق البحرى من غرب أوربا إلى المشرق ماراً بأفريقية :

كان يسلك هذا الطريق تجار اليهود الرازنيةالذين يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا، ويسميهم المسلمون فى ذلك الوقت تجار البحر، وكانوا يتكلمون العربية والفارسية والرومية والإفرنجية والإسبانية والصقلية، ويجلبون من الغرب الديباح والخدم والجوارى والغلمان وجلود الخز والفراء والسحور والسيوف، ويبدأ هؤلاء فى رحلاتهم التجارية من بروفانس وترسو سفنهم عند الفرما ثم يحملون تجارتهم على الدواب إلى مدينة القلزم، ومنها تنقل عبر البحر الأحمر حيث تمر بموانيه الهامة بشبه الجزيرة العربية مثل الجار وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين لجلب سلع الشرق النفيسة كالمسك والعود والكافور والدراجينى وغير ذلك فإذا وصلوا إلى القلزم إتجهوا إلى الفرما أو إلى الإسكندرية ومنها إلى بروفانس ويقصد فريق منهم أحياناً القسطنطية(٣٨).

---

(٣٦) تقع أجدابية على ساحل البحر المتوسط (البكرى : المسالك، ص٥ - ياقوت : معجم البلدان،حـ١، ص١٠٠) بين برقة وطرابلس (ياقوت : معجم البلدان، حـ١، ص١٠٠).

(٣٧) البكرى : المسالك، ص٨٤ - ٨٥.

(٣٨) ابن خرداذية : المسالك، ص١٥٤.

- ابن الفقيه : البلدان، ص٢٧٠.

- محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، دار الفكر العربى القاهرة ص ١٤٨ - ١٤٩.

- Zaky Mohamed Hassan : Les tulunides Paris 1933 p.238.

(جـ) الطريق البحرى بين أفريقية والمغرب الأقصى :

يبدأ هذا الطريق من أفريقية ماراً بالمغرب الأوسط ثم يصل إلى المغرب الأقصى فتخرج السفن من بونة إلى مرسى الدجاج ثم إلى جزائر بنى مزغناى(٣٩) ثم شرشال(٤٠) ومنها إلى تنس(٤١) وإلى وهران(٤٢) وقصر الفولس(٤٣) ثم إلى أسلن(٤٤) ومنها إلى مدينة سبتة(٤٥) بالمغرب الأقصى.

---

(٣٩) مدينة عليها سور تقع على البحر المتوسط.

ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٦. وهى ميدنة عامرة يسكنها البربر.

(الأصطخرى : المسالك، ص٣٤.).

(٤٠) شرشال مدينة كبيرة يقابله من الأندلس مرسى الأفنت.

المركشى : الاستبصار، ص١٣٢.

(٤١) تنس تبعد عن البحر ميلان وهى مدينة مسورة حصينة.

ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٧. المراكشى : الاستبصار، ص١٣٣.

(٤٢) مدينة على ضفة البحر بناها جماعة من الأندلسيين البحريين بسبب المراسى بالإتفاق مع قبائل البربر.

المراكشى : الاستبصار، ص١٣٣.

(٤٣) مدينة وهران وهى مرسى للمراكب فيها آثار كثيرة وكانت دار مملكة.

- المراكشى : الاستبصار، ص١٣٣.

(٤٤) أسلن مدينة خصبة لها سور حصين تشتهر بكثر البساتين.

ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٨.

(٤٥) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٧٥ - ص٧٨.

وسبتة مدينة لطيفة على ساحل البحر المتوسط.

ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٨.

(د) الطريق البحرى بين أفريقية وصقلية :

كانت السفن تقلع من ميناء سوسة الأفريقى، وغيره من المدن الساحلية حتى تصل إلى صقلية كما هو الحال فى حملة أسد بن الفرات الذى خرج من ميناء سوسة ونزل بميناء سرقوسة(٤٦).

(هـ) الطريق البحرى بين تونس والأندلس :

كانت السفن التجارية تخرج محملة بالبضائع من تونس وتبحر فى عرض البحر المتوسط قاطعاً مسافة ستة فراسخ(٤٧).

٢ - الطرق البرية :

(أ) الطريق البرى بين مصر وأفريقية :

يعد هذا الطريق من أهم الطرق التجارية الخارجية بين مصر وأفريقية فيبدأ من الإسكندرية إلى بومينه إلى سفا إلى أرما إلى ذات الحمام(٤٨) إلى منية الروم إلى الطاحونة إلى كنائس الحون إلى جب العوسج إلى سكة الحمام إلى قصر الشماسى إلى خربة القوم إلى خرايب إلى حليمة إلى العقبة إلى معد إلى ربوس إلى فرقة إلى قصر الشاهدين إلى وادى السدور إلى قرية باع إلى الندامة إلى برقة(٤٩)

---

(٤٦) ابن الأثير : الكامل ، حـ٥ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .
- ابن عذارى : البيان ، حـ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .
- ابن خلدون : العبر ، حـ٤ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .
(٤٧) ابن خرداذبة : المسالك ، ص ٨٧ .
- ابن الفقيه : البلدان ، ص ٧٩ .
(٤٨) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢١٤ .
(٤٩) ابن خرداذيه : المسالك ، ص ٨٤ - ٨٥ .
- البغدادى : الخراج وصنعة الكتابة ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

إلى أجادبيـــــــــــــــــــة إلى ســـــــــــــــــــــرت(٥٠) إلى طرابلس(٥١).

(ب) الطريق من غرب أوربا إلى المشرق ماراً بأفريقية :

يبدأ هذا الطريق من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيـق جبـل طـارق مجتـازاً المغرب الأقصى والأوسط ماراً بأرض أفريقية حتى يصل إلى الإسكندرية ورشيد ثم إلى الفرما ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملـة ودمشـق ثـم العـراق مـاراً بالكوفـة وبغداد والبصرة ثم فارس ماراً بالأهواز ثم إلى الكرمان والهند والصين(٥٢).

(جـ) الطريق من مدينة فاس إلى القيروان وتبلغ مسافته أربعون مرحلة(٥٣).

(د) الطريق من وهران إلى القيروان فهناك طريقان :

أولهما تخرج مــن وهـران إلى تانسـالمت إلى جـراوة إلى قصـر ابـن سـنان إلى الجادة، وتبلـغ مسـافته خمـس وعشـرون مرحلـة **والطريـق الآخـر** مـن وهـران إلى القيروان على بلد قسطيلية إلى قصر منصور بن سنان إلى العلويين إلى نهر سى سـى بن دمر ومنها إلى أحساء عقبة بن نافع إلى ساقية ابن خزر مدن ينطيـوس إلى بكـرة

---

(٥٠) سرت مدينة كبيرة على سـاحل البحـر المتوسـط (اليعقوبى : البلـدان ، ص ٣٤٤ البكرى : المسالك ، ص ٦ . المراكشى : الاستبصار ، ص ١٠٩ . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١٤٩) وهى على نهايـة حـدود برقـة (اليعقوبـى : البلـدان ، ص ٣٤٤) وتحفـل بالأسـواق (البكـرى : المسـالك ، ص ٦) وتشـتهر بالفواكـه (ابــن حوقــل : صــورة الأرض ، ص ٦٨) واللحوم الطيبة (البكرى : المسالك ، ص ٦) .

(٥١) البكرى : المسالك ، ص ٣ – ١٠ .

(٥٢) ابن خرداذبة : المسالك ، ص ١٥٤ – ١٥٥ .

– اشتور : التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الادنى ، ص ١٢٤ .

- Jackson (W.T.H.) : Records of civiliation p.31.

(٥٣) البكرى : المسالك ، ص ١٤١ – ١٤٢ .

إلى تهود إلى باديس إلى نيطون بياضة وهى نقطة التقاء الطريق إلى بلاد السودان وإلى طرابلس والقيروان إلى مدينة نفطة مرحلتان إلى مدينة توزر إلى بسكرة ومنها إلى قفصة إلى فج الحمار إلى الهروبة ومنها إلى بنى دعام حتى تصل إلى القيروان(٥٤).

(هـ) الطريق من القيروان إلى السوس الأقصى ويبلغ طوله مائة وستة عشر مرحلة(٥٥).

(و) الطرق التى تربط شمال أفريقية بغربها :

- من واحة الجريد فى جنوب تونس إلى ورقلة إلى سوق غدامس.
- من طرابلس الغرب على الساحل الليبى إلى غدامس ويمر فرع منه بفزان وينتهى إلى بورنووجاو(٥٦).

٣ - العلاقات التجارية مع العالم الخارجى :

لم يكتف الأغالبة بما حققوه من تقدم ملموس فى مجال التجارة الداخلية فحسب بل امتد نشاطهم إلى العالم الخارجى فكانت لهم علاقات تجارية وطيدة مع البلاد المجاورة والمدن الأوربية.

(أ) علاقة الأغالبة التجارية بالخلافة العباسية :

قامت علاقات تجارية قوية بين الأغالبة والخلافة العباسية منذا أن حول الخليفة هارون الرشيد إلى ابراهيم بن الأغلب أمارة أفريقية فتعهد ابن الأغلب بدفع ضريبة سنوية قدرها أربعين ألف دينار(٥٧).

---

(٥٤) البكرى : المسالك ، ص ٧١ - ٧٥ .

(٥٥) البكرى : المسالك ، ص ٣٧ .

(٥٦) الشيخ الأمين عوض الله : تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربى واثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادى ، ص ٧٤ .

(٥٧) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ١٩٦ .

ومما ساعد على ازدهار حركة التجارة بين البلدين سهولة الإتصال براً وبحراً(٥٨) فاستمرت قوافل التجار العراقين فى حركة دائمة تعبر أراضى أفريقية قاصدين سلجماسة بالمغرب الأقصى حيث سكنها جاليات عراقية لها تجارات رائجة هناك(٥٩) فليس من المستبعد أن تربطهم بأهالى أفريقية بعلاقات تجارية قوية.

وكانت العراق تستورد من بلاد المغرب العنبر والحرير والأكسية الصوف والحديد والرصاص والخدم والمجلوبون من بلاد السودان والخيول والأبل والغنم والماشية(٦٠).

(ب) علاقة الأغالبة التجارية بمصر :

ارتبطت مصر بعلاقات تجارية قوية مع أفريقية الأغلبية ويرجع ذلك لسهولة الإتصال البرى والبحرى فضلاً عن الإنتعاش الملحوظ الذى شهده اقتصاد البلدين معاً(٦١).

واستودرت مصر من تونس الفستق(٦٢) والقمح إلى الإسكندرية(٦٣) والحرير وزيت الزيتون والصابون كما استوردت أفريقية من مصر التوابل

---

(٥٨) محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ، ص ٧٢ .

(٥٩) ابن خلدون : صورة الأرض ، ص ٦١ .

(٦٠) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٩٧ .

- Jackson (W.T.H.) : Records of civiliation p.53.

(٦١) محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ، ص ١٠٢ .

(٦٢) البكرى : المسالك ، ص ٤٧ .

- ياقوت : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٣٨٢ .

- المراكشى : الاستبصار ، ص ٣٨٢ .

(٦٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، جـ٢ ، ص ٤٩٨ .

والمنتجـات الهنديـة الآخـرى والكتـان الخـام(٦٤) وقمـاش البوقلمـون(٦٥) والملح(٦٦).

(جـ) علاقة الأغالبة التجارية ببلاد السودان :

ارتبطت أفريقيـة بعلاقـات تجاريـة وطيـدة مـع بـلاد السـودان ويرجـع ذلـك لسهولة الإتصال بين البلدين عبر الطريق الذى يمر بالصحراء الكبرى ويربـط شمـال البلاد بجوف الصحراء عن طريق غدامس وطرابلس وقابس(٦٧).

وكانت أفريقية تصدر إلى السودان الملح والنحاس الأحمـر والملـون والملابـس الصوفية والعمائم السروج واللبود والودع والمسابح وأدوات الزينة والفواكه المجففة والتمر(٦٨).

وكـانت بـلاد السـودان تصـدر إلى أفريقيـة الذهـب والرقيـق(٦٩) يقـول الأصطخرى(٧٠):

---

(٦٤) اشتور : التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، ص ٢٤٨ .

(٦٥) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٣٨.

- عفيفى محمود إبراهيم : مظاهر الحضارة فى بلاد المغرب منـذ انتقـال الخلافـة الفاطمية إلى مصر حتى منتصف القرن السادس الهجرى ،

رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٠م ، ص ١٨٨ .

(٦٦) البكرى : المسالك ، ص ٥ .

(٦٧) المنجى السفير:الحضارة التونسية من خلال الفسيفساء ، تونس ، ص ٤٦ - ٤٩.

(٦٨) البكرى : المسالك ، ص ١٧٩.

(٦٩) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، جـ٢ ، ص ٤٩٨ .

- عفيفى محمود إبراهيم : مظاهر الحضارة ، ص ١٩٠ .

(٧٠) المسالك والممالك ، ص ٣٤ - ٣٥.

" كان يجلب من بلاد السودان الخدم السود الذين يباعون فى بلدان الإسلام.".

(د) علاقة الأغالبة التجارية مع العالم المسيحى :

على الرغم من العداء التقليدى بين الأغالبة والبيزنطين فقد قامت بينهما علاقات تجارية محدودة خلال عهود الأمراء الأغالبة الأوائل وكانت صقلية تمثل حلقة الاتصال فى هذا الصدد.

فتشير المصادر إلى أن تأمين التجارة وتبادل السلع فالمعاهدة التى عقدت بين ابن العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب وجريجورى حاكم صقلية فى سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٧ - ٨٠٨م أسفرت عن تحقيق مزيد من الأمن والرواج التجارى بين أفريقيةوصقليةوبفضلها أصبح التجار الأفارقة يمارسون نشاطهم التجارى فى صقلية كما سمح للبيزنطين بالمتاجرة مع المدن والموانى الأغالبية فاستورد الأغالبة السكر من صقلية وصدروا إليها الجلد والسلاح والحرير والعاج وزيت الزيتون(٧١) .

و لم تستمر هذه العلاقة التجارية بسبب ما جرى من تبادل الأغارات بين الطرفين لمحاولة كل طرف بسط سيادته على الأخر و لم يعد ينعم تجار أفريقية بالأمان على تجاراتهم بسبب تعرضهم للسلب والنهب .

وعندما شرع زيادة الله فى كسر شوكة الروم بفتحه لجزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧ - ٨٢٨م توقفت العلاقات التجارية تمامًا فلم نسمع عن تبادل تجارى بين الأغالبة والبيزنطين(٧٢) .

---

(٧١) محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ، ص ١٨٣ .

(٧٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٥ ، ص ١٨٦ .

ومن المعروف أن روح الود سادت علاقاتهما السياسية فترة من الزمن وكان من المتوقع أن يروج النشاط التجارى بينهما فى عصر شارلمان لكن الثابت أن تلك العلاقات السياسية الودية لم تنجم عن صلات تجارية منتظمة بين القيروان وأخن(٧٣).

أما بالنسبة لعلاقة الأغالبة التجارية بمدينة أمالفى فشهدت تقدمًا ملموسًا حيث مارس أهالى أمالفى التجارة بنشاط واسع مع العرب(٧٤) .

كما انتعشت العلاقات التجارية بين شمال أفريقية والمدن الايطالية(٧٥) .

وكان الزيت أهم السلع التجارية الذى يصدر إلى صقلية وايطالية وانكبورده وقلوربة(٧٦) .

(هـ) علاقة الأغالبة التجارية بالأندلس :

على الرغم من العداء التقليدى بين الأغالبة فى تونس والأمويين فى الأندلس تحدث بينهما علاقات تجارية ليست على المستوى الرسمى .

وقام بهذا الدور التجار اليهود فى الأندلس بفضل اتصالهم الوثيق بأخوانهم فى كافة البلاد فضلاً عن خبرتهم فى الشئون المالية والتجارية(٧٧) .

---

(٧٣) محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ، ص ١٨٦ .

(٧٤) هايد : تاريخ التجارة ، حـ١ ، ص ١١٥ .

- Jaclson (W.T.H.) and Others : Records of Civilzation Soures and Studies p.52.

(٧٥) هايد : تاريخ التجارة ، حـ١ ، ص ٦٨ .

- اشتور : التاريخ الاقتصادى ، ص ١٢١ .

(٧٦) البكرى : المسالك ن ص ٢٠ .

Peter Garnsey and Others : trade in The ancient Economy, University of California 1983 p. 148.

(٧٧) عفيفى محمود إبراهيم : مظاهر الحضارة ، ص ٥٩ .

ونـزح لتجـار الأندلسـيين إلى الموانـى الفريقيـة كتونـس(٧٨) وطبرقــة(٧٩) وبونة(٨٠) ومن أهم السلع التجارية التــى كـانت تـأتى إلى أفريقيـة مـن الأندلـس الأسلحة والحريـر الخـام والمشـغول والثيـاب الصوفيـة(٨١) والقطـن والمصنوعـات الخشبية(٨٢) والصباغ التى اختصت بهـا الأندلـس لصيـغ اللبـود المغربيـة المرتفعـة الثمن والحريرية(٨٣) بالإضافة إلى الجوارى الأندلسيات(٨٤) .

بينما صدرت أفريقية إلى الأندلس الصمغ الذى بـه الديبـاج الأندلسـى(٨٥) والرقيق الأسود الذى كان يجلب من بلاد السودان(٨٦) والفستق من قفصة(٨٧).

---

(٧٨) الاصطخرى : المسالك ، ص ٣٤ .

(٧٩) ابن حوقل : صورة الرض ، ص ٧٤ .

(٨٠) البكرى : المسالك ، ص ٥٥ .

(٨١) عفيفى محمود إبراهيم : مظاهر الحضارة ، ص ١٩٣ .

(٨٢) الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢١ .

(٨٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١١٤ .

(٨٤) ابن خرداذية : المسالك ، ص ٩٣ وقارن ما كتبه الاصطخرى : المسالك ، ص٣٧ وكانت بلاد المغرب تستورد من الأندلس الخدم البيض من الأندلس والجوارى المثمنات .

(٨٥) البكرى : المسالك ، ص ١٥٨ .

(٨٦) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٨١ .

(٨٧) البكرى : المسالك ، ص ٤٧ . ياقوت : معجم البلدان ، حـ٣ ، ص ٣٨٢ . المراكشى : الاستبصار ، ص ١٥٣ .

الخاتمـــة :

لقد رفع الأغالبة شعار الأعتماد على النفس منذ توليهـــم مقـاليد الأمـور فـى أفريقيا سنة ١٨٤هـ ، وكرثوا جهودهـــم للإستفادة مـن خـبرات أفريقيـة الزراعيـة فاهتموا بتشييد المنشأت المائية كالمواجل والبرك التى كلفتهم أموالاً باهظة .

و لم تتوقف جهود الأغالبة فى الميدان الزراعـى عنـد هـذا الحـد فحسـب بـل شجعوا الفلاحيين على زراعة الأرض ووفروا لهم الأمن والطمأنينة وظهـرت نتـائج تلك الثورة الخضراء واضحة المعالم فى الشريط الشمالى الساحلى للبلاد.

وأصبحت البلاد فى غنى عن العانة السـنوية التـى كـانت ترسـلها مصـر لهـا وتتعهدوا بأن يدفعوا جزية سنوية للخلافة العباسية لكسب رضـاهـم ، ولا نبـالغ إذ قلنا أن الأغالبة أفلحوا فى تحقيق مبدأ الأكتفاء الذاتى فى فترة وجيزة .

وشهد النشاط التجارى لأفريقية تقدمًـا ملموسًـا فهيـأ الأغالبـة مناخًـا طيبًـا للتجار لممارسة أعمالهم بتوفيرهم الأمن الذى أفتقدته البـلاد والقضـاء علـى قطـاع الطرق واللصوص بوضع نقاط للحراسة والتفتيش فى مناطق مختلفة على كافة طرق التجارة .

ولقن الأغالبـة الـروم درسًـا لم ينسـوه بغزوهـم جزيـرة صقليـة التـى كـانت خاضعة لسيادة الروم عندما أعتدوا على المدن الساحلية الأفريقية وقيامهم بعمليات النهب والسلب للتجار الأفاريقة .

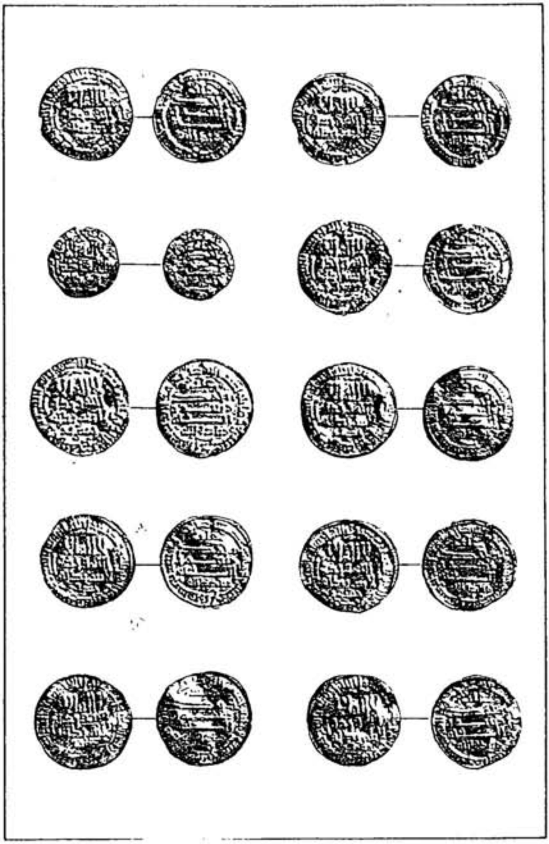
أما عن التنظيمات التجارية الداخلية فشرعوا فى تنظيم الأسواق فـلأول مـرة فى تاريخ المسلمين يدخل القـاضى فـى أختصاصـه حـق الأشـراف علـى الأسـواق وضم الحسبة ضمن القضاء ومعاقبة من يحاول التلاعب برفع الأسعار أو الغش فـى الموازين والمكـاييل وبذلـك أنخفضـت الأسـعار وعمـت البـلاد موجـة مـن الرخـاء

وسجلت انخفاضًا لم يسبق له مثيل من قبل . فعلى سبيل المثال - لا الحصر - بلغ سعر الزيت ما بين الستين قفيزًا إلى مائة قفيز بدينار والحنطة أربعمائة رطل بدرهم.

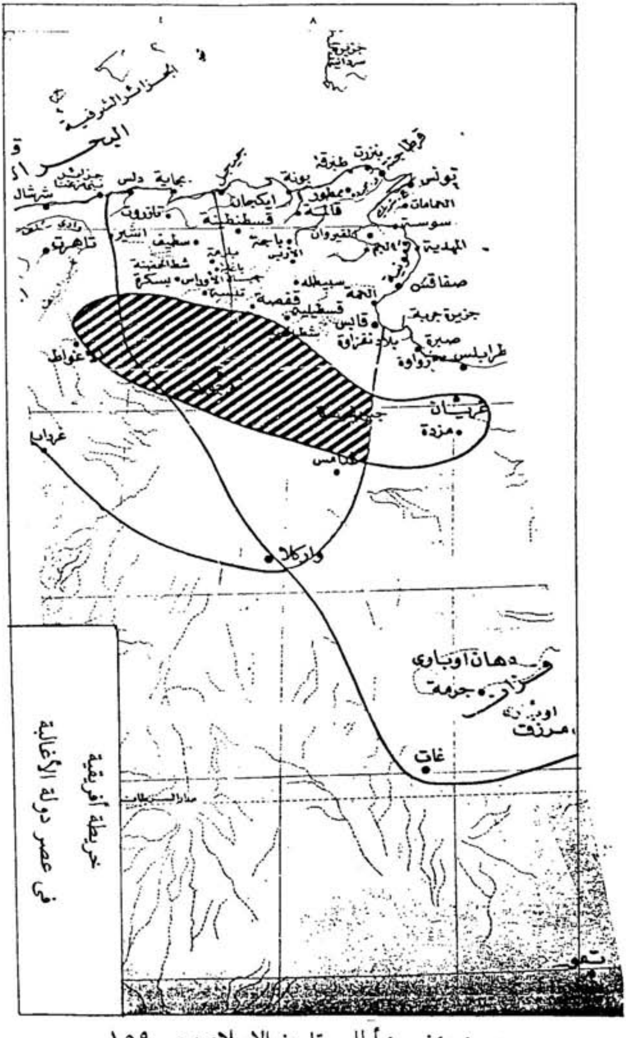
كما نجح الأغالبة فى ضرب عملتهم التى تعبر عن كيانهم من الدنانير والدراهم والفلوس من الذهب الخالص والفضة وإلتزموا بإتباع التقاليد الرسمية بنقش اسم الخليفة إلى جانب اسم الأمير الأغلبى ومكان وسنة الضرب .

ويمكننا القول أن الأغالبة كانوا خير عون للخلافة العباسية فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى فى منطقة تصارع القوى المختلفة كالأمويين فى الأندلس والأدارسة بالمغرب الأقصى والبيزنطين . وبفضل ما حققه الأغالبة من مكاسب سياسية واقتصادية حافظوا على استقلالهم الذاتى ولم يقبلوا محاولة الخلافة العباسية عندما طلبت منهم أن يدينوا بالولاء والطاعة لوالى مصر عبد الله بن طاهر ، فرفضوا ذلك بشدة وأرسلوا ببضع دنانير من سكة الأدارسة وهو تحذير شديد اللهجة ففهم العباسيون نية الأغالبة فتراجعوا عن هذا المطلب .

وعلى الرغم من العداء التقليدى بين الأغالبة والقوى المحاربة لهم لم يؤثر ذلك على حركة النشاط التجارى بين أفريقية وبلاد الأندلس والمغرب القصى فشهدت مدن أفريقية الساحلية كطرابلس وتونس وصفاقس وفود طوائف التجار بصفة مستمرة من كافة البلاد .



نماذج من دراهم ودنانير الأغالبة



حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١٥٩

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات :

١ - **ابن الرفعة** : (نجم الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن على) .
"فى معرفة تحرير وزن الدرهم والدينار" مخطوط مصور بدار الكتب امصرية تحت رقم : ٣٥٩ رياضة تيمور .

٢ - **ابن الرفعة** : "كتاب الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان".
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، المكتبة التيمورية رياضة رقم : ٣١٢ ميكروفلم ٥٠٥٢٥ .

٣ - **المقريزى** : (تقى الدين حمد بن على ت ٨٤٥هـ) .
"رسالة فى المكاييل والموازين" مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم : ٨٥ رياضيات المكتبة التيمورية ميكروفيلم ٣٨٦٧٦.

ثانياً : المصادر العربية المطبوعة :

٤ - **ابن أبى دينار** : (أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى).
"المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس" تحقيق وتعليق محمد شمام ، الطبعة الثانية، تونس ١٩٧٦م.

٥ - **ابن الأثير** : (على بن أحمد بن أبى الكرم ت ٦٣٠هـ) .
"الكامل فى التاريخ" جـ٤ دار الفكر بيروت .

٦ - **ابن الأخوة** : (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت ٧٢٩هـ) .
"معالم القربة فى أحكام الحسبة" . تحقيق محمد شعبان وآخرون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م.

٧ - **الأدريسى** : (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد العزيز ت ٥٦٤هـ).
"نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق" جزئين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة .

٨ - **الاصطخرى** : (أبو القاسم إبراهيم بن محمد توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى).

"المسالك والممالك" تحقيق محمد جابر عبد العال الحيينى، القاهرة ١٩٦١م.

٩ - **أبو العرب** : (محمد بن أحمد بن تميم التميمى المتوفى سنة ٣٣٣هـ).

"طبقات علماء أفريقية وتونس" تحقيق على الشابى وآخرون، تونس ١٩٦٨م.

١٠ - **البغدادى** : (أبو الفرج قدامة بن جعفر الكتاتتب ت ٣٢٠هـ) .

"كتاب الخراج وصنعة الكتابة" مكتبة المثنى بغداد .

١١ - **البغدادى** : (صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ت ٧٣٩هـ).

"مراصد الأطلاع بأسماء الأمكنة والبقاع" ثلاثة أجزاء ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد على البجاوى دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٤م.

١٢ - **البكرى** : (أبو عبيد البكرى ت ٤٨٧هـ) .

"المغرب فى ذكر بلاد أفريقة والمغرب" مكتبة المثنى ، بغداد ١٨٥٧م .

١٣ - **التجانى** : (أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم) .

"رحلة التجانى" تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب تونس ١٩٥٨م.

١٤ - **الجزناءى** : (أبو الحسن على) .

"زهرة الاس فى بناء مدينة فاس" المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٦٧م.

١٥ - **ابن الحاج** : (أبو عبد الله محمد بن محمد ت ٨٣٧هـ) .

"المدخل ألى الشرع الشريف" ٤ أجزاء القاهرة ١٩٢٩م.

١٦ - **الحميرى** : (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم ت ٩٠٠هـ).

"الروض المعطار فى خبر الأقطار" تحقيق أمير تورينز تيانو القسم الخاص بصقلية مجلد ١٨ الجزء الأول ، آداب القاهرة ١٩٥٦م.

١٧ - **ابن حوقل** : (أبو القاسم أحمد النصيبي توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) .
"صورة الأرض" بيروت ١٩٧٩م.

١٨ - **ابن خرداذبه** : (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله ت ٣٠٠هـ).
"المسالك والممالك" بغداد ١٨٨٩م.

١٩ - **الخشنى** : (أبى عبد الله محمد بن أسد القيروانى ت ٣٦١هـ).
"قضاة قرطبة وعلماء أفريقية وتونس" ثلاثة أجزاء ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦م.

٢٠ - **ابن الخطيب** : (الوزير الغرناطى لسان الدين) .
"أعمال الأعلام" الجزء الثالث المنشور باسم (تاريخ المغرب فى العصر الوسيط) تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادى وآخرين، الدار البيضاء ١٩٦٤م .

٢١ - **ابن خلدون** : (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ) .
"العبر ديوان المبتدأ والخبر" الجزء الرابع ، بيروت .

٢٢ - **ابن الدباغ** : (عبد الرحمن محمد بن عبد الله الأنصارى ٦٠٥- ٦٩٦هـ).
"معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان" الجزء الثانى ، تونس ١٣٢٠هـ .

٢٣ - **الدمشقى** : (شمس الدين أبوعبد الله محمدبن أبىطالب ت٧٢٧هـ).
"نخبه الدهر فى عجائب البر والبحر" بطرسبرج ١٨٦٥م .

٢٤ - **ابن رسته** : (أبو علىبن أحمد توفى فى أوائل القرن الرابع الهجرى).
"الأعلاق النفسية" ليدن ١٨٩١م .

٢٥ - **ابن الرقيق** : (إبراهيم بن القاسم توفى بعد سنة ٤١٧هـ) .
"تاريخ أفريقيا والمغرب" تحقيق المنجى الكعبى تونس ١٩٦٧م .

٢٦ - **الزهرى** : (أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المتوفى فى أواسط القرن السادس الهجرى) .
"كتاب الجغرافية" تحقيق محمد حاج صادق مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة .
٢٧ - **السراج** : (محمد بن محمد الأندلسى ت ١١٤٩هـ) .
"الحلل السندسيةفى الأخبار التونسية" الجزءالأول، القسم الأول، تونس ١٩٧٠م.
٢٨ - **ابن سلام** : (أبى عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤هـ) .
"الأموال" تحقيق محمد خليل هراس ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٠م .
٢٩ - **السلاوى** : (أبو العباسى أحمد بن خالد الناصرى ت ١٣١٥هـ).
"الاستقصاء لأخبار دول المغرب القصى" أربعة أجزاء ، القاهرة ١٣١٢هـ .
٣٠ - **الشيرزى** : (عبد الرحمن بن نصر ت ٥٨٩هـ) .
"نهاية الرتبة فى طلب الحسبة" تحقيق ونشر السيد الباز العرينى ، مطبعة لجنة التأليف ، القاهرة ١٩٤٦م .
٣١ - **ابن عبد الحكم** : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد الله ت٢٥٧هـ).
"فتوح مصر والمغرب" نشر هنرى ماسيه ليدن ١٩٣٠م .
٣٢ - **عبيد الله** : "نص جديد عن فتح العرب للمغرب" تحقيق ليفى بروفنسال - ترجمة حسين مؤنس ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد المجلد الثانى ١٩٥٤م.
٣٣ - **ابن عذارى** : (أبو عبد الله محمد توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى) .
" البيان المغرب فى أخبار المغرب " الجزء الأول ، نشر وتحقيق كولان وبروفنسال ، ليدن ١٩٤٨م.
٣٤ - **ابن العماد الحنلبى** : (أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩هـ) .
"شذرات الذهب فى أخبار من ذهب" الجزء الثانى - بيروت .

٣٥ - **عياض** : (عياض بن عياض السبتى ت ٥٤٤هـ) .
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب مالك ، الرباط .
٣٦ - **أبو الفداء** : (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢هـ).
"تقويم البلدان" باريس ١٨٤٠م.
٣٧ - **ابن فرحون** : (برهان الدين بن على بن محمد تت ٧٧٩هـ) .
"الديباج المذهب فى أعيان المذهب" القاهرة ١٣٢٣هـ .
٣٨ - **ابن الفقيه** : (أبو بكر أحمد بن محمد الهمدانى توفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى).
"البلدان" ليدن ١٣٠٢هـ .
٣٩ - **القرمانى** : (أبو العباسى بن أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى ١٠١٩هـ).
"أخبار الدول واثار الأول فى التاريخ" عالم الكتب ، بيروت .
٤٠ - **القزوينى** : (زكريا بن محمد بن محمد) .
"اثار البلاد وأخبار العباد" دار صادر ن بيروت .
٤١ - **القلقشندى** : (شهاب الدين ابى العباسى أحمد بن علىت ٨٢١هـ).
"صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء" ١٤ جزء دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩١٩م .
٤٢ - **المالقى** : (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن البناهى) .
"تاريخ قضاه الأندلس" الطبعة الخامسة،دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٣م.
٤٣ - **المالكى** : (أبى بكر عبد الله بن أبى عبد الله توفى حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى) .
"رياض النقوس فى طبقات علماء القيروان وأفريقية" تحقيق حسين مؤنس ، الجزء الأول ، الطبقة الأولى النهجة المصرية ، القاهرة ١٩٥١م .

٤٤ - **المراكشي** : (عبد الواحد المراكشي) .
"المعجب في تلخيص أخبار المغرب" ضبطه وصححه محمد سعيد العريان وآخرين ، القاهرة .
٤٥ - **المراكشي** : (ابن محشرة كاتب مراكشي مجهول من علماء القرن السادس الهجري) .
"الاستبصار في عجائب الأمصار" نشر د. سعد زغلول عبد الحميد الأسكندرية ١٩٥٨م .
٤٦ - **المقدسي** : (شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٣٨٨هـ) .
"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" الطبعة الثانية نشر دى خوية - ليدن ١٩٦٧م .
٤٧ - **المقريزي** : (تقي الدين أبوالعباس أحمدبن علي ت٨٤٥هـ).
"النقود الإسلامية" تحقيق محمد السيد علي،الطبعة الخامسة،النجف ١٩٦٧م.
٤٨ - **ناصر خسرو** : (علوى الفارسي ت ٤٧٦هـ) .
"سفرنامه" تحقيق يحي الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥م.
٤٩ - **النويري** : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ٦٧٧ - ٧٣٣هـ) .
"نهاية الأرب في فنون الأدب" الجزء الرابع والعشرون تحقيق حسين نصار ومراجعة عبد العزيز الاهواني الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٣م.
٥٠ - **الوزان** : (الحسن بن محمد بن الوزان الزياتي) .
"وصف أفريقيا" ترجمة عبد الرحمن حميده مراجعة علي عبد الواحد، الرياض .
٥١ - **اليافعي** : (أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ت ٧٦٨هـ) .
"مراة الجنان وعبرة اليقظان" الجزء الثالث ، الطبعة الثانية منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ١٩٧٠م.

٥٢ - **ياقوت** : (شهاب الدين أبو عبد الله الروص ت ٦٢٦هـ) .
"معجم البلدان" خمسة أجزاء دار صادر بيروت ١٩٥٥م.
٥٣ - **يحيى بن عمران** : (الأندلسى الأصل الأفريقىت ٢٨٩هـ).
"النظم والأحكام فى جميع أحوال السوق" تونس ١٩٧٥م .
٥٤ - **اليعقوبى** : (أحمد بن ابى يعقوب بن جعفر ت ٢٨٤هـ).
"البلدان" ليون ١٩٦٧م .
٥٥ - **ابن يوسف** : (أبو الحسن على بن يوسفالحكيم) .
"الدوحةالمشتبكةفىضوابط دار السكة" تحقيق حسين مؤنس،مدريد ١٩٦٠م.

ثالثاً : المراجع العربية الحديثة :

١ - **إحسان حقى** : المغرب العربى دار اليقظة ، بيروت .
٢ - **آدم متز** : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جزئين، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة القاهرة ١٩٤١م .
٣ - **أرشيبالد** : القوى التجارية والبحرية فى حوض البحر المتوسط - ترجمة أحمد محمد عيسى - ومراجعة شفيق غربال ، مكتبة النهضة القاهرة .
٤ - **إسماعيل سرهنك** : حقائق الأخبار عن دول البحار الجزء الأول ، مطبعة بولاق ، القاهرة ١٣١٢هـ .
٥ - **أشتور** : التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط فى العصور الوسطى .
ترجمة عبد الهادى عبلة - مراجعة أحمد غسان سبانو - دار قتيبة دمشق ١٩٨٥م .
٦ - **جوايتاين** : دراسات فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ترجمة عطية القوصى ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨٥م .

٧ - **جوليان** : أفريقيا الشمالية تعريب محمد مزالى وآخرين ، تونس ١٩٦٩م .

٨ - **حسن إبراهيم حسن** : تاريخ الإسلام ، الجزء الثانى ، الطبعة السادسة مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٧م .

٩ - **حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف** : العالم الإسلامى فى العصر العباسى - الطبعة الخامسة ، دار الفكر العربى ، القاهرة .

١٠ - **حسن أحمد محمود** : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا الجزء الأول ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٣م .

١١ - **حسن حسنى عبد الوهاب** : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية مكتبة المنار ، تونس ١٩٦٤م.

١٢ - **حسن حسنى عبد الوهاب** : خلاصة تاريخ تونس، تونس.

١٣ - **حسن محمود شافعى** : العملة وتاريخها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٠م .

١٤ - **حسين مؤنس** : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧م .

١٥ - **حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، المجلد الأول ، الدار السعودية للنشر ١٩٩٠م.**

١٦ - **حسين مؤنس** : أطلس تاريخ الإسلام ، مكتبة الزهراء للإعلام العربى القاهرة .

١٧ - **رشيد عبد الله الجميلى** : دراسات فى تاريخ الخلافة العباسية ، الطبعة الأولى ، الرباط ١٩٨٤م.

١٨ - **رشيد بورويبه** : الدولة الحمادية ، الجزائر ١٩٧٧م.

١٩ - **الزركلى** : الإعلام ، الجزء الرابع ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٤م .

٢٠ - **سعد زغلول عبد الحميد** : تاريخ المغرب العربى ، الجزء الثانى ، منشأة المعارف ، الأسكندرية ١٩٧٩م.

٢١ - **سليمان مصطفى زبيس** : بين الثار الإسلامية فى تونس ، تونس ١٩٦٣م .

٢٢ - **السيد عبد العزيز سالم** : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، الطبعة الثانية مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية ١٩٨٢م .

٢٣ - **الشيخ الأمين عوض ا لله** : تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربى وأثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادى من كتاب "تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر" المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، بغداد ١٩٨٤م.

٢٤ - **طاهر راغب حسين** : النقود الإسلامية الأولى ، الكتاب الأول ، الطبعة الأولى ، مطبعة المدينة ، القاهرة ١٩٨٤م.

٢٥ - **عبد الرحمن فهمى محمد** : موسوعة النقود العربية ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٦٥م.

٢٦ - **عبد المنعم ماجد** : التاريخ السياسى للدولة العربية ، الجزء الأول الأنجلو المصرية ن القاهرة ١٩٨٢م.

٢٧ - **عثمان الكعاك** : الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط مطبعة البيان ، القاهرة ١٩٦٥م.

٢٨ - **محمد أبو الفرج العش** : النقود العربية الإسلامية المحفوظة فى منتصف قطر الوطنى ، الجزء الأول ، الدوحة ١٩٨٤م.

٢٩ - **محمد باقر الحسينى** : تطور النقود العربية الإسلامية ، الطبعة الأولى بغداد ١٩٦٩م.

٣٠ - **محمد المطلبى** : تراجم أغلبية "مأخوذ من كتاب ترتيب المدارك للقاضى عياض" ، تونس .

٣١ - **محمد جمال الدين سرور** : تاريخ الحضارة الإسلامية فى المشرق ، دار الفكر العربى ، القاهرة .

٣٢ - **محمد ضياء الدين الريس** : الخراج فى الدولة الإسلامية ، الطبعة الأولى نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٧م.

٣٣ - **محمد محمد زيتون** : القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، دار المنار ، القاهرة ١٩٨٨م.

٣٤ - **محمود إسماعيل عبد الرازق** : الأغالبة سياستهم الخارجية ن مكتبة سعيد رافت جامعة عين شمس ١٩٧٢م.

٣٥ - **المنجى السفير** : الحضارة التونسية من خلال الفسيفساء ، تونس .

٣٦ - **هايد** : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، الجزء الأول ، ترجمة أحمد محمد رضا ومراجعة عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٥م.

٣٧ - دائرة المعارف الإسلامية .

رابعاً : الرسائل العلمية الغير منشورة :

١ - **حسنى إسماعيل مبارك** : التطور الاقتصادى لولاية أفريقية فى عصر الأغالبة ، رسالة ماجستير أداب القاهرة ١٩٨٩م .

٢ - **حورية عبده سلام** : علاقات مصر ببلاد المغرب منذ الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٥م .

٣ - **عفيفى محمود إبراهيم** : مظاهر الحضارة فى بلاد المغرب منذ انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر حتى منتصف القرن السادس الهجرى ، رسالة دكتوراه كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٠م .

٤ - **محمد زينهم** : فقيه أفريقية أبى سعيد عبد السلام بن سعيد الملقب بسحنون ودوره فى التطور الفكرى فى المجتمع الأغلبى ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٨٦م .

خامساً : المراجع الأوربية الحديثة :

1. Chedly bouyahia : La vie Litteraire en Ifriqiye Sous les Ziruds, Paris 1972.
2. Goitien : A Mediterranean Society of the High Middle Ages, V. I Los Angelos 1987.
3. Jackson : Recordes of Civilization.
4. Jamil Abu-Nasr : A History of the Maghrib in the Lalamic Period, London.
5. Jerone Carcopino : Histoire generale du Magreb, Paris 1966.
6. Lavoix : Catalougu des Monn aies Musulmanesa, V. III, Africa and Spain, Paris 1887.
7. Lowick : Islamic coins and trade in the Medieval World, Variorum.
8. Marcais : La Berberie Muslmaine et L'orient Au Moyen Age, Paris 1946.
9. Muhammed Abu-L-Farage : Monnaies Aglabdes, Damas 1982.
10. O'Godrington : Musalman Numismatic, London 1904.
11. Peter Garnsey and others : Trade in the Ancient Economy, University of California, 1983.
12. Walker : Catalogue of the Arab-Byzantine and Post Reform Umaiyad Coins, London 1950.
13. Zaki Muhammed Hasson : Les Tulunides, Paris, 1933.

مدينة سبتة وخططها

فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى

دكتور

حسن خضيرى أحمد

مدرس التاريخ الإسلامى

كلية الآداب بقنا – جامعة أسيوط

أولاً : موقع سبتة(١) :

سبتة مدينة هامة ، تقع فى شمال المغرب الأقصى ، تمثل منطقة تكاد أن تكون جزيرة ، يحيط بها من الشرق البحر المتوسط

---

(١) سبتة (ceuta) بفتح السين وسكون الباء، والنسب إليها بكسرها مثل بصره وبصرى (الحميرى، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٨٠، ص٣٠٣)، ويقال أن مدينة سبتة سميت بهذا الأسم لأنها جزيرة منقطعة، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها إلا من ناحية الغرب (الادريسى، أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨ هـ/ ١١٥٤م): نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، حـ٢، ص٥٢٨)، ويسوق لنا المقرى ومعه الأنصارى تفسيرا آخر لمعنى سبتة، فيقول أنها سميت سبتة نسبة إلى سبت بن تافث بن نوح (المقرى ، شهاب الدين أبو العباس أحمد التلمسانى: أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض، القاهرة ١٩٣٩، حـ١، ص٢٩، الأنصارى ، محمد بن القاسم (كان حياً فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى): اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الأثار، نشر ليفى بروفنسال، (مجلة هسبريس ١٩٣١)، ص ١٤٨ ، ويذكر الحسن بن الوزان أن الرومان كانوا يطلقون عليها اسم سيفيطاس وسماها البرتغاليون سوبتة (الحسن بن الوزان: وصف افريقيا، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص٣١٦)، ويرجح أحد الباحثين أنها سميت كذلك اشتقاقا من الكلمة اللاتينية سيفيطاس (سيبتاس)، (رضوان البارودى: التاريخ السياسى لمدينة سبتة من القرن الرابع حتى منتصف القرن السابع الهجرى، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مجلد ٣٦ سنة ١٩٨٩، ص٣٥ – ٣٦).

وخليجان(٢) : أحدهما فى الشمال يعرف ببحر الرملة، والثانى فى الجنوب يعرف ببحر بسول(٣) يكادان يفصلانها من ناحية الغرب عن أرض أفريقيا ، فلا يتسنى الوصول إليها برا إلا من هذه الجهة(٤) ، فهى داخلة فى البحر كدخول كف على زند(٥).

لقد وهبت الطبيعة مدينة سبتة، جبالا سبعة متصلة بعضها ببعض، يبلغ طولها من الغرب إلى الشرق نحو ميل، ويعرف الجزء الغربى منها بجبل موسى، الذى ينسب إلى موسى بن نصير(٦)، كما يعرف الجزء الشرقى بجبل الميناء(٧). ورغم صغر مساحة سبتة، فإنها تتميز بهذا الموقع الفريد الذى جعلها تتحكم فى بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) ووصفت بأنها مجمع البحرين ، وقاعدة البر والبحر(٨) فهى مدينة بحرية حصينة، واحدى الموانئ الرئسية فى المغرب من الناحية الاستراتيجية والتجارية خلال العصور الوسطى ، بل أهمهما على الاطلاق(٩) ، ثم إن قرب سبتة من الجزيرة الخضراء ، جعل اتجاهها واتصالها بالأندلس، أقوى بكثير

---

(٢) البكرى، عبد الله بن عبد العزيز المرسى (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م): المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشردى سلان، الجزائر ١٩١١، ص١٠٣.

(٣) الادريسى: نزهة المشتاق، ص٥٢٨.

(٤) الحميرى: الروض المعطار، ص٣٠٣.

(٥) ياقوت الحموى: معجم البلدان، بيروت ، حـ٣، ص١٨٢.

(٦) الحميرى: الروض المعطار، ص٣٠٣.

(٧) الادريسى: نزهة المشتاق، ص٥٢٨.

(٨) ابن عذارى المراكشى ، أبو عبدالله محمد (كان حيا سنة ٧١٢هـ/١٣١٢ م): البيان المغرب ، مكتبة صادر ، بيروت (١٩٤٧ - ١٩٥٠) ، جـ١ ، ص ٢٨٤ .

(9) E. Dufourcq : La Question De Ceuta. In (Hesperis) , Tome XI11, 1955, Paris. P. 68

من اتصالها بالمغرب ، ويقدر الإدريسى(١٠) المسافة بين سبتة والجزيرة الخضراء بثمانية عشر ميلاً ، وهى مسافة بسيطة جدا، ويرى ساحل الأندلس المطل على المضيق من داخل سبتة، وخارجها ، ويتعرف على مافيه من حيوانات(١١) ولهذا نجد أن مدينة سبتة كانت تمتاز بطابع أندلسى فى مظهرها ، وثقافتها ، بل وفى وضعها السياسى، فالأحداث فى الأندلس كان لها صدى أكبر فى سبتة عن أى جزء آخر من بلاد المغرب(١٢).

وقد جعل هذا الموقع البحرى سكان سبتة يتجهون فى نشاطهم إلى البحر، يمارسون الصيد ويزاولون التجارة ، ولم يقتصر أفقهم التجارى على سواحل المغرب والأندلس، بل تعداها إلى بلدان أوربا المطلة على البحر المتوسط مثل مرسيليا وبيزا، وجنوة والبندقية(١٣) وأكثر من ذلك ذهبوا إلى الصين(١٤) وساعد اتصالها بالبر من ناحيةالغرب علىتنشيط تجارتها ليس مع بلدان المغرب فحسب، بل مع بلاد السودان(١٥)وهكذا قدر لهذه المدينةبفضل موقعها،وجغرافيتها أن تلعب دورا هاما فىتاريخ المغرب الإسلامى،وهو ما سنقف عليه من خلال هذه الدراسة.

---

(١٠) الإدريسى : نزهة المشتاق، ص ٥٣٩ .

(١١) الحسن بن الوزان: وصف أفريقيا ، ص ٣١٧ .

(١٢) لسان الدين بن الخطيب ، محمد بن عبدا لله (ت٧٧٦هـ ١٣٧٤م) : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادى، الإسكندرية ، ١٩٨٣، ص ١٠١ ، حاشية رقم (١).

(13) Dufourcq: Op. Cit., P. 72.

(١٤) ابن بطوطة ، محمد بن عبدا لله (ت ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م) تحفة النظار، غرائب الأمصار، المطبعة الأزهرية ، ١٣٤٦ هـ ، جـ٢ ، ص ١٦٥ .

(١٥) الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٥٢٩، ابن بطوطة : تحفة النظار، ص ١٦٥.

ثانيا : التطور السياسى لمدينة سبتة :

بعد أن نجح الفاطميون فى نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى فى إقامة دولة لهم فى إفريقية ، أرادوا تحقيق سيادة الخلافة الفاطمية على العالم الإسلامى ، لذلك بادروا بارسال الحملات لفتح مصر لاتخاذها قاعدة للسيطرة على بلاد المشرق، وكذلك ارسال الحملات العسكرية تباعا لفتح المغربين الأوسط والأقصى امتدادا إلى الأندلس. وبداية نشط دعاة الفاطميين فى سبتة لنشر المذهب الإسماعيلى(١) وتيقظ الأمير الأموى عبدالرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٣ - ٩٦١م) لهذا الخطر على الأندلس ، فقام بسلسلة من الإجراءات كان أهمها احتلال سبتة فى ربيع الأول سنة ٣١٩هـ/مارس ٩٣١م(٢) كخط دفاع أول أمام تطلعات الفاطميين، ومن هذه المدينة البحرية استطاع الناصر أن يمد أعوانه من القبائل الثائرة والمناوئة للفاطميين، هذا فضلا عن بث عيونه من خلال سبتة لمراقبة الوضع فى إفريقية.

هذا وقد أولى الناصر مدينة سبتة عناية خاصة، اهتم بتحصينها بسور منيع من الحجارة(٣)وعبأها حتى "صارت مفتاحا إلى العدوة، وبابا إليها"(٤)وبجانب هذا العامل السياسى فى احتلال الأمير الأموى سبتة، فإن العامل الاقتصادى يبرز أيضا فى رغبة أمير الأندلس فى السيطرة على الخطوط التجارية القادمة من الصحراء،

---

(١) محمود على مكى : التشيع فى الأندلس ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٥٤، جـ٢ ص ١١٣ - ١١٥ .

(٢) المقرى: أزهار الرياض، جـ٢ ، ص ٢٥٧ .

(٣) البكرى : المغرب، ص ١٠٣.

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب، جـ١، ص ٢٨٤ .

وسبتة تمثل نهاية الخطوط التجارية والأسواق الهامة لتجارة الصحراء والمغرب، فقد ظل ذهب السودان يتدفق على الأندلس من سبتة عبر المغرب الأقصى، مما زاد فى ازدهار الحياة الاقتصادية فى عهد الناصر وابنه الحكم الثانى الذى بلغ دخله ضعف دخل أبيه(٥) كما بنى المنصور محمد بن عبدالله بن أبى عامر (ت ٣٩٢هـ/١٠٠٢م) سور جبل الميناء(٦) وهذه الأسوار تظهر من عدوة الأندلس لبياضها(٧).

وفى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى استولى الحموديون على سبتة وطنجة، إلى أن استقل بها أحد مواليهم ويدعى سقوط البرغواطى(٨) وظل بها إلى أن تطلع إليها يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين - فأرسل إليها جيشا بقيادة صالح بن عمران ، حيث التقى بسقوط فى معركة بالقرب من طنجة

---

(٥) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ص ٣٣٢.

(٦) الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٥٢٨.

(٧) الحميرى: الروض المعطار ، ص ٣٠٣ .

(٨) ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٦٨ ، حـ٦، ص ٤٥٦ - ٤٥٧، السلاوى ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٥٤، حـ٢ ص ٣٠

• سقوط البرغواطى كان عبدًالحداد من موالى الحموديين ، اشتراه من سبى قبيلة برغواطة ثم انتقل إلى على بن حمود أثناء ولايته لسبتة ، وظل فى خدمته إلى أن أعتقه، ولما ضعف أمر الحموديين استقل سقوط بسبتة . (راجع ابن خلدون: العبر ، حـ٦ ، ص ٤٥٦ - ٤٥٧، مؤلف مجهول: مفاخر البربر، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ ، ص ٥٥ - ٥٧ ، السلاوى: الاستقصا، حـ٢ ، ص ٣٠ - ٣١ ، رضوان البارودى : التاريخ السياسى لمدينة سبتة، ص ٥٧ - ٦١ .

سنة ٤٥٩ هـ/١٠٦٦م ، انتهت بانتصار المرابطين ، واستيلائهم على طنجة، علاوة على قتل سقوط ، ففر ابنه ضياء الدولة إلى سبتة واعتصم بها(٩) .

واصل ابن تاشفين حملاته للاستيلاء على سبتة، و لم يتمكن إلا بمساعدة أساطيل ابن عباد عام ٤٧٦هـ / ١٠٨٣ م ،(١٠) وكان استيلاء المرابطين على سبتة بداية اهتمامهم ببناء أسطول مغربى قوى والاستفادة من دور صناعتها، ومافيها من سفن وآلات(١١) .

ومن المرجح أن إصرار يوسف بن تاشفين على فتح سبتة مرده أن يتخذ منها قاعدة بحرية، كى يناهض قوة الأعداء التى أخذت فى الازدياد فى حوض البحر المتوسط، هذا فضلا عن وضعه لأول لبنة فى أساس الدفاع عن المسلمين فى الأندلس لحماية القوات المرابطية حين تعبر البحر للجهاد فى الأندلس(١٢)، وتأمينه لبلاد المغرب ذاتها، لذا نجد يوسف بن تاشفين يولى عناية فائقة لسبتة "فنظر فى أمرها، وأصلح سفنها، وقدمت عليه بها جنود الله من المغرب والصحراء والقبلة ، والزاب"، كما بنى المسجد الجامع وسور الميناء السفلى(١٣).

---

(٩) السلاوى: الاستقصا، جـ٢، ص ٣١ .

(١٠) ابن أبى زرع، أبو الحسن على بن عبدالله (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥م) : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، ١٩٣٦ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(١١) أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(١٢) السلاوى : الاستقصا، جـ٢ ، ص ٣٤ .

(١٣) مؤلف مجهول: الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف أندلسى من أهل القرن الثامن الهجرى، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة ، الدار البيضاء ١٩٧٩ ، ص ٧٢ .

اكتسبت سبتة فى عهد الموحدين أهمية كبيرة فـى النشـاط التجـارى، حتـى غدت من أهم موانئ المغرب، ولاغرو فى ذلك، فكـان علـى مـن يريـد السـفر إلى المشرق يتجه إلى سبتة، ولا أدل على ذلك من الرحالة ابن جبـير الـذى بـدأ رحلتـه المشهورة من مدينة سبتة(١٤).

وسـار الموحدون على نفس سياسة أسـلافهم المرابطـين فـى الاهتمـام بميناء سبتة، واتخاذه قاعدة لأساطيلهم ، وأنشـأوا فيهـا دارًا لصناعـة السـفن فـى الوقـت الذى اشتدت فيه شوكة النصارى فى الأندلس، وأصبح الجهـاد سمـة لهـذا العصـر، وغدت سـبتة " ثغـر العـدوة ، ومرقـى الأسـطول ، ودار إنشـاء الآلات البحريـة ، وفرضـة الجـواز إلى الجهـاد، فكـانت ولايتهـا مختصـة بالقرابـة مـن السـادة بنـى عبدالمؤمن"(١٥) .

كما أدت سبتة منذ النصف الثانى من القرن السادس الهجرى / الثانى عشـر الميـلادى وحتـى نهايتـه دورهـا كمعـبر ومجـاز للجيـوش الموحديـة المتجهـة إلى الأندلس للجهاد(١٦) ، هذا فضـلا عن قمع حركة القرصنـة التـى كـانت منتشـرة بين المسيحيين والمسـلمين على السـواء(١٧)، ظلت سبتة تحـت لـواء الموحديـن ، ولم تخرج عن طاعتهم إلافترة بسيطة سـنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م ، عندمـا سـيطر عليهـا محمـد بـن علـى بـن يحيـى المعـروف بـابن غانيـة ، ودعـا فيهـا للخليفـة

---

(١٤) ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير (ت ٦١٤ هـ/١٢١٧ م) : رحلة ابن جبـير، دار الكتاب اللبنانى (بدون تاريخ)، ص ٤١ .

(١٥) ابن خلدون: العبر، جـ٧ ، ص ٣٨٢ (دار الكتاب اللبنانى ،بيروت ١٩٧٨)

(16) H. Terrasse, Les Monuments De Ceuta, Al-Andalus, (27) Madrid, 1962, p. 443.

(١٧) أحمد مختار العبادى: دراسات ، ص ٣٤٧ .

العباسى(١٨) بيد أن الموحدين مالبثوا أن استرجعوا سبتة إلى حوزتهم، وظلت تحـ سيطرتهم.

على أن ضعف الدولة الموحدية فـى أوائـل القـرن السـابع الهجـرى / الثـالث عشر الميلادى، وهزيمة جيوشـهم فى موقعـة العقـاب (Las Navs De Tolosa) فى الأندلس سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م (١٩)، تلك الموقعة التى أدت إلى انهيار نفوذ الموحدين بـالأندلس ، والتـى كـانت بدايـة النهايـة للدولـة الموحديـة ذاتهـا ، فقـد ضعفت قبضة المسلمين فى منطقة خليـج جبـل طـارق، وأخـذت المـدن الأندلسية ينفـرط عقدهـا، وتتسـاقط فـى يـد النصـارى أمـام حركـة الاسـترداد المسـيحية (Reconquista) (٢٠).

لعل كل هذه العوامل مجتمعة كان لها انعكاساتها فى مدينة سبتة ، التى ظلت مجالا للتنافس بين القوى البحر متوسطية المختلفة، وازدادت أهميتها الاسـتراتيجية، وفجرت فى الطامحين من أهلها كوامن النزعة الاستقلالية، والطمـوح إلى السـيطرة على مقدرات مدينتهم، ومن هنا يمثـل لنـا القـرن السـابع الهجـرى / الثـالث عشـر الميلادى فترة هامة مـن تـاريخ المغـرب بصفـة عامـة ، وتـاريخ مدينـة سـبتة بصفـة خاصة(٢١).

---

(١٨) ابن خلدون: العبر جـ٦، ص ٥١٨ ، راجع رضـوان البـارودى: التـاريخ السياسـى لمدينة سبتة ، ص٨١ .

(١٩) ابن عذارى: البيان، قسم الموحدين جـ٣ تحقيـق ابراهيـم الكتـانى وآخـرون ، دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٢٦٢، ٢٦٣ .

(20) Dufourcq, La Question De Ceuta,p. 68.

(21) Ibid. p. 68.

فى فترة وجود فراغ سياسى بانهيار دولة الموحدين، تحرك أعيان سبتة سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م لاختيار حاكم لهم، فوقع اختيارهم على أحد كبار تجار المدينة ويدعى أبا العباس اليانشتى[٢٢]، ليتولى امارة المدينة، وتلقب بالموفق[٢٣] واستطاع هذا الرجل أن يحكم قبضته على المدينة، وأثبت جدارتة فى حكم هذه المنطقة الهامة، وسط المخاطر الخارجية والداخلية، فلم يلبث بعد قليل من توليه الحكم أن تعرض إلى محاولة خطيرة من جانب الجنوية للاستيلاء على سبتة، عندما جاءت أعداد كبيرة منهم على سفن كثيرة ونزلوا ميناء المدينة سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م ، وادعوا أنهم حضروا للتجارة[٢٤]بيد أن يقظة حاكمها أبى العباس اليانشتى، واستنجاده بالقبائل المجاورة، قضت على هذه المحاولة فى مهدها، واضطر الجنويون إلى الفرار، بعد أن ذبح معظمهم، ونهبت أموالهم وفنادقهم التى بالمدينة فقد "تحكمت السيوف والرماح من كل مفرق لهم ونحر، ومن سلم من القتل رمى بنفسه عائدا إلى الأجفان فى البحر"[٢٥].

لم يرض الجنويون عن هذه الهزيمة، فعاودوا الهجوم على مدينة سبتة فى السنة التالية ٦٣٣هـ/١٢٣٤ م فى مائة مركب انتقاماً لضحاياهم، فحاصروها، ونصبوا عليها المنجنيقات وآلات الحصار "فلم يقدروا منها على شيء لقوة

---

(٢٢) ينشته. حصن من حصون الملح على مرحلتين من جنجالة شمال مرسية. (الحميرى: الروض المعطار، ص ٦٢٢) .

(٢٣) الحميرى : الروض المعطار، ص ٦٢٢ .

(٢٤) ابن عذارى: البيان (قسم الموحدين) جـ٣ ، ص ٣٥٠ ، ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ١٨٣ .

Dufourcq, La Question de Ceuta, p. 71.

(٢٥) ابن عذارى : البيان ، جـ٣، ص ٣٥٠ .

أسوارها(٢٦)، مماحملهم إلى الرحيل عنها بعد أن تعهد اليانشتى أن يدفع لهم مالاً معلوماً تعويضاً لهم عن خسائرهم(٢٧).

كذلك لم تقف دولة الموحدين مكتوفة الأيدى إزاء خروج سبتة من حوزتها تحت حكم اليانشتى، بل عملت جاهدة على استردادها، و لم تلجأ فى ذلك إلى القوة خشية أن تكون مغامرة غير محمودة العواقب، وانما استخدم بنو عبدالمؤمن الحيلة، فبعثوا عينا من عيونهم يدعى ابراهيم من مسعود الكومى إلى اليانشتى، وتظاهر ابن مسعود بالزهد والورع وإطراح الدنيا ، فى الوقت الذى كان يخطط فيه لقلب نظام الحكم فى سبتة وعودتها إلى حظيرة الدولة الموحدية، وظل ابن مسعود فى كنف اليانشتى"حتى اطلع من ذلك على المطلب، وظفر بالغرض"(٢٨)، بأن استقدم جيشًا من قبل صاحب مراكش (الرشيد عبدالواحد) تولى ابن مسعود قيادته وحمل على اليانشتى وجموع السبتيين مما اسفر عن هزيمة بالغة لحقت بالسبتيين، واستطاع ابن مسعود على اثرها أن يستولى على سبتة، ويخلع اليانشتى، الذى"كان أمره مستقيما براً وبحراً، يخاف ويرجى،ويمدح ويقصد، وتخاطبه الملوك من البلاد"(٢٩)، وبذلك عادت سبتة مرة أخرى لنفوذ الموحدين، يتناوب عليها الولاة من قبلهم، وكان آخر ولاة الموحدين على سبتة أبو على بن خلاص

---

(٢٦) السلاوى: الاستقصا، جـ٢ ، ص ٢٤٤ ، راجع أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ ، وقارن ابن عذارى حيث يقول : "وكان ذلك عام ٦٣٣هـ وقيل سنة ٦٣٦" (ابن عذارى : البيان ، جـ٣، ص ٣٥٠).

(٢٧) ابن عذارى: البيان ، جـ٣ ، ص ٣٥٠ .

(٢٨) الحميرى: الروض المعطار ، ص ٦٢٢ .

(٢٩) الحميرى: الروض المعطار ، ص ٦٢٢ .

البلنسى(٣٠) الذى توفى سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م ، وخلفه فى ولاية سبتة ابن الشهيد الهنتانى(٣١) .

على أن ابن الشهيد الهنتانى أساء السيرة وتعسف فى معاملة الأهالى، كما اشتط ابن أبى خالد (صاحب الأشغال) فى الجبابة حتى "ضاق أهل سبتة غاية التضييق من جورابن أبى خالد، وتغافل ابن الشهيد"(٣٢) ودبر زعماء سبتة عشية السابع والعشرين من رمضان سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م إنقلابا بمساعدة بحرية من قائدالبحر الأندلسى (أبو العباس الرنداحى)(٣٣)، الذى كان بينه وبين ابن الشهيد جفوة، ونجح الانقلاب بقتل ابن أبى خالد على يد الأهالى لأنه أضرهم بظلمه وجوره، واعتقل ابن الشهيد ونفى إلى الأندلس، ثم نادوا بأحد زعماء المدينة الفقيه الشريف أبا القاسم بن أبى العباس العزفى ليتولى زمام السلطة فى سبتة(٣٤) وهكذا تولى حكم سبتة رجل ثان من بيت العزفى، الذى كان من بيوتات سبتة المرموقة المعروفة بالدين والعلم والرئاسة، فقد كان والد أبو القاسم العزفى فقيها وعالماً،

---

(٣٠) ابن عذارى: البيان ، جـ٣، ص ٣٤٥، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٦٢٢ .

(٣١) هو القائد أبو زكريا يحيى بن أبى بكر بن أبى حفص عمر الهنتانى، وهو أمير حفصى ابن عم الأمير الحفصى أبى زكريا.(ابن عذارى : البيان جـ٣ ، ص ٣٧٨، راجع: روبار برنشفيك : تاريخ إفريقية فى العهد الحفصى (من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥ م) نقله إلى العربية حمادى الساحلى، دار الغرب الإسلامى ، بيروت، جـ١ ص ٦٣ .

(٣٢) ابن عذارى: البيان، جـ٣ ، ص ٣٩٧ .

(٣٣) بنو الرنداحى من الأسر الأندلسية فى المرية، الذين استمرت فى بيتهم قيادة الأساطيل الأندلسية والمغربية منذ أواخر أيام الموحدين، وقد برز منهم شخصيات متعددة فى المراجع الإسلامية. (راجع: أحمد مختار العبادى: دراسات ، ص٣٩٦، ص٣٩٧).

(٣٤) المقرى : أزهار الرياض، جـ٢ ، ص ٣٧٥ .

ومحدثا وقاضياً، وينسب إليه أول من أدخل الاحتفال بالمولد النبوى(١٢ ربيع الأول) احتفالا رسميا فى بلاد المغرب(٣٥) و لم تلبث هذه العادة أن انتقلت إلى فاس وغرناطة وتلمسان وعمت جميع بلاد المغرب الإسلامى(٣٦) ومن المعروف أنه ألف كتاباً حول هذا الموضوع بعنوان "الدر المنظم فى مولد النبى المعظم" أكمله إبنه أبو القاسم العزفى(٣٧).

استطاع أبو القاسم العزفى أن يوطد دعائم حكمه، فعمل على تحصين أسوار سبتة وانشاء العديد من المنشآت الحربية والعمرانية والتجارية التى ذكرها الأنصارى(٣٨)، وأدت إلى ازدهار التجارة فى سبتة حتى غدت مركزا تجاريا كبيرا لغرب البحر المتوسط(٣٩) .

لم تكن سبتة بمعزل عن الأحداث التى تجرى فى الأندلس، حيث اشتدت شوكة النصارى، فقد حاول الفونس العاشر فرض سيطرته على موانئ المغرب وفى مقدمتها سبتة كى يحول دون اتصال المغرب بالاندلس، نجد أن أبا القاسم العزفى كان يرصد تحركاته عن طريق عيونه فى الأندلس، حتى إذا ماشن الفونس العاشر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠ م هجوما بحريا على مدينة سلا كان العزفى متيقظا وعلم مسبقا بنوايا ملك قشتالة، وأخطر كافة موانئ المغرب بذلك(٤٠).

---

(٣٥) ابن عذارى: البيان، جـ٣ ، ص ٣٩٨ ، المقرى: أزهار الرياض، جـ٢ ، ص ٣٧٥.

(٣٦) أحمد مختار العبادى : دراسات، ص ٣٧٩ ، حاشية رقم (٢) ويذكر الدكتور العبادى أن مدينة سلا مازالت تختص بموكب الشموع الذى يخرج منها فى هذه الليلة العظيمة .

(٣٧) المقرى : أزهار الرياض، ص ٣٧٥ ، الأنصارى: اختصار الأخبار ، ص ١٥٠.

(٣٨) الأنصارى : اختصار ، ص ١٥٧ – ١٦٠ .

(39) Dufourcq, La Question De Ceuta, p. 72.

(٤٠) ابن عذارى : البيان ، جـ٣ ص ٤١٨ .

وفى سنة٦٦٣هـ/١٢٦٤ م،بعث أبو القاسم أسطوله إلى مدينة أصيلا فهدم أسوارها وقصبتها، خشية احتلال الأسبان لها، ومالبث أن أعقب ذلك باحتلال مدينة طنجة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧ م وولى عليها عاملاً من قبله يدعى ابن حمدان(٤١)، فصار بذلك مسيطراً علىالسواحل الشمالية للمغرب الأقصى،ومن هنا يمكن القول أن أبا القاسم حمل على عاتقه مهمة الدفاع عن سواحل المغرب، وكان بمثابة جبهة الانقاذ لمسلمى الأندلس.

وعندما استولى أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق المرينى (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ - ١٢٨٦م) على مراكش سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م، كان عليه أن يفرض سيطرته على إمارة العزفى فى الشمال تلك الإمارة الغنية التى يمكن أن تكفل مورداً ثابتا للدولة المرينية لذا نجده يخرج سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م على رأس حملة بفرض سيطرته على طنجة، وانتزاعها من بنى العزفى(٤٢) وأصبحت جولته القادمة سبته نفسها، بيد أن حصانة المدينة وموقعها البحرى وبسالة أهلها حال دون السيطرة عليها، مما حمل السلطان أبا يوسف المرينى أن يبرم اتفاقا مع صاحبها أبى القاسم العزفى بموجبه تظل سبتة تحت سلطة بنى العزفى مقابل خراج يؤديه لسلطان المغرب(٤٣) .

توفى أبو القاسم العزفى فى ١٣ من ذى الحجة سنة ٦٧٧ هـ / أبريل ١٢٧٩م ، بعد أن حكم سبتة مايقرب من ثلاثين عاما حافلة بالجهاد والأعمال

---

(٤١) ابن عذارى: البيان، حـ٣ ، ص ٤٣٣، السلاوى: الاستقصا ، حـ٣،ص ٣٤-٣٥.

(٤٢) ابن خلدون: العبر، حـ٧، ص ٣٨٥ ، ابن أبى زرع: روض القرطاس، ص ٣٠٨، السلاوى: الاستقصا، حـ٣ ص ٣٥.

(٤٣) السلاوى: الاستقصا، حـ٣ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

العظيمة(٤٤)، وخلفه فى منصبه إبنه أبو حاتم أحمد ، غير أن أباحاتم أحمد كان مؤثراً للخمول وكان أخوه الأكبر أبو طالب رديفا له فى الأمر مدة سنة واحدة، تولى بعده هذا الأخ الأكبر حكم سبتة(٤٥)، وسار أبو طالب على نهج أبيه فى سياسته مع بنى مرين القائمة على التعاون فيما بينهم(٤٦) وأكمل مابدأه والده فى الجهاد فى الأندلس، فعندما انتهك الفونس العاشر الهدنة المبرمة بينه وبين السلطان المرينى ، واستولى على الجزيرة الخضراء، أعد السلطان أبو يعقوب المرينى العدة لتحرير هذه المدينة ، وأصدر أوامره لجميع أشياخ سبتة وقوادها، ورؤسائها، وغزاتها وندبهم للجهاد، وساهمت سبتة بخمس وأربعين سفينة مابين كبار وصغار، وركب فيها تطوعاً برسم الجهاد جميع من بسبتة من الفقهاء، والصلحاء والطلبة والتجار والسوقة، ومن لا معرفة له بالحرب، ولم يبق بسبتة إلا النساء والزمناء والشيوخ والصبيان، وبعد معركة حامية الوطيس كانت الغلبة فيها لسفن سبتة، وتحرير الجزيرة الخضراء سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩ م(٤٧).

ومن هنا يمكن القول أن سبتة كانت خط الدفاع الأول عن الأندلس، وأن، بنى العزفى كانوا عماد الأسطول المرينى، وأن أهل سبتة كانوا مقاتلين متمرسين على فنون القتال "إذ الرمى طبع لأهل سبتة طبعوا عليه ، فلا تلفى منهم شريفا، ولامشروفا، ولاكبيراً ولاصغيراً إلاوله بصربالرمى وتقدم فيه"(٤٨).

---

(٤٤) ابن عذارى: البيان ،حـ٣ ، ص ٣٩٩ ، ابن خلدون : العبر، حـ٧ ، ص ٣٨٤ .

(٤٥) ابن خلدون : العبر، حـ٧ ، ص ٤٧٣ .

(٤٦) نفس المصدر ، حـ٧ ، ص ٤٧٣ .

(٤٧) ابن خلدون العبر،حـ٧،ص ٤١٨،٤١٩، ابن أبى زرع:روض القرطاس،ص ٢٢٥.

(٤٨) الأنصارى: اختصار الأخبار، ص١٦٦.

وفى أوائل القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، اندلعت فى بلاد المغرب ثورات واضطرابات داخلية، قتل فيها السلطان أبو يعقوب المرينى بيد عبيده سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م، وحركت هذه القلاقل مطامع سلطان غرناطة محمد الثالث (٧٠٢ - ٧٠٩هـ/ ١٣٠٢ - ١٣٠٩م)، فانتهز فرصة الخلاف الذى دب بين عبد الله بن مخلص - قائد الحامية فى سبتة - وبين يحيى بن أبى طالب العزفى ذريعة للتدخل فى شئون سبته، وأمر سلطان غرناطة أبا سعيد فرج صاحب مالقه بالاستيلاء على سبتة، فافتحمها بجنده وأساطيله ليلة ٢٧ شوال سنة ٧٠٦هـ/ مايو ١٣٠٦ م ، وتم ابعاد أسرة العزفى إلى غرناطة(٤٩).

وهكذا يسدل الستار على بنى العزفى حكام سبتة، بعد ملحمة الكفاح الطويلة فى الدفاع عن المغرب والأندلس، والذى يعد بحق حكمهم لسبتة صفحة مشرقة فى تاريخ سبتة الإسلامى.

---

(٤٩) ابن خلدون: العبر، حـ٧، ص٤٧٤، السلاوى: الاستقصا، حـ٣، ص٨٢، ١٠١.

ثالثا: خطط سبتة:

شهدت مدينة سبتة أوج ازدهارها الحضارى فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى والوصف الذى تركه لنا الأنصارى عن سبتة فى كتابه "اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الأثار"، يدل دلالة واضحة على أن المدينة حتى أوائل القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى كانت تنعم بالرخاء والازدهار العمرانى، وتضم بين جنباتها العديد من الخطط المتباينة فى تكوينها وطابعها العام وأهدافها، منها ما غلب عليه الصفة الدينية كالمساجد والزوايا، والأضرحة والمزارات، ومنها ما اتخذ طابعاً اجتماعياً كالحمامات والأسبلة، ومنها ما استهدف تحقيق رسالة علمية كالمساجد والرباطات، ومنها ما تميز بطابعه الاقتصادى كالفنادق والأسواق والتربيعات والحوانيت والأفران، ونحن بصدد القاء الضوء فى هذه الدراسة على الخطط التى حفلت بها سبتة.

عن الجانب العمرانى فى مدينة سبتة يذكر الأنصارى(١)، أن عدد الأزقة(٢) بها مئتان وخمسون زقاقاً سوى مادثر منها، نذكر منها على سبيل المثال: أزقة الخندق الكبير الذى كان يعرف فيما سلف بخندق المين، ويعرف اليوم بخندق الدجاج، ومعظمها يشتمل على أزقة كثيرة، لعل من أهمها الزقاق الأعظم (زقاق ابن عيسى)، الذى يقطنه كبار رجالات سبتة، ويتميز باتساع مساحته بما يتفرع منه من أزقة، ودروب هذا فضلاً عما يحتوية من قصور ملوكية، ومصانع هائلة، وهذا الزقاق يفصل بين شطرى المدينة(٣).

---

(١) الأنصارى: اختصار الأخبار /١٥٦.

(٢) الزقاق: الطريق الضيق نافذاً أو غير نافذ، وجمعها أزقة. (المعجم الوجيز /٢٨٩).

(٣) الأنصارى : اختصار الأخبار /١٥٧.

ويبدو أن مسمى زقاق فى بلاد المغرب، كان يقابله شارع فى بلاد المشرق، والأزقة الصغيرة والدروب هى ما نطلق عليها حارات(٤)، وثمة ملاحظة أن أزقة سبتة كانت تسمى بأسماء من قطنها من العلماء كزقاق ابن عيسى، وزقاق القاضى عياض(٥)، وزقاق العزفى وغيرهم، وكانت دواعى الأمن لهذه المدينة التجارية، أن تغلق دروبها ليلاً، ويتعهدها حراس تجرى عليهم الأرزاق(٦).

وبعد أن ينتهى الأنصارى من ذكر الأزقة ، يطوف بنا إلى أبواب المدينة التى تمثل أكبر المنافذ باتصال طرق المدينة الداخلية بخارجها، هذا فضلاً عن تحقيق الهدف الحربى فى ضرب أى عدو يصل إليها، يذكر أن عددها خمسون باباً أضخمهم وأجلهم الباب الأعظم الذي ليس له نظير، والمعروف بالباب الجديد وهو باب سبتة الرئيسى الذى يؤدى إلى البرزخ من جهة الغرب، فضلاً عن أبواب

---

(٤) يقول المقريزى عند ذكره مدينة الفسطاط: "وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة"، وعند ذكره القاهرة "ولنبتدئ بذكر شوارعها ومسالكها المسلوك منها إلى الأزقة والحارات، ومن هنا يتضح من قوله أن الشارع أكبر من الزقاق، وهذا يجعلنا نرجح أن مسمى زقاق فى بلاد المغرب يقابله شارع فى بلاد المشرق: راجع: المقريزى، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة ١٩٩٠، جـ١ ، ص٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٧٣، على مبارك : الخطط الجديدة التوفيقية لمصر والقاهرة، بولاق ١٣٠٦ هـ ، جـ١، ص٨٢.

(٥) القاضى عياض بن موسى بن عياض اليحصبى، من أعلام مدينة سبتة توفى سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م. (راجع : القاضى عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، بيروت ١٩٦٥، جـ ١ ص ٣، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت: ٥٧٨هـ / ١١٨٣م) . كتاب الصلة ، القاهرة ١٩٦٦ جـ ٢ ص ٤٥٣.

(٦) الأنصارى : اختصار الأخبار ص ١٥٧.

كثيرة بلغت ستة عشر باباً(٧)، وأما أبواب الربض البرانى فخمسة أبواب، وأبـواب آفراك ثلاثة أكبرها باب فاس(٨)،وجميع هذه الأبواب ملبس بالحديد إلا اليسير(٩).

ولعل تصفيح هذه الأبواب بالحديد حتى تقاوم ضربـات العـدو إذا اسـتطاع الوصول إليها، وهو أسلوب شاع استخدامه فى جل أبواب المـدن الإسـلامية مثـل أبواب المهدية، والقاهرة، وغيرهما(١٠).

ويتحدث الأنصارى(١١) عن أرباض المدينة، فيذكر أنها ستة أرباض: "الثلاثة العامرة المتصلة بالبلد، والربض البرانى، حيث الحارة، والكسـابون، وآفـراك المدينـة المحاذية له"، هذا بالإضافة إلى أمـاكن العـين الشـرقى أمـام المجـرى الزقاقيـة، حيـث يسكنها أهل الزمام، وبها زوايا، وجنات، وشعار، ومجاشر(١٢)، وغير ذلك ومنهـا يحتطب أهل سبتة.

ويتضح من قول الأنصارى أن بلدة آفراك من أجمل ضواحى سبتة من ناحيـة الغرب، وذلك لطيب هوائها، واتصالها بالبر عن طريق باب فاس، حتى غدت هذه المدينة مدينة ملوكية، شيد فيها ملوك بنى مرين قصوراً لنزولهم(١٣).

---

(٧) الأنصارى : اختصار الأخبار ، ص ١٦٤.

(٨) انظر خريطة سبتة (ملاحق البحث).

(٩) الأنصارى : اختصار ، ص ١٦٥.

(١٠) محمد عبد الستار عثمـان : المدينـة الإسـلامية، سلسـة عـالم المعرفـة، العـدد ١٢٨، الكويت ذو الحجة ١٤٠٨هـ / أغسطس ١٩٨٨م، ص ١٤٢.

(١١) الأنصارى: اختصار، ص١٦٤.

(١٢) مجاشر : وهى جمع مجشر، وهو عبارة عن تجمع يضـم بيـوت للفلاحـين لا تتجـاوز العشرة، وليس فيها مسجد أو سوق، وهى كلمة مغربية استخدمها مؤرخو المغرب ومنهـم ابـن خلدون (الحسن بن الوزان: وصف افريقيا ، ص٧٥، حاشية رقم (١٦١) (طبعة السعودية).

(١٣) الأنصارى : اختصار ، ص ١٦٤.

على أية حال فى ضوء الوصف الذى أمدنا به الأنصارى عن التخطيط العمرانى لمدينة سبتة، يبدو أن هذه المنشأت كانت تتناسب وطبيعة المدينة البحرية، والتجارية ، ومهامها الدفاعية ضد أى هجوم خارجى بحرى أو برى، وهو ما أثبتته الأحداث السياسية طوال تاريخها السياسى.

* * *

أدى اتساع دائرة الحضارة الإسلامية، وازدياد أعداد الداخلين فى الإسلام، أن تعددت المساجد، والمنشآت الدينية فى الأمصار الإسلامية، وصار لا يكتفى بمسجد جامع واحد فى المدينة الواحدة، وانما كثرت المساجد وتقاربت.

ويحفظ لنا البكرى(ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٨م)(١٤) ، وصفاً لمسجد سبتة الجامع بقوله :"...وجامعها على البحر المعروف ببحر بسول، له خمسة بلاطات(١٥)، وفى صحنه جبان...".

وأدخلت على هذا المسجد الجامع توسعات كثيرة، ليتسع لهذه الأعداد النامية من المصلين حتى أصبح يضم اثنين وعشرين صفاً من الأعمدة(١٦)، ويقدم لنا الأنصارى(١٧) وصفاً شائقاً لهذا المسجد العتيق فيذكر أن نوافذ المسجد من الزجاج الملون المعشق بالرصاص، وكذلك القنوات والميازيب من الرصاص أيضاً، كما يتميز هذا المسجد عن بقية مساجد المغرب بوجود مجاز قاطع يقطع صفوف

---

(١٤) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية، ص ١٠٣.

(١٥) البلاطة يقصد بها صف الأعمدة.

(١٦) الأنصارى : اختصار الأخبار، ص ١٥٣.

(١٧) نفس المصدر ، ص ١٥٣.

الأعمدة الموازية لجدار القبلة، وهى أكثر إتساعاً، وسقفها أكثر ارتفاعاً، وبالمسجد صحنان أحدهما أكبر من الأخر، وبكل منهما جبان إثنان.

وعن تاريخ بناء هذا المسجد الجامع يذكر صاحب الحلل الموشية(١٨) أن يوسف بن تاشفين بنى المسجد الجامع، وسور الميناء السفلى بعد فتحه لسبتة سنة (٤٧٦هـ / ١٠٨٣م)، ويحفظ لنا الأنصارى(١٩) كتابة على منبر هذا المسجد تفيد: "كان صنع هذا المنبر فى شعبان المكرم سنة ٤٠٨هـ"، أى فى عهد الحموديين.

ومن المرجح أن يوسف بن تاشفين أدخل توسعة على هذا المسجد ولم يقم ببنائه.

يدعم هذا الرأى أن البكرى المتوفى سنة (٤٦٠هـ / ١٠٦٩م)، أى قبل استيلاء المرابطين على سبتة ترك لنا وصفاً عن هذا المسجد أضف إلى ذلك تاريخ صنع هذا المنبر سنة ٤٠٨هـ ، وهو تاريخ أسبق من البكرى، ويبدو أن ما ذكره صاحب الحلل الموشية كان يقصد به المسجد الذى بناه يوسف بن تاشفين فى جبل الميناء بداخل البرج وذكره الأنصارى(٢٠) بقوله : "...طالع سبتة الذى بأعلى جبل مينائها المعروف عندنا بالناظور ابتناه المرابطون هنالك للناظر الراتب به حصناً وبه قلهرة(٢١) كبيرة وبداخل القلهرة مسجد، وكان ذلك على يد القاضى أبى الفضل عياض رحمة الله عليهم أجمعين".

---

(١٨) مؤلف مجهول : الحلل الموشية، ص ٧٢.

(١٩) الأنصارى : اختصار ، ص ١٥٣، راجع حاشية رقم (١) نفس الصفحة.

(٢٠) نفس المصدر ، ص ١٥٦ .

(٢١) القَلَهُرَّة : وجمعها قلهرات calahorra قلعة أو حصن للدفاع.
R. dozy ; supplement aux dictionaires Arabes, leyden. 1927, vol, 2, p. 401

وهذا يجعلنا نرجح أن تأسيس هذا المسجد الجامع يرجع إلى نهاية القرن الأول الهجرى أى إلى عصر ولاة بنى أمية على المغرب، حيث يقول الأنصارى(٢٢): "...وصومعته قديمة من عمل الأوائل..".

ويبالغ الأنصارى(٢٣) فى عدد مساجد سبتة بأنها ألف مسجد، لعل أكثرها شهرة وذيوعاً المسجد العتيق، ومسجد القفال، ومسجد مقبرة زكلو الذى يعد من أكبر مساجد المدينة بعد المسجد العتيق، "وهو من بناء الفقيه أبى القاسم العزفى (٦٤٧ - ٦٧٧هـ / ١٢٤٩ - ١٢٧٩م)"، ثم يستطرد فى ذكر الزوايا والرباطات فيذكر أن عددها سبع وأربعون ما بين زاوية، ورباط محاذية للبحر من جانبى الجنوب والشمال، منها ما هو بداخل المدينة، ومنها ما هو خارجها، وأعظم الأربطة بناءً، الرباط المعروف برباط الصيد، ومن المعروف أن الرباط عبارة عن ثكنة تتكون من صحن ومن عشرات الغرف الإنفرادية حوله، وتنتهى بجامع كبير وصومعة مستديرة للآذان، وخصوصاً لمراقبة السواحل من غارات الروم(٢٤)، وتنتشر الرباطات على طول ساحل البحر المتوسط، وخاصة فى بلاد المغرب، ولقد اعتبر عمل المرابطين على السواحل رباطاً، وجهاداً فى آن واحد، ويروى أن عقبة ابن نافع حينما أنشأ مدينة القيروان قال له أصحابة : "نريد أن نقربها من البحر ليجمع أهلها الجهاد والرباط"(٢٥).

---

(٢٢) الأنصارى : اختصار ، ص١٥٣.

(٢٣) الأنصارى : اختصار ، ص ١٥٥.

(٢٤) المراكشى، عبد الواحد بن على (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م). المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣، ص ٤٣٢.

(٢٥) أحمد مختار العبادى: دراسات ، ص ٢٩١، ويذكر الدكتور العبادى أن لفظ رباط العربى دخل فى اللغة الأسبانية ومنه اشتقت كلمة rebato أى الرباط، arrebatar أى يرابط، ويقاتل. (دراسات، ص٣٠٣).

وأما الزوايا فأهمها الزاوية الكبرى التى تقع خارج باب فاس أحد أبواب آفراك، والتى كانت بمثابة مأوى للغرباء والتجار، وكانت متأنقة فى البنـاء، كثيرة الزخرفة،والتنميق متسعة،متعددة المساكن وصومعتها من أبدع الصوامع بسبتة(٢٦).

وإذا كان الرقم الذى ذكره الأنصارى عن عدد المساجد مبالغ فيه، فمن المرجح أنه يشتمل على مساجد الرباطات، والزوايا التى تجسدها أعداد الأئمة من واقع شواهد القبور، ويرى تراس(٢٧) (Terrasse) أن الكثرة الهائلة فى عدد المساجد تشير بوضوح إلى ازدهار الإسلام، وتطور المجتمع الإسلامى فى المدينة، وارتقاء العلوم الدينية بها.

لم يقتصر دور المسجد فى سبتة على مكانته الدينية كبيت للعبادة ، تقام فيه الصلاة ، ويتلى فيه القرآن الكريم، بل تجاوز ذلك وأصبح بمثابة مركز من مراكز العلم والثقافة ومكاناً هاماً لحلقات العلم ، ومجالسه ، وكان المسجد الجامع بسبتة يغص بحلقات العلم ، وتولى التدريس فيه كوكبة من العلماء نذكر منهم القاضى عياض اليحصبى (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩)، فقد تـألق نجمه، وأصبح من أعلام مدرسة سبتة وجلة فقهائها(٢٨)، "...كان إمام وقته فى الحديث وعلومه، عالماً بالتفسير، فقيها أصولياً، عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب"(٢٩).

---

(٢٦) الأنصارى : اختصار ، ص١٥٥.

(27) H. Terrasse, les Monuments de Ceuta. P.444.

(٢٨) القاضى عياض : ترتيب المدراك، جـ ١ ، ص ٣، ابن فرحون، إبراهيم بن على بن محمد (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٦) : الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، القاهرة ١٩٧٥، جـ ١ ص ٤٦ - ٥١.

(٢٩) الضبى، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣):بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس، القاهرة ١٩٦٧، ص ٤٢٢.

وكذلك عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الذى يعرف بابن العجوز (ت ٥١٠هـ / ١١٧١م) من أهل سبتة وجلة فقهائها، وكان يميل إلى الحجة، والنظر يصفه ابن بشكوال(٣٠) بقوله : "فقيه ابن فقيه"

ونذكر أيضاً أبا العباس العزفى (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م) الذى كان فقيها شديد الورع تولى التدريس طيلة حياته بالمسجد الجامع بمدينة سبتة(٣١).

وكذلك الشيخ الفقيه المفتى أبا الحسن بن وشاش المحكسى، "الذى أملى الفريضة بجامع سبتة الأعظم"(٣٢)، ولا يفوتنا ذكر الشيخ الفقيه المصنف الأديب أبا عبد الله بن حميس الأنصارى خطيب جامعها الأعظم(٣٣).

وإلى جانب الجامع الكبير بسبتة كانت هناك العديد من المساجد، والرباطات تواصل رسالتها الثقافية بجانب رسالتها الدينية، مثل جامع الحلفاوين بسفح جبل الميناء، وجامع التبانين بالربض الأسفل، وجامع القفال وغيرها(٣٤).

وهكذا شهدت سبتة نهضة ثقافية مزدهرة، يقول عنها البكرى(٣٥) : "...ولم تزل دار علم"، ويصفها ابن الخطيب(٣٦) : "...بصرة علوم اللسان..".

---

(٣٠) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ص ٣٥٤، ص ٣٥٥.

(٣١) الأنصارى : اختصار الأخبار ص ١٥٠.

(٣٢) نفس المصدر ص ١٤٨. لم يذكر المصدر وفاة هذا الفقيه، والمرجح أنه من علماء القرن السابع الذين ذكرهم الأنصارى .

(٣٣) نفس المصدر السابق، ص١٥١.

(٣٤) نفس المصدر ، ص١٤٧، ١٥٠.

(٣٥) البكرى : المغرب، ص ١٠٣.

(٣٦) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص ١٠٢.

وساعد على هذه النهضة العلمية والأدبية، هجرة العلماء الفاسيين إلى سبتة(٣٧)، بعد أن أصبح جامع القرويين بفاس مركزاً للإشعاع الثقافى والروحى ليس فى المغرب الأقصى فحسب بل فى كل ربوع المغرب(٣٨) إذا أضفنا إلى ذلك أن مدينة سبتة شهدت منذ أوائل القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى هجرات مضطردة من العلماء الأندلسيين بعد أن أخذت قواعد المسلمين فى الأندلس تتهاوى فى أيدى صاحبى قشتالة وأرغون، ومن هنا يمكن القول أن سبتة أصبحت محوراً للنشاط العلمى، والدينى فى بلاد المغرب بفضل اتصالها بالأندلس، وانفتاحها على الحياة الثقافية الرفيعة متمشية مع الحياة الثقافية فى معظم حواضر المغرب(٣٩).

يبرهن على ذلك أسماء العديد من رجالات العلم التى حفظتها لنا شواهد القبور فى سبتة وذكرها الأنصارى فى اختصاره نذكر منها نماذج يسيرة الشيخ العلامة المصنف إمام النحويين أبى الحسن بن أبى الربيع القرشى الأشبيلى، كذلك أبا الحجاج المنصفى الأنصارى البلنسى، والشيخ الأديب الفرضى العروضى التاريخى أبا إسحاق التلمسانى صاحب رجز الفرائض ونظم السير(٤٠).

وكان من نتائج الحركة العلمية النشطة فى هذه المدينة، أن تعددت المكتبات، حتى أن ابن الخطيب(٤١) يصف سبتة بقوله : "...خزانة كتب العلوم والآثار".

---

(37) H. Terrasse, Les Monuments, P. 444 .

(٣٨) الجزنائى، أبو الحسن على : زهرة الأس فى بناء مدينة فاس، نشر الفردبل ، الجزائر ١٩٢٢، ص ٣٠.

(39) G . Marcais. Manuel D,art Musulman L'architecture, Paris , 1926, Vol., I, P. 312.

(٤٠) الأنصارى : اختصار ص ١٤٧ - ١٥٠.

(٤١) ابن الخطيب : مشاهدات ص ١٠٢.

وبلغ عدد الخزائن العلمية بسبتة اثنتين وستين خزانة منها خمس وأربعون مكتبة خاصة ملحقة بدور العلماء والفقهاء كبنى العجوز[٤٢] الذين كانوا بحق من البيوتات المهتمة بالعلم فى سبتة، كما كان لأفراد هذا البيت ذيوع صيت ليس فى سبتة فحسب، بل فى حواضر المغرب والأندلس، وتناولت كتب الطبقات ذكر العديد من علماء هذا البيت[٤٣]، ومن بين هذه المكتبات خزانة الكتب التى كانت بدار القاضى أبى عبد الله بن عيسى التميمى وهو من شيوخ القاضى عياض[٤٤]، وكذلك الخزانة التى كانت بدار القاضى أبى عبد الله محمد بن عبد الله الأموى يصفه ابن بشكوال[٤٥] بقوله: "محدث سبتة فى وقته، شهر بالخير والصلاح والورع".

ولا يفوتنا ذكر خزانة الكتب التى بدار أبى العباس العزفى، وبيت العزفى مشهود لهم بعلو كعب فى علوم القرآن، ونالت سبتة بفضل اهتمامهم حظاً وافراً فى العلوم والأداب[٤٦].

وأما عن المكتبات العامة فى سبتة، فيذكر الأنصارى أن أعظمها وأجلها كانت خزانة الجامع العتيق، ورغم صعوبة النسخ، وتكاليفه الباهظة كانت توجد نسخات متعددة من الكتاب الواحد رغم كثرة ما فيها من أنواع الكتب، "...وهى فى الكثرة بحيث لم يشذ منها فن من الفنون، ولا نوع من المعارف أصلاً، مع تعدد مصنفات ذلك الفن وكثرة دواوينه"[٤٧] .

---

(٤٢) الأنصارى : اختصار ، ص ١٥٤.

(٤٣) ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ ص ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٩٢.

(٤٤) الأنصارى : اختصار ، ص ١٥٤.

(٤٥) ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ ص ٥٩٤، الأنصارى : اختصار، ص ١٤٩ - ١٥٤.

(٤٦) المقرى : أزهار الرياض جـ ٢ ص ٣٧٤، ٣٧٥، الأنصارى: اختصار ، ص ١٥٤.

(٤٧) الأنصارى : اختصار ، ص ١٥٤.

هذا فضلاً عن المكتبات العامة الملحقة بجامع القفـال، وجـامع مقـبرة زكلـو، وجامع التبانين بالربض الأسفل(٤٨).

ويحدثنا الحسن بن الوزان (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م)(٤٩)، أى بعد حوالى قرن ونيف من الزمان من سقوط سبتة فى أيدى البرتغاليين، فيقول عن خططهـا الدينيـة والعلمية : "كان فيها من المساجد والمدارس، وكثير من الصناع والأدباء والعلمـاء، وعمال مهرة فى المصنوعات النحاسية، كالشـمعدانات،...والمحـابر، فكـانت هـذه الأشياء تباع كما لو كانت من فضة".

وصفوة القول أن خطط سبتة الدينية والعلمية بلغت شأواً عظيماً فى مضمار النشاط الدينى والثقافى، بفضل رخائها الاقتصادى، واتصالها بالأندلس من ناحيـة، وحواضر المغرب من ناحية أخرى، هذا فضلاً عـن اهتمـام ولاة الأمـر وتشـجيعهم للعلم والعلماء، ولا غرو فى ذلك فبنى العزفى حكام سبتة كانوا من صفوة الفقهاء والمحدثين.

* * *

وإذا ما انتقلنا إلى خطة أخرى من أخطاط مدينة سـبتة للوقـوف علـى مـدى توفر الماء العذب لسكان المدينة التى ظلت تنمو باستمرار سـواء فيمـا يتعلـق بعـدد السكان، أو التخطيط العمرانى، "إلى أن صارت أجمـل مـدن موريطانيـا، وأكثرهـا سكاناً"(٥٠).

---

(٤٨) الأنصارى : اختصار الأخبار ، ص ١٥٤، ١٥٥.

(٤٩) راجع ترجمة الحسـن بـن الـوزان، وصـف افريقيـا، ترجمة محمـد حجـى ومحمـد الأخضرى دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٨٣، ص ٥ - ١٤.

(٥٠) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا ، ص ٣١٧.

يقول ابن حوقل(٥١) : "وماؤهـا مـن داخلهـا يستخرج مـن آبارهـا، ومـن خارجها أيضاً من الأبار شيء كثير عذب".

أما البكرى(٥٢) الذى زار المدينة بعد ابـن حوقـل بقـرن مـن الزمـان يقـول : "وحماماتها يجلب إليها الماء على الظهر من البحر"، وفى موضـع آخـر يقـول : "أن الماء يجلب من نهر أويات على ضفة البحر القبلى (بحر بسول)".

وبعد البكرى بقرن من الزمان يذكر الشـريف الادريسـى(٥٣) - وهـو أحـد أبناء سبتة - أن سبتة تزود بالماء من عين فـى جبـل الميناء شـرقى المدينـة "لا تجـف البتة"، هذا فضلاً عن تزويد سبتة بالماء من قرية بليونش(٥٤) التى تتوفـر فيهـا الميـاه الجارية، والعيون الكثيرة.

ويذكر صاحب الاستبصار(٥٥)، أن الخليفـة الموحـدى أبـو يعقـوب المنصـور شرع فى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م بجلب الماء إلى سبتة مـن قريـة بليونـش فـى قنـاة تحت الأرض ، بيد أن مشروعه لم يصل إلى حيز التنفيذ.

---

(٥١) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علـى البغـدادى (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) : صـورة الأرض، ليدن ١٩٢٨، ص ٧٨، ٧٩.

(٥٢) البكرى : المغرب ، ص ١٠٣ .

(٥٣) الأدريسى : نزهة المشتاق، ص ٥٢٨.

(٥٤) قرية كبيرة بالقرب من سبتة، آهلة بالسكان، فى واد خصيـب، تكثر بهـا مـزارع الكروم، وتنبع فيها عيون الماء، وتشرف بيوتها على ميـاه المضيق. (راجع: الحميرى: الروض المعطـار، ص ١٠٣، الأنصـارى: اختصـار، ص ١٧٠ - ١٧٥، الحسـن بـن الـوزان : وصـف افريقيا، ص ٣١٧).

(٥٥) مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجـائب الأمصـار ، لكـاتب مراكشـى مـن كتاب القـرن السـادس الهجـرى، نشـر وتحقيـق د. سـعد زغلـول عبـد الحميـد ، الاسـكندرية، ١٩٥٨، ص ١٣٨، الحميرى: الروض المعطار، ص ١٠٣.

وينقل لنا الأنصارى(٥٦) كشاهد عيان أن المدينة كانت تضم العديد من السقايات (الأسبلة)، ذكر منها خمس وعشرون سقاية (سبيلا)، هذا بالاضافة إلى السقايات المعدة لسقى الدواب، لعل أهمها كانت سقاية جب الميناء التى أنشأها أبو القاسم العزفى، وكان بها صهريجان مشتركان يمد أحدهما الأخر كذلك كانت هناك سقاية فى الغرب بالربض البرانى حيث يوجد على مقربة منها ما يقرب من ثمانين بئراً كان من بينها بئر مقام على أربعة أعمدة يزود صهريجاً كبيراً(٥٧).

وعن طواحين المدينة فقد بلغ عددها "مائة وثلاث، وجميع هذه الطواحين بمياهها لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء، كذلك جميع مساكن سبتة، حيثما كانت بأقطار المدينة"(٥٨).

ويبدو من هذا الوصف أن الماء كان يجرى توزيعة فى المدينة بطرق هندسية، وأن كثرة السقايات (الأسبلة)، والطواحين التى أسهب الأنصارى فى ذكرها، تدل

---

(٥٦) الأنصارى : اختصار ، ص ١٦١.

* السبيل يتكون من طابقين، الطابق الأول يعرف بالصهريج المخصص لتخزين المياه، وهو إما أن يكون كبيراً أو صغيراً بحسب حجم المنشأة، وقد اتخذ شكلاً ثابتاً قريبا من المربع أو المستطيل ومغطى بقباب غير عميقة محموله على عقود ترتكز على أعمدة، والطابق الثانى شيد على مستوى الأرض أو فوقها بقليل، ويتم الدخول له غالباً من مدخل مشترك، وباب منفصل، ويتكون هذا الطابق من حجرة للتسبيل يلتف حولها باقى الملحقات. (على مبارك: الخطط الجديدة، حـ ١ ص ٩٧، ٩٨، عن الأسبلة وتكويناتها المعمارية، راجع : محمود حامد الحسينى: الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة، مكتبة مدبولى القاهرة).

(٥٧) الأنصارى : اختصار، ص ١٦٢.

(٥٨) نفس المصدر ، ص ١٦٣، ١٦٤.

بوضوح على مدى الرقى الحضارى التى كانت تحياه المدينة، نتيجة لتطور المجتمع والاحتكاك بالحضارات الأخرى التى انفتحت عليها سبتة، وتفاعلت معها بحكم موقعها البحرى.

وهناك من المنشآت التى حفلت بها سبتة لخدمة العامة من سكان هذه المدينة، الحمامات العامة التى كثر انشاؤها لحاجات وظيفية مرتبطة بدعوة الإسلام للنظافة والتطهر، ولذا كثرت الحمامات فى مدينة سبتة كثرة واضحة، يذكر البكرى(٥٩) أن بها حمام قديم يعرف بحمام خالد، وبالربض الشرقى ثلاثة حمامات، هذا فضلاً عن حمامات الربض الغربى.

وبلغ عدد الحمامات العامة اثنين وعشرين حماماً أعظمها شهرة حمام القائد الذى يسع مائتين من الناس، وهو قائم على أعمدة من الرخام وله بابان وسقفه قبة متقنة مقامة على أربع حنيات، وبالصحن حوض كبير، وفى وسطه سارية بجوفة فوقها طيفور من الرخام، يصعد الماء فى جوف السارية إلى أن يفور فى الطيفور، وفيضه يملأ الحوض(٦٠).

هذا بجانب عشر حمامات أخرى بقصبة المدينة الأمر الذى يجعلنا نلمس أن عدد الحمامات فى المدينة كان كثيراً حتى أنه ليقول: "وبكل دار من ديار سبتة حمام إلا القليل"(٦١).

ويوجد وصف شائع عن الحمامات فيذكر أن الحمام يتكون من ثلاث قاعات وفى خارج هذه القاعات غرف صغيرة مرتفعة قليلاً يصعد إليها بخمس

---

(٥٩) البكرى : المغرب، ص ١٠٣.

(٦٠) الأنصارى : اختصار، ص ١٥٧، ١٥٨.

H. Terrasse, Les Monuments, P. 447.

(٦١) الأنصارى : اختصار، ص ١٥٨.

درجات أو ست حيث يخلع الناس ثيابهم، ويتركونها هناك، وفى وسط القاعات صهاريج على شكل أحواض، وإذا أراد أحد أن يستحم فى هذه الحمامات، دخل من أول باب إلى قاعة باردة فيها صهريج لتبريد الماء إذا كان ساخناً جداً، ومن ثم نفذ من باب ثان إلى قاعة ثانية أشد حرارة بقليل، حيث يقوم الخدم بغسل جسمه وتنظيفه، ومن هنا يدخل إلى قاعة ثالثة شديدة الحرارة ليعرق بعض الوقت، حيث يوجد مرجل محكم البناء يسخن فيه الماء، ويغترف منه فى دلاء من خشب(٦٢).

وكان يتم تسخين الحمام بالزبل حيث يقوم الغلمان والبغالون بشراء الزبل من الاصطبلات، ونقله إلى خارج المدينة ثم يجعلوه أكداساً ليجف شهرين أو ثلاثة أشهر، وبعد ذلك يستعمل كالحطب فى تسخين القاعات وماء الحمامات.

وهناك من هذه الحمامات ما استخدم بواسطة الرجال فى أوقات محددة، وللنساء فى أوقات أخرى، وكان من العادات الطريفة أن يأكلوا فى الحمامات ويتسلوا فيها غالباً بمختلف ضروب التسلية، ويغنوا بأعلى أصواتهم(٦٣).

ومما يجدر ذكره أنه روعى فى تصميم الحمامات الإسلامية على طهارة الماء مما استوجب تصميم أحواض الماء وقنواته بطريقة معينة تكفل ذلك، كما نظمت الأحكام الفقهية الإسلامية العمل داخل هذه الحمامات وخضعت لاشراف المحتسب خضوعاً مباشراً يكفل استمرار عملها وفق القواعد والقيم الإسلامية(٦٤)،

---

(٦٢) الحسن بن الوازان : وصف أفريقيا، ص ٢٢٩ – ٢٣١، راجع : محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية، ص ٢٤٦ – ٢٤٩.

(٦٣) الحسن بن الوزان: وصف أفريقيا، ص ٢٣٠.

(٦٤) محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية، ص ٢٤٧.

ومعظم هذه الحمامات من المنشآت الموقوفة على المساجد تؤدى لها كراء بحسب حجم المكان(٦٥).

ومن الطبيعى أن الأفران كانت تمثل جزاءاً أساسياً فى بناء المدينة الحضارى، كما تعد استكمالاً لباقى الخدمات التى تفرزها المرافق العامة فى المدينة فقد بلغ عدد الأفران فى المدينة ثلاثمائة وستون فرناً، أكبرها الفرن الذى بأعلى زقاق ابن يربوع، وهو من بناء بنى العزفى متسع المساحة مع حسن البناء ونظافته(٦٦)، وكان يصنع الخبز فى الغالب من دقيق القمح(٦٧).

* * *

وعن الخطط الجنائزية، بلغ عدد مقابر المدينة ثلاث عشرة مقبرة، منها مقبرة التوتة شرقى الميناء بسفح الجبل، ومقبرة المنارة التى تضم ست مقابر، هذا فضلاً عن مقبرة ابن الرامى، ومقبرة الخوانم، ومقبرة زكلو، ومقبرة مسجد المحلة، ومقبرة البلد القديم، ومقبرة الشريعة من الربض الأوسط، ومقبرة الحارة، ومقبرة مضرب الشبكة، ومقبرة أحجار السودان الأولى والثانية(٦٨).

وعند ذكر المقابر يبرز لنا الأنصارى(٦٩) الكثير من المزارات، والأضرحة التى تضم بين جنباتها الزهاد، والأئمة والعلماء فعند ذكره لمقبرة التوتة من الميناء يذكر أن بها قبر الولى أبى ذرعة "وهو مزار مشهور"، وينقل عن أبى العباس العزفى أن أبا ذرعة هو الذى أدخل القرآن إلى المغرب، كذلك قبر أبى العباس بن أبى الخير

---

(٦٥) الحسن بن الوزان : وصف أفريقيا ، ص ٢٣٠.

(٦٦) الأنصارى : اختصار، ص ١٦١.

(٦٧) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا ، ص ٢٣٣.

(٦٨) الأنصارى : اختصار ، ص ١٦٩.

(٦٩) نفس المصدر ، ص ١٤٦، ١٤٧.

الأنصارى، ويصفه بالشيخ الصالح الورع الحاج التقى الناسك إمام مسجد الحلفاويين.

ونستشف من ذلك انتشار الفكر الصوفى حيث يقول "قبر الشيخ الخطيبالمقرئ الصالح الصوفى"(٧٠) ومن المعروف أن سبتة كانت حصناً وثغراً ورباطاً للجهاد، والاعتقاد السائد أن من مات أثناء مقامه بها يعد شهيداً(٧١) أضف إلى ذلك أن المدرسة الصوفية المغربية ازدهرت وتألق نجمها فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، وتجدر الإشارة إلى ذكر واحد من أقطاب هذه المدرسة الصوفى الكبير أبا الحسن الشاذلى المولود فى سنة٥٩٣هـ / ١١٩٧م فى اقليم غمارة على مقربة من سبتة، وارتحل من المغرب إلى المشرق حيث اتصل بعلمائه وفقهائه، وكانت له مدرسة شهيرة بالاسكندرية، وتوفى فى أثناء رحلته للحج سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م. بحميثرا بالقرب من عيذاب على البحر الأحمر(٧٢).

* * *

وأما خطط النشاط التجارى فكانت الأسواق من أهمها، فهى تؤدى دوراً هاماً فى حياة المدينة بصفتها عنصراً هاماً لازدهارها، وكانت تقع غالباً حول الجامع الكبير، وبالقرب منه(٧٣)، وكثرت الأسواق وتعددت فى مدينة سبتة حتى بلغت مائة واثنين وأربعين سوقاً، هذا فضلاً عن أسواق القرى المحيطة بسبتة والتى

---

(٧٠) الأنصارى : اختصار ، ص ١٤٨.

(٧١) نفس المصدر ، ص ١٥٥.

(٧٢) ابن رشيد السبتى، محمد بن عمر (ت ٧٣١هـ / ١٣٢١م) : رحلة ابن رشيد المعروفة ملء العيبة فى ما جمع بطول الغيبة فى الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة، تحقيق نجاح صلاح الدين القابسى، رسالة دكتوراه، آداب عين شمس ١٩٧٨، ص ٨٥.

(٧٣) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا ، ص ٢٣٣.

بلغت اثنين وثلاثين سوقاً(٧٤)، وتبرز ظاهرة التخصص في تلك الأسواق بأن تتجمع كل طائفة من التجار في سوق خاصة بها تنسب إليها كسوق العطارين الذي يعتبر من أجمل أسواق المدينة(٧٥)، وفي هذا السوق تباع المواد المتعلقة بالعطارة والطب ويقوم بحراسته حراس يتجولون ليلاً بالفوانيس والكلاب والأسلحة، ويتكفل العطارون بنفقها تهم(٧٦).

وأما سوق السقاطين فهو من الأسواق المعلومة لتجارة الآنية الصفرية (النحاسية)، القوية الصبغ العجيبة الصنعة الخاصة بسبتة دون غيرها "وما أدراك ما سوق السقاطين، رفاهية متجر، وكثرة أنواع وحسن ترتيب ووضع"(٧٧).

ومن أسواق الأطعمة والمأكولات والفواكه والأزهار السوق الكبير، وسوق مقبرة زكلو الذي يقع في الجانب الشرقي للمدينة(٧٨)، وقد برع المغاربة في تنسيق وعرض الزهور والورود "...فعندما ترى كل هذه الأزهار الكثيرة الأنواع تخالك تشاهد أجمل المروج، وأكثرها نضرة في العالم، أو تنظر حقيقة إلى لوحة مزخرفة بمختلف الألوان"(٧٩).

وظهرت الدكاكين المخصصة للتصنيع أكثر إتساعاً من دكاكين البيع، ويتم فيها تحويل المواد الأولية إلى مصنوعات، وهي عبارة عن أسواق صغيرة مربعة مثل تربيعات الحرارين والقزازين، ويقدر عددها ما يقرب من احدى وثلاثين تربيعة،

---

(٧٤) الأنصاري : اختصار، ص ١٥٨.

(٧٥) نفس المصدر ، ص ١٥٨.

(٧٦) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا، ص ٢٤٢ .

(٧٧) الأنصاري : اختصار، ص ١٥٨، ١٥٩.

(٧٨) نفس المصدر ، ص ١٥٨.

(٧٩) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا، ص ٢٣٤.

موزعة فى الشوارع والأسواق(٨٠) هـذا فضـلاً عـن الحوانيـت التـى بلغـت أربعـة وعشرون ألفاً، "وكانت فيما سلف أكثر من ذلك"(٨١).

أما المقاصر التى يتم فيها صباغة الأقمشة وتجهيزها، عددها خمسة وعشـرون مقصراً وتقع كلها تحت الأسوار والأبراج ولكل مقصر من هذه المقاصر بـرج مـن أبراج السور تحاط فيه الأمتعة ليلاً، وتنشر نهاراً إلى أن تتم قصارتهـا(٨٢)، "...فـلا يخاف عليها طوال تلك المدة من لص، ولا يتكلف بحملها بـالغداة والعشـى مؤونـة كما فى سائر البلاد..."(٨٣).

ويمكن القول أن التجار كانوا يتمتعون بالأمن والأمان مما دفع بعجلة النشاط التجارى الذى يتطلب توافر عنصر الأمن فى المقام الأول.

ولا يفوتنـا ذكـر المنجـرات "ورش النجـارة" التـــى تقـــوم بعمـــل الأقـــواس والنشاب، وعددها أربعون منجـرة نصفهـا يقـع فـى الشـارع الرئيسـى، والنصـف الثانى بمنازل المعلمين والصناع، وقد تخصص فى هذه الصناعـة عـائلات فـى سبتة توارثت هذا العمل مثل بنى القنطرى، وبنى العاقل، وبنى ابن غالـب، وغيرهـم(٨٤).

وكان من الواضح أن هناك استقرار وازدهـــار فـى بعـض الأنشـطة التجاريـة الدولية فى مدينة سبتة خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى فكان لها تجارة مزدهرة مع بلدان الحوض الغربى للبحر المتوسط، وكانت التجارة مع ايطاليـا

---

(٨٠) الأنصارى : اختصار، ص ١٥٩.

(٨١) نفس المصدر ، ص ١٥٩.

(٨٢) الأنصارى : اختصار ، ص ١٥٩.

(٨٣) نفس المصدر ، ص ١٥٩.

(٨٤) نفس المصدر ، ص ١٥٩، ١٦٠.

ومع السودان من أسباب الثروات الكبيرة للمغـرب(٨٥) أضـف إلى ذلـك أن سـبتة غدت منفذاً لمنتجات المغرب والسودان الغربى، ومركزاً لتصريف السلع التى يجلبها تجار جنوه، وبيزا، ومرسيليا، وقطالونيا(٨٦).

ومما لا شك فيه أن مرور التجارة فى ميناء سبتة كـان هـائلاً، وكـان يعـج بالسفن حتى شبهت فى القرن السابع الهجرى بمدينة الاسكندرية " فى كثرة الحط، والاقلاع، وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركـب بمـا فيـه مـن بضـائع الهنـد، وغيرها فى صفقة واحدة"(٨٧).

وكانت سفن سبتة تصل يومياً إلى أشبيلية(٨٨)، وتدل صور المعـاهدات علـى النشاط التجارى المزدهر فمن معاهدة مع بيزا يرجـع تاريخهـا إلى سـنة ٧٥٩هـ / ١٣٥٧م، وتشتمل هذه المعاهدة على أربعة عشر فصلاً منها ما هو متعلق بـالنزول إلى البر، والابحار من موانئ المغـرب، ونقـل السـلع، وحراسـتها وبيعهـا سـواء فـى الفندق أو الجمرك، ومنها ما يختص بالنزاعات بين تجار بيزة، والتجار المسلمين(٨٩)

---

(85) Mas Latire, Relation et Commerce de L'Afrique Septentrionale Ou Magreb avec Les nations Chretiennes , Paris , 1886, P. 24.

(86) Dufourcq, La Question, P. 72.

(٨٧) ابـن سـعيد المغربـى (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : كتـاب بسـط الأرض فـى الطـول والعرض ، تحقيق الدكتور خوان قرنيط خينيس، تطوان ١٩٥٨، ص ٧٣.

(88) Dufourcq, la Question, P. 72.

(89) Michele Amari: Diplomi Arabi, R . Archivio Fiorentino, PP. 1 - 8.

وعن معاهدة مع ملك أراغون مؤرخة فى سنة ١٢٦٩م، وهـى معـاهدة سـلام بـين سـبتة وأراغون (راجع : Dufourcq. op. cit. p. 71.)

كمـا تشـــير هـــذه المعـاهدة التجاريـة إلى وجـود معـاهدات مماثلـة مـع القطلانيين(٩٠).

وأما التجارة مع السودان فقد ساهمت بطرق متباينـة، وأشـكال مختلفـة فـى تنشيط حركة الانتاج والتبادل وقد سجلت طرق القوافل الحجم الهائل للتجارة عبر الصحراء، وساهمت مساهمة كبيرة فى ترويج تجارة الذهـب منـذ منتصـف القـرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى عن طريق سجلماسة - السودان الذى يسير باتجاه السودان ويتجه شمالاً لينتهى بفاس فميناء سبتة(٩١).

ويأتى على رأس صادرات سبتة من المنتجات الزراعية زيـت الزيتـون، الـذى انتشرت زراعتـه فـى قراهـا وأحوازهـا، وإن كـان علـى نطـاق ضيـق وهـو ثلاثـة أنواع(٩٢)، ويبدو أن سبتة كانت تستورد الزيت من تونـس ثـم تعيـد تصديـره إلى البلاد الأخرى حيث كانت مركزاً هاماً لتجارة زيـت الزيتـون، حتـى غـدت علـى حد قول ابن الخطيب(٩٣) : "محط قوافل العصير".

ومن بين صادرات سبتة الفواكه التى انتشرت زراعتها فـى قـرى سبتة علـى نطاق واسع وأسهب الأنصارى فى ذكر أنواعها وكثرتهـا "توسـق منهـا الأجفـان وتسير إلى بلاد المغرب والأندلس"(٩٤) وأما قصب السكر والأتـرج التـى اشـتهرت

(90) Amari , Diplomi, P. 6.

(٩١) إبراهيم حركات : دور الصحراء الأفريقية، مجلـة البحـوث التاريخيـة، العـدد الأول يناير، ١٩٨٨، منشورات جامعة الفاتح ص ٢٧ - ٣٠.

(٩٢) الأنصارى : اختصار ص ١٧٣.

(٩٣) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص ١٠٢.

(٩٤) الأنصارى : اختصار، ص ١٧٢.

بزراعتهما قرية متنان بسبتة(٩٥) فكان "يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد لكثرة الفواكه بها(٩٦).

أما صيد البحر فكان حرفة أساسية لسكان سبتة إذ "يصاد بها من السمك نحواً من مائة نوع، ويصاد بها السمك المسمى التن الكثير، وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح...ولهم فى ذلك دراية وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين"(٩٧).

ويبدى الأنصارى حماساً عند ذكره المضارب والمصايد، حيث يذكر أن عددأماكن ضرب الشباك تسعة منها ما هو بداخل سبتة ومنها ما هو خارجها، وأما المصايد فتبلغ مئتان وتسعة وتسعون مصيداً مفترقة(٩٨)، وكانت التونة المملحة سلعة تصدرها سبتة إلى مصر بكميات كبيرة(٩٩).

كذلك كان بسبتة معدن المرجان وهو صالح يعمل منه قويرات لطاف(١٠٠).

وأما الادريسى(١٠١) يقول عن مرجان سبتة : "ويصاد بمدينة سبتة المرجان الذى لا يعد له صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار"، وعن

---

(٩٥) نفس المصدر : ص ١٧٣.

(٩٦) الادريسى : نزهة المشتاق، ص ٥٢٨، الحميرى: الروض المعطار، ص ٣٠٣.

(٩٧) نفس المصدر ، ص ٥٢٩.

(٩٨) الأنصارى ، ص ١٧٠.

(٩٩) حواتين: دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق الدكتور عطية القوصى، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٤٠.

(١٠٠) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٧٨.

(١٠١) الادريسى : نزهة المشتاق ص ٥٢٩.

صناعته يقول(١٠٢) : "وتوجد سوق بالمدينة لتفصيله، وصنعه خرزاً، وثقبه، ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد، وأكثرها ما يحمل إلى غانة، وجميع بلاد السودان".

ويأتى دور الواردات، وكان من الطبيعى أن مدينة سبتة لا تستطيع الاعتماد مطلقاً على الانتاج الزراعى نظراً لكثرة سكانها واشتغالهم بالتجارة هذا فضلاً عن طبيعة أرضها الجبلية التى تتلاءم وزراعة الفاكهة الأمر الذى جعلها تفتقر وتعانى من قلة الحبوب(١٠٣) لذا كان القمح على رأس قائمة وارداتها ليس فقط لسد حاجة سكانها، ولكن لاعادة تصديره إلى البلاد الأخرى حيث كانت مركزاً هاماً لشراء القمح فى بلاد المغرب(١٠٤).

ومن هنا نجد أن أهل سبتة يحرصون على إنشاء المطامير (الصوامع) لتخزين الحبوب التى بلغت أربعون ألفاً مفترقة بالديار، وببعض الحوانيت ماعدا مخازن الفندق الكبير(١٠٥)، وساعدت الطبيعة الجبلية، واعتدال مناخ المدينة أن تظل الحبوب المخزونة فى هذه المطامير مدة طويلة ربما تتراوح ما بين ستين أو سبعين سنة دون أن يلحقها الفساد(١٠٦).

ولعل افتقار سبتة إلى زراعة القمح واستيرادها له جعل أهلها يحافظون على الخبز، ويمسكون عن الاسراف فيه، ومن ثم فإنهم "يجعلون الخبز فى الولائم بعدد الجماجم"(١٠٧).

---

(١٠٢) الادريسى : نزهة المشتاق ص ٥٢٩.

(١٠٣) الحسن بن الوزان : وصف أفريقيا، ص ٣١٧.

(104) Dufourcq, La Question De Ceuta, P. 69.

(١٠٥) الأنصارى : اختصار، ص ١٦٣.

(١٠٦) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(١٠٧) لسان الدين بن الخطيب : مشاهدات، ص ١٠٢.

ومن بين واردات سبتة الرئيسية القطن والكتان والجوخ والتيل والمنسوجات الحريرية(١٠٨)، ومن المرجح أن سبتة كانت تستورد الحرير والكتان ثم تعيد تصديرهما بعد التصنيع فى المصانع الصغيرة المعدة لهذا الغرض حيث يصف ابن الخطيب(١٠٩) سبتة : "محط قوافل الحرير والكتان".

كذلك من بين واردات سبتة أدوات الحدادة التى تتطلبها بعض حرف السكان(١١٠)، ويندرج تحت قائمة الواردات السلع التى كان يحتاجها أى مجتمع متحضر من مجتمعات البحر المتوسط، التوابل الشرقية والعطور مثل الفلفل، والدارصينى (القرفة)، والقرنفل والزنجبيل والمر والمسك والكافور ونباتات الصباغة(١١١).

كانت المعاملات المالية فى مراكز التجارة فى سبتة بالعملات الذهبية من الدنانير وأنصاف الدنانير(١١٢)، وظل الدينار الموحدى وسيلة التعامل التجارى طوال تبعية سبتة للموحدين ثم حل محله الدينار الحفصى خلال الفترة القصيرة من سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م، وحتى سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م، وهى الفترة التى دانت فيها سبتة بالتبعية للدولة الحفصية(١١٣)، وتشمل موسوعة السكة ديناراً للدولة

---

(108) Dufourcq, La Question de Ceuta, P. 69.

(١٠٩) لسان الدين بن الخطيب : مشاهدات، ص ١٠٢.

(110) Ibid., P. 69.

(١١١) حواتين : دراسات فى التاريخ والنظم الإسلامية، ص ٢٤١.

(112) Michael Mitchiner : Oriental Coins and their Values the world Of Islam. London, 1977, p. 102.

(١١٣) روبار برنشفيك: تاريخ افريقية فى العهد الحفصى، ص ٦٣.

الحفصية ضرب فى مدينة سبتة بدون تاريخ(١١٤)، وما لبث أن أصبح الدينار المرينى هو وسيلة التعامل المالى، وقد حذا بنومرين حذو أسلافهم الموحدين فى مضاعفة أوزان دنانيرهم، ورسموا فى دائرة الدينار شكل مربع فى وسطه، ويبلغ وزن الدينار المرينى٤,٦ جرام فى عهد السلطان أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق (٦٤٢ - ٦٥٦هـ) بيدأن الوزن لم يستقر وأصبح يتأرجح بين الزيادة والنقصان(١١٥)، كما كانت الدراهم الفضية(١١٦) من العملات المساعدة فى العمليات التجارية البسيطة، وخاصة فى الأسواق المحلية، ومن الطبيعى أن مدينة تجارية كسبتة كانت عملية تحويل الأموال من عملة لأخرى هى المجال الهام الذى اضطلع به الصيارفة وكانت

---

(١١٤) وزن الدينار ٤,٧ جرام، ضرب فى مدينة سبتة وخالى من التاريخ، ونقرأ عليه أمير المؤمنين المؤمن با لله المرتضى أبو حفص ابن الأمير الطاهر إبراهيم بن الخليفتين أمير المؤمنين أبو يعقوب ابن الخليفة.

(راجع : Michael Mitchiner, Op; Cit, P. 102.

(١١٥) كانت أوزان الدنانير المرنيية تتراوح ما بين: ٤,٦ جم ، وكان نقشه النص الآتى:

الواحد ا لله محمد رسول ا لله القرآن كلام ا لله.

الشكر لله والمنه لله والحول والقوة با لله.

بسم ا لله الرحمن الرحيم صلى ا لله على سيدنا محمد.

وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

وهو بكل شيء عليم.

ثم يتناقص الوزن ويصل إلى ٢,٣ جم، ثم يعود الوزن مرة أخرى ليصل ٤,٦جم، وأما الدراهم الفضية فكانت دائرية ومربعة ويتراوح وزن الدرهم ١,٥جم، وتجدر الإشارة أن سبتة كان بها داراً لسك العملة. (Michael, Op. Cit, Pp. 102 - 107)

(116) Ibid. Pp. 102, 110.

العملة المحلية الوسيلة العادية فى المعاملات التجارية(١١٧)، هذا فضلاً عن الصكوك التى كانت تستعمل كوسيلة من وسائل التعامل التجارى فى البيوع ووفاء الدين، وانتشر استعمالها فى بلاد المغرب منذ القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى(١١٨)، هذا فضلاً عن السفاتج التى استخدمت فى الدولة الإسلامية كوسيلة من وسائل المعاملات المالية.

وأما الموازين والمكاييل ، فكان يستعمل فى بلاد المغرب الأوقية والرطل والقنطار والربع والعدل(١١٩)، ومن المكاييل كانت المد والوسقة، والقلة، والقفيز، والصحفة، والقفة(١٢٠).

لم تغفل حكومة سبتة العناية بزيادة نشاط حركة التجارة، فعملت على إنشاء المرافق التى تيسر على التجار القيام بعملهم فى سهولة ويسر فأنشأت الفنادق(١٢١) والوكالات فقد بلغ عدد الفنادق بسبتة ثلاثمائة وستون فندقاً أعظمها بناءاً وأوسعها مساحة الفندق الكبير الذى أنشأه أبو القاسم العزفى، ويليه فى المساحة الفندق المعروف بفندق غانم حيث يشتمل على ثلاث طوابق وثمانين

---

(117) Goitein, S. D., Amediterranean Society, California Press, 1967, Vol, I, P. 231.

(١١٨) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٩٦.

(١١٩) البكرى : المغرب، ص ٨٩، ٩١.

(١٢٠) نفس المصدر ، ص ٢٦، ٢٧، ٦٩، ٩١.

(١٢١) الفندق كلمة من أصل يونانى (Pandokeion)، والفندق بناء ضخم مربع على شكل الحصن يتألف من عدة طوابق، وفى الدور الأرضى توجد المخازن والحوانيت التى تطل على فناء داخلى فسيح يسمح بتعبئة البضائع وتفريغها، بينما تضم أدواره العليا مساكن التجار. (آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده، القاهرة ١٩٤١، جـ ٢، ص ٣٢٧).

بيتاً(١٢٢) ، ويعتقد أنه من منشآت المرابطين، ومن بين الفنادق الفاخرة فندق الوهرانى يصفه الأنصارى(١٢٣) بقوله : "وعلى بابه عقاب غريب الشكل مفقود النظير".

وهذه الفنادق كانت معدة لسكنى الناس من التجار وغيرهم، وأما فنادق تجار النصارى "فعددها سبعة : أربعة على صف واحد وثلاثة مفترقة" (١٢٤).

ومن المرجح أن فنادق تجار النصارى كانت تقع خارج المدينة وبالقرب من الميناء وكان يسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية حيث كان يحتوى الفندق عادة على كنيسة صغيرة(١٢٥).

ومن المنشآت التجارية يذكر الأنصارى(١٢٦) : ديار الاشراف المالى فيقول : انها "أربعة دار الإشراف على عمالة الديوان ودار الإشراف لشد الأمتعة وحلها (الجمارك)، وهى المعروفة بالقاعة ودار الإشراف على البناء والتجارة ودار الإشراف على سكة المسلمين بقصبة المدينة".

---

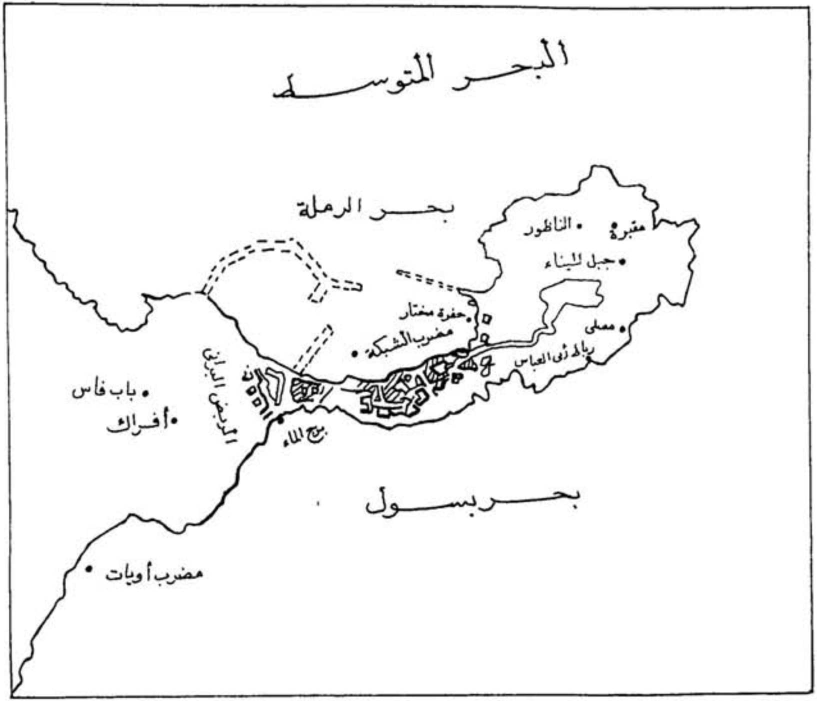
(١٢٢) الأنصارى : اختصار، ص ١٦٠، ١٦١.

(١٢٣) الأنصارى : اختصار، ص ١٦٠.

(١٢٤) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(125) Dufourcq, La Question, P. 72.

(١٢٦) الأنصارى : اختصار، ص ١٦١.



خريطة تقريبية لمدينة سبتة فى القرن السابع الهجرى (١٣م) ، مجلة الأندلس ، العدد (٢٧)، ١٩٦٢، ص٤٣١

ثورة الزنج

هل هى ثورة عبيد ؟ ؟

دكتوره فايزة إسماعيل أكبر
كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز

المقدمة :

شهدت دراسة موضوع ثورة الزنج فى الآونة الأخيرة تقدمًا متميزًا عن بقية الثورات التى عاشها تاريخنا الإسلامى . فقد حظيت باهتمام المؤرخين المحدثين والمهتمين بالتاريخ الإسلامى من العرب والمستشرقين على حد سواء ، حيث إعتبروها أول ثورة على النظم الاقطاعية وتحمل بين طياتها مبادئ وشعارات تتعلق بالإصلاحات الاجتماعية والسياسية .

وفى واقع الأمر ، فإنه بعد الإطلاع على ما كتب عن هذه الثورة ، أثار اهتمامة ما سجله الأستاذ القدير الدكتور محمد عبد الحى شعبان إذ قال : "إنه منذ أن كتب عنها نولدكه(١) لأول مرة من نحو قرن تقريبًا وقدمها علىأنها ثورة عبيد، بقيت هذه الفكرة سائدة من غير أن يعاد فيها النظر حتى الآن ، ومع أن نولدكه كان يضع خطوطًا عريضة وحسب فإن هذه الأفكار الخاطئة التى تجاوزها الزمن بقيت تتردد على أقلام الباحثين المعاصرين(٢)" . من هذا المنطلق دفعنى فضولى إلى البحث والتنقيب عن حقيقة هذه الثورة وراودتنى فكرة الكتابة عنها . ولقد هالنى ما وجدت من أبحاث كثيرة كتبت عن هذا الموضوع ، وبدأت العمل وثبت لى فعليًا أن أكثر ما ألف عنها كاد أن يأخذ منحى موحدًا ألا وهو الأخذ

(1) Noldeke, Theodor, **Sketches From Eastern History,** Translated by J. S. Black, (London : Adam and Charles . 1892) p. 146 - 175

(2) M. A. Shaban, **Islamic History 2,** (Cambridge : Cambridge Uninersity Press 1976) .p. 100 - 101.

بفكرة نولدكه . فأغلب من كتب عن هذه الثورة من العرب أو المستشرقين أطلق عليها اسم ثورة العبيد(٣) ، أو ثورة العبيد فى الإسلام(٤) ، أو ثورة العبيد الإفريقيين(٥)، وقارنوا بينها وبين ثورات العبيد الأخرى كثورة العبيد فى الجمهورية الرومانية سنة ٧٣ق.م ، أو ما تسمى بثورة سبارتكوس Spartacus(٦) .

ومنهم من عرفها على أنها حرب أجناس بين السود وغير السود ، وأن القصد منها كان اقتطاع جزء من الخلافة العباسية لهذه القوة السوداء(٧) .

ونحن لا نتجاهل جهود هؤلاء المؤرخين بالتعريف بثورة الزنج وتقديمها فى أبحاث علمية رصينة ، ولكن لا نؤيد أن تعرف هذه الثورة بأنها ثورة عبيد وأنها حرب أجناس بين السود وغير السود . وهنا يجب أن ننوه بالجهود الكبيرة التى

---

(٣) د. عبد الكريم عبده حتاملة ، **المعتمد فى خلافة المعتضد با لله العباسى** (جامعة اليرموك ١٤٠٥ - ١٩٨٤) ص ١٢٣ ، برنارد لويس ، **العرب فى التاريخ** تعريب نبيه أمين فارس بيروت : دار العلم للملايين (١٩٥٤) ص ١٤٥ ، د. عبد العزيز محمد اللمليلم ، **نقوذ الأتراك فى الخلافة العباسية** ، (١٤٠٣ - ١٩٨٣) جـ ٢ ، ص ١٤٤ .

E. A. Belyaev , **Arabs, Islam and the Arab Caliphate** , translated by A. Gourevitch , (Pall Mall , 1969) p. 241, 243 , Reuben Levy , **A Baghdad Chronicle,** (Philadelphia Porcupine Press 1977) p. 115

(٤) أحمد علبى ، **ثورة العبيد فى الإسلام** ، ط ١ ، (بيروت : دار الآداب ١٩٨٥) .

(٥) د . فيصل السامر ، **ثورة الزنج** ، ط ٢ (بغداد : مكتبة المنار ١٩٧١) ص ٢٢ .

(٦) أحمد على ، **ثورة الزنج وقائدها على بن محمد** ، ط ١ (بيروت : دار مكتبة الحياة ١٩٦١) ، ص ١١١ ، ١١٦ - ١١٧ .

J. J. Saunders, **A History of Medieval Islam** , (New York ; Barnes and noble , Inc., 1965) p. 122 .

(٧) د. عبده بدوى ، **السود والحضارة العربية** ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م) ص ٢٢٦ ، أحمد أمين ، **ظهر الإسلام** ، ط ٥ (بيروت : دار الكتاب العربى ١٩٦٩) جـ١ ، ص ٧٠ .

بذلت فى التاريخ لهذه الثورة من قبل مؤرخين ثقاة ، وعلى سبيل المثال نرى الطبرى فى مؤلفه (تاريخ الأمم والملوك) الذى يتصف بالدقة ، قد أفرد لهذه الثورة جزءًا خاصًا واشار إلى أحداثها بجدية ولم يصفها بأنها ثورة عبيد أو ثورة عرقية شنها جنس ضد آخر ، وإنما يعرفها بأنها "حركة للسودان والبيضان معًا" .

وبناء على ما سبق يصبح القصد واضحًا من هذه الدراسة ، فقد تم استبعاد المنهج الذى احتوى على أسباب الثورة وإرهاصاتها والحروب التى خاضتها وسيرة زعيمها . وأصبح التركيز منصبًا على الإجابة عن أسئلة فرضت نفسها ، هل هى ثورة عبيد حقًا وحرب أجناس بين السود وغير السود ؟ فإن لم تكن كذلك فمن هم دعامتها وما نوعية العناصر المشاركة بها ؟ وما هى أهدافها أو الدافع إليها ؟ وكان لابد من إعطاء الموضوع حقه من التحليل ، حتى يمكن أن نجد الإجابات الدافعة لهذه التساؤلات وبطبيعة الحال تطلب الأمر الإستعانة بالمصادر والمراجع ، وقد شغل مؤلف الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) حيزًا من هذه الدراسة ، إذ أعطته مكانته من الاهتمام ، فهو شامل التفاصيل ، دقيق الملامح بالإضافة إلى معاصرته للثورة ، وأخيرًا لأن جميع المصادر الأخرى إما أن نقلت عنه الأحداث نقلاً حرفيًا أو أنها أعتمدت عليه فى أغلبها .

ومن خلال الصفحات القادمة نعيش هذا الحدث التاريخى الذى أثر فى فترة من أهم فترات التاريخ الإسلامى تاثيرًا واضحًا .

وتعتبر ثورة الزنج من أخطر الثورات التى شهدها العصر العباسى بل ومن أبرزها ، فقد هزت وبعنف أسس الدولة العباسية أكثر من أربعة عشر عامًا ، إذ بدأت منذ عهد الخليفة المهتدى سنة (٢٥٥هـ / ٨٦٩م) وازداد خطرها فى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ / ٨٧٠ - ٨٩٢) وكان زعيم هذه الثورة رجلاً

ادعى النسب العلوى ، وعرف باسم على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وتنقل فى بداية حياته بين مناطق مختلفة فى بغداد وسامراء والرى والبحرين ، ومارس فى سامراء تعليم الخط والنحو والنجوم ، وقام باتصالات بالبعض من حاشية الخليفة المنتصر ، فكان يمدحهم ويستميحهم بشعره(٨) . وعندما قتل المنتصر عام (٢٤٨هـ / ٨٦٢م) انضم على بن محمد إلى المعتقلين الذين زج بهم فى السجن ، وعندما أطلق سراحه غادر سامراء إلى مدينة هجر أهم مدن البحرين ، وهناك أعلن ثورته وادعى النبوة وأنه يعلم الغيب ، واستقطب عددًا من المؤيدين له ، وأصاب نجاحًا مرموقًا "وأحله أهل البحرين من أنفسهم محل نبى حتى جبى له الخراج ونفذ حكمه بينهم وقاتلوا أسباب السلطان بسببه" (٩) وعلى أثر ذلك نشبت فتنة أسفرت عن قتل البعض ، فإنتقل على أثرها إلى الأحساء واستقر فى أحياء بنى تميم وبنى سعد ثم ما لبث أن أخذ يتنقل بالبادية من حى إلى حى مصطحبًا معه جماعة من أهل البحرين(١٠) .

وفى البادية تمكن من أن يجمع حوله عددًا كبيرًا من المؤيدين زحف بهم إلى موضع بالبحرين يقال له (الردم) وعنده حدثت موقعة عسكرية بينه وبين جنود الخلافة ، انهزم فيها وتفرق عنه أصحابه ، فانتقل إلى البصرة سنة (٢٥٤هـ / ٨٦٨م) مع عدد قليل ممن تبعوه ، ونزل بين عرب بنى ضبيعة ودعاهم إلى حركته

---

(٨) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (بيروت : دار سويدان ١٩٦٧) جـ٣ ، ص ١٧٤٣، مؤلف مجهول ، **العيون والحدائق فى أخبار الحقائق** ، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود (النجف : مطبعة النعمان ١٩٧٢) جـ٤ ، ص ٤٧ - ٤٨ ، ابن أبى الحديد ، **شرح نهج البلاغة** ، (بيروت : دار الأندلس د. ت.) مجلد ٢ ، ص ٣١١ .

(٩) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٤ .

(١٠) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٤ .

فاتبعه جماعة منهم(١١) . وفى البصرة لعب على بن محمد دورًا لمصلحته إذ ساعدته الظروف حيث وقعت فتنة بين فئتين من أهلها وهما البلالية والسعدية ، وحاول أن يستغل هذا النزاع وأن يستميل إليه أحد الفريقين فلم يستجب له أحد .

فلما اكتشف أمره بالبصرة فر مع بعض أصحابه إلى البطيحة ، فقبض عليهم والى البطيحة وسلمهم إلى محمد بن أبى العون عامل السلطان بواسط ، إلا أنهم استطاعوا الفرار من يد ابن أبى العون وذهبوا إلى بغداد(١٢) . وفى بغداد استمال جماعة من أهلها بعد أن مكث بها عامًا كاملاً ثم غادرها إلى البصرة مرة أخرى عندما بلغه أن طائفتى البلالية والسعدية فتحوا السجون وأخرجوا المساجين منها ومن بينهم أهله وبعض من أتباعه ، فنزل بضاحية من ضواحى البصرة تسمى (برنجل) . وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ٢٥٥هـ / أغسطس ٨٦٩م(١٣) .

ومن هذا الموضع شرع على بن محمد فى دراسة أحوال سكان منطقة جنوبى العراق لضمهم إلى حركته . فالتفت حوله جموع غفيرة من سكان المنطقة وعلى رأسهم الزنج الذين كانوا يعملون بالسباخ وإزالة الطبقة الملحية منها بعد أن "مناهم ووعدهم أن يقودهم ويرأسهم ويملكهم العبيد والأموال وحلف لهم الإيمان

---

(١١) الطبرى ، **تاريج الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٥ .

(١٢) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٦ .

(١٣) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٧ ، ابن أبى الحديد ، **نهج البلاغة** ، ص ٣١٢ ، النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، **نهاية الارب فى فنون الأدب** ، تحقيق د. محمد جابر عبد العال ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤) جـ ٢٥ ص ١٠٦ - ١٠٧ ، المسعودى ، **التنبيه والإشراف** (بيروت : دار مكتبة الهلال ، ١٩٨١) ص ٣٣٥ .

الغلاظ ألا يغدر بهم وألا يخذلهم أو يدع لهم شيئًا من الإحسان إلا أتى إليهم(١٤) . ولهذا سميت هذه الحركة بثورة الزنج ولقب على بن محمد باسم (صاحب الزنج) . وقد استطاع صاحب الزنج هذا فيما بين عامى (٢٥٥هـ - ٢٦١هـ / ٨٦٩ - ٨٧٤م) أن يسيطر على البصرة وما حولها ثم أمتد نفوذه إلى الأهواز وعبدان والأبله وواسط وهى الفترة التى يمكن أن يطلق عليها فترة انتصارات صاحب الزنج . أما الفترة ما بين عامى (٢٦١ - ٢٧٠هـ / ٨٧٤ - ٨٨٣م) - أى حتى نهاية الثورة فقد تسلم فيها الموفق أخو الخليفة المعتمد قيادة الجيوش العباسية وهى فترة كان أغلبها لصالح الخلافة . وقد أبدى الوفق بطولات مجيدة فى حروبه مع صاحب الزنج حيث دارت معارك عنيفة انتهت باحتلال (المختارة) عاصمة على بن محمد وقتله سنة (٢٧٠هـ / ٨٨٣م) .

والجدير بالذكر أن ثورة على بن محمد هذه - والتى عرفت بثورة الزنج - لم تكن أولى الإنتقاضات التى شهدتها منطقة جنوبى العراق وإنما كانت هناك انتفاضة أخرى سبقتها وقد عرفت بالاسم نفسه أيضًا وترجع إلى العصر الأموى فى الفترة التى تولى فيها مصعب بن الزبير ولاية البصرة وقد أخمدت(١٥) إلا أن عناصرها ثاروا مرة أخرى سنة (٧٥هـ / ٦٩٤م) فى عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى على البصرة وكانوا هذه المرة أكثر تنظيمًا ، واتخذوا من بينهم زعيمًا يدعى رباح ولقبوه (شيرزنجى) أى أسد الزنج وقد استطاع شيرزنجى أن يمد سلطته لتشمل منطقة الفرات والأبله . إلا أن الحجاج بمساعدة الأهالى تمكن

---

(١٤) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، حـ٣ ، ص ١٧٤٩ - ١٧٥٠ .

(١٥) ابن الأثير ، **الكامل فى التاريخ** ، ط٢ (بيروت : دار الكتاب العربى) ، حـ٤ ، ص ١٤١، ابن خلدون ، **تاريخ ابن خلدون** ، ط١ ، (بيروت : دار الفكر ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) حـ٣ ، ص ٥٦ .

من إنزال الهزيمة بهم وقتل قائدهم(١٦) . ويبدو أن هؤلاء - بعد أن هزمهم الحجاج لم تقم لهم قائمة حتى سنة (٢٥٥هـ / ٨٦٩م) . وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال ، لماذ كانت منطقة جنوب العراق أرضًا خصبة لإحتضان مثل هذه الحركات ؟ . فكما جاء فى المصادر أن الجبهة التى شهدت أحداث انتقاضة الزنج هى المنطقة الممتدة بين مصب دجلة العوراء (شط العرب حاليًا) وبين مدينة واسط وهى منطقة ملأى بالآجام والمستنقعات والأدغال وغابات النخيل وتخترقها آلاف القنوات التى تزداد حول البصرة وهذه المنطقة تسمى بالبطيحة والبطائح وتسمى أحيانًا ببطائح واسط أو بطائح البصرة لوقوعها بين هاتين المنطقتين . وفى هذه المنطقة تواجه الملاحة النهرية صعوبة كبيرة(١٧) وهى بؤرة للأمراض والأوبئة والملاريا ، يقول المقدسى فى وصف البطائح "نعوذ با لله منها ومن شاهدها فى الصيف رأى العجب إنما ينامون فى الكلل وثم بق له حمة كالإبرة(١٨)" .

وعليه فإنه من الطبيعى أن منطقة تتصف بهذه الصفات الجغرافية تصلح لأن تكون ملاذًا يلوذ بها أصحاب المصالح والعصاة والمتمردين وأن يستغلوا ظروفها الطبيعية لصالحهم أحسن استغلال .

---

(١٦) ابن الأثير ، **الكامل فى التاريخ** ، جـ٣ ، ص ٤٠ ، ابن خلدون ، **تاريخ ابن خلدون** ، جـ٣، ص ٥٦.

(١٧) انظر مقالة للكاتبة بعنوان "البطائح تحت نفوذ عمران بن شاهين" مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود ، العدد .

(١٨) المقدسى ، **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقليم** ، جـ٣ (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م) ص ١٢٥ .

فهى تساعد على حرب العاصابات والكر والفر السريع ، وتجعل أمر الدفاع عنها سهلاً وحركة الجيوش النظامية أمرًا صعبًا . كما تساعد مناعة هذه المنطقة على صمود حركات المتمردين والعصاة .

وعلاوة على ذلك فإن تباين واختلاف عناصر السكان فى هذه المنطقة واختلاف مذاهبهم وأديانهم جعلتها بيئة صالحة لظهور مثل هذه الفتن والإنتفاضات . فقد أشرنا سابقًا أن على بن محمد تنقل فى أماكن عديدة ، ودرس أحوال الناس بها ليرى أيهم أكثر استجابة له واستعدادًا للتضحية معه ، فتيقن فى نهاية المطاف أن ضالته المنشودة تتحقق من خلال سكان منطقة جنوب العراق ليقيم بها كيانًا مستقلاً بها بعد أن فشل فى إقامته فى منطقة الخليج . إذًا ما هى نوعية هذه العناصر البشرية التى شاركت فى ثورة على بن محمد ؟ وما هى أوضاعهم الاجتماعية ؟؟ إن الإجابة على ذلك تقتضى منا تقديم دراسة تفصيلية عن هذه العناصر والتى من خلالها أيضًا نستطيع أن نستنتج إن كانت هذه الثورة ثورة عبيد أم لا ؟؟ .

إن الغالبية الساحقة من الثوار الذين انضموا إلى ثورة على بن محمد كانوا من الزنوج الذين استوطنوا منطقة الخليج وجنوبى العراق . والزنوج هم سكان الساحل الشرقى لأفريقيا وقد عرفه جغرافيو العرب قديمًا بساحل الزنج أو زنجبار وهى المنطقة التى تمتد من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل إلى بلاد سفالة والواق واق (وهى أقاصى بلاد الزنج) ومقدار مسافة مساكنهم فى الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ أودية وجبال ورمال[١٩] .

---

(١٩) المسعودى ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، ط ٥ (بيروت : دار الفكر ١٣٩٣ / ١٩٧٣) جـ٢، ص ٦ .

ويرجع إتصال العرب بساحل الزنج إلى عصور موغلة فى القدم ، وكان قدومهم إليها فى فترة ما قبل الإسلام للتجارة حينًا والاستيطان حينًا آخر . ففى البداية كانوا قلة من الناس يأتون فى فترات محدودة إلا أنه بمضى الزمن بدأ اختلاطهم يشتد بالسكان فتزوجوا من نساء القبائل وأقاموا عدة مراكز تجارية على الساحل للإشتغال بالذهب والعاج والعنبر والرقيق(٢٠) . أما بعد الإسلام فقد أتخذت هذه الصلات شكلاً آخر يتمثل فى هجرة جماعات من العرب إلى الساحل الإفريقى واستقرارهم فيها استقرار دائمًا وإقامة كيانات سياسية عربية إسلامية وإنشاء المدن والمراكز التجارية . وهذه الجمات كانت تأتى من سواحل شبه الجزيرة العربية من الإحساء والبحرين وعمان وحضرموتت واليمن(٢١) . وترتب على ذلك أن إنتشر الإسلام بين سكان الساحل الشرقى لأفريقيا .

إن هجرة جماعات من العرب إلى الساحل الشرقى الأفريقى واستيطانهم فيه استيطانًا دائمًا وإنشائهم للمدن والمراكز التجارية ليس معناه أن هذه الهجرة كانت من طرف واحد ، ذلك أن "التوسع التجارى ونشاط حركة الملاحة بين منطقة الخليج وبين ساحل أفريقيا الشرقى وسياسة الدولة العباسية بتشجيع التجارة والإقبال على السلع الأفريقية جميعها أمور تشجع على قيام جاليات من سكان أفريقيا الشرقية فى جميع المراكز التجارية فى الخليج(٢٢) " . وقد اعتنق كثير من هؤلاء المهاجرين الأفريقيين الإسلام واستقروا فى المنطقة وكونوا علاقات وثيقة مع

---

(٢٠) د. جمال زكريا قاسم ، **استقرار العرب فى ساحل شرق أفريقيا** ، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس (القاهرة : مطبعة حامعة عين شمس ١٩٦٧م) مجلد ١٠، ص ٢٧٩ .

(٢١) المسعودى ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، جـ١ ، ص ٩٨ ، ١٠٧ ، د. صلاح العقاد ، **زنجبار** ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٩ ص ٤ .

(22) M. A. Shaban , **Iskamic History** , Vol. 11 p. 107 .

أهالى البلاد الأصليين والدليل على ذلك أنه كثيرًا ما يتردد بين أسماء سكان منطقة جنوب العراق والخليج أسماء ترجع فى أصولها إلى مناطق فى أفريقيا مثل أبو صالح النوبى،سالم الزغاوى،قاقوية السودانى،سليمان بن جامع وهومن أصل أفريقىأسود والفراتية والقرماطيون والنوبة وهم أفريقيون يفصحون بلسان العرب وغيرهم(٢٣).

وإلى جانب الأفريقيين الشرقيين الأحرار - الذين استوطنوا فى جميع المراكز التجارية فى الخليج - كان هناك جماعات من الرقيق الأسود الذين جلبهم التجار المسلمون بإعداد كبيرة ، وقد ذكرنا سابقًا أنه قد ترتب على امتداد نفوذ المسلمين إلى سواحل شرق افريقيا نشاط حركة التجارة عبر المحيط الهندى ومياه الخليج إلى منطقة العراق . وكان من بين السلع التجارية تجارة الرقيق . وقد شهد القرن الثالث الهجرى رواجًا كبيرًا لهذه التجارة وذلك نتيجة لنشوء طبقة ثرية ذات أموال عظيمة كانت تستخدم من الرقيق عددًا كبيرًا فى الأعمال المنزلية خاصة . وقد خص أثرياء العراق ومالكو الأرض الواقعة شمال الخليج الجزء الأكبر من هؤلاء الرقيق الذين اتصفوا بقوة البنية والصبر على الأعمال الشاقة بالعناية بالزراعة . ومع أنهم كانوا ينتشرون فى أكثر من موقع إلا أن تمركزهم الحقيقى كان فى منطقة البطائح الممتدة بين البصرة وواسط . وكان عليهم أن يجففوا المستنقعات الناتجة عن البثوق والفيضانات الحاصلة من نهرى دجلة والفرات وأن يزيلوا عن الأرض جميع الطبقة الملحنة - وهى السباخ التى تتسرب إليها من مياه الخليج - وإعدادها للحرث والزرع(٢٤) . وقد أطلق على الذين كانوا يعلمون بإزالة الطبقة المحلية اسم

---

(٢٣) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٤، ١٧٥٢، ١٧٥٣، ١٧٥٧، ١٧٥٨، ١٧٦٣، ١٧٦٦، ١٧٦٧، ١٧٧٠، ١٧٧٣ .

(٢٤) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٨ .

الشورجيين أو غلمان الشورجيين(٢٥) ، وهو عمل مرهق ومع ذلك كانوا يعملون بلا مقابل تقريبًا فأجرهم اقتصر على طعام مكون من الدقيق والسويق والتمر(٢٦) . ولا شك فى أن على بن محمد أدرك هذه الحقائق بعد أن مكث زمنًا يتجول فى سهول البصرة يدرس أحوال هؤلاء الزنج فاستغل ذلك أحسن استغلال ونجح فى استقطابهم إلى حركته .

وكان أول زنجى من غلمان الشورجيين انضم إلى ثورة على بن محمد سنة (٢٥٥هـ / ٨٦٩م) وهو ريحان بن صالح الذى أصبح فيما بعد من أكثر المقربين إليه ويذكر ريحان أول مقابله له مع على بن محمد بقوله : "فسألنى عن أخبار غلمان الشورجيين وما يجرى لكل غلام من الدقيق والسويق والتمر وعمن يعمل فى الشورج من الأحرار والعبيد فعلمته ذلك فقد عانى إلى ما هو عليه فأجبته فقال لى احتل فيمن قدرت عليه من الغلمان فأقبل بهم إلىّ ووعدنى أن يقودنى على من آتيه به منهم وأن يحسن إلىّ(٢٧) " . وكان قد انضم إليه شبل بن سالم وهو أحد غلمان الدباسين الذين يعملون فى استخراج الدبس من التمر ويسمون بغلمان الدباسين والتمارين(٢٨) . وبانضمام ريحان بن صالح وشبل بن سالم انضم إلى ثورة على بن محمد كثير من غلمان الشورجيين والدباسين الزنج ، ولهذا السبب سميت

---

(٢٥) الشورج مشتقة من شورة وهى كلمة فارسية تعنى الملح .

(٢٦) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٨ .

(٢٧) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٨ .

(٢٨) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٨ .

بثورة الزنج ولهذا السبب أيضًا أطلق عليها البعض اسم ثورة العبيد فى الإسلام أو ثورة العبيد الأفريقين[٢٩] .

وعلى الرغم من أن الغالبية الساحقة من الثوار الذين إنضموا إلى ثورة على بن محمد كانوا من الزنج إلا أن وجود العنصر العربى فى هذه الثورة يظهر بوضوح خاصة فى زعامتها وقادتها .

فعلى بن محمد (كان عربيًا بدون شك سواء أكان من السلالة العلوية كما ادعى أو من قبيلة عبد القيس كما أكد خصومه[٣٠]) . كما أن محيط هذه الثورة فى السبع سنوات الأولى من عمرها من (٢٤٩ - ٢٥٥هـ / ٨٦٣ - ٨٦٩م) كان عربيًا خالصًا فى جمهورها وجندها . فقد ابتدأ على بن محمد دعوته فى مدينة (هجر) ودعا الناس إلى طاعته فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ورفضته جماعة أخرى فانتقل إلى الأحساء ونزل فى أحياء بنى تميم وبنى سعيد ممن يقال لهم بنو الشماس فتبعه كثير منهم وتعاظمت قوته . ثم انتقل إلى البادية وصحبه إليها أنصاره المخلصون المقربون إليه من البحرين والذين كان لهم شأن فى قيادة هذه الثورة فيما بعد ومنهم على سبيل المثال لا الحصر رجل كيال من أهل الأحساء يدعى يحيى بن محمد بن الأزرق المعروف بالبحرانى ، ويحيى بن أبى ثعلب وكان تاجرًا من أهل

---

(٢٩) انظر الصفحات السابقة .

(٣٠) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٢ - ١٤٧٣ ، ابن الوردى . **تاريخ ابن الوردى** ، ط٢ ، (النجف : المطبعة الحيدرية ١٣٨٩ - ١٩٦٩) جـ١ ، ص ٣٢٠.
M. A. Shaban, **Islamic History,** Vol. 11, p. 101.

هجر ومحمد بن سلم القصاب الهجرى ، وبريش القريعى ، وعلى الضراب ، وحسين الصيدنانى ومحمد بن يزيد الدارمى وغيرهم(٣١) .

ففى هذا المحيط العربى حدث أول أنفجار للثورة ضد الخلافة العباسية . ومن أهم معاركها موقعة الروم والتى كانت الدائرة فيها على على بن محمد وأصحابه فانسحبوا إلى البصرة ونزلوا هناك بين عرب بنى ضبيعة سنة (٢٥٤هـ / ٨٦٨م) ودعوهم إلى الثورة فتبعهم جماعة من بينهم على بن أبان المهلبى وأخوع محمد والخليل(٣٢) وبعد آل المهلب من أهم الأسرار العربية التى خدمت كلاً من الأمويين والعباسيين بإخلاص . وعندما افتضح أمر على بن محمد بالبصرة وخاف من أن يقبض عليه من قبل رجال الخليفة هرب إلى بغداد . وهناك استقطب عددًا من المؤيدين له منهم جعفر بن محمد الصوحانى (وكان ينتسب إلى يزيد بن صوحان) ومحمد بن القاسم وغلامًا يحيى بن عبد الرحمن بن خالقان : مشرق ورفيق اللذان أصبحا ركنًا من أركان مجلس ثوررته الستة الذين كان على بن محمد لا يتخذ رأيًا إلا بعد جمعهم ومشورتهم وهم علـى بن أبان المهلبى ، ويحيى بن محمد بن الأزرق ، ومحمد بن سالم القصاب ، وسليمان بن جامع ومشرق ورفيق(٣٣) .

---

(٣١) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٤ - ١٧٤٥، ١٨٤٨ ، ابن أبى الحديد ، **شرح نهج البلاغة** ، ص ٣١٢ .

(٣٢) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٥ .

(٣٣) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٧ ، ابن أبى الحديد ، **شرح نهج البلاغة** ، ص ٣١٢.

أما عن دور القبائل العربية ، فقد انضم إلى ثورة على بن محمد بعد رجوعه إلى البصرة سنة (٢٥٥هـ / ٨٦٩م) بعض القبائل التى كانت تسكن منطقة جنوبى العراق والبطائح ، ويشير الطبرى إلى دور قبيلة باهلة فى هذه الإنتفاضة ومساندتهم لها إذ أن على بن محمد استخدمهم كأدلاء ومرشدين لمعرفتهم بطرق البطائح ومسالكها(٣٤) . وكان الباهليون قد سيطروا على بعض طرق البطائح وطرق التجارة بها تحت زعامة رجل منهم يدعى سعيد بن أحمد بن سعيد بن سالم الباهلى فقبض عليه محمد بن المولد - الذى أرسل من قبل الخلافة لمحاربة صاحب الزنج - وأرسل إلى بغداد حيث صلب هناك سنة (٢٥٧ أو ٢٥٨هـ / ٨٧١م)(٣٥) . وقد اثر ذلك الحدث فى الباهليين فانضم جمع كبير منهم إلى ثورة على بن محمد . وقد تعاطفت جماعة من قبيلة عجل من بكر بن وائل بقرية الجغرية - جنوب شرق البطائح مع حركة الزنج سنة (٢٥٥هـ / ٨٦٩م) وذلك بعرض أنفسهم على زعيم الثورة على بن محمد وبذل ما لديهم لدعم ثورته وقد رحب بهم وأمر بعدم التعرض لهم ولقريتهم(٣٦) .

كما انضم إلى قائد الثورة بعض أفراد من قبيلتى أياد وهمدان ، ومنهم محمد ابن الحسن الأيادى(٣٧) ، وإبراهيم بن جعفر الهمدانى الذى لحق بعلى بن محمد بدجلة وكان هذا أول لقاء بينهما ، فأخبره إبراهيم بن جعفر الهمدانى بأن أهل عبدان وميان روذان وسليمان قد بايعوا له وأنهم على استعداد للإنضمام إلى

---

(٣٤) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، حـ٣ ، ص ١٨٩٩، ١٩٠٣ .

(٣٥) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، حـ٣ ، ص ١٨٥٨ .

(٣٦) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، حـ٣ ، ص ١٧٥٩ .

(٣٧) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، حـ٣ ، ص ١٧٤٦ .

ثورته(٣٨) ولعل هذا يدل على أن انضمام إبراهيم بن جعفر الهمدانى لم يكن انضمام فرد من قبيلة همدان وإنما انضمام جماعة من هذه القبييلة .

كما أن دور قبائل تميم المتعددة وقبائل أسد فى هذه الثورة أمر لا يستهان به. فقد اشترك جماعة من هاتين القبيلتين مع على بن آبان المهلبى فى اقتحامه البصرة سنة (٢٥٧هـ / ٨٧١م) . وعندما ضرب علىَ بن محمد الحصار الاقتصادى على البصرة تمهيدًا للهجوم عليها ، أنفذ قواده إلى الأعراب يدعوهم إلى الدخول فى ثورته . فأتاه جمع كبير ومن بينهم جماعات من قبائل تميم وبنى أسد وغيرهم . وطلب من قائدهم سليمان بن موسى الشعرانى أن يدربهم على أصول القتال وعلى أفضل الطرق لأقتحام البصرة . ولقد أغارت جيوش الثورة على البصرة أثناء صلاة الجمعة فى شوال (٢٥٧هـ / سبتمبر ٨٧١م) من جهات ثلاث من المربد وبنى سعد والخريبة . وكان على رأس الجيش الذى سار إلى المربد على بن آبان المهلبى ومعه جماعة من بنى تميم وبنى أسد وهم يمتطون الخيل وجماعة من الزنج وبعضَ الأعراب كما كان يقود كلاً من الجيش الذى أتى من ناحية الخريبة يحيى بن محمد الأزرق والجيش الذى أتى من ناحية بنى سعد رفيق غلام يحيى بن عبد الرحمن بن خاقان . فأعملوا فيها السلب والنهب والقتل وانسحوا وقد أعادوا الكرة بعد ايام فانتقموا من أهلها انتقامًا وحشيًا وسبوا النساء والأطفال ، وأحرقوا المسجد الجامع(٣٩) . وترتب على ذلك رسوخ قدم على بن محمد وثورته فى جنوب العراق وتمصير العديد من المدن كالمختارة والمنيعة والمنصورة وغيرهما وانضمام العديد من القبائل العربية إليه .

---

(٣٨) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٥٦، ابن الوردى ، **تاريخ ابن الوردى** ، جـ١ ، ص ٣٢٢ .

(٣٩) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٨٤٨ - ١٨٥٧ .

كما اشترك فى حركة على بن محمد وثورته بعض من الأعراب بعد أن نهبوا كسوة الكعبة سنة (٢٦٦هـ / ٨٧٩م)(٤٠) . وكان للأعراب دور بارز ومهم فى مد هذه الثورة بالميرة والقوت من إبل وغنم وطعام . ويذكر الطبرى أنه بعد أن استولت جيوش الثورة على البصرة كان الأعراب والتجار يأتون البصرة بتجارتهم المختلفة ثم تحمل بعدها إلى معسكر على بن محمد ، إلا أنه بعد ذلك صارت هذه الميرة والمؤن والطعام تصل إلى معسكره رأسًا فكان الأعراب عندما يجلبون المؤن من البر ينتظرون فى مؤخرة الأنهر الموصلة إلى معسكر على بن محمد ليرسل لهم السفن فتحمل ما معهم من طعام وإبل وغنم وغيره(٤١) .

وقد تغلغل فى هذه الثورة كذلك العنصر اليهودى وعلى سبيل المثال فقد جاء رجل يهودى خيبرى يدعى ماندويه إلى على بن محمد وزعم أنه يجد صفته فى التوراه وأنه يرى القتال معه(٤٢) .

وهكذا تتضح أمامنا صورة مكونات العناصر البشرية التى اشتركت بثورة الزنج وبالتالى نستطيع القول بأن هذه الثورة ليست ثورة عبيد وإن كانت غالبية من شارك فيها من الزنج إذ ليس من المعقول أن ترادف كلمة زنج كلمة الرقيق لسواد لون بشرتهم كما أنه ليس من المعقول أن وجود عدد كبير من الزنج ومشاركتهم فى هذه الثورة يجعلها ثورة عبيد ثاروا على أسيادهم مطالبين بتحسين أوضاعهم المعيشية السيئة أو أنهم ثاروا لتحرير أنفسهم من الرق والعبودية .

---

(٤٠) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٩٤١ .
(٤١) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ٢٠١٣ - ٢٠١٩ .
(٤٢) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٦٠ .

فالحقيقة هى أنه إنضم إلى ثورة على بن محمد عدد كبير من الزنج فئة منهم عبيد كانوا يعملون فى استصلاح الأراضى فى جنوب العراق وفئة منهم أفريقيون أحرار يعملون بالتجارة وتبادل السلع الأفريقية(٤٣) . ولم يكن هدفهم بالتأكيد المطالبة بتحرير العبيد أو تحسين ظروف عملهم .

كما أنه ليس كل من كان يعمل فى إزالة الطبقة الملحية من الأرض (الشورج) عبيدًا وإنما وجد أحرار يعملون بالشورج(٤٤) . وهناك نقطة جديرة بالملاحظة وهى أنه ليس كل من عمل بالشورج وإزالة الطبقة الملحية ثار لتحسين وضعه المعيشى كما ادعى بعض من كتب فى هذه الثورة بل أن بعض من كان يعمل بهذه السباخ المحلية من أوائل من حارب على بن محمد وأتباعه(٤٥) .

والواقع أن أحدًا منا لا يستطيع أن ينكر انضمام العبيد إلى هذه الثورة ، فقد أشار الطبرى فى أكثر من موضع إلى اشتراك العبيد الابقين الذين فروا من أسيادهم وانضموا إليها . ولكن الذى ننكره أن تطلق عليها ثورة عبيد أو أن نصفها بوصمة العنصرية وإنها حرب بين السود والبيض وذلك لأن العنصر العربى الواضح فى هذه الثورة والذى يظهر فى زعامتها وقيادتها دليل واضح على بطلان زعم من أطلق عليها هذا الوصف ، كما أنه لا يمكن أن يقود هؤلاء القادة العرب عبيدًا من الزنج يعملون فى السباخ واستصلاح الأراضى وليسوا متدربين على حمل

---

(٤٣) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤ ، ابن أبى الحديد ، **شرح نهج البلاغة** ، ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٤٤) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٤٨

(٤٥) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٥٢ .

السلاح ويواجهون بهم جيوش الخلافة النظامية ، ولكن التأكيد أنهم قادوا جماعات من قبائلهم لهم دراية كافية بأصول الحرب والقتال وإلى جوارهم اصطفت جماعات الزنج .

ومما لا شك فيه أن هذه الثورة قامت على المطامع والطموحات الشخصية البحتة ، ولم يكن هدفها تحرير العبيد على الإطلاق وإنما على العكس من ذلك فإن أحد أهدافها كان امتلاك العبيد لأن على بن محمد وعد أتباعه ومناهم بأن بقودهم ويرأسهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل(٤٦) . كما أنه كان من دوافع الثورة ومحركها الصراع على التجارة الأفريقية وخاصة السلع المتميزة ، وقد أشرنا إلى علاقات العرب بسواحل شرق أفريقيا استقر كثيرًا من الأفريقين الأحرار فى جميع المدن التجارية فى الخليج وعملوا بالتجارة جنبًا إلى جنب مع سكان المنطقة المحليين، وأصبحت لهم سيطرة شبه احتكارية على التجارة وكانوا غير مستعدين لتقبل أية منافسة عليها ، وبالتالى فإن أى مساس بمصالحهم يدفعهم إلى رفضه ومجابهته . وهذا ما حدث بالفعل فى ثورة الزنج ، وكذلك فى كثير من حالات سبقتها والتى تضررت فيها مصالح سكان المنطقة فقاموا بمهاجمة القوافل التجارية إثرها ولعل الشواهد على ذلك كثيرة تغطى مساحة كبيرة من صفحات مصادرنا التاريخية(٤٧) إذ نرى انضمام الباهليين إلى ثورة الزنج وكانوا - كما سبق ذكره - قد تغلبوا على بعض أجزاء البطائح وسيطروا على الطرق التجارية وفرضوا الرسوم على التجارة المارة بها . ولكن بعد هزيمتهم على يد محمد بن المولد وقتل زعيمهم

---

(٤٦) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٥٠ - ١٧٥١ .

(٤٧) على سبيل المثال يراجع الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٨٥٨ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣١ ، ١٩٤١ .

سعيد بن أحمد بن سعيد بن سلم الباهلى تضررت مصالحهم وفقدوا ذلك المورد الهام فانضموا إلى على بن محمد فى ثورته(٤٨) . كما تقديم بنى عجل (بقرية الجعفرية) المساعدة لعلى بن محمد هو برهان آخر على دخول هؤلاء فى مفاوضات معهم بعدم التعرض لمصالحهم التجارية هناك(٤٩) .

كما أن تضييق الثوار الخناق على البصرة وضرب اقتصادها وهجماتهم العنيفة عليها لدليل حيوى على أن دافع ومحرك هذه الثورة هو الصراع على التجارة والإنتقام من أهالى البصرة الذين احتكروا تجارة الخليج ونهبوا الثروات وسلبوا نشاط تجارة المدن والمرافىء المجاورة لها مثل الإبلة وعبدان ، مما اضطر كثيرًا من أهالى وتجار هذه المرافىء إلى نقل ثرواتهم للبصرة ، فزاد نشاطها التجارى وتوسعت حدودها حتى أصبحت هذه المرافىء بمثابة ضواحى للبصرة . وفى ذلك يقول المقدسى : "أما البصرة فمن مدنها الأبلة وأبو الخصيب وعبدان والقندل والجعفرية(٥٠)" .

وقد أكد الجغرافيون والمؤرخون العرب على المكانة التى كانت تتمتع بها البصرة وأنها مثلت مركزًا من مراكز التجارة الدولية ومرفأ لأستقبال السفن المحملة بالسلع والبضائع الخاصة بالتجارة الشرقية(٥١) . ولقد أسفرت هذه الأوضاع عن

---

(٤٨) انظر الصفحات السابقة .

(٤٩) انظر الصفحات السابقة .

(٥٠) المقدسى ، **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** ، ص ١١٤ .

(٥١) ابن حوقل ، **صورة الأرض** (بيروت : دار مكتبة الحياة ١٩٧٩) ص ٢١٢ - ٢١٤ ، المقدسى ، **أحسن التقاسيم** ، ص ١١٧ - ١١٨ . إبراهيم بن صبغة الله الحيدرى البغدادى ، **عنوان المجد فى بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد** ، (البصرة ، دار منشورات البصرى ، د. ت.) ص ١٥٨ .

ظهور طبقة من كبار التجار الأثرياء فى البصرة استثمروا أموالهم وأعدوا الصفقات التجارية الكبرى وامتلكوا السفن والمراكب(٥٢) . وبناء على إحتكار أهالى البصرة لتجارة الخليج فقد اضطر كثير من أهالى عبدان وميان روزان وسليمانان والقندل والجعفرية الذين تضررت مصالحهم إلى الدخول فى طاعة على بن محمد والإسهام فى ثورته(٥٣) .

كما أن مهاجمة الثوار ميناء البصرة بهذا العنف الشديد يؤكد على عزمهم القوى فى تحويل تجارة الخليج إلى مدنهم الخاصة بهم . وتمخض عن ذلك إزدهار عدة مدن حصينة للثوار هى حصن المهدى طهيثا ، للنصورة ، جبى ، المنيعة ، والمختارة(٥٤) . وراجت مدينة المختارة التى إنشئت على الضفة الغربية لنهر أبى الخصيب بالنشاط التجارى وحصنت بالأسوار والخنادق وبنيت بها القصور الفخمة والمؤسسات العامة من سجون وقلاع ودواوين وضرب بها على بن محمد نقودًا باسمه سنة (٢٦١هـ / ٨٦٧م)(٥٥) . وكما ازدهرت هذه المدينة تجاريًا تقدمت صناعيًا حيث أقيمت بها مصانع الأسلحة وبناء السفن(٥٦) .

---

(٥٢) د. سوادى عبد محمد ، **صلات تجارية بين البصرة والمغرب الإسلامى من القرن الثانى الهجرى حتى أواخر القرن الرابع** ، (بغداد : الأمانة العامة لأتحاد المؤرخين العرب ١٤١٠ - ١٩٩٠م) العدد ٤٣ ، ص ١٥٧ .

(٥٣) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٥٦ ، ١٧٥٩ .

(٥٤) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٧٧٨ ، ١٩٠٢ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ .

(٥٥) محمد باقر الحسينى ، **دراسات وتحقيقات إسلامية عن نقود الثوار والدعاية والشعارات** ، المسكوكات ، مجلة علمية تبحث فى المسكوكات ١٩٧٤) العدد ٥ ، ص ٤٩ .

(٥٦) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، جـ٣ ، ص ١٩٥٣ .

وحتى تكون جميع أقنية تجارة جنوب العراق فى أيديهم ، احتل الثوار مدينة واسط التى تتوسط الطريق التجارى بين البصرة وبغداد . كما استولوا على الكوفة بعد أن قتلوا عاملها وطردوا قوات الحكومة منها وذلك لتأمين الطرق البرية أيضًا(٥٧) . وبناء عليه ازدهرت جميع المدن التى أنشأها الثوار تجاريًا ، وأصبحت تجمع فى أسواقها ثروات ضخمة ويأتى إليها التجار والأعراب من جميع النواحى حاملين ما معهم من بضائع للإتجار بها ، ومن ثم تمتع سكانها بثراء وافر ورغد العيش لا أن الموفق عندما تفرغ لمحاربة على بن محمد فرض حصارًا اقتصاديًا على هذه المدن "فمنع الأعراب من حمل المؤن والقوت والطعام إليها وأمر بإطلاق السوق لهم بالبصرة وحمل ما يريدون امتياره من التمر إذا كان ذلك سبب مصيرهم إلى عسكر الخبيث(٥٨)" . إلا أن الأعراب رغم تضييق الموفق عليهم ل يمتنعوا من حمل الميرة والمؤن إلى الثوار وانحاز فى اسواق كما يقول الطبرى .

عندما أوقع الموفق بهم واسر جماعة كبيرة منهم وضرب أعناقهم سنة (٢٦٨هـ / ٨٨١م) ، وحسب ما سجل الطبرى فإن بعض هؤلاء الأعراب كانوا من قبيلة تميم(٥٩) وهذا كله يدل على أن هذه الثورة كانت تتمتع بدعم الأعراب وبعض القبائل العربية أيضًا وجماعات معينة من التجار حتى النهاية وأنه لولا هذا الدعم لما حظيت هذه الثورة بكل هذا النجاح .

---

(٥٧) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، حـ٣ ، ص ١٨٨٣ .

(٥٨) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، حـ٣ ، ص ٢٠١٦ .

(٥٩) الطبرى ، **تاريخ الأمم والملوك** ، حـ٣ ، ص ٢٠١٨ - ٢٠١٩ .

Abstract :

This article presents afvif survey on the revolution of the Zanj which is considered one of the most critical and prominent revolution during the history of the Abbasid , which lasted for 14 years (255 AH \ 869 AD), until (270 AH \ 883 AD). started even since the reign of al - Muhtadi and ended during the caliphate of al - Mutamid .

The aim of the selection of this subject is to recognize the identity of this zanj revolution and whether it had been aslaves revolution or not .

Terefor , we excluded the method that denoted the causes of the revolution, the war it had undergone and the biography of its leader .

The main foci has been to answer the follwing questions which had imposed themselves : had it really been aslave revolution or aracist war between blacks and non blacks ? Who had been its foundes, and participants?

The answer to all the above mentioned question had necessitated the presentation of detailed study of all those factors through which, we managed to conclude whether it had been aslave revolution or not?.

بنو إينجو في فارس ونشاطهم السياسي

دكتور محمد أحمد محمد أحمد

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

بكلية الآداب بسوهاج

ظهور بني إينجو :

تنتمي أسرة إينجو إلى أصل فارس، ومهدت لها الظروف أن تحتل مكانة في تاريخ جزء من المشرق الإسلامي، وشأنها شأن سائر الأسرات الإسلامية الحاكمة التي تبوأت نفوذاً سياسيا فعالا في غياب الحكومات الإسلامية الكبرى ممن انتهجت المركزية أساسا مثاليا في الحكم ، والبحث في تاريخ مثل هذه الأسرات الحاكمة استنادا لأحكام الواقع بعيننا في الوقوف على فرضيات منهجية يقبلها العقل لطرح قضايا علمية تفيدنا كثيراً في فهم التاريخ بوصفه علما محكوما بتتنظير فلسفي مستقى من الواقع وتقره العقائد وفق تغاير الظروف من خلال تتابع العصور والأزمنة .

فظهور أسرة إينجو في فارس يعد حدثا تاريخيا أسهمت في صنعه عوامل عرضّت الشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري إلى نذر الضعف الذي ظل يمارس فعالياته حتى أدى إلى وقوعه في الأفول ليفسح المجال لظهور عصر آخر جديد شارك في التمهيد إلى حدوثه بنو أينجو دونما دراية منهم أو تخطيط من قبلهم ليحدث التغيير، لتستمر دورة الحياة على النحو الذي شاء لها الله تعالى أن تسير، فكل حدث تسلسله مقدمات ونتائج تقر بنشأته ثم ازدهاره إلى أن يفسح المجال بسقوطه لقدوم حدث آخر جديد .

وأحـدث ذلـك الضعـف الـذى منيـت بـه السـلطة المركزيـة للمملكـة الايلخانيـة فـى عهـد السـلطان أبـى سـعيد بهادرخـان (٧١٦ - ٧٣٦ هـ) نوعـا مـن الفوضـى أصـاب الولايـات الايلخانيـة بتأثـير مـن كبـار أمرائـه وقـواده الذيـن استبدوا بحكـم هـذه الولايـات وقلصـوا نفـوذ الايلخانـات التـابعين لأبـى سعيد بوسـائل وطـرق متباينـة .

و لم يكن بنـو اينجـو فـى بـدء ظهورهـم فـى فـارس مـن كبـار أمـراء الدولـة الايلخانية، بل كان زعيمهـم شـرف الديـن محمـود شـاه ممـن بـرع فـى استقصاء الاملاك السلطانية والأمور المالية تابعا للأمير جوبان أمير أمراء الايلخان أبى سـعيد بهادرخـان(١)، غـير أن الضعـف الـذى منيـت بـه الإدارة المركزيـة فـى عهـد هـذا الايلخان أطمعت كافة الأمراء على اختلاف منازلهم دونما اعتبار للوفـاق العصبى، إذ سرعان ما تناحر الأمراء الترك فى نواحى الشرق التى لم يعد للسطان الايلخـانى شأن فيها الأمر الذى هيأ الظروف أمام الايرانيين لجمع الكلمة والبحث عن رمـوز ايرانيين يمكنهم الوصول إلى الإمـارة والانفـراد بـالحكم، وكـان أهـل فـارس أكـثر الراغبين فى تحقيق ذلك الهدف بدافع العصبية التى كثيراً ما تحدث آثارهـا فـى ظـل الضعف الذى ألم بالمركز الحاكم، وشـكل ذلـك كلـه العوامـل التـى يسـرت لبنـى

---

(١) حبيب الله شاملوش: تاريخ ايران، ص ٥٣١ .

ويبدو أن الأمير جوبان عرف بهـذا الاسـم لمـا كـان يقـوم بـه زمـن الايلخانـات أرغـون وكيخاتو وغازان واولجاتيو وأبو سعيد من جهود فى تصريف شئون الدولـة الايلخانيـة حتـى صار راعيا ومخلصا وحليفا أمينا لكل ايلخان من هؤلاء الأربعة، وكلمة جوبان كـانت تـرد فـى الملاحم على البطل الذى تتمثل فيه قوة الشعب، فيبدو فى صورة الحليف الأمين المخلص لسيده ومن ثم أطلقت أيضاً على أشـخاص مـن أرفـع الرتـب (دائـرة المعـارف الإسـلامية جـ٤ مـادة جوبان).

اينجو طريق النجاح عبر نصف قرن من الزمان تقريبا، ويمكننا تقسيم هذه العوامل إلى نوعين، **أولاهما** : **داخلية** تتصل من قريب ببيئة اقليم فارس الذى شهد كيانا سياسيا صنعه بنو اينجو، **وثانيهما** : **وافدة** تعكس المسائل السياسية المعقدة التى أثارها أمراء الأطراف من أجل السيطرة والتوسع - وبالذات - فى عهد السلطان أبى سعيد بهادرخان ، وكان من شأن اصطدام العاملين الداخلى والوافد أن ظهر حدث جديد يعبر عن مولد أسرة بنى اينجو .

أما العوامل الداخلية فتعكسها ظروف بيئية جغرافية ودينية واجتماعية واقتصادية وعصبية داخل اقليم فارس الذى ركز الجغرافيون المسلمون على أنه يشغل المنطقة المطلة على الخليج الفارسى حيث يحده من الشرق كرمان ومن الغرب خوزستان ومن الشمال مفازة خراسان، ويتوسط قلب الاقاليم فى الشرق ما بين نهر بلخ إلى منتهى أذربيجان وأرمينية وإلى بحر فارس(٢)، وكانت شيراز(٣) حاضرة فارس فى نظر الجغرافيين والرحالة المعاصرين لبنى اينجو (مدينة أصيلة البناء، فسيحة الأرجاء لها البساتين والأنهار المتدفقة والأسواق البديعة......)(٤)، واطنب ابن بطوطه(٥) فى وصف هذه المدينة مبينا أنها موفورة الثراء ، فى بسيط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات ، وتشقها خمسة أنهار...) ولعل وصف المقدس(٦) لاقليم فارس فى نهاية القرن الرابع الهجرى من أنه (اقليم ترابه

---

(٢) القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٣) بكسر أوله وسكون ثانيه،من نواحي الاقليم الثالث، وتتوسط اقليم فارس، وكان أول من تولى عمارتها محمد بن القاسم بن عقيل(انظر ياقوت الحموى معجم البلدان،جـ٥،ص٣٢٠).

(٤) ابن بطوطه: كتاب الرحلة، جـ١، ص١٥٥ .

(٥) المصدر السابق والصفحة .

(٦) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ٣٢٣ .

وعرف عن أهل شيراز بأنهم (أهل صلاح ودين وعفـاف)(١٣)، ومـال كثـير من هؤلاء إلى التصوف وعكفوا على مجالس القراء، بل إن النساء منهم كن يحرصن على سماع الوعظ (بالجامع الأعظم) ثلاثة أيام من كل أسبوع دونما تأثير يذكر من شدة الحر، وليس أدل على صلاح نساء شيراز من تلك الأعداد الهائلة التى أرتادت ما بين الألف والألفين المسجد الكبير يسمعن الوعـظ الأمـر الـذى لم يـر فـى مثـل عددهن فى (بلدة مـن البـلاد)(١٤) وممـا لا شـك فيـه أن الانهيـار السياسـى الـذى أضعف من شأن سلطان الايلخان أبى سـعيد بهادرخـان مـن جـراء سـيطرة كبـار الأمراء على الحكم فضلا عن التنافس فيما بينهم قـد أضـر كثـيرا بأهـالى الولايـات ومن بينها فـارس ممـا دفـع بهـم إلى الانسـحاب والخلـود إلى النفـس طلبـا للنصـرة والأمان .

أما العوامل الوافدة التى كان لها شأن كبير يذكر فى ظهور بنى اينجـو فقـد شكلها تلك السيطرة التى أبداها الجوبـانيون علـى الولايـات الايلخانيـة فـى عهـد السلطان أبى سعيد الذى اسـند إلى زعيمهـم جوبـان القيـام بوظيفـة أمـير الأمـراء، وتأتى هذه الوظيفة - بطبيعة الحال - بعـد أن أثبـت جوبـان كفايـة ملموسـة فـى الجيش الايلخانى وتصريف شئون الدولة فـى عهـد السـلطانين الايلخـانيين غـازان (٦٩٤ - ٧٠٣ هـ) وأولجانيو (٧٠٣ - ٧١٦ هـ) فضلا عن كونه تركيا ومهدت لـه هـذه الوظيفـة ليمتـد تأثـيره إلى ممارسـة العمـل السياسـى والتدخـل فـى شـئون الايلخانية حتى صار من اليسير قيامه نائبا عـن الايلخـان والحجـر عليـه فـى بعـض الأحيان، وهكذا سيطر الأمير جوبان على أجهزة الدولة وأطلق يـده السـلطان أبـو

---

(١٣) ابن بطوطه: المصدر نفسه ، جـ١، ص ١٥٥ .

(١٤) ابن بطوطه : المصدر نفسه/ جـ١، ص ١٥٥ .

سعيد فى أمور المملكة كلها بعد أن أثبت نجاحا كبيرا فـى مواجهـة الطـامعين فـى الولايات الايلخانية وبالذات أوزبك خان ملك دولة صحراء القيحاق(١٥).

ظل الجوبانيون يمارسـون نفوذهـم فـى الولايـات الايلخانيـة حتـى نكـل بهـم السطان ابو سعيد بعد أن ضاق ذرعا من استبداد أمير الأمراء جوبان وابنائه، لكـن ذلك كله لم ينقـذ الدولـة المغوليـة مـن قبضـة الأمـراء، إذ سـرعان مـا مهـد أفـول الجوانيين إلى ظهور الأسرة الايلكانية الجلايرية المغولية التى أسست حكومة شملـت أذربيجـان والعـراق العربـى فيمـا بـين (٧٣٧- ٨١٤ هـ/ ١٣٢٦ - ١٤١١م)، وتتنافس الأسرتان حول المناطق الايلخانية ويقع بنو اينجو بين هؤلاء وهؤلاء وفـق سياسة تفرضها ظروف الواقع من أجل توطيد النفوذ فى فارس، ولتصطـدم بأسـرة بنى المظفر المجاورة التى قدر لها أن تظهر هى الآخرى فى ظل هذه الظـروف ويمتـد سلطانها فى كرمان وكردستان فيما بين (٧١٣ - ٧٩٥هـ/ ١٣١٣ - ١٣٩٢م).

ومهما يكن من أمر فإن الاضمحلال السياسى الـذى أسـهم فـى صنـع أمـراء الايلخان ممن تناوشوا حول ملكية الأراضى الايلخانية شجع ضمن مـا شـجع بنـى اينجو نحو البحث عن بيئة صالحة تتوافر فيها المنـاخ الصحـى الـذى يوافـق ميولهـم وطبيعتهم الجانحة إلى تكوين ملك يخدم العنصر الفارسى، فيما نؤكده مما أسلفنا من تلاقى العاملين الداخلى والوافد ليعلن فى النهاية عن قيام امارة فارسية الطراز تحمل أسم اينجو . يتضح لنا مما تقدم أن البيئة الفارسـية وبـالذات شـيراز الحـاضرة حـين أخذ الضعف يدب فى الكيان الا يلخانى كانت فى مسيس الحاجة إلى الخلاص من تغلغل النفوذ الـتركى الـذى استحوذ علـى ثوراتهـا، وجعلهـا تـرزح تحـت وطـأة الضعف بتشجيع من السلطان الايلخانى الذى لم ير بـدا مـن الاعتمـاد علـى ذلـك

---

(١٥) عبد السلام فهمى : الدولة المغولية فى إيران ، ص ٢٢٣ .

العنصر فى تنصيب الأمراء على الولايات الأمر الـذى اسـهم فـى تطـور الأحـداث السياسية بشكل فعال وسريع بوصول بنى اينجو الايرانيين إلى حكم فارس .

قيام إمارة اينجو فى فارس :

كان دخول فارس فى الإسلام فرصة للإيرانيين الذين اتخذوا من الإسلام منـذ زمن بعيد مضى عقيدة راسخة للعمل فى الحكومة الايلخانية والقيـام بمهـام اداريـة وأخرى سياسية لتصريف أمور الولايات ومطالب كبار الأمـراء، ولم يغفـل المغـول وأمراؤهم ما كان للإيرانيين من فضل ودراية بأصول الادارة ونشر الحضارة بدليـل أن أمراءهم اسندوا برغم تعصبهم للترك - للعناصر الايرانية القيام بمهام حكوميـة ، ووجد الايرانيون فى ذلك كله فرصة للظهور من أجل الارتقاء، وتأتى أسرة اينجو فى مقدمة الاسرات الفارسية التى قدر لها أن تحرز تقدما ذا بـال فـى ظـل سيطرة كبار الأمراء على اجهزة الدولة الايلخانية، ومن أكبر الأدلـة علـى مـا كـان لأبنـاء هذه الأسرة من نجاح فى أداء العمل الحكومى إنها استقت اسمهـا عنـد المغـول مـن نوع عملها الإدارى ، فاينجو كلمة مغولية تركية ، وتنطق أحيانا اينجـو وانجـوى، وتعنى الأراضى الخاصة بملوك مغول إيران (ايلخانات المغول)(١٦)، وفى لغة المغـول تعنى هذه الكلمة الممتلكات الخاصـة للسـلطان ثـم صـار مدلولهـا يعنـى (صـاحب ديوان اينجو)، وبالجملة فإنها تشير اصطلاحا إلى المشـرف علـى الأمـلاك الملكيـة، وانتهت لتطلق على كل شخص من خواص الملك والمقربين إليه وعلى ممتلكاته(١٧) وكان زعيم اينجو شرف الدين محمود شـاه يقـوم منـذ عهـد السـلطان الايلخـانى اولجايتو بإدارة أملاك الايلخانيين الخاصة فـى فـارس(١٨)، وأثبـت كفـاءة فـى أداء

---

(١٦) لغت تامة : العدد ١٥٧ ص ٥٩٦ .

(١٧) لغت تامة : العدد ١٥٧ ص ٥٩٦ .

(١٨) معين الدين زركوب : شيراز تامة، ص١٠١ .

عمله الحكومى، وأثر عنه أنه فى هذا المجال قد ساس الناس بالحكمة والعدل(١٩). بتأثير إسلامه وخبرته وبدافع من أصله المتين الذى يرجع إلى الشيخ عبد الله الأنصارى(٢٠) المعروف باسم "بير هدى" شيخ هراة ، وبلغ محمود شاه شأوا عظيما حتى صار من (أعاظم رجال إيران)(٢١).

وكان شرف الدين محمود شاه أحد ملازمى جوبان، الذى لم يرغضاضة من الاستعانة به ليسهم فى رفع شأنه لدى الايلخان ، وسرعان ما وقع اختيار السلطان اولجاتيو سنة ٧٠٣ هـ على شرف الدين محمود شاه ليكون حاكما إداريا على بلاد فارس(٢٢) انطلاقًا من إشرافه على أملاكه الخاصة فى شيراز ، ولقى محمود شاه ترحيباً كبيرًا من العناصر الفارسية التى شكلت الغالبية العظمى من سكان هذا الاقليم لكونه منتميًا إلى أفضل أرومة طيبة بنسبه المبارك إلى عبد الله الأنصارى...)(٢٣). ولم يكن شرف الدين محمود شاه آنذاك بمعزل عن أحداث فارس التى انطوت على جانب كبير من ظلم الترك الذى كان سيفًا مسلطًا على القاصى والدانى على هذه البلاد فأخذ فى مسعاه يسلك سياسة هادئة تتوخى العدل لتخليص أهل فارس مما هم فيه من ظلم ، وحمد له الا يرانيون سياسته حتى بلغ الأمر بأحد الكتاب الايرانيين أن مدحه بأنه قد (فاق فى كمال الأبهة وعلو الهمة ملوك بنى العباس وطموح آل بويه ، وساس الناس بالحكمة والعدل ، وسار على درب مراده ورأيه...)(٢٤) .

(١٩) معين الدين زركوب : المصدر السابق والصفحة .

(٢٠) معين الدين زركوب : المصدر السابق والصفحة .

(٢١) حسين على ستوده : تاريخ آل مظفر ، جـ٢ ص ٧٤ وما بعدها .

(٢٢) معين الدين زركوب : المصدر نفسه ص١٠١ .

(٢٣) معين الدين زركوب : المصدر السابق والصفحة .

(٢٤) معين الدين زركوب : المصدر السابق والصفحة .

ظل شرف الدين محمود شاه محافظًا على منصبه فى فارس حتى تولى أبو سعيد بهادرخان سلطنة الايلخانيين ، وحينئذ وظف صداقته للأمير جوبان وكثرة ملازمته له فى أحراز توسع كبير للإنفراد بحكم فارس ، وكان جوبان آنذاك أميرًا للأمراء وقابضًا على شئون الدولة ينظر إلى شرف الدين محمود بإعتباره أحد خاصته(٢٥) .

ويظهر لنا من المصادر الفارسية المعاصرة أن شيراز حاضره اقليم فارس كانت فى نظر الايلخان أبى سعيد وأمير أمرائه جوبان القياس والأساس لضبط الحكم فى فارس ، وقت أن كان شرف الدين محمود شاه يحرز نجاحًا كبيرًا فى أستقصاء أحوال هذه الناحية الخاصة بالسلطان . وكان ينزل على شيراز بين حين وآخر من قبل السلطنة الإيلخانية رجال للوقوف على أمورها فى إطار خطة تستهدف ضبط أمور الدولة ، وكان هؤلاء الرجال يمنحون نواب السلطان ونواب أمير أمرائه التصرف فى ولاياتهم ، وهكذا قدم شيراز سنة ٧١٤هـ الصاحب الأعدل خواجه(٢٦) عز الدين قوهدى لضبط الحكم فى فارس حيث منح بطبيعة الحال شرف الدين محمود شاه حق التصرف فى الولاية(٢٧) .

ومن حسن حظ شرف الدين محمود شاه أن الذين قدموا شيراز لضبط أمورها من قبل السلطان الايلخانى كانوا من بين المتصوفه الذين أشاعوا الهدوء والاستقرار فى نفوس أهل شيراز الإيرانيين ومهد ذلك كله لشرف الدين محمود شاه الوصول

---

(٢٥) حبيب الله شاملوئى : تاريخ إيران ، ص ٥٣١ .

(٢٦) كلمة فارسية تعنى السيد العظيم ، وتنطق خاجا ، والواو هنا فى الفارسية لا تلفظ ومسبوقة بخاء كما فى خوارزم التى تنطق خارزم .

(٢٧) معين الدين زركوب : شيراز نامه ، ص ١٠٢ .

إلى قلوب الشيرازيين بوصفه رجلاً ينحدر في الأصل إلى شيخ هراة عبد الله الأنصارى الفارسى بن عبد الله بن أسعد بن نصر بن محمد(٢٨) .

وكان من سوء أحوال سعيد بهادر خان اعتماده على النساء فى مجال الإدارة مما أفسح المجال أمام شرف الدين محمود شاه للوصول إلى حكم فارس فى ظل عناية جوبان أمير الأمراء ، ذلك أن أبا سعيد فوض سنة ٧١٩هـ حكم فارس إلى الأميرة "زينة العالم"(٢٩) بنت الأمير كردوجين بنت الأتابك آبتن بن سعد (ابن زنكى)(٣٠) لكفاءتها التى أظهرتها فى إدارة أمور السلطنة بعد وفاة أولجاتيو ، على أننا لا نأخذ برأى الكاتب الإيرانى عباس إقبال فيما ذهب إليه من أن هذه الأميرة حكمت اقطاعها بحكمة ونشرت العدل(٣١) . ذلك أن معين الدين زركوب المعاصر وصف عهدها بأنه قد انتشر فيه الفساد وعم الاضطراب إلى جانب آثارها الحسنة . وللتوفيق بين الرأيين نأخذ بصدق ما ذهب إليه زركوب بوصفه معاصرًا، دون أن ننكر ما قامت به تلك الأميرة من منشآت أشار إليها هذا المؤرخ جملة ويمكن القول بأن ما قامت به الأميرة "زينة العالم" فى شأن فارس لم يتأتى إلا رغبة

---

(٢٨) راجع حسين على ستوده : تاريخ آل مظفر ، جـ ٢ ، ص ٧٤ وما بعدها .

(٢٩) معين الدين الشيرازى : المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .

(٣٠) هى ابنة الأمير كردوجين التى تعود من حيث الأصل إلى جدها لأبيها هولاكو خان وجدها لأمها الأتابك سعد بن زنكى السلغرى التركمانى ، وكانت كردوجين قد تزوجت السلطان جلال الدين سيرو غتمش القرخطائى حاكم كرمان (٦٨١هـ - ٦٩٣هـ) ، ولما قتل زوجها هذا انتقمت من قاتلته الملكة صفوة الدين باد شاه خاتون بأن استولت على سلطنة كرمان، ولم تجد صعوبة فى أن تخص أبنتها "زينة العالم" بحكم ولاية فارس سنة ٧١٩هـ. (لغت نامة د هخدا : العدد ١٧٢ ، ص ٤٤٠) .

(٣١) تاريخ إيران ، ص ٥٢٣ .

منها فى ذيوع صيتها بين الناس والإرتقاء بنفسها فضلاً عن خدمة الإيلخان أبى سعيد وإرسال الهدايا له ، وكلها ظروف تنبئ بظهور شخصية فارسية تجعل ... شيراز وفارس لأهله .

ظلت "زينة العالم" ابنة كردوجين تحكم اقليم فارس حتى تزوجت بالأمير جوبان أمير أمراء الإيلخان(٣٢) . الذى سمح لملازمه واحد خاصته شرف الدين محمود شاه ليطلق يده فى إدارة الأملاك الإيلخانية الخاصة ، ثم أسند إليه القيام بهذه المهمة فى سائر نواحى فارس وكرمان(٣٣) ويزد(٣٤) وجزيرة كيس(٣٥) (قيس) والبحرين ، وظل شرف الدين محمود على هذا النحو حتى وضع جنوب إيران من أصفهان حتى جزر الخليج تحت إدارته المالية(٣٦) وسرعان ما جمع بتأثير نجاحه فى هذا العمل أموالاً طائلة حتى قيل أن دخل أملاكه الشخصية قد بلغ فى أواخر عهد أبى سعيد مائة ثومان(٣٧) .

---

(٣٢) معين الدين زركوب المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .

(٣٣) كرمان ، بالفتح ثم السكون تقع بين فارس ومكران وسجستان وخراسان وتقع شرقى فارس وإلى الجنوب من مفازة خراسان (ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢) .

(٣٤) يزد بفتح أوله وسكون ثانيه ، مدينة تتوسط نيسابور وشيراز واصبهان ، (معدودة فى أعمال فارس) من كورة أصطخر (ياقوت : المصدر نفسه ، جـ ٨ ، ص ٥٠٦) .

(٣٥) جزيرة كيس ويعنى بها قيس وهى جزيرة فى بحر فارس وكانت آنذاك مدينة مسورة ، ومرفأ لمراكب الهند والفرس ، ومتجرًا للعرب والعجم (القزوينى : آثار البلاد ، ص ٢٤٣ - لغت نامه : العدد ١٥٧ ، ص ٥٩٦) .

(٣٦) ميرخواند : المصدر نفسه ، جـ ٤ ص ٤٥٣ .

(٣٧) لغت نامة : العدد ١٥٧ ، ص ٥٩٦ - حبيب الله شاملوئى : تاريخ إيران ، ص ٥٣١ أما الثومان فكلمة مغولية تعنى عشرة آلاف .

وسرعان ما أستقل شرف الدين محمود شاه سنة ٧٢٥هـ بكافة ولايات فارس وحاضرتها شيراز(٣٨) بعد وفاة الأميرة "زينة العالم" (٣٩) ، وبعث أبناءه جلال الدين مسعود شاه وغياث الدين كيخسرو وشمس الدين محمد وجمال الدين شاه شبح أبا إسحاق لحكم مختلف نواحى فارس(٤٠) .

يتضح لنا مما تقدم أن امارة اينجو كان لها ارهاصاتها ، وبدأ تكوينها منذ أن تولى شرف الدين محمود شاه الأملاك الخاصة للبلاط الايلخانى سنة ٧٠٣هـ وظلت هكذا فى دور التكوين حتى انفرد شرف الدين محمود شيراز واستقل بها سنة ٧٢٥هـ .

---

(٣٨) زوكوب : شيراز نامة ، ص ١٠١ - حبيب الله شاملوئى - المرجع نفسه ، ص ٥٣١ .

(٣٩) ميرخواند : المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ٤٥٣ .

(٤٠) حسين على ستودة : تاريخ مظفر ، جـ ٢ ، ص ٧٤ وما بعدها.

رشيد الدين فضل الله الذى استوزره أبو سعيد بهادرخان واحله محل الوزير تاج الدين على شاه لما أقدم عليه هذا الأخير من سوء التصرف فضلاً عن جهله ، وكان غياث الدين هذا من أشهر وزراء أبى سعيد بهادرخان بعد أبيه رشيد الدين، وقريبًا من أمير الأمراء جوبان الذى حفظ له صداقة أبيه ، مما مكن شرف الدين من ضبط أمور شيراز ، وفارس بتأثير تلك الحماية ، وكان أن سعى شرف الدين محمود شاه إلى مصاهرة الوزير غياث الدين محمد(٥) ونتج عن ذلك أن بادر الأخير بعرض تزويج إبنته وقبل أخته على الأمير جلال الدين مسعود شاه الا بن الأكبر لشرف الدين محمود اينجو(٦) . الأمر الذى يفسر ذلك الحرص الذى كان يبديه الوزير غياث الدين محمد بهذه الأسرة وحبه لها ورغبته فى أن يشاركه بنو اينجو فى الأعمال الديوانية(٧) .

وظهر تأثير هذه المودة التى كانت محور الصلة بين الوزير غياث الدين محمد وأسرة اينجو حينما استاء السلطان أبو سعيد بهادرخان من زعيم هذه الأسرة شرف الدين محمود لما لمسه فى سلوكه من تعالى والرغبة منه فى سلب سلطانه داخل إقليم فارس ، فأورد "خواندمير" أن السلطان أبا سعيد أبدى استياءه إزاء ما أقدم عليه شرف الدين محمود شاه حينما خاطبه بما ينطوى على الجرأة والجسارة مما حدى به أن يعزله من حكم فارس سنة ٧٣٤هـ(٨) ، غير أن محمود فى ظل رعاية الوزارة الإيلخانية لم يمتثل لأمره ، وأكد استقلاله بالمنطقة التى تحت إدارته ،

---

(٥) حسين على ستوده : تاريخ آل مظفر ، جـ ٢ ، ص ٧٤ - ٧٨ .

(٦) معين الدين نطنزى : منتخب التواريخ ، ص ١٧٢ .

(٧) حسين على ستوده : تاريخ آل مظفر ، جـ ٢ ، ص ٧٤ - ٧٨ .

(٨) عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٥٢٣ وما بعدها .

وأوصى الوزير غياث الدين محمد به خيرًا لدى السلطان أبى سعيد الذى سرعان ما عفى عنه بتأثير هذه الوصية بعد أن ألغى قراره الذى اصدره بقتله ، واكتفى بحبسه فى قلعة "طبرك" باصفهان(٩) ، وظل الوزير غباث الدين محمد يتدخل لدى السلطان أبى سعيد حتى أطلق صراحه ليقيم تحت رقابة أبى سعيد بحاضر السلطنة(١٠) .

ومما قيل أن السلطان أبا سعيد حين أمر بحبس شرف الدين محمود أصدر أمرًا للجوبانيين بتعيين أحد الكبار ويدعى "طالش" على حكومة فارس ، واسند طالش إلى الأمير مسافر ايناق القيام بهذه المهمة مفضلاً البقاء فى الحاضرة ، فجاء هذا الأخير إلى شيراز سنة ٧٣٥هـ حيث شرع يباشر مهام حكمه(١١) .

غير أن مسافر ايناق قد سلك سياسة غاشمة تجاه الأهلين فى شيراز ، فاشتد فى جباية الضرائب حتى ذكر أنه كان يحصل كل عام آلافًا من التومانات من ضرائب ولاية فارس(١٢) .

ولم يغفل مسافر ايناق المكانة التى حظى بها بنوا ينجو عند أهل فارس فعول على استمالتهم بتعيين الأمير غياث الدين كيخسرو نائبًا

---

(٩) بفتح أوله : ومدلولها بالفارسية "بلاد الفرسان" كما أن اسم المدينة نفسه مشتق أيضًا عند الفرس من الجندية ، وهى حاضرة اقليم بنواحى الجبل فى آخر الاقليم الرابع ، كما أطلق الاسم على الأقليم بأسره (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ٢٧٠ و ٢٧١ - القزوينى : آثار البلاد ، ص ٥٣٦) .

(١٠) عباس إقبال : تاريخ مفصل إيران ، ص ٥٢٣ - ٥٢٨ .

(١١) زركوب : المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

(١٢) حسين على ستوده : تاريخ آل مظفر جـ٢، ص ٧٤ - ٧٨ .

عنه(١٣) و لم يجد غياث الدين أدنى صعوبة فى فرض شـروطه عليـه بـأن لا يتدخـل فى شئون العمل على أن يتفرغ لقيادة الجيش والعمل بالمعسكر(١٤) .

على أن رغبة مسافر ايناق الشديدة فى الحصـول علـى المـال أضـرت بأهـالى شيراز من جراء الإضطهادات المالية التى فرضها عليهم طلبًا للمال الكثير مما جعلـه يخفق فى إدارة شئون الحكم ، وتاق الشيرازيون لعودة شرف الدين محمـود اينجـو، ويؤكد صاحب شيرازنامه(١٥) هذا الفشل الذى منيت به سياسة مسافر قـائلاً بـأن الحكم لم يكن يتمشى معه) .

ويبدو أن شرف الدين محمود شاه كان يسعى فى سياسته الداخلية إلى تحقيق نوع من التوازن بين الحفاظ على مودته بالوزارة فى الحاضرة الإيلخانية وبين العمل على استمالة أهالى فارس وبالذات من كان منهم بحاضرة الاقليم شيراز ، لمـا كـان لهذه السياسة من دور كبير فى الحفاظ على مكانة بنى اينجو فـى فـارس وإعـانتهم على ضبط أمـور الحكـم ، ولدينـا مـا يشـير إلى أن بنـى اينجـو أقدمـوا علـى هـذه السياسة ، فشرف الدين محمود اينجو قد حنق بعد استدعائه إلى حـاضرة السـلطنة على مسافر ايناق الذى ارهق أهل فارس ومنعه من تحقيق طموحاته ، ولكونه ليس غريبًا آنذاك يدافع تلك الحمايـة مـن وزارة الإيلخـان ، اسـتطاع فـى أواخـر عهـد السلطان أبى سعيد أن يستميل اثنين من أمراء هـذا السـلطان وهمـا الأمـير "محمـد بيك" والأمير "بيلتن" ، وزين لهما أمر قتل مسافر ايناق ، وبلغ بـه الأمـر أن توجـه

---

(١٣) زركوب : المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

(١٤) حسين على ستوده : تاريخ آل مظفر حـ٢ ، ص ٧٤ - ٧٨ .

تشير كلمة (المعسكر) إلى المعسكر الذى اقيـم خصيصًـا لمسـافر اينـاق حيـث يباشـر منـه القيادة وشئون الجيش .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

برفقة هذين الأميرين إلى مقر هذا الأخير مما اضطره إلى الهرب واللجوء إلى قصر السلطان ، وهنا لم يجد شرف الدين محمود صعوبة في حصاره داخل القصر مطالبًا بتسليمه، لكن جماعة من أمراء أبي سعيد قبضوا عليه ، غير أن الوزير غياث الدين محمد انقذه من العقاب وأرغم السلطان على عدم قتله ، وفي نفس الوقت كان أبنه الأمير غياث الدين كيخسرو الذى أنابه مسافر ايناق في حكم شيراز يسعى جاهدًا بفضل تأييد أهالى شيراز لتجريد مسافر ايناق من اختصاصاته وجعله متفرغًا للقيادة والمعسكر(١٦).

وأدرك السلطان أبو سعيد ما كان لبنى اينجو من حظوة بين أهل فارس ، وبالذات المكانة البارزة التى احتلها زعيمهم شرف الدين محمود اينجو فى شيراز ، والظاهر أن أبا سعيد عمل -ازاء ذلك كله- على تفتيت وحدة هذه الأسرة فاصدر سنة ٧٢٦هـ فرمانًا من بغداد بتعيين جلال الدين مسعود بن محمود شاه اينجو صهر الوزير غياث الدين محمد على شيراز(١٧) مستهدفًا تقليص نفوذ شرف الدين محمود فى شيراز ، على أن الأخير ظل بين أبنائه الأربعة صاحب اليد العليا فى حكم شيراز،بل إنه كان على تلك الحال حينما أقام إقامة دائمة فى المعسكر السلطانى ببغداد بعد عزله(١٨) وساعده على ذلك عمله إذ ذاك مستشارًا للوزير غياث الدين محمد(١٩).

والأمر الجدير بالملاحظة أن الغموض الذى اكتنف اشارات المصادر حول تتابع أمراء بنى اينجو على حكم فارس قد جعل الخلط والاضطراب واضحًا

---

(١٦) حسين على ستوده : تاريخ آل مظفر جـ ٢ ص ٧٤ - ٧٨ .

(١٧) زركوب : شيراز نامة ، ص ١٠١ .

(١٨) معين الدين نطنزى : منتخب التواريخ ، ص ١٧٢ .

(١٩) معين الدين نطنزى : منتخب التواريخ ، ص ١٧٢ .

بالقياس إلى احكام الواقع ، فليس من المعقول بداهــة أن يتـولى أبنـاء شـرف الديـن محمود شاه زعيم اينجو على التـوالى فـى حيـاة أبيهـم الـذى أنشـأ الحكـم وأوجـد الحكومة فى شيراز و لم يتمكن الا يلخـانيون منـه إلا بقتلـه سـنة ٧٣٦هـ أى بعـد استقلاله بسنوات ، الأمـر الـذى يجعلنـا لا نـأخذ بصحـة مـا أورده معـين الديـن الشيرازى من اشارات ذهب بها إلى القول بأن الايلخان أبا سعيد قـد عـين جـلال الدين مسعود شاه على حكم شيراز سنة ٧٢٦هـ وأتبعه سنة ٧٣٠هـ بفرمان آخـر بتعيين أخيه غياث الدين كيخسرو على نفس الحكم .

كمـا تظهـر أهميـة تلـك السياسـة التـى انتهجهـا شـرف الديـن محمـود فـى أعقـاب وفـاة السـلطان أبـى سـعيد سـنة ٧٣٦هــ(٢٠) ، إذ سـرعان مـا اضطـرب مسـافر بيـك ، وظهـر عليـه اليـأس فـى حـين اسـتعاد بنـوا ينجـو مكـانتهم فـى فـارس فـى وقـت كـان فيـه الوزيـر غيـاث الديـن محمـد علـى الـوزارة الإيلخانيـة للمـرة الثانيـة ، ووجـد الأمـير غيـاث الديـن كيخسـرو فـى ذلـك كلـه فرصـة للقيـام بشئون فـارس فـى غيـاب والـده شـرف الديـن محمـود ، وقبـض علـى مسافر اينـاق واودعـه السـجن بضعـة أيـام ثـم سمـح لـه بالذهـاب إلى بـلاد الـروم (أذربيجـان)(٢١) .

على أن شرف الدين محمود شاه قد أسـهم فـى مؤامـرة للإطاحـة بالإيلخـان آوباخان الذى تولى العرش الإيلخانى خلفًا لأبى سعيد . إذ شارك بضع شخصيات فى نشر الفوضى ، متهمين آرباخان بأنه قـد اخفـى أحـد أبنـاء هولاكـو ، و لم يـر الإيلخان الجديد بدًا من إعدامه فى تبريز(٢٢) .

---

(٢٠) معين الدين زركوب الشيرازى : المصدر نفسه ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢١) حسين على ستوده : تاريخ آل مظفر ، حـ٢، ص ٧٤ – ٧٨ .

(٢٢) ميرخواند : روضة الصفا ، حـ ٤ ص ٤٥٤ .

خلف محمود شاه اينجو أبناؤه الذين حاولوا الحفاظ على سياسته الرامية إلى الجمع بين المكاسب التى ظفروا بها بتأييد العناصر الفارسية فى شيراز والحصول على التأييد السياسى من الوزارة الإيلخانية على أثر هذه الهزيمة التى منوا بها بعد وفاة السلطان أبى سعيد والتى أرغمتهم على الفرار أشتاتًا حيث هرب الأمير مسعود شاه إلى اذربيجان ولجأ شيخ أبو إسحاق إلى الأمير على باد شاه فى دياربكر(٢٣) فى حين ظل غياث الدين كيخسرو فى شيراز يباشر الحكم فيها دون سند شرعى من دار السلطنة فى بغداد بعد أن أوقع بالأمير مسافر ايناق واجبره على العودة من حيث أتى(٢٤) .

وكانت الدولة الإيلخانية قد دخلت آنذاك فى ضعف شديد(٢٥) حاول بنو اينجو استغلاله لحسابهم فدخلوا بادىء ذى بدء فى نزاع مع الإيلخان الجديد أرباخان جريًا وراء سياسة محمود شاه اينجو الذى عارض أرباخان بحجة أنه ليس من بيت هولاكو مخالفين بذلك سياسة الوزير غياث الدين محمد الذى أيد ارباخان وعمل على تنصيبه العرش الإيلخانى ، رغبة فى الثأر والمطالبة بدم أبيهم ووجدوا ضالتهم فى خروج نساء السلطان أبى سعيد(٢٦) وخاله على باد شاه الذى كان إذ ذاك فى بغداد وغير راضٍ عن تنصيب أرباخان العرش الإيلخانى .

كان الأمير مسعود شاه بن محمود شاه اينجو من بين المؤيدين لحركة المعارضة ضد أرباخان ومحاولة استبداله بغيره رغبة منه فى المطالبة بدم أبيه ، وطلبًا

---

(٢٣) حسين على ستوده : تاريخ آل مظفر جـ٢ ، ص ٧٤ - ٧٨ .

(٢٤) معين الدين زركوب الشيرازى : شيراز نامة ، ص ١٠٣ .

(٢٥) انظر عباس اقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ٣٤هـ - ٥٣٧ . عارضت أرباخان فى تنصيبه دلشاد خاتون أرملة السلطان أبى سعيد وحاجى خاتون أمه حيث استقبلهما على باشادة خال السلطان فى بغداد وانضم إليهم بعض الأمراء وأعلنوا معارضتهم لارباخان (راجع السلام فهى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران ، ص ٢٣٤) .

(٢٦) عباس اقبال : المرجع نفسه ، ص ٥٣٦ ، ٥٣٧ .

للظهور فى حاضرة المملكة للعودة إلى فارس حيث كان ، وجنى بنـوا ينجـوا ثمـار هذه السياسة حينما نجح المعارضون مـن أمـراء المغـول فـى القبـض علـى الإيلخـان آرباخان وقاموا بتسليمه إليهم فأقدموا على قتله فـى شـوال سـنة ٧٣٦هـ وثـأروا لأبيهم بالخلاص منه(٢٧) .

وجنى بنو ينجو ثمار هذا التأييد حين عين الإيلخان موسى خان الذى خلـف آرباخان فى السلطنة على باد شاه أميرًا للأمراء ، ومهد ذلك كله إلى تعيين الأمـير جلال الدين مسعود شاه اينجو الأبن الأكبر لمحمـود شـاه وزيـر ، فـأطلق يـده فـى جميع البلاد(٢٨) فى الوقت الذى كان فيه أخوه غياث الدين كيخسـرو يجمـع ثمـار هذه المكاسب فى فارس حيث باشر الحكم فيها فى يسر وسهولة دونما معارضة أو تبديل بتأثير من حماية أخيه له .

وسرعان ما عاد الأمير جلال الدين مسعود شـاه إلى شـيراز سـنة ٧٣٧هـ على أثر خلاف وقع بين الإيلخان موسى خان وأمير أمرائه على بادشاه(٢٩) ليتـولى

---

(٢٧) أورد حسين على ستوده فى كتابه تاريخ آل مظفر بما يفيـد مـن أن الشـيخ حسـن بزرك هو الذى أعان موسى خان فى الوصول إلى عرش الإيلخانية ولكن العكس هـو الصحيح إذ كان الشيخ حسن هذا من بين المعارضين للإيلخان موسـى وثـار فـى وجهـه مطالبًا بتغيـيره (انظر تاريخ آل مظفر ، ص ٧٤ - ٧٨) .

(٢٨) زركوب : المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

وحول تولى موسى خان السلطنة ، والأحداث التى أودت بحياته انظر :

Howorth : History of the Mongols Vol III, P. 636 - 641 .

(٢٩) هناك إشارات خاطئة وردت فى كتاب تاريخ آل مظفر يشـير مـن خلالهـا حسـين على مستوده إلى أن الأمير جلال الدين مسعود شاه كان باذربيجان حتى توفى الإيلخان محمـد خان خليفة موسى خان وإنتقل من بعد ذلك إلى فارس والصحيـح أن مسـعود شـاه تـرك هـذه المدينة على أثر الخلاف الذى نشأ بين موسى خان وعلى باد شاه (انظـر معـين الديـن : شـيراز نامة ، ص ١٠٤ - تاريخ آل مظفر ، ص ٨٤ - ٧٨) .

الحكم فيها ، فنازع أخاه الأمير غياث الدين كيخسروا بصفته أكبر أبناء والده ودخلت شيراز على أثر ذلك فى عهد ساده حكم الأمراء المتخاصمين من بنى اينجو وهم الأمير جلال الدين مسعود شاه والأمير غياث الدين كيخسرو والأمير شمس الدين محمد .

ويجدر بنا فى معرض حديثنا عن سياسة بنى اينجو الداخلية أن نشير إلى ما زخرت به كتابات المعاصرين فى شأن اهتمام بنى اينجو بعلماء الدين ورجال التصوف بشيراز ونواحى فارس ، ونستند فى طرح هذه المعالجة إلى ما أورده المعاصران زركوب ؟ والرحالة ابن بطوطة .

ومر بنا الحديث عن البيئة فى فارس وما انطوت عليه من تصوف ومظاهر دينية وكلها أمور مناسبة لزعيم أسرة ابنجو ومؤسس حكمها شرف الدين محمود شاه المنتسب إلى أفضل أرومة طيبة بنسبه المبارك إلى عبد الله الأنصارى(٣٠) .

وعمل شرف الدين محمود شاه منذ توليه الإدارة فى شيراز على توفير المناخ الملائم لحركة التصوف فأخذ يندمج فى المجتمع الشيرازى مؤيدًا ما أقبل عليه الأهلون من مظاهر دينية(٣١) .

وادرك الإيلخان وأمير أمرائه ميوله الدينية فارسلوا له رجالاً من المتصوفة للوقوف على شئون الحكم فى عهده ويظهر من كتابات زركوب(٣٢) أن المتصوفة وجدوا فى عهد محمود شاه اينجو بشيراز كل تعاون حتى انجزوا أعمالهم دون عناء ويبدو أن هذه الرغبة عند أمير اينجو دفعت بغير المتصوفة من مبعوثى الإيلخان أن يظهروا فى ثوب دينى أمام بنى اينجو حتى يحظوا برضاهم ، ونذكر من هؤلاء

---

(٣٠) راجع صفحة ٣ - ٥ من المبحث .

(٣١) انظر ابن بطوطة كتاب الرحلة ص ١٥٥ وما بعدها .

(٣٢) شيراز نامه ، ص ١٠٢ .

على سبيل المثال لا الحصر "الملك الأعظم شيخ بهلول" الذى قدم شيراز فى عهد محمود شاه للوقوف على أمور الحكم بها ، وعرف عن ذلك الرجل بأنه أمضى مدة متصوفًا قلندريًا(٣٣) فى زى الدراويش(٣٤) ، ودون "ابن بطوطة" مشاهداته عن شيراز موضحًا بأنه قد وقف على شاب بأحد المساجد بشيراز يدعى بهلول الشولى من المعنيين بالقرآن الكريم وداعيًا إليه(٣٥) ولعله ممن ينتمون إلى قبيلة الشول الذين ذكر عنهم بأنهم ....الأعاجم الذين يقطنون الصحراء .

ومن أعظم المخلصين عند الشيرازيين الشيخ الكبير قطب الأولياء والمحققين أبو عبد الله بن خفيف الذى بنى من ماله الخاص بشيراز(٣٦) قبة عالية ، وظل مشهد ابن خفيف فى عهد بنى اينجو برغم مضى فترة زمنية طويلة الأجل على وفاته معظما بين أهالى فارس ، وكان من كثرة الاعتقاد فيه أن قيل عنه بأنه أظهر جبل سرنديب بجزيرة سيلان(٣٧) . وحافظ بنو اينجو على سياسة أبيهم فى شأن رجال الدين فأعلنوا بادى ذى بدء رغبتهم فى القرب منهم ، ومن مظاهر ذلك أنهم نقلوا جثمان أبيهم إلى شيراز ليرقد بالقرب من عظام ابن خفيف المباركة(٣٨) بل روعى عند دفنه أن تكون تربته متصلة بقبور الأولياء(٣٩) .

---

(٣٣) قلندرى ويعنى به ذلك الرجل الذى تظاهر بالدين وارتدى ثوب علمائه .

(٣٤) زركوب : شيراز نامة ص ١٠٢ .

(٣٥) كتاب الرحلة جـ ١ صفحة ١٦٨ .

(٣٦) معين الدين زركوب : شيراز نامة ، ص ١٠١ ، توفى هذا العالم سنة ٣٧١هـ ياقوت : معجم البلدان ، جـ٥ ص ٣٢١ .

(٣٧) ابن بطوطة : المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٦٤ .

(٣٨) آرثر اربرى : شيراز مدينة الأولياء والشعراء صفحة ٢١٠ .

(٣٩) ابن بطوطة : المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٦٤ .

سار خلفاء شرف الدين محمود اينجو على سياسة أبيهم الداعية إلى الإندماج بعلماء الدين ، وشملت هـذه السياسة دعوة هؤلاء الرموز إلى القيام بمهام سياسية وأخرى إدارية إمعانًا في الإعلان عن اخلاصهم في المجال الديني ، ونذكر هنا بالإشارة (مولانا الأعظم)(٤٠) شمس الدين القاضي الذي تولى إدارة شئون شيراز فترة قصيرة برضا من الأمير جلال الدين مسعود اينجوا ابان نزاعه مع الجويانيين حول شيراز لكونه مؤيدًا من قبل الشيرازيين الذين أحبوه لدينه وعلمه(٤١) .

وسار الأمير شيخ أبو اسحق آخر أمراء بني اينجو على نفس النهج إذا ما دعته الظروف إلى إبرام صلح مع الأمراء المجاورين ، فحين أخفق في مواجهة الأمير مبارز الدين محمد المظفري حول يزد ، أسند مهمة الوساطة من أجل الصلح إلى شيخ الإسلام شهاب الدين على باعمران(٤٢) ، وفي نزاع لاحق بين الجانبين حول شيراز ارسل شيخ أبوإسحق اينجو مولانا عضد الدين الإيجي(٤٣) في طلب الصلح.

---

(٤٠) يعني به سيد الشيوخ .

(٤١) معين الدين زركوب الشيرازي : شيراز نامة ، ص ١٠٥ وما بعدها .

(٤٢) حسين ستوده : تاريخ آل مظفر ، جـ ١ ، ص ٧٠ . كان شهاب الدين هذا من علماء يزد ، واستطاع شيخ أبو إسحاق أن يجعله وسيطًا بينه وبين مبارز الدين الذي لم يكن في مقدوره انذاك مخالفة هذا العالم ستوده : المرجع نفسه والصفحة .

(٤٣) كان قاضيًا للقضاء في عهد السلطان أبي سعيد بهادرخان ، وعلى الرغم من أنه لم يحظ بتأييد آل مظفر فيما سعى إليه من عقد الصلح إلا أنه اكتسب احترام الأمير المظفري مبارز الدين محمد الذي وثق فيه وكلفه بتعليم شاه شجاع مختصر الأصول عند المذاهب الأربعة ولعضد الدين الإيجي مؤلفات في علم الكلام والمعاني والبيان : انظر تعليق ملك على التركي "تاريخ آل مظفر" هامش رقم ١ ص ٨٨ ، ٨٩ .

وبلغ اهتمام شيخ أبى إسحق بعلماء الدين شاوا كبيرًا حتتى أنه أسند وزارته لبعض الرجال الذين ظهروا فى ثوب دينى ، ومنهم على سبيل المثال "مولانا شمس الدين صائن" (٤٤) ، غير أن هذا الأخير سلك سياسة مغايرة وعكف على جمع المال ، فعزله الأول من الوزارة(٤٥) .

وكانت النزاعات التى انشغل بها شيخ أبو إسحق آخر حكام بنى ينجو مع كل من الجوبانيين والمظفريين دافعًا ألجأه إلى إلتماس الرضا والدعاء بالنصر من رموز الدين وعلماء شيراز ، وأورد ابن بطوطة مظاهر التكريم التى حظى بها العالم الجليل مجد الدين قاضى شيراز من قبل شيخ أبى إسحاق ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما دونه فى رحلته من أنه قد رأى شيخ أبا إسحق قاعدًا بين يدى هذا القاضى ممسكًا بإذن نفسه مبينًا أن ذلك هو غاية الأدب عندهم(٤٦) .

ولم يقتصر سياسة أمراء بنى اينجو على العناية برجال الدين بل امتد تأثيرهم إلى توفير كل الوسائل التى من شأنها إشاعة المظاهر الدينية والدعوة إلى الإسلام فى داخل بلاد فارس ، الأمر الذى يفسر ما كان لهؤلاء الرموز المخلصين من رجال الدين فى عهد بنى اينجو من دور ومساجد ومدارس خاصة لاستقبال الزوار ونشر العلم الدينى(٤٧) .

---

(٤٤) محمود الكبتى : تاريخ آل مظفر ص ٨٨ - حسين على ستوده: تاريخ آل مظفر، حـ١ ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٤٥) حسين على ستوده : تاريخ آل مظفر حـ ١ ، ص ٨٤ .

انتقل مولانا شمس الدين هذا إلى كرمان حيث قتل على يدى مبارز الدين محمد المظفرى سنة ٧٤٦هـ .

(٤٦) ابن بطوطة كتاب الرحلة ، حـ١ ، ص ١٥٨ .

(٤٧) ابن بطوطة : المصدر نفسه ١٥٨ ، ١٦٤ .

وكان إذا وقع خلاف بين نساء اينجو يلجأ أمير اينجو إلى رجال الدين لحسم الخلاف بينهن ونذكر فى هذا السبيل أن نزاعًا قام بين أم الأمير شيخ أبى إسحق وأخته فاستحكم أبو إسحق القاضى مجد الدين فى صرفه ، ففصل هذا القاضى بينهما بواجب الشرع(٤٨) .

وحرص أمراء بنى اينجو على أن يتصل بلاطهم بالمشاهد والمساجد الكبرى التى اقيمت تخليدًا لأولياء الله وعلمائه وكان حرصهم على تخصيص أماكن يشرف منها نساء البلاط على هذه المشاهد للوقوف على النشاط الدينى فى شيراز حيث كانت طاش خاتون أم الأمير شيخ أبى إسحاق تنظر من غرفة مطلة على المسجد حيث ترقب مظاهر الاحتفال الذى كان يقام كل يوم اثنين بداخل المشهد الذى أقيم خصيصًا لتخليد ذكرى العالم الشيخ أحمد بن موسى أخى على الرضا(٤٩) ، والذى تنوع بين اجتماع أهل شيراز على ختم القرآن الكريم ، وقيام القراء بآدائهم ، وبذل الأعطيات على الناس من الطعام والفواكه وإنتهاء بالوعظ(٥٠) .

وحرص بنو ينجو على تلبية مطالب أهالى شيراز والعناية بالمؤسسات الدينية والوقف عليها(٥١) . وبذل الرواتب على القائمين بأداء الشعائر وحاكى النساء من بلاط اينجو رجالهن فى هذا المضمار ومما قيل فى هذا الشأن أن طاش خاتون أم الأمير شيخ أبى إسحق أقامت مدرسة كبيرة وزاوية (فيها الطعام للوارد والصادر....ومن عادتها أنها تأتى إلى هذا المشهد كل ليلة اثنين)(٥٢) .

---

(٤٨) ابن بطوطة : المصدر نفسه ، حـ١ ، ص ١٥٩ .

(٤٩) ابن بطوطة : المصدر نفسه ، حـ١ ، ص ١٦٤ .

(٥٠) ابن بطوطة : المصدر السابق والصفحة .

(٥١) ابن بطوطة : المصدر السابق ، حـ ١ ، ص ١٩٦ .

(٥٢) ابن بطوطة : المصدر نفسه حـ١ .

وقيـل أيضًا أن الذين كان لهـم الرواتـب مـن المعنيين الأشـراف وأهـل العلم والدين بداخل شيراز ينيـف عـن ألـف وأربعمائـة فيعهـد الأمير شيخ أبى إسحق(٥٣).

ولا عبرة هنا بما أثاره القدامى والمحدثـون(٥٤) عـن اهتمـام الأمـير شـيخ أبى إسحاق فى شيراز بمجالس الأدب والشراب ، ذلك أن إقدامه على هذه المظـاهر لم يظهر لهم إلا فى أواخر أيامه ، وأن ما دأب عليه الشاعر حافظ من نظم الخمريـات إنما جاء فى وقت أحاط به الطامعون من كل جانب(٥٥) ، ومن الثـابت أن شـيراز من فرط اهتمام الناس فيها بمظاهر الدين والتصـوف عرفـت آنـذاك بـبرج الأولياء وكان شعراؤها من الصوفية ، وكانت مواطن الشيوخ مدارًا لحياة أهل شـيراز(٥٦) الذين لم يروا غضاضة من بناء المساجد والوقوف عليها(٥٧) .

وحرص أمـراء بنـى اينجـو أن يعـاملوا أهـالى فـارس بمـا ينطـوى علـى الـود والعدل لاستطابة حيـاة مدنيـة ، وأكـبر دليـل علـى صـدق مـا ذهبنـا اليـه هـو أن عهـد الأمـير شـيخ أبـى إسـحق الـذى انطـوى علـى أطمـاع خارجيـة وحـروب للحفاظ على الإمـارة كـان الحـرص فيـه شـديدًا علـى حمايـة النـاس فـى الداخـل، وممـا يذكـر أن أبـا إسـحق لمـا أدرك أن وزيـره ظهـير الديـن إبراهيـم صـواب وكبـار موظفيـه نشـطوا فـى تحصيـل الأمـوال مـن الأهـالى دون استحقاق أغلـق

---

(٥٣) ابن بطوطة : المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .

(٥٤) كمال الدين السمرقندى : مطلع سعد بن ومجمع بحرين ، جـ ١ ص ٢٩٦ . - آرثر أربرى شيراز مدينة الأولياء والشعراء ، ص ٢١٦ .

(٥٥) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ١٤ ، ص ٢١ .

(٥٦) راجع ابن بطوطة : المصدر نفسه ، ١٥٥ - ١٦٤ .

(٥٧) ابن بطوطة : المصدر نفسه ، جـ ١ ص ١٦٦ .

أمامهم أبواب الإستفادة (٥٨) وإنتهى الأمر بقتل الوزير وعزل الموظفين الذين لم يظهروا كفاءة فى اعمالهم الإدارية(٥٩) ، بل كان حرص أبى إسحق على عدم تسخير أهالى النواحى الأخرى فى كرمان ويزد لا يقل عن ذلك الذى بذله فى شيراز ، حيث كان حكام هذه النواحى تابعين له يرسلون إليه الأموال والضرائب المستحقة عليهم(٦٠) .

ومما يدعو إلى الإعتبار ما أبداه الأمير شيخ أبو إسحق تجاه الصناع والحرفيين الذين استخدمهم فى بناء ديوانه الكبير ، إذ عاملهم بما ينطوى على الحب والبذل الكبير ، وكان يشاهدهم عند أدائهم للعمل من منظرة له ، ورتب للفعلة الذين خدموا فى هذا البناء الأجر المناسب ، وحال دون أن يقوم أهل شيراز (بالتخديم فيه) بعد بنائه(٦١) ، ويروى أن معظم ما جباه من أموال شيراز كان ينفقه على هؤلاء (الفعلة) المشتغلين بهذا البناء(٦٢) .

ولقيت سياسة بنى اينجو تجاه الأهلين فى الداخل بعد وفاة شرف الدين محمود شاه نجاحًا كبيرًا يعكسه ذلك التأييد الذى أبداه الشيرازيون لأسرة بنى اينجو ووقوفهم ثوارًا ومسلحين ضد الطامعين من الجوبانيين الترك ، إذ حالوا دون

---

(٥٨) محمود الكتبى : تاريخ آل مظفر ، ص ٦٩ .
وحسين على ستوده : تاريخ آل مظفر ، حـ ١ ، ص ٨٤ .
(٥٩) حسين على ستوده : المرجع السابق والصفحة .
(٦٠) حسين ستوده : المرجع السابق والصفحة .
(٦١) ابن بطوطة : المصدر نفسه ، حـ ١ ، ص ١٦٢ .
(٦٢) راجع ابن بطوطة : المصدر السابق والصفحة .

وقوع شيراز فى إيدى الملك أشرف الجوبانى وافسحوا المجال لدخول الأمير جلال الدين مسعود اينجو شيراز(٦٣) .

وتأتى الأشعار التى نظمها حافظ الشيرازى فى كل من الأمير جلال الدين مسعود شاه اينجو وأخيه شيخ أبى إسحق دليلاً على ما كان يلقاه هذان الأميران من تأييد بين الأهلين فى شيراز ، ونواحى فارس(٦٤) .

وقصارى القول فإن بنى اينجو اتبعوا سياسة خاصة بين أهالى نواحى فارس تمحورت حول ثلاث اتجاهات متداخلة غير منفصلة ، أولاهما الجمع بين تأييد الرعية وكسب التأييد السياسى من قبل الوزارة وثانيهما جذب العناصر الدينية والعمل على تنشيطها وثالثهما سياسة عادلة من أجل حماية الأهالى بنواحى فارس.

---

(٦٣) معين الدين زركوب الشيرازى : شيراز نامة ، ص ١١٠ – ١١١ .

(٦٤) آثر آريرى : المرجع نفسه ، ص ٢١١ و ٢١٢ .

امتداد سلطان بنى اينجو :

عمل بنو اينجو على توسيع ممتلكاتهم جريًا وراء سياسة أبيهم شرف الدين محمود شاه ، ومن أجل ذلك رسموا سياسة مزدوجة مستهدفين من ورائها درء مخاطر الطامعين فى حاضرتهم شيراز من جهة وتوظيف ما كان يقع بين هؤلاء الطامعين من تنافس حول شيراز لحسابهم ، وكان ذلك كله بطبيعة الحال فى ضوء تخطيطهم للاستئثار بحكم فارس وتوطيد نفوذهم فى كافة نواحيه .

وبالبحث فى المصادر الفارسية أمكننا الوصول إلى الموقع الذى أحتله بنو اينجو فى المشرق الإسلامى بين الاسرات الحاكمة التى سيطرت على السلطان الإيلخانى ، الذى صار بتأثير سياسته هدفًا مشتركًا لأسرتين كبيرتين قدر لهما أن يسيطرا على المملكة الإيلخانية مدفوعين بتوليهما امرة الأمراء ، وهما أسرة "الجوبانيين" و"الجلايريين" ، وهاتان الأسرتان الكبيرتان متفقتان فى كونهما من أصل تركى فى وجه أسرة اينجو الإيرانية الأصل ، على أن الوفاق العرقى فى ظل التنافس حول التوسع وجمع الأراضى قد حال دون جمع هاتين الأسرتين فى مربع واحد لضرب أمراء بنى اينجو الإيرانيين الهادفين إلى الإستقلال باقليم فارس ، لذا جنى بنو ينجو فى النهاية ثمار ذلك العداء بعد وفاة أبيهم للحفاظ على ما بأيديهم من أراضى وممتلكات .

ولم ينل من أهداف بنى اينجو وتوسعاتهم سوى أسرة بنى المظفر التى استغل أبناؤها ضعف المملكة الإيلخانية واصطدموا ببنى اينجو الذين شكلوا خطرًا خارجيًا على موطنهم الأصلى ، ونوالى فى الصفحات التاليات كيف اتبع بنو اينجو سياسة توسعية جديرة بالإعتبار على حساب هؤلاء الطامعين فى ديارهم .

وجد شرف الدين محمود شاه فى علاقته الوطيدة مع الأمير جوبان فى عهد السلطان أولجانيو فرصة للتمهيد إلى ملك عريض فى فارس وأكد المؤرخون الإيرانيون على أن ما وصل إليه بنو اينجو من مكانة سياسية فى هذا الاقليم يرجع إلى تشجيع من الأمير جوبان وذكر حبيب الله شاملوئى(١) أن هذه الأسرة نشأت على أكتاف أحد أمراء جوبان سنة ٧٢٥هـ ويقصد بطبيعة الحال استقلال شرف الدين محمود باقليم فارس وانفراده به .

وكان الجوبانيون بزعامة الأمير جويان منذ عهد أولجايتو قد خصوا شرف الدين محمود شاه اينجو مشرفًا وحاكمًا إداريًا لإدارة الأملاكِ الخاصة للإيلجان فى فارس ، وظل هذا الأخير محتفظًا بهذه الوظيفة حتى عهد السلطان أبى سعيد حيث مهد له جوبان إحراز نتائج باهرة فى إدارة هذا الاقليم ومكنه من الإستتقلال بحاضرته سنة ٧٢٥هـ والتوسع فى نواحيه ثم صدق على ولايته الأمر الذى لم يـر الإيلخان أبو سعيد ازاءه بدا من اصدار فرمان يقره على ما بيده من نواحى فى فارس .

شرع شرف الدين محمود شاه فى مد نفوذه خارج حدوده فى فارس ، فأخذ يتوسع على حساب بنى المظفر فى يزدوكرمان بدافع من معرفته بأحوال هاتين الناحيتين حين كان يعمل على استقصاء ملكية السلطان الإيلخانى فيهما لما حظى به من تأييد بين الجموع الإيرانية هناك .

على أن المصادر الفارسية لم تعطنا تفاصيل حول سياسة شرف الدين محمود اينجو فى ضم يزد وكرمان ، وإن كانت إشاراتها قد ركزت على جهود بنى المظفر فى مناهضة بنى اينجو لاسترداد هذه النواحى الأمر الذى يشير بداهة إلى أن

---

(١) تاريخ إيران : ص ٥٣١ .

محمود شاه اينجو لم يتمكن من بسط سلطانه على يـزد وكرمـان إلا فـى وقـت لم يبلغ فيه آل مظفر شأنهم الكبـير ويؤكـد حمـد الله المستوفى القزوينـى فـى تـاريخ كزيده(٢) أن ذلك الوقت المبكر من حياة بنـى المظفـر شـهد حكومـة محمـود شـاه اينجو التى شملت بر وبحر فارس وكرمان ويزد وبعض نواحى العراق .

وعلى كل حال فإن سكوت الإيلخان أبـى سـعيد علـى توسـع محمـود شـاه اينجو فى فارس وخارجها بعد تصديق الأمير جوبان على استقلال هذا الأمير سـنة ٧٢٥هـ لا يخرج عن كونه امرًا مرحليًا يظل كامنًا إلى حين الخلاص من سطوته .

ومما ينهض دليلاً على رغبة الايلخان فى صرف بنى اينجوا عن ولايتهـم أنـه لم يتأخر لحظة فى إعادة الحكم إلى الأسرة الجوبانية بعد أن وجـد الظـروف مواتيـة لعزل محمود شاه(٣) ، جاعلاً بذلك أبناءه على النحو الذى كان عليه قبل استقلاله تابعين لبنى جوبان(٤) .

غير أن رغبة أبناء محمود شاه اينجو فى الحفاظ على ملـك أبيهـم حـال دون وصول الأمير بيرحسين الجوبانى إلى حكم فـارس ، وبـالذات بعـد أن علمـوا بنبـأ وفاة الإيلخان أبى سعيد ، مما جعل هـذا الأمـير يبحـث عـن وسيلة للإيقـاع بـين هؤلاء الأبناء أملاً فى تحقيق مآربه(٥) ، ووجد ضالته فى ذللـك النـزاع الـذى دب بين ولدى محمود شاه اينجو غياث الدين كيخسرو وجـلال الديـن مسـعود الـذى ترك الوزارة سنة ٧٣٨هـ آملاً الفوز بوراثة الحكم فى فارس .

---

(٢) انظر تاريخ كزيدة ، ص ٦٦٤ .

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، حـ ١ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٤) ابن بطوطة : المصدر نفسه والصفحة .

(٥) معين الدين زركوب الشيرازى : شيراز نامة ، ص ١٠٥ وما بعدها .

ومما دفع الأمير بير حسين الجوباني إلى العمل على مناهضة بني اينجو ذلك النزاع الذى نشب بشيراز بين أعوان جلال الدين مسعود بزعامة فخر الدين بيرك وغياث الدين كيخسرو والذى حسمه الأخير لصالحه سنة ٧٣٨هـ بعد عودة الأمير جلال الدين راغبًا فى القيام بأعباء الحكم .

على أن الأمير جلال الدين مسعود لم يرض بالهزيمة التى منى بها أعوانه ، واضطر إلى الإيقاع بأخيه غياث الدين كيخسرو وقبض عليه ، وما لبث غياث الدين أن توفى فى رجب سنة ٧٣٩هـ وانتهى الحكم فى شيراز إلى الأمير مسعود شاه الذى تفرغ لدرء الخطر الجوباني وبالذات بعد أن تحالف أخوه الأمير محمد شاه مع الأمير بير حسين(٦) .

انتهى النزاع بأن أوقع الأمير بير حسين الجوباني بجيش الأمير مسعود شاه فى سروستان بالقرب من شيراز ، وواصل الأمير الجوباني زحفه حتى دخل شيراز بعد هروب أميرها مسعود شاه(٧) حيث ظل بها تسعة وعشرين يومًا سالكًا نهجًا ظالمًا تجاه الأهالى ، واقدم على قتل الأمير محمد بن محمود اينجوا ليحول دون عودة بنى اينجوا لحكم فارس(٨) الأمر الذى أثار حنق الشيرازيين تجاهه بدافع عصبيتهم الإيرانية وحبهم لبنى اينجو

---

(٦) راجع معين الدين زركزب : شيراز نامة ، ص ١٠٤ و١٠٥ . وحسين ستوده : تاريخ آل مظفر ، حـ ٢ ، ص ٧٤ – ٧٨ . كان الأمير مسعود شاه قد أودع أخاه الأمير محمد شاه السجن حتى لا ينافسه فى تولى الحكم ، ولما أطلق سراحه هرب إلى الأمير بير حسين الجوباني حيث عاونه فى دخول شيراز (زركوب : المصدر نفسه ، ص ١٠٥) .

(٧) هرب إلى لورستان راجع زركوب : المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .

(٨) حافظ ابرو : ذيل جامع التواريخ ، ص ٢١٩ وما بعدها .

الذين اخلصوا لهم ، وهكذا هزم الشيرازيون جند الأمير بير حسين ، واستولوا على خزائنهم التى جمعوها من نواحى فارس ، ومكن ذلك كله الأمير مسعود شاه اينجو من تولى الحكم فى شيراز(٩) .

وأحدثت سياسة بنى اينجو التى عولت على استمالة أهالى فارس آثارها وظهر صداها بجلاء حينما عاد الأمير بير حسين الجوبانى مرة ثانية بجند كثيف ليثأر من أهل شيراز والحيلولة دون بقاء الأمير مسعود فى الحكم ، ذلك أن الشيرازيين رفعوا راية الحرب فى وجه الأمير بير حسين مرة أخرى(١٠) . سنة ٧٤١هـ فى وقت هرب فيه مسعود شاه للمرة الثانية إلى لورستان ، وصارت الحرب سجالاً بين الطرفين لمدة خمسين يومًا حتى انتهى الأمر بالصلح بينهما وابتعد الجيش الجوبانى عن بوابات شيراز ، وفرض الشيرازيون شروطهم بجعل الحكم فى حاضرة فارس نيابة عن الأمير بير حسين فى يدى رجلين وهما مولانا الأعظم شمس الدين صائن القاضى والصاحب السعيدظهيرالدين إبراهيم(١١)...وظل الأمر على تلك الحال عامًا وثمانية أشهر ، على أن النزاع الذى أوقع بين الأخوة المتخاصمين فى شيراز وعطل استقلالهم بفارس بعض الوقت قد واكبه فى الجانب الأخر تنافس شديد بين أمراء الجوبانيين المتنافسين حول اصفهان مما ألجا الأمير الجوبانى بير حسين إلى البحث عن حليف آخر يخلصه من سطوة أولاد عمومته الطامعين ومحاولات بنى اينجو الاستردادية ، فلجأ أخيرًا إلى الأمير مبارز الدين محمد المظفرى فمنحه كرمان ، وكان مبارز الدين آنذاك قويًا بجيشه ، فأعان الأمير

---

(٩) حافظ ابرو : ذيل جامع التواريخ ، ص ٢١٩ وما بعدها .

(١٠) راجع زركوب : شيراز نامة ، ص ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٧ .

(١١) حسين على ستوده : المراجع نفسه جـ ٢، ص ٧٤ – ٧٨ .

بيرحسين على تخليص شيراز من الأمير مسعود شاه اينجو بعد حصار دام خمسين يومًا(١٢) .

كان طبيعيًا أن يظهر من بنى اينجو فى ظل هذه الظروف التى أوقعت الخصومة بين الجوبانيين رجل يناهض من أجل استعادة شيراز وامتلاك نواحى فارس بعد أن غادرها الأمير مسعود شاه فى وقت نجح فيه الملك أشرف الجوبانى فى الإفلات من قبضة الأمير بير حسين(١٣) .

وجد الأمير شيخ أبو إسحق اينجو فرصته فى الإيقاع بين الجوبانيين "ملك أشرف" "والأمير بير حسين" فحالف الأول فى صور تمهيدية للوصول إلى حكم شيراز الذى غاب عن بنى اينجو وقتًا قصيرًا ، و لم ير غضاضة من إبرام عقد فى هذا الشأن(١٤) بدافع من كراهيته للأمير بير حسين الذى قتل أخاه شمس الدين محمد(١٥) .

على أن تلك الكراهية سرعان ما طويت فى ظل ظروف طارئة أوقعت بين الأميرين "بير حسين" و"مبارز الدين محمد" وجنى الأمير شيخ أبو إسحق ثمار هذا العداء ، إذ أسند له الأمير بير حسين سنة ٧٤٢هـ القيام بحكم اصفهان نكاية فى

---

(١٢) راجع حسين ستوده ، المرجع نفسه جـ٢ ، ص ٧٨ .

(١٣) كان الأمير بير حسين قد اوقع الهزيمة بغريمه الملك أشرف الجوبانى سنة ٧٤٣هـ ، غير أنه لم يجن ثمار انتصاره على آثر خروج جماعة من الثائرين عليه لنصرة الملك أشرف (زركوب المصدر نفسه ص ١٠٧ ، ١٠٨) .

(١٤) مما ساعد الأمير أبا إسحق على التحالف مع الملك أشرف الجوبانى ذلك العداء الذى نشب بين هذا الأخير وابن عمه الأمير بير حسين الجوبانى حول إقليم فارس (زركوب المصدر نفسه ص ١٠٥ وما بعدها) .

(١٥) حافظ ابرو : ذيل جامع التواريخ ، ص ٢١٩ وما بعدها .

آل مظفر ، وكسبًا لود بنى اينجوا(١٦) ، وهكذا حصل الأمير شيخ أبو إسحق على اصفهان لقمة صائغة دون قتال أو اعداد الأمر الذى أفسح له المجال لتوسيع رقعة ملكه .

غير أن الملك أشرف الجوبانى قد عدل عن سياسته التحالفية مع الأمير شيخ ابن إسحق بعد أن ساءه حصوله على اصفهان بتصديق من خصمه الأمير بير حسين الجوبانى ، ويطالعنا زركوب فى شيراز نامة بعبارات تفيد(١٧) بأن ملك أشرف قد تغير فجأة فى غرة ربيع الأول سنة ٧٤٣هـ - أى بعد حصول شيخ أبى إسحاق على اصفهان - ونقض الإتفاقية التى كان وقعها مع الملك جمال الدين شيخ أبى إسحق وبتحريض من وزراء المملكة(١٨) ، وأركان بلاطه وجيشه على نقض العهد وتصحيح الوضع واتفقوا جميعًا على طرد الأمير شيخ أبى إسحق من شيراز ليخلو لهم الجو....)(١٩) ومما يزيد من صدق ادراكنا فى شأن هذا التغير المفاجئ بين هذين الرجلين المتحالفين ، ما أقدم عليه جند ملك أشرف من سياسات غاشمة غوغائية للإيقاع بشيخ أبى إسحق إذ ذاك ، حيث (احدثوا مشاحنات بين جند الأمير شيخ أبى إسحق ، وغارات وهمية على معسكرهم متهمين جند أبى إسحق بالتخطيط لها بتحريض من أميرهم واتلفوا كل ما صادقوه من الممتلكات والمتعة والمواشى التى كانت ذات يوم زينة الحكم...)(٢٠) .

---

(١٦) حافظ ابرو : مصدر نفسه ، ص ٢١٩ وما بعدها .

(١٧) زركوب : شيراز نامة ، ص ١٠٨ .

(١٨) يعنى المملكة الإيلخانية .

(١٩) راجع زركوب : المصدر نفسه ، ص ١٠٨ .

(٢٠) زركوب : المصدر نفسه والصفحة .

ومهما يكن من أمر فإن الأمير شيخ أبا إسحق تمكن من دخول شيراز والإستيلاء عليها من يد ملك أشرف الجوبانى بمساعدة من أهلها الذين وقفوا مع بنى اينجو(٢١) ، واورد محمود الكتبى مؤرخ تاريخ آل مظفر أن الأمير شيخ أبا إسحق قد ثار على الملك أشرف (بتأييد من العامة ، وقتل منهم كثيرين ومزقهم شر ممزق)(٢٢) .

وكان الأمير جلال الدين مسعود شاه اينجو قد يمم وجهه شطر بغداد منذ سنة ٧٤١هـ قادمًا من كازرون(٢٣) طلبًا للمدد من شيخ حسن الكبير (بزرك) على أثر ذلك التحالف الذى وقع بين مبارز الدين محمد المظفرى وبير حسين الجوبانى بعد استيلاء الأخير على شيراز ، وكان الأمير مسعود اينجو يدرك تمامًا ما كان يقع بين شيخ حسن الكبير والأسرة الجوبانية الطامعة فى الإستحواز على فارس من تنافس ؟ لذا حالفه لتخليص شيراز من اطماع الجوبانيين(٢٤) .

كان من أثر ذلك التحالف أن استخلص شيخ حسن الكبير من القواد الجوبانيين قائدًا يدعى باغرباستى (أخو أشرف) حيث خرج المتحالفان سنة ٧٤٣هـ صوب شيراز فى وقت دخول شيخ أبى إسحق إليها على أن يقيم الطرفان حكومة مشتركة ، ينفرد بمقتضاها باغى باستى بالإمارة ومسعود شاه بالإدارة(٢٥) ولم ير شيخ أبو إسحق بدا من التنازل عن عرش شيراز راضيًا لأخيه الكبير مسعود

---

(٢١) زركزب : المصدر نفسه ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٢٢) محمود الكتبى : تاريخ آل مظفر ، ص ٦٣ .

(٢٣) مدينة بفارس ، عامرة ، حصينة ، تتميز باعتدالها وحصونها (القزوينى آثار البلاد ، ص ٢٤٤) .

(٢٤) زركوب : المصدر نفسه ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٢٥) زركوب : المصدر نفسه ، ص ١١٣ .

مما قيل أن باغى باستى قد اتخذ من صحراء جفر آباد مقر ا لوضع الخيام الأميرية والقصر.

شاه(٢٦) ، غير أن باغى باستى أبدى غضبه ازاء هذا التنازل لما انطوى عليه من خطورة تحول دون قيامه بإمارة شيراز واقبل فى شعبان سنة ٧٤٣هـ على قتل الأمير مسعود شاه مما أثار حنق الشيرازيين عامتهم وخاصتهم(٢٧) .

طالب الأمير شيخ أبو إسحق بدم أخيه مسعود شاه ، ودارت معركة رهيبة بين جنده وجيش باغى باستى كان النصر فيها حليف شيخ أبى إسحق وهرب باغى باستى إلى اذربيجان مما يسر السبيل أمام شيخ أبى إسحق للإنفراد بحكم شيراز وفارس .

حاول الجوبانيون استعادة شيراز ، فعادوا إليها بجيش تحت أمره كل من الأمير باغى باستى وملكِ أشرف الجوبانيين(٢٨) ، غير أنهما سرعان ما غادرا من

---

(٢٦) لين بول : الدول الإسلامية ، ص ٤٩٨ - أحمد سعيد سليمان - تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ص ٥٢٨ - ٥٢٩ .

(٢٧) زركوب : المصدر نفسه ، ص ١١٢ .

اخذ باغى باستى مسعود شاه على حين غرة منه بعد أن أعد له كمينًا وسلط عليه جماعة من أعوانه الحاقدين (زركوب : المصدر نفسه والصفحة) .

(٢٨) مما قيل أن باغى باستى تحالف مع ملك اشرف الجوبانى واغار على شيراز فى رجب سنة ٧٤٤هـ مرة ثانية للإنتقام من أبى إسحق اينجو ، فسلكا المتحالفان طريق ابرقوه لإخضاعها واتخاذها قاعدة ينطلقان منها إلى شيراز ، ونجحا بالفعل فى دخول ابرقوه حيث قاتلوا أهلها واوقدوا نار الفتنة ، غير أن الأهلين رجالاً ونساءًا شريفًا ووضيعًا وقفوا صفًا واحدًا، واقترنت هذه الأزمة بظهور جماعة ممن حفلوا بالسلب والنهب من الذين افسدوا فى المدينة وارهقوا أهلها ، وظل الأمر على تلك الحال حتى علم المهاجمون بنباء وفاة شيخ حسن كوجك بن جوبان الذى كان الحكم معقودًا عليه بعد وفاة الإيلخان أبى سعيد فعاد الجند الترك من حيث أتوا، وانتهى الأمر بعودة شيراز إلى شيخ أبى إسحق اينجو ومما ذكر أن الملك أشرف لما علم بنبأ وفاة أخيه الشيخ حسن كوجك سنة ٧٤٤هـ عول على العودة إلى اذربيجان (زركوب : المصدر نفسه ص ١١٧ - ١١٨ - حافظ ابرو : المصدر نفسه ، ص ٢٢١) .

حيث أتيا لعلمها بنبأ وفاة شيخ حسن ابن تيمور تاش بن جوبان المعروف بـ (حسن كوجك) زعيم الجوبانيين ، ومشير دولة الإيلخانيين بعد وفاة سلطانها أبى سعيد بهادرخان(٢٩) .

كان ارتداد الجوبانيين عن شيراز فى وقت وقف فيه أهالى فارس مدافعين عن تلك المدينة مهددين بذلك لعودة بنى اينجو لحكم فارس إعلانًا من قبلهم بالتخلى عن مملكة فارس لبنى اينجو فيما يؤكده محمود الكتبى(٣٠) . المعاصر من أنه عندما تخلى الملك اشرف عن هذه المملكة بزغ نجم الأمير شيخ (بقصد شيخ أبو لإسحق) وتجمع حوله جيش من جميع الأنحاء .

أخذ الأمير شيخ أبو إسحق يوطد نفوذه فى شيراز فلقب نفسه بالسطان ، وضرب السكة باسمه وأمر بذكر اسمه فى الخطبه(٣١) وتم له ما أراد .

ولما أعاد الأمير شيخ أبو إسحق الأمور إلى تصابها فى شيراز واستقرت أحواله بها ، أرسل مبعوثيه إلى كافة نواحى فارس ، فاطاعه أعيان(٣٢) اصفهان،

---

(٢٩) أورد حسين ستوده ، أن ملك اشرف لم يعد إلى اذربيجان الا بعد أن خلص شيخ أبا إسحق من أيدى اعدائه الأقوياء ، وبقصد بطبيعة الحال أن ملك اشرف الجوبانى مهد السبيل لعودة شيخ أبى إسحق إلى شيراز بعد أخذ قرار بالعودة إلى اذربيجان دون مواصلة القتال فى شيراز لعلمه بنبا وفاة شيخ حسن كوجك ؟ وخلصه بذلك من عدوه بأغربا ستى الذى كان من قبل عدوا مشتركًا لهما.

(راجع ستودة : تاريخ آل مظفر ، جـ ١ ، ص ٨٤) .

(٣٠) محمود الكتبى : تاريخ آل مظفر ، ص ٦٧ .

(٣١) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

(٣٢) حسين ستوده : المرجع نفسه ، جـ ١، ص ٨٤ .

وأرسل له قطب الدين تهمتن (٧٢١ - ٧٤٧هـ) حاكم جزيرة هرمز(٣٣) أموالاً كثيرة إظهارًا لتبعيته .

عول الأمير شيخ أبو إسحق اينجو على تنفيذ سياسته التوسعية على حساب آل مظفر المجاورين ، فأعد جيشًا قويًا لضم كرمان إلى ملكه(٣٤) لاعتقاده فى ملكيتها ملكًا وارثيًا ، وزحف فى صفر سنة ٧٤٥هـ(٣٥) صوب هذه المدينة مواجهًا كل ما قابله من مقاومة على الطريق ، ومخربًا كل ما صادفه من ديار حتى وصل إلى ظاهر سيرجان(٣٦) .

---

(٣٣) بضم أوله وسكون ثانية وضم الميم ، تقع على بر فارس وذكرها ياقوت على أنها فرضة كرمان ، وإليها ترفا المراكب ومنها تنتقل أمتعة الهند إلى كرمان وسجتستان وخراسان (معجم البلدان جـ ٨ ، ص ٤٦٠) .

(٣٤) محمود الكتبى: المصدر نفسه،ص ٦٧ - خواند امير حبيب السير جـ ٣ ص ٢٨٢.

كان للأموال التى جمعها الأمير شيخ أبو إسحق فى هرمز دور كبير فى الإعداد لغزو كرمان لما لهذه الناحية من صلة كبيرة بهذه الأخيرة وحول هذه الصلة انظر :

ARNOLD : The Persian Guif , P. 75 .

ميرخواند : روضة الصفا ، جـ ٤ ، ص ٤٦٩ .

(٣٥) ادعى شيخ أبو إسحق حكمها على اعتبار أنها كانت جزءا من أملاك أجداده ، لذا انتظر أن يعترف بحقه الأمير المظفرى مبارز الدين محمد ، لكن لم يطعه ، فعزم شيخ ابو إسحق على تسخير كرمان .

(ستوده المرجع نفسه جـ ١، ص٨٤) .

(٣٦) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص ٦٧ - فصيح بن أحمد خوانى مجمل التواريخ ، ص ٧٠ - خواند امير : حبيب السير ، جـ ٣ ، ص ٢٨٢ .

سيرجان : قصبة بلاد كرمان ، وتقع فى الجنوب الغربى من كرمان ، وإلى الشرق من شيراز حيث يفصل بينهما ثلاث مراحل (انظر القزوينى : المصدر نفسه ، ص ٢٠٤) .

حاصر الجيش الشيرازى بقيادة شيخ أبى إسحق اينجو سيرجان وأتى على أهلها فجأة فى فجر يوم جديد ، وأرغمهم على الاعتصام بقلعة سيرجان ، غير أن ابا إسحق لم يتعرض لهذه القلعة لمناعتها وارتفاعها(٣٧) وما لبث أن اتجه إلى كرمان(٣٨) وقبل وصوله إليها بخمسة عشر فرسخًا صادف جموعًا من الجنود من الأوغانيين والجرمانيين(٣٩) والأتباع كان قد جيشهم الأمير مبارز الدين محمد لمنعه دخول كرمان وكان من اثر ذلك أن أوجس شيخ أبو إسحق اينجو من سوء النتائج إذا ما استمر فى القتال وامتثل للصلح الذى سعى إليه بينهما الأمير ظهير الدين إبراهيم صواب ، وانتهى الأمر بأن عاد شيخ أبو إسحق إلى شيراز(٤٠)

---

(٣٧) محمود الكتبى : المصدر نفسه ص ٦٧ .

- فصيح ابن أحمد : مجمل التواريخ ، ص ٧٠ .

(٣٨) الكتبى : والمصدر نفسه ، ص ٦٧ - ستوده : المرجع نفسه جـ١ ، ص ٨٤ .

(٣٩) من طوائف وعشائر مغولية دخلت كرمان فى عهد سلطنة أرغون خان (٦٨٣ - ٦٩٠هـ) بدعوة من الزعيم القرخطائى سيور غتش لحماية هذه المدينة ، وكان أن صاهر آخر ملوك القرخطائيين هذه العشائر وانجب قتلغ مخدوم شاه ، وزوجها للأمير المظفرى مبارز الدين محمد مما افسح المجال لهذه الطوائف لاحتلال مكانة بارزة فى البلاط المظفرى ، على أن هذه العشائر المغولية لم يسلكوا فى حياتهم سياسة تتفق وقواعد الإسلام لبعدهم عن تعاليمه ، وافسدوا سائر النواحى المظفرية ، مما جعل الأمير مبارز الدين محمد يعول على استئصال شافتهم واخضاعهم لإرادته.

(خواندامير: حبيب السير، جـ ٣ ، ص ٢٨٣ ستوده: المرجع نفسه جـ١، ص ٨٧ ،٨٨).

(٤٠) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

حيث فوجئ برغبة الأمير ظهير الدين فى الإقامة عنده فاقبل عليه وقلده وزارته(٤١) .

على أن الرغبة فى ضم كرمان عند شيخ أبى إسحق اينجو ظلت تمارس فعاليتها حتى وجه شمس الدين صائن الذى خلف الأمير ظهير الدين فى الوزاره صوب كرمان متصورًا أنه بإمكانه تسخيرها فاشتبك هذا الأول مع الأمير مبارز الدين محمد فى معركة غير متكافئة ، وما لبث أن وقع قتيلا بعد أن منى بهزيمة منكرة(٤٢)، وهكذا أصبح العداء بين بنى اينجو وآل مظفر مستحكما من شأنه أن يجعل الحروب بينهما مستمرة دونما إنتهاء حتى يفوز فى النهاية من يحسمها لنفسه على حساب ضعف الآخر .

لم يكف الأمير شيخ أبو إسحق عن الاغارة على كرمان، فلما علم بمقتل وزيره شمس الدين وهزيمة جيشه سار بنفسه على رأس عدد كبير حتى بلغ مشارف كرمان، فنازله الأمير المظفرى، وقتل على أثر ذلك الأمير أبو بكر اختاجى بطل

---

(٤١) تدخل الأمير ظهير الدين إبراهيم فى الصلح بين هذين الجانبين اشارة من الأمير مبارز الدين لسابق معرفته بالشيخ أبى إسحق ، وكان ظهير الدين هذا من تابعى الأمير المظفر مبارز الدين وكان أن إذن له هذا الأخير بناء على طلبه للإقامة فى شيراز......حيث أسند إليه شيخ أبو إسحق القيام بأعباء الوزارة (حول الأمير ظهير الدين إبراهيم ، انظر محمود الكتبى المصدر السابق والصفحة / فصيح ابن أحمد : مجمل التواريخ ، ص ٦٢ - حافظ ابرو : ذيل جامع التواريخ ، ص ١٧٢ - ١٧٤ م خواندمير : حبيب السير ، جـ ٣ ، ص ٢٨٢ .

حسين ستوده : تاريخ آل مظفر ، جـ ١ ، ص ٨٤ .

(٤٢) قيل أن الأمير مبارز كان يقود فى هذه المعركة الفا وخمسمائه فارس واجه به جيشا يقوده شمس الدين قوامه الف من رحاله والفان من العشائر المفعوليه حرما واوغان وجمعا آخر من الأوباش (محمود الكتبى) : المصدر نفسه ، ص٧٠ .

جيش أبى إسحق(٤٣) مما دعا الأمير الشـيخ إلى السـعى من أجل الصلـح ، غـير أن الأمير المظفـرى رفـض مطلبـه ممـا دعـاه إلى الاغـارة فـى طريـق عودتـه علـى ممتلكات آل مظفر فدمر مهر يجرد احدى ضواحى يزد(٤٤) كما الحق الدمار بمدينة يزد(٤٥).

وسرعان ما عاد إلى شيراز بعد أن عجز عن اقتحام مدينة يزد لما ابداه الأمـير شرف الدين مظفر بن الأمير مبارز الدين محمد من بطولة حالت دون نجـاح الأمـير الشيخ فى تحقيق توسعاته فى أراضى بنى المظفر (٤٦).

أصبح شيخ أبو إسحق أمام عدوين خطيرين هما "بنو المظفـر" والجوبـانيون" الذين تزعمهم أشرف حاكم اذربيجان، وكان عليه ازاء هذه الفترة المضطربـة مـن حكمه أن يسلك سياسة هادفة تحقيقاً لاغراضه التوسعية فى كرمان ويزد مع اتخاذه ترتيبات واجراءات تكفل له درء خطر هذين اللدودين، وكان أن بدأ هذه المرحلـة باعلان رغبته فى عقد معاهدة صلح معهما تمهيداً للانفراد بكل طرف والايقاع به، وأتم بالفعل معاهدة سلام مع الأمير المظفرى(٤٧).

ظل الأمير الشيخ يتلمس الأسباب للايقـاع باعدائـه حتـى وجـد ضالتـه فـى خروج العشائر المفعوليه جرما وأوغان على طاعة الأمير المظفرى مبارز الدين الذى

---

(٤٣) محمود الكتبى : المصدر نفسه ص ٧٠ - ٧١ .

(٤٤) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص ٧١.

- ستوده : المرجع نفسه جـ١ ، ص ٨٥ .

(٤٥) محمود الكتبى : المصدر نفسه والصفحة.

- ميرخواند: روضة الصفا ، جـ٤، ص ٤٨٠ وما بعدها .

(٤٦) راجع حسين ستوده : المرجع نفسه جـ١ ، ص ٨٥و ٨٦ .

(٤٧) حسين ستوده : المرجع نفسه جـ١، ص ٨٦ .

ساءه ما دأبوا عليه من نشر الفساد وعصيانهم لاميرهم فى ظل الاوضاع المضطربه، فضلا عن تمسك جماعات منهم بالوثنية(٤٨).

استغاث كبار رجال الجرمانيين والأوغانيين بالأمير شيخ أبى إسحق لعلمهم بأن صداقته بالأمير مبارز الدين المظفر لم تكن إلا مرحلية من أجل التهدئة والتمهيد لدخول كرمان وأعلنوا تأييدهم له فى نزاعه حول هذه المدينة، وزينوا له أمر الاعداد لحملة فى هذا السبيل وتظاهر الأمير الشيخ بصداقته للأمير مبارز المظفرى - الذى دعاه إلى عدم التعاون مع هذه الجماعات تأكيد المعاهدة السلام بينهما - بأن أودع الوافدين عليه من جرما وأوغان فى السجون بشيراز على أن يتابع ذلك بجيش لتخليص كرمان من آل مظفر مدفوعا بما منى به أميرهم مبارز الدين من اضطراب(٤٩).

على أن الأمير مبارز الدين محمد سرعان ما أحيط بما يخفيه الأمير الشيخ، الأمر الذى دفع بهذا الأخير إلى اطلاق سراح كبار الجرمانيين والاوغانيين سنة ٧٤٨هـ متخذا قرارا بضرورة تسخير كرمان ، وبدأ مشروعه بأن أوفد قادة جيشه

(٤٨) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص ٧٣ وما بعده.

كان قيام الأمير المظفرى بإعلان الحرب على هذه الجماعات سببا فى تسميته بالملك الغازى .

(٤٩) محمود الكتبى : المصدر نفسه، ص ٧٥، ٧٦ وكان الأمير المظفرى مبارز الدين على دراية كاملة بهذه الاتصالات فاوفد مبعوثا للأمير الشيخ داعيا إياه بعدم التعاون مع هؤلاء المردة، فتظاهر الأخير بالاستجابة، وأرسل مع المبعوث هذا خمسة الآف فارس للوقوف بجانب الأمير مبارز الدين على أن ينضموا جميعا إلى جانب اعدائه عند نشوب القتال، وكان مبعوث الأمير مبارز ويدعى خواجه حاجى على دراية بهذه الحيلة ، فأطلع بها أميره مما حال دون نجاح خطة الأمير الشيخ (محمود الكتبى - المصدر نفسه ، ص ٧٥) .

ويدعى الأمير سلطان شاه جاندار على رأس ألفى فارس إلى كرمان(٥٠)، فى حين سار هو بجمعه الكبير نحو يزد، فدخلها دون منازع(٥١).

على أن الأمير مبارز الدين محمد لم يقف جامداً ازاء وقوع يزد فى حوزة الأمير شيخ ابى إسحق فسارع بإرسال ابنه شرف الدين المظفر للدفاع عن قلعة مبيد القريبة من يزد، والتى لم يكن الأمير الشيخ قد وصلها، ولما علم الأمير الشيخ بتحرك شرف الدين هذا عول على غزو مدينة مبيد، فاتجه إليها بجيشه ، ونزل عند أول منزل منها، لكن الأمير المظفرى أخذه عند طلوع فجر جديد على حين غفلة منه، وأسر سبعين من جنوده ، مما دعا شيخ أبا إسحق إلى مواصلة القتال على باب المدينة (مبيد) وسورها،وسرعان ما اقتحم جنده السور وزفوا البشرى بالنصر(٥٢).

لم تفت الهزيمة التى منى بها شرف الدين فى عضد الجيش المظفرى، وسرعان ما فاجأ هذا الأمير جموعا للأمير الشيخ فى ظاهر باب المدينة وأتى عليهم حتى أبعدهم عن انحاء مبيد مما أرغم الأمير الشيخ إلى ترك مواقعه وعاد حيث حارب الأمير شرف الدين على باب المدينة، وهناك جرى المصاف بين الجانبين ، وانتهى الأمر بعقد الصلح ، وعاد الأمير الشيخ إلى يزد(٥٣).

أما الأمير سلطان شاه جاندار فإنه اشتبك بعد وصوله إلى كرمان مع الأمير مبارز الدين محمد فى بضع معارك دون أن يحرز نصراً من أى نوع، وراسل الأمير شيخ أبا اسحق فى يزد لاطلاعه على حال جنده فى كرمان ، واضطر الأمير

---

(٥٠) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص ٧٦ وقيل أن الأمير الشيخ جبى الأموال من هرمز ومكران ليمد بها هذه العشائر (مير خواند : المصدر نفسه جـ٤، ص ٤٧٥ وما بعدها).

(٥١) محمود الكتبى : المصدر نفسه والصفحة .

(٥٢) محمود الكتبى : المصدر نفسه والصفحة .

(٥٣) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

الشيخ على أثر ذلك إلى طلب الصلح مرة ثانية مع الأمير مبارز الدين محمد، واوفد فى طلب هذا الصلح مبعوثية السيد صدر الدين المجتبى وخواجه عماد الدين محمود ووافق الأمير المظفرى على اتفاقية صلح جديدة مع آل اينجو بعد محاولات كثيرة بذلها هذان المبعوثان(٥٤).

وكان من أثر ذلك كله أن لزم الجرماثيون والاوغانيون الطاعة والخضوع للأمير الدين محمد المظفرى(٥٥).

على أن نجاح آل مظفر فى ارغام الأمير الشيخ على الصلح والعودة إلى شيراز لم تنه كل محاولات بنى اينجو فى تسخير كرمان ويزد ، ففى سنة ٧٥١هـ وجد الأمير الشيخ فى خروج عناصر أخرى من جرما واوغان على طاعة أمراء بنى المظفر فى كرمان ويزد فرصة للعودة إلى كرمان وكان هؤلاء قد أعلنوا عصيانهم رغبة منهم فى نصرة بنى اينجو ازاء ذلك التحالف الذى أقدم عليه الأمير مبارز الدين محمد مع ملك أشرف الجوبانى فى محاولة للاستيلاء على بعض نواحى الأمير الشيخ بالعراق العجمى ، وحينئذ جرد الأمير شيخ أبو إسحق جملة بقيادة شاه سلطان جاندار إلى كرمان، فتعاون هذا بدوره مع العشائر المفعولية الثائرة(٥٦) على أن شاه سلطان ما لبث أن ابدى طاعته ودخل فى خدمة الأمير المظفرى مبارز الدين محمد بعد أن الحق بالعشائر "جرما واوغان " عدة هزائم أرغمتهم على طلب الصلح معه والامتثال لطاعته(٥٧).

---

(٥٤) محمود كتبى : المصدر نفسه والصفحة - ميرخوندا : روضة الصفا حـ٤ ، ص ٤٧٥ - ٤٧٩ .

(٥٥) حسين ستودة : تاريخ آل مظفر، حـ١ ، ص٨٨

(٥٦) محمود الكتبى المصدر نفسه ، ص ٧٨، ٧٩ .

(٥٧) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص ٧٩ .

لم ير الأمير شيخ أبو إسحق بدا ازاء قوة آل مظفر من شن عدة غارات على نواحى يزد وكرمان تعويضاً عما اصابه من ضعف ، ففى نفس السنة - سنة ٧٥١ هـ - شن حملة على يزد ، وفرض عليها حصارا استمر أربعة أشهر، قاس الناس فيها القحط والغلاء ، وضج أهالى المدينة ، وظل الأمر على تلك الحال حتى حل الشتاء ببرده فعاد الأمير الشيخ مضطراً إلى شيراز(٥٨).

وفى سنة ٧٥٣هـ استخلص الأمير شيخ أبو اسحق أحد المنشقين من قادة ملك أشرف الجوبانى ويدعى "بيك جكار" مكلفا اياه بالخروج مع ابن أخيه كيقباذ بن كيخسرو فى حملة عسكرية للاغارة على كرمان غير أن هذا الجيش سرعان ما أوقفه آل مظفر - الأمير مبارز الدين وولداه - قبل وصوله حيث كانوا مع بعض العشائر فى رفسنجان، وحاول الأمير " بيك " حيث إلتحم مع فريق من جند آل مظفر بصحراء "ينج انكشت" فى معركة قاسية انهزم فيها(٥٩).

كان طبيعياً أن يعد الأمير مبارز الدين عدته لمواجهة الأمير الشيخ بعد أن أرهقه من كثرة غاراته على كرمان ويزدفأزمع فى وقت أضمحل فيه سلطان بنى اينجو على ضم شيراز.

وصفوة القول أن بنى اينجو توسعوا فى الشرق الإسلامى منذ عهد شرف الدين محمود اينجو حتى شملت امارتهم معظم أنحاء فارس وكرمان غير أنهم سرعان ما اصابهم الضعف بعد وفاة هذا المؤسس ازاء ذلك التفنت الذى منيت به وحدة الأسرة ، لكنهم مع ذلك حافظوا رغم اطماع الطامعين على ملكهم فى فارس حتى تعرضوا لمخاطر الأمراء المجاورين - وبالذات بنى المظفر.

---

(٥٨) محمود الكتبى : المصدر نفسه، ص ٨٤ - ميرخواند: المصدر نفسه، جـ٤ ص٤٨٠ وما بعدها .

(٥٩) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص ٨٤ - ٨٦ - حافظ ابرو: المصدر نفسه، ص ١٨٢ .

سقوط إمارة بنى اينجو :

مما لا شك فيه أن التفكك الذى أصاب أسرة اينجو بعد وفاة المؤسس شرف الدين محمود قد جعل النظام السياسى عند بنى اينجو يحمل بين طياته بذور ضعفه، فالنزاع الذى نشب بين ولدى الأمير شرف الدين محمود "الأمير جلال الدين مسعود والأمير غياث الدين كيخسرو حول الانفراد بحكم شيراز يسر الظروف المناسبة أمام الجوبانيين منذ سنة ٧٣٨ هـ للسعى قدما نحو تحطيم الاستقلال الذى حققه شرف الدين محمود، وامدتنا المصادر المعاصرة بمعلومات تعكس بجلاء آثار هذا التدخل الجوبانى فى الشئون الداخلية بالنواحى المشمولة بحماية بنى اينجو وبالذات شيراز واصفهان لما اقترن به هذا التدخل من مشاكل اقصادية وأخرى اجتماعية اثقلت عزائم الأهلين واضعفت من صبرهم، ونذكر فى هذا السياق ما تعرضت له شيراز وشعبها من جراء تلك الغارات التى شنها بيرحسين الجوبانى حيث قاس الناس هول هذه الحروب وما سببته من كارثة ألمت بالشيرازيين من نفاذ الموارد الاساسية وقلة الموارد الغذائية، وما واكب ذلك كله من ظهور مردة الحروب من العامة ممن حفلوا بالسلب والنهب مما أفقد ميزانية بنى اينجو قدرتها على التحمل وتغطية النفقات(١).

لم يذهب الأمير شيخ أبو إسحق بعد توطيد نفوذه فى شيراز واصفهان سنة ٧٤٤هـ إلى التعمير وحماية الأهلين بخلق حياة مدنية مستقرة لكنه انصرف عن البناء فاخذ يمارس ضغوطه الحربية فى عمليات توسعية على حساب آل مظفر المجاورين فترة زمنية طويلة دونما اهتمام بأحوال رعيته وأنفق فى سبيل ذلك أموالا طائلة تغطية لمطالب جنوده، وبلغ به الأمر أن كان يأمر بجباية الأموال فى هذا السبيل من

---

(١) راجع زركوب : شيرازنامة، ص ١٠٥ .

خارج حاضرته من النـواحى التـى تميزت بـالثراء والخصـوبة ممـن وقعـت تحـت حمايتـه ، بل إنه كان يفرض ضرائب أخرى استثنائية لجذب العناصر الثـائرة فى النواحى المظفرية على النحـو الـذى سلكه تجاه العشـائر المفعولية جرما وأوغان حيث أمر أحد قادته سنة ٧٤٩هـ بجمـع الأموال مـن هرمز ومكـران ونقلها إلى كرمان لدفع هذه العناصر إلى الثورة على الأمـير المظفـرى مبـارز الديـن فضـلاً عما كـان ينعـم بـه مـن (التشـريفات والانعامـات) علـى ممثليهـم الفـارين إليه(٢)، دون أن يجنى من وراء ذلك نصرا أو عملا مرضيا يكفى مطالب فارس فى الداخل .

لا يخفى علينا أثار هذه المزاعم التى ابداها آخر أمراء بنى اينجـو مـن تدمـير للحياة العامة فى الداخل فضلا عن خراب خزائنه واقترن ذلك كله بتبـدل سياسته التى انحرفت مؤخرا بتأثير هزائمه المتلاحقة بعيدا عن الالتزام وقيم الاخلاق، وامدنا صاحب مطلع السعدين ومجمع البحرين(٣) بأن الأمير شيخ ابا إسـحق إنشـغل فـى أيامه الأخيرة بحياة اللهو (وحفلات العربـدة إلى ابعـد حـد" ، بـل أمتـد تأثـير هـذا التبدل إلى الحياة العامة فى شـيراز وألوانهـا الاجتماعيـة التـى انطـوت أنـذاك علـى اللهو، وشيوع المجون، وكثرة الملاهى(٤) وكان من أثر ذلـك كلـه أن أفتقـد تـأييد رعيته، وترحيب أهالى فـارس بحكمـه ، حتـى أصبـح مـن السـهل علـى هـؤلاء أن يفتحـوا أبوابهـم لآل مظفـر للخـروج ممـا هـم فيـه مـن حياة بعـدت عـن أحكـام الشرع(٥) ، الأمر الذى يعكس افتقاد الأمير الشيخ إلى أسباب القوة التى دفعت به

(٢) محمود الكتبى : المصدر نفسه، ص ٧٥ .

(٣) كمال الدين السمر قندى: مطلع السعدينى ، القسم الأول ص ٢٦٦.

(٤) كمال الدين السمرقندى: مطلع السعدينى ومجمع البحرين،القسم الأول، ص٢٦٩ .

(٥) كمال الدين السمرقندى: المصدر السابق والصفحة .

سنة ٧٤٤ هـ إلى استرداد ملك أبيه الأمير شرف الدين محمود بدافع من تأييد أهالى فارس وبالذات شيراز واصفهان .

وكان الأمير مبارز الدين محمد فى ذلك الوقت الذى أضمحل فيه سلطان بنى اينجو يوطد أساس حكومته، ويحصن قلاعه وظل على تلك الحال حتى استحكمت حلقات دولته، ولما بلغ ابناؤه نضوجا ملموسا فكر فى الاستيلاء على فارس وضمها إلى ممتلكاته(٦).

أتجه الأمير مبارز الدين محمد فى صفر سنة ٧٥٤ هـ على رأس حملة قوية صوب شيراز ودونما تلبية لمساعى أمير العارفين مولانا عضد الملة والدين عبد الرحمن الايجى الذى توسط فى طلب الصلح لنجدة الأمير شيخ أبى إسحق (٧).

نزل الأمير مبارز الدين محمد فى شبانكاره(٨) وأقام بها ثلاثة أيام ومنها واصل السير حتى بلغ فى أوائل صفر سنة ٧٥٤ هـ قريبا من شيراز حيث قابله

---

(٦) حسين ستوده: المرجع نفسه جـ ا ، ص ٩١، ٩٢ .

(٧) محمود الكتبى:المصدر نفسه ، ص ٨٧ - ميرخواند: المصدر نفسه، جـ٤، ص ٤٨٤.

(٨) شبانكاره : اسم يطلق على طائفة من جملة طوائف الكرد القاطنين فى اقليم فارس، وتقع مصايف هذه الناحية فى المنطقة الجبلية بين ميمند وفيروز آباد فى حين يقضى ابناؤها الشتاء فى حلكاة وصيمكان،وحكم ملوك هذه الطائفة ولاية شبانكارة فيما بين ٤٤٨-٧٥٦هـ،حيث أقاموا ولاية وراثية حتى وقعوا تحت سيطرة الأسرة المظفرية.

(لغت تامة دهمذا، العدد ١٤٥، ص ٢٠٥).

جمع الأمير الشيخ أعيان مملكته وشاورهم فيما ينبغى عمله ازاء محاولات آل مظفر لتسخير شيراز فاستحسن مولانا عبد الرحمن الايجى أمر الصلح ، فوافق الأمير شيخ، وانتقل هذا العالم إلى شيرحان حيث قابل الأمير شرف الدين المظفر وصحبة إلى صحراء ارزويه "ودشت بر" وهناك التقى بالأمير مبارز الدين محمد، وزين له أمر الصلح ، إلا أن الأمير المظفرى رفض تلبية طلبه لعدم ثقته فى الأمير الشيخ (محمود الكتبى: المصدر نفسه ، ص ٨٨، ٨٩- حسين ستوده: المرجع نفسه جـ١ ص ٩٢ .

شيخ أبو إسحق ، لكن الأخير سرعان ما عاد ادراجه وتحصن فى المدينة مما مكن خصمه من فرض حصار شديد الوطأة احاط به مدينة شيراز(٩) ولم ير الأمير المظفرى صعوبة فى الاستيلاء على هذه المدينة، وتفرغ من يعد ذلك إلى استخلاص قلعة سريند(١٠) بعد أن غدر به صاحبها مجد الدين السمرقندى الذى لم يحمد للأمير المظفرى إختياره للقيام بحراسة هذه القلعة وقيادتها وتقليده حكومة ولاية خفرك وانتهى الأمر بأن استولى الخوف والرعب على أهالى القلعة الذين سلموا أنفسهم ، وهرب مجد الدين إلى داخل شيراز(١١) .

ظل الأمير مبارز الدين محمد يواصل جهوده العسكرية لاستخلاص شيراز، فعاد إلى ظاهرها بعد استيلائه على قلعة سريند، وعلى بعد أربعة فراسخ من المدينة واجه قلعة سرخ حيث جعله الشاه شجاع يفرض حصارا عليها، واوقع هذا الأخير بجند الأمير الشيخ والمقيمين بالقلعة ، وغنم مغانم عظيمة قسمها بين جنوده(١٢) وكان من أثر هذا الانتصار أن شدد الأمير المظفرى حصاره لمدينة شيراز ستة أشهر قاس فيها الأهالى الضنك وقلة المخزون(١٣).

---

(٩) محمود الكتبى: المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

(١٠) نستخلص من كلام محمود الكتبى أن هذه القلعة تجاور مدينة شيراز، وأقيمت تحصينا لها، وكان فتحها بعد فتح شيراز واحتوى آل مظفر شيراز بالكلية بعد تسخيرهم لهذه القلعة (انظر تاريخ آل مظفر ص ٩٠) .

(١١) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص ٩٠، و٩١ .

(١٢) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص ٩١و ٩٢ .

(١٣) محمود الكتبى : المصدر السابق والصفحات .

وانظر – ميرخواند : المصدر نفسه جـ٤، ص ٤٨٤ .

ومما زاد الأمر صعوبة أن استمرار الحصار الذى فرضه آل مظفر على شيراز اقترن بخروج علماء شيراز على طاعة الأمير الشيخ لتبدل سياسته، واقدامه فى أيامه الأخيرة على مظاهر قبيحة استاء منها أهالى فارس .

ومن العلماء الذين خرجوا على طاعة الأمير الشيخ (مولانا عضد الدين الايجى " إذ ضاق ذرعا من طول الحصار والتمس من القائد فخر الدين الذى كان مسئولا عن بوابة كازرون أن يخرجه من المدينة، وتم له ما أراد ، وانتقل ليعمل فى خدمة الأمير مبارز الدين محمد(١٤).

وجاء استياء علماء شيراز هذا فى وقت كان الأمير ابو إسحق منشغلا بحفلات اللهو مما دفع أهالى المدينة لفتح الأبواب أمام الجيش المظفرى(١٥) واورد كمال الدين السمرقندى بأن أهالى شيراز ابتهجوا بانتصار الأمير مبارز الدين محمد المظفرى رغبة فى الخلاص من الأمير الشيخ الذى انحرف عن سيرته الطيبة، وفى ذلك يذكر (احتس وطيس القتال، وفى ذات اليوم دخل المارزى بسبب تواطئ البعض من بوابة"موردستان وارتفع إلىعناء السماءأصوات الطبول فىالمدينةابتهاجا بانتصار الأمير محمد المظفرى، فسأل الأمير شيخ أبو إسحاق، وهو فاقد الوعى من شدة السكر سبب تلك الجلية الضوضاء التى تزعجه فقالوا له إنها طبول الأمير محمد المظفرى فأجاب وهو فى تلك الحالة المتردية ، ألم يرحل هذا الرجل عن هذا المكان(١٦)، وأجاب بعبارات أخرى قائلا (أين هو الأن هذا الرجيل، حقا لقد أهدر عمره العالى(١٧).

---

(١٤) محمود الكتبى: المصدر نفسه، ص٩٢ .

(١٥) السمرقندى مطلع السعدين ومجمع البحرين القسم الأول ، ص٢٦٦ .

(١٦) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه والصفحة .

(١٧) حسين ستوده : المرجع نفسه جـ١ ، ص ٩٥ .

كما جاء استياء علماء شيراز - أيضا - مواكبا لحركة اضطهاد خاضها الأمير الشيخ ضد أعيان شيراز ومشاهيرها، ومن ذلك اقدامه على قتل حاجى ضراب أحد كبار سادات مدينة شيراز(١٨) وحاجى شمس الدين قائم مقام(١٩) رئيس منطقة "باغ نو"(٢٠) ، ومن ذلك أيضا أنه كان ينوى قتل ناصر الدين عمر(٢١)، أحد عظماء شيراز وكبار رجالها(٢٢).

ومما أثر بالسلب على مكانة شيخ أبى إسحق اينجو موت " حاجى قوام الدين حسن أحد كبار أعيان شيراز ومن المقربين لهذا الأمير ومما قيل أن شعب شيراز كان (يغض عينيه) عن تصرفات شيخ إبى إسحق مرضأة له، وكسبا لوده بسبب كثرة بذله وعطاياه(٢٣).

لم تفلح جهود شيخ أبن اسحق فى استمالة "الصاحب الاعظم ناصر الدين عمر الذى ما لبث تحت تأثير رغبته فى الانتقام من الأمير شيخ - لعلمه بقصده فى

---

(١٨) حسين ستوده: المرجع نفسه جـ١، ص ٩٤ .

(١٩) لفظة تشير إلى وظيفة يقوم بها شخص يحل محل شخص آخر وينجز أعماله، ويتصرف وكأنه صاحب العمل فى غيابه،معجم "فرهنك جديد" (المعجم الجديد)، ص١٠٥٨.

(٢٠) من نواحى شيراز، وهى لفظة مركبة فى الفارسية من جزءين باغ (بمعنى حديقة) ونو (بمعنى جديد) ومعناها العام الذى كان يطلق عليها فى عهد بنى اينجو الحديقة الجديدة .

(٢١) حسين ستودة : المرجع نفسه ، القسم الأول ، ص٩٦ .

(٢٢) كمال الدين المسرقندى : المصدر نفسه، القسم الأول ، ص ٢٦٦.

- ميرخواند : المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٩٠ .

(٢٣) حسين ستوده: المرجع نفسه جـ١ ص ٩٤ .

كان حاجى قوام الدين يشغل فى عهد بنى اينجو محصل الماليات الديوانية فى فارس، وكان يحصل كل يوم عشرة آلاف درهم، وكان نديما لشيخ إبى إسحق ومستشاره (ميرخواند: المصدر نفسه، جـ٤ ص٤٩٠) .

قتله أن فتح بوابة - بيضا - التى قام بحراستها أمام جند الأمير مبارز الدين، وهكذا استولى الجيش المظفرى فى شوال ٧٥٤ هـ على مدينة شيراز، وهرب الأمير الشيخ ميما وجهه شطر شولستان(٢٤).

وأمدنا كمال الدين السمرقندى بمعلومات تنهض دليلا على أن شعب شيراز كان راغبا فى الخلاص من الأمير شيخ أبى إسحق اينجو، وإن الصاحب الاعظم ناصر الدين عمر تزعم هذا الشعب مساهما فى احباط الأمير الشيخ للحيلولة دون قيامه باى بذل لحماية شيراز مبينا له بأن الصراع كان عسكريا وانتهى بانتصار الأمير مبارز الدين(٢٥).

ويظهر استياء شعب شيراز من الأمير الشيخ فى قيام المسئولين عن موردستان بتحرير رسالة على لسانه إلى الأمير مبارز الدين المظفرى يعدونه فيها بتسليم المدينة(٢٦). كما أن هذا الشعب لم ير بدا من الدخول فى طاعة الأمير

---

(٢٤) انظر كمال الدين السمر قندى: المصدر نفسه جـ١ ، ص٢٦٦ - ٢٦٧ شولستان يقصد بها بلاد الشول ، من توابع كازرون، وكان يقطنها طائفة "ممسنى" من عشائر اقليم فارس، وكان أن زارها الرحالة ابن بطوطة سنة ٧٣٠ هـ، واسلامها يرجع إلى سنة ٢٣هـ حين فتحها عثمان بن ابى العاص وشهدت هذه المنطقة فترة إصلاح وتعمير فى عهد الاتابك " حاولى (شاولى) أحد رجال دولة السلاجقة (ت ٥١٠هـ) أما "شول" فهى لفظة تشير إلى اسم طائفة مثل الكرد واللور من العشائر المقيمة فى فارس، وكانت هذه العشيرة تسكن لورستان فى أول الأمر، وظلت كذلك حتى حكم ابناؤها نصف لورستان حوالى سنة ٣٠٠هـ، وأشار ابن بطوطه أن عشيرة شول قطنت فى أيامه الطريق الموصل بين شيراز وكازرون. ابن بطوطة: المصدر نفسه جـ١، ص١٦٨ - لفت نامة دهخذا: العدد ١٦٩ ، ص ٧٦، ٧٧ - دائرة المعارف الإسلامية جـ١٣، ص ٤٤٢- ٤٤٦ .

(٢٥) كمال الدين السمرقندى:مطلع السعدين ومجمع البحرين، القسم الأول، ص ٢٦٦.

(٢٦) كمال الدين السمرقندى: المصدر السابق والصفحة .

المظفرى بعد أن سيطر تماما على المدينة وخضع له الأبطال الصناديد أمثال "بيكجكار" "و "كلوفخر الدين" (أى الرئيس فخر الدين) وغيرهما فضلا عن دخول كبار رجال امارة اينجو وبلاطها جميعا فى طاعته(٢٧).

ولم يغفل الأمير المظفرى أهمية ذلك الدور الذى أسهم به الأهلون وكبار الأعيان فى افساح الطريق لدخوله شيراز دون لاىء وعناء، بدليل أنه رفض دخول المدينة ما لم يأذن له الصاحب الأعظم ناصر الدين عمر(٢٨)، وبالفعل توجه ذلك الرجل إلى معسكره ورافقه عند دخول المدينة، حيث توجها لزيارة قبر الشيخ ابى شجاع الحسينى بن منصور(٢٩) إعلانا عن بدء عهد جديد سوف تشهده شيراز - ينطوى على الصلاح والعناية برموز الدين المخلصين .

وكان من بين مظاهر هذا الابتهاج الذى أبداه أهالى شيراز أن أقدم جماعة منهم على ابلاغ جند آل مظفر بالمكان الذى لاذبه على سهل بن الأمير الشيخ حيث كان يختفى بمنزل تاج الدين واعظ الشيرازى بعد هروب ابيه وسرعان ما فأجا الجند المكان ، وقبضوا على ابن الأمير الشيخ ومن معهم حيث (أمر بسجنه وثلاثة أشخاص آخرين من قادة جيش شيخ ابى اسحق(٣٠) وهم تاج الدين وفخر الدين ويك جكار(٣١).

---

(٢٧) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه والصفحة .

(٢٨) كمال الدين السمرقندى: مطلع السعدين ومجمع البحرين، القسم الأول ، ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٢٩) كان ابو شجاع حسين بن منصور من مشاهير مشايخ فارس، وتوفى سنة ٣١٥هـ.

(٣٠) خواندرزضة الصفا، جـ٤، ص ٤٩٢ .

(٣١) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه، القسم الأول ، ص ٢٦٨ - حسين ستوده: المرجع نفسه جـ١ ص٩٢ .

ومن الأدلة التى تؤكد إدراك الأمير المظفرى للدور الذى قام به الأعيان ورموز الدين فى تهيئة الظروف لدخوله شيراز أنه بمجرد استيلائه على هذه المدينة اعتنى بالعلماء والأدباء وسلك طريق العدل مع الناس، ورغبهم فى سماع الحديث والتفسير والفقه، واجتهد فى تنفيذ أوامر الشرع باتباع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ودفع الفسق والفجور حتى أن ظرفاء شيراز لقبوه بالمحتسب(٣٢).

ومما لا شك فيه أن مثل هذه السياسة الهادفة التى سلكها الأميرمبارز الدين محمد المظفرى تجاه شعب شيراز وعلمائه قد حالت دون نجاح شيخ ابى إسحق فى استرداد هذه المدينة، وكان أن ادرك هذا الأمير وهو فى قلعة سفير بطريق شولستان الصعوبة البالغة فى العودة إلى شيراز مما اضطره إلى طلب المساعده من الأمير حسن الكبير الجلايرى حاكم بغداد، ولقى استجابة منه، فأمده بحملة قوامها الف فارس تحت أمره حفيده "آق بوقا" وتحرك الجيش الجلايرى بعد أن انضم إليه الأمير الشيخ(٣٣) صوب شيراز، ولكنه لقى هزيمة قاسية أمام القائد المظفرى شاه شجاع فما كان من الأمير الشيخ إلا أن هرع إلى أصفهان طلبا للحماية، وعاد الأمير "آق بوقا" إلى بغداد(٣٤)، على حين حاصر الشاه شجاع قلعة سفير حتى استسلمت، ووضع عليها فرقة من الجيش المظفرى، وعول من بعد ذلك على التقدم إلى شيراز حيث قلده أبوه مبارز الدين حكومة كرمان(٣٥).

---

(٣٢) كمال الدين السمرقندى : المصدر نفسه القسم الأول ، ص ٢٦٩ .

(٣٣) كمال الدين اسمرقندى: للصدر نفسه القسم الأول ، ص ٢٦٧ .

(٣٤) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه القسم الأول ، ص ٢٦٧ .

(٣٥) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه القسم الأول ، ض ٢٦٨ .

على أن وقوع شيراز فى يد آل مظفر على هـذا النحـو دفـع بانصـار الأمـير الشيخ فى شولستان إلى مهاجمة شيراز مرة أخرى، فقصد آيتمور أحد امراء الأمـير الشيخ شولستان حيث إنضم إلى الأمير غياث الديـن منصـور صهـر الأمـير الشيخ وحاكم شولستان المطلق ، وقاما هذان الرجلان بنشر الاضطراب حيث كانا، ومـا لبثا أن انتقلا إلى شيراز سنة ٧٥٥هـ، وهناك سـاعدهم الرعـاع والأوبـاش والعـوام من الأهالى بفتح الأبواب الخارجية لشيراز متوهمـين أن ذلـك قـد ييسـر لهـم تـولى بعض الوظائف الكبرى والقيادية(٣٦)، فى وقت كان فيه شاه سلطان نـائب الأمـير المظفرى فى شيراز لاهيا معتمدا على سطوة حميه مبارز الديـن فضـلا عـن انهمـاك قادته وافراد جيشه فى اللهو والشراب، غير أن الأمير الشاه شجاع سارع بارسـال حملة عسكرية من كرمان واستولى علـى المدينـة(٣٧). كمـا نجـح الشـاه شـجاع - ايضا فى إيقاع الهزيمة بجيش قاده خواجه عماد الدين محمود الكرمانى بالاتفاق مـع الأمير سلغرشاه التركمانى ابن أخت الأمـير شيخ ابـى إسـحق عنـد وصولهمـا إلى شيراز بجمع كثير من الجرمانيين والاوغانيين فى محاولة أخيرة لاستردادها(٣٨)، كما لم تفلح جهود مجد الدين السرينىدى الذى تحصن بقلعة بهنـدر(٣٩)، إذ أدرك أنـه لا

---

(٣٦) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه القسم الأول ، ص٢٧١ .

(٣٧) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه القسم الأول ، ص ٢٧١ - ٢٧٣ .

- ميرخواند: المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٩٢ - ٩٤٥ .

(٣٨) معين الدين اليزدى: مواهب الهى: (تاريخ أسرة آل مظفر) ص ٢٦٢ .

(٣٩) قلعة بهندر: تقع شرقى شيراز، وتنطق بالفارسية بهندر (وبهندز)، وبالعربية بهنـدر وفهندر، واشتهرت هذه القلعة بأنها المكان الـذى يقـام فيـه القصـاص مـن النسـاء الفاحشـات الواجب قتلهن (لغت نامة دهخدا : العدد ٢٥، ص ٥٥٨).

قبل له بجند شاه سلطان ، فقدم نفسه فداء الخدمة الشاه شجاع بعد أن سلمه الذخائر والخزائن التى أودعها شيخ ابو إسحق فى داخل القعلة(٤٠).

لم ير الأمير مبارز محمد صعوبة فى اللحاق بالأمير شيخ ابى إسحق اينجو الذى كان آنذاك باصفهان بعيدا عن قبضة الجيش المظفرى راغبا فى توجيه ضربات لخصومه لاستعادة حاضرته.

اتخذ الأمير المظفرى مبارز الدين من شيراز قاعدة ينطلق منها لغزو اصفهان وتسخيرها والقبض على آخر امراء بنى اينجو، وقبل أن يعلن عن خوضه لهذه المرحلة الأخيرة أتخذ إجراءات مشددة لقمع عوام شيراز الذين أثاروا الشغب وحفلوا بالخروج على طاعة آل مظفر وعدائهم لهم، وحتى لا تنتقل عدواهم إلى بلاد الدولة المظفريه(٤١) أسند إلى الشاه شجاع القيام بوضع هذه الترتيبات.

شكل الشاه شجاع مجلسا للحرب لبحث أحوال عوام شيراز كما كلف - أيضاً - الأمير بيرحسين أحد كبار أمرائه لوأد الحركة المناهضة، واسترداد كل ما نهبه العوام ، فى حين تقدم بنفسه نحو بوابة اصطخر بشيراز، ودخل المدينة وشرع فى تنظيم شئونها وتعيين كبار الموظفين بها والاشراف على مباشرى الأعمال لزفع آثار العدوان والفتنه(٤٢)، وتعقب زعماء الفتنة حتى عثر على آيتمور المحرك الأول للمقاومة، فنكل به وأمر بقتله(٤٣) واوقع بالعناصر الثائرة من العوام عند بوابة كازرون حيث قاتلهم

---

(٤٠) حسين ستوده : المرجع نفسه، القسيم الأول ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٤١) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه، القسم الأول ، ص٢٧١ - ٢٧٣ .

(٤٢) كمال الدين السمرقندى : المصدر نفسه، القسم الأول ، ص ٢٧٣ .

(٤٣) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه ، ص ٢٧٣ .

بنفسه ممتطيا جواده مرة ومترجلا مرة أخرى، حتى بدد شملهم، وقتل جمعا غفيرا منهم، وكان أن جنى ثمار هذه الجهود، وهدأت الأحوال فى المدينة، - وبالذات- بعد أن قتل ناصر الدين عمر البقية الباقية من الرعناء والأوباش الذين اشتركوا فى الفتنة خلال عام ونصف(٤٤).

بدأ الأمير مبارز الدين محمد المظفرى مرحلته الأخيرة التى استهدفت غزو اصفهان بأن راسل الخليفة العباسى(٤٥) فى القاهرة مبايعا له ومطالبا إياه بالموافقة على ما بيده من أقاليم ، يزد وكرمان وفارس على أن يقوم هو نائبا عنه فى حكم هذه الولايات وما لبث أن توجه إلى اصفهان حيث كان يقيم الأمير شيخ ابو إسحق، وبينما هو مواصلا زحفه ادركه ممثل الخليفة العباس المعتضد با لله أبى بكر عند قرية "ماروانا"(٤٦) حيث البسه الخلعة واضعا عليها شعار العباسيين دليلا على اعتراف الخليفة بحكمه ، وسمح له بضرب السكة باسمه على أن تكون الخطبة باسم الخليفة أولا، ومبارز الدين من بعده(٤٧) وأكمل الأمير مبارز الدين زحفه نحو اصفهان حيث بلغها فى شتاء سنة ٧٥٥هـ، وفرض عليها حصارا لم يستمر طويلا بسبب الشتاء القارس، وعاد أدراجه إلى شيراز(٤٨)، ووجد الأمير

---

(٤٤) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه القسم الأول ، ص٣٧٣ .

(٤٥) حول صلاته بالخليفة العباسى ، انظر : كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه القسم الأول ، ص ٢٧٦ ميرخواند: المصدر نفسه، حـ٤، ص٤٩٥ - ٤٩٦ .

(٤٦) قرية قريبة من أصفهان وأوردها ياقوت الحموى على أنها ماروان " بفتح الراء والواو موضع بفارس . (انظر ياقوت : المصدر نفسه، حـ٧ ص ٣٦٢).

(٤٧) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه القسم الأول ، ص ٢٧٦و ٢٧٧.

(٤٨) محمود الكتبى: المصدر نفسه القسم الأول ، ص ١١٣ - ميرخواند المصدر نفسه، حـ٤ ص٤٩٥و٤٩٦ .

الشيخ فى ذلك كله فرصة للهروب إلى لورستان(٤٩) طلبا للمساعدة مـن الأتـابك نور الورد(٥٠).

وجه الأمير مبارز الدين فى ربيع سنة ٧٥٥هـ جيشاً تحت امرة الشاه شجاع لحصار أصفهان وفى الطريق تخلص هذا القائد من كـل المنـاوئين الذين اعـترضوا طريقه قرب قصر ملك اردشير "فى محاولة للدفاع عن مواطن الفرس(٥١) وسرعان ما واصل الشاه شجاع سيره حتى بلغ اصفهان واتم حصاره عليها فى وقـت كـان فيه الأمير الشيخ يتقدم لمنعه بمساعدة قوات الاتابك نور الورد حاكم لورستان مما جعل القائد المظفرى ينشغل بقتاله بعض الوقت حتى أتاه المدد من قبل الأمير مبارز الدين وحينئذ ارغم الجيش المظفرى نور الورد على العودة من حيث آتى، وشدد حصاره على أصفهان ضاربا بذلك كل محاولة للدفاع ابداها الأمير مير ميران أحـد قواد الأمير الشيخ، الذى سرعان ما أظهر طاعته لآل مظفر، ودخل فـى خدمـة الأمير مبارز الدين(٥٢).

---

(٤٩) ناحية فى أقليم فارس، ويطل عليها من الشمال كرمانشاه ومن الشرق جبال بروجرد، ومن الغرب العراق ومن الجنوب خوزستان، وتشمل هذه الناحية مناطق جبلية واودية عميقة منفصلة عن بعضها، ومن مدنها الهامة خرم آبـاد، أما اللـور فهى لفظة تشير إلى اسم طائفة بدوية من العشائر الايرانية التى تسكن المناطق الجبلية الواقعة فى جنوب غربى إيران الأمر الذى يكشف لجوء الأمير شيخ بدافع ايراتيتة إلى هذه المناطق، وتستخدم هـذه العشـائر اللهجة اللورية إحدى الشعب الهامة من اللهجات الإيرانية (لفت نامة دهمدا: العـدد ١٩٥ ص١١٩ - ١٢٠).

(٥٠) محمود الكتبى:المصدر نفسه ، ص ١١٣ - كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه، جـ ١ ، ص ٢٧٧ .

(٥١) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه، القسم الأول ، ص ٢٧٧ .

(٥٢) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه، القسم الأول ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

كان الأمير المظفرى بحاجة إلى التخلص من حاكم لورستان الذى تحالف مع الأمير الشيخ، وبشعوره بأنه صار عدوا مشتركاً لهذين الحليفين، فضلا عن رغبته فى التوسع على حساب خصومه انشغل بقتال بلاد اللور الكبرى، كما انشغل ايضاً بالسيطرة على العشائر المناوئه لسلطانه وبالذات- عشيرة هزارة شادى".

أما العشائر المفولية جرما واوغان ممن رغبوا فى تبوأ الوظائف الكبرى إذا ما استمر بنو اينجو فى الحكم، فقد حاولوا مرة أخرى مناهضة آل مظفر ، وازاء ذلك كله تعطلت عمليات فتح أصفهان فترة خاض إبانها آل مظفر حربا لا هواده فيها للخلاص من هذه الجماعات المناهضة.

على أن الأسباب التى دفعت بكل هذه الجماعات إلى مناهضة آل مظفر لم تكن واضحة كل الوضوح فى المصادر الفارسية ويمكن القول بأن الصلات الوطيدة التى ربطت تلك الجماعات ببنى اينجو تؤكد أن قسوة الإدارة المظفرية واستبدادها قد جعلت العشائر المفعولية تبحث عن حياة أفضل عند بنى اينجو الذين اجزلوا العطاء فى عهد الأمير شيخ أبى إسحق لكل من يبدى رغبته فى مناهضة آل مظفر.

أما زعماء عشيرة هزاره شادى فلم يكن أمامهم بطبيعة الحال سوى الخروج على طاعة آل مظفر الذين قضوا على الحكام الايرانيين من بنى اينجو وكانوا فى وقت يمثلون فيه جزءا كبيراً من جيش فارس قد أنفوا(٥٣) من الخضوع لقيادات تركيه وكان الأمير مبارز الدين يسعى تماما لدرالخطر الذى كان يشكله زعماء هذه العشيرة، فعمل على استمالتهم وبرغم عصيانهم وجه إليهم قائده مبارك شاه ناصحا اياه بأن يعاملهم بما ينطوى على الود واللين، إلا أن زعماء هذه العشيرة،

---

(٥٣) كمال الدين السمرقندى : المصدر نفسه، القسم الأول ، ص ٢٨٠ .

استمروا فى غيهم رافعين راية العصيان وارغموا القائد المظفرى على العودة إلى شيراز بعد أن أنزلوا به بالقرب من هذه المدينة هزيمة قاسية سنة ٧٥٦ هـ لكن الأمير مبارز الدين وجه إليهم صهره الأمير جلال الدين شاه سلطان الذى تقدم نحوهم وسار فى وادى النهر الكبير، حيث انقض عليهم فجأة والحق بهم هزيمة طاحنة فر على أثرها من نجى بنفسه، واستولى على أُموالهم وممتلكاتهم وعاد ادراجه إلى شيراز(٥٤).

لم يكن أمام الأمير مبارز الدين بعد أن استقرت الأحوال فى شيراز سوى التخلص من العناصر الثائرة من جرما واوغان ممن أحسوا بعدم جدوى الانضمام إلى آل مظفر الذين منعوهم من امتيازات وظيفية سعوا إليها كثيرا من قبل، ومن أجل ذلك واجههم الشاه شجاع بجيش قوى فيما بين كرمان وشيراز وانتصر عليهم فى ربيع الأول سنة ٧٥٧ هـ وعفى عنهم ، و عاد إلى كرمان فى رجب ليلحق بوالده الأمير مبارز فى شيراز بعد ترتيب جيشه(٥٥).

وبينما كان الأمير مبارز الدين المظفرى يقوم فى سنة ٧٥٧هـ بفتح لورستان(٥٦) جرد جيشا قويا بقيادة ابن اخته شاه سلطان لحصار أصفهان(٥٧) وكان شاه سلطان قد شدد حصاره حينما حل فصل الربيع حتى اضطربت أحوال اصفهان، وساءها القحط والغلاء، وكان الأمير شيخ ابو إسحق آنذاك مختبئا بداخل هذه المدينة، ولما علم أن حارس قلعة طبرك - بداخل المدينة - راسل القائد

---

(٥٤) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه، القسم الأول ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٥٥) كمال الدين السمرقندى: مطلع السعدين القسم الأول : ص٢١٣ و٢٨٤ .

(٥٦) حول جهود الأمير المظفرى فى فتح لورستان: انظر محمود الكتبى: المصدر نفسه ص ١١٤ - ١١٦ .

(٥٧) محمود الكتبى المصدر نفسه، ص١١٦.

شاه سلطان طالبا الأمان والدخول فى طاعته متعهداً بآداء مائة ألف دينار(٥٨)، لجأ إلى منزل مولانا نظام الدين أصيل شيخ الإسلام بالمدينة وافصح عن رغبته فى الخروج وصحبه أهله من اصفهان(٥٩).

ومما قيل أن اهالى اصفهان أوجسوا من سوء المصير ازاء بطش آل مظفر ، فخرجوا افواجا متلاطمة كالموج للنجاة بأرواحهم وتوجهوا إلى شاه سلطان يتضرعون له بالصفح عنهم، فاستقبلهم الأمير استقبالا حسنا وطيب خاطرهم(٦٠) وأحكم سيطرته على اصفهان.

لم ير شيخ ابو إسحق غضاضة بتأثير خوفه من بطش آل مظفر من تقديم بعض كنوزه إلى شاه سلطان، لكن مطلبه لم يحظ بالقبول وسرعان ما عين القائد المظفرى عيونا لتقصى أخباره والبحث عنه حتى دلوه على مكانه، وحينئذ اختار جمعاً من الثقاة حملوه إلى قلعة طبرك، ومنها اقتيد إلى شيراز(٦١). وأمام العلماء والقضاء وأكابر فارس اعترف الأمير الشيخ بأنه قد أصدر أمرا بقتل الأمير حاجى ضراب، فصدر الأمر بالقصاص واقتص منه الأبن الأصغر للأمير حاجى ويدعى "قطب الدين" فى جمادى أول سنة ٧٥٨هـ(٦٢). وبمقتل (٦٣) شيخ أبى إسحق سقطت أمارة اينجو فى فارس .

---

(٥٨) محمود الكتبى : المصدر نفسه ، ص١١٦.

(٥٩) حسين ستوده: المرجع نفسه، ص١٠٤و١٠٥ .

(٦٠) كمال الدين السمرقندى: المصدر نفسه القسم الأول ، ص٢٨٤.

(٦١) محمود الكتبى : المصدر نفسه، ص ١١٧ - ١١٨ .

(٦٢) محمود الكتبى: المصدر نفسه ، ص ١٨٨ - كمال الدين السمرقندى المصدر نفسه القسم الأول ، ٢٨٥ - ميرخواند: المصدر نفسه، جـ٤ ص٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٦٣) وحول قتله: انظر فصيحى بن أحمد : مجمل التواريخ ، ص ٨٨ .

والأمر الجدير بالملاحظة أن شيخ أبا إسحق عند دخول شيراز مقيدا لم يلـق تأنيبًا أو تعنيفا من قبل الأعلام والعلماء والأعيان الذين ابدوا عطفهم نحوه لما كـان له من أصل متين ينطوى على نبتة أصيلة قدمـت للديـن والعلـم فـى فـارس الكثـير والكثير، ولعل ما يثبت صحة ما ذهبنا إليه فى هذا المضمار إن الأبن الأكبر للأمـير حاجى ضراب رفض أن يقتص من الأمير شيخ ابى إسـحق قـائلا أن الأمـير الشـيخ كان عادلا سخيا ولا أقبل أن تمس يداى دمه مهما كان(٦٤) وقتلـه الابـن الأصغـر إرضاء للأمير مبارز، كما أن الشيرازيين حرصوا على أن يكون موضع دفنه فى قبـة أسفل مزار الشيخ الكبير"جليله"(٦٥).ظنا أن ذلك يناسب مكانته واصله الرفيع.

وصفوة القول أن امارة اينجو أخذت سبيلها إلى زوال على أثر تبدل سياسة آخر امرائها شيخ ابى إسـحق ممـا أطمـع فيهـا الطـامعين حتـى وقعـت فريسـة لآل مظفر، فى سنة ٧٥٨ هـ .

---

(٦٤) انظر ميرخواند: المصدر نفسه ، حـ٤، ص٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٦٥) معين الدين نظنزى: منتخب التواريخ ، ص ١٨٠ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية القديمة :

١ – ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ) :

كتاب الرحلة الأولى ، وقف على تهذيبه أحمد العوامى "ومحمد أحمد جاد المولى" جـ١ بولاق القاهرة ١٩٣٤ .

٢ – الدمشقى (شمس الدين):

كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر – دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

٣ – القزوينى (ت ٦٨٢ هـ):

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت .

٤ – المقدسى :

أحسن التقاسم فى معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربى، بيروت، سنة ١٩٨٧م.

٥ – محمود الكتبى (مؤرخ آل المظفر) :

تاريخ آل المظفر، ترجمة إلى العربية عن الفارسية، وعلق عليه ملك على التركى – القاهرة ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.

٦ – ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ):

معجم البلدان ، أجزاء ١، ٥، ٧،٨ ، القاهرة مطبعة السعادة : ١٩٠٦ م.

ثانيا : المصادر الفارسية القديمة :

٧ – زركوب (ابو العابرس معين الدين أحمد بن شهاب الدين ابن الخير زركوب الشيرازى : (عاصر بنى اينجو) شيراز نامة ، تحقيق الدكتور إسماعيل واعظ زادهن نشر المؤسسة الثقافية الايرانية طيران ١٣٥٠ هـ. ش.

٨ – حافظ ابرو (شهاب الدين عبد الله بن لطف الله الخواض):

ذيل جامع التواريخ. تحقيق بهمن كريس، ط طهران .

٩ – حمد الله مستوفى القزوينى (ت ٧٥٠ هـ) :

"تاريخ كزبدة" تحقيق عبد الحسين نوانى،نشر مكتبة أمير كبير طهران١٣٣٩هـ.ش.

١٠ - خواندمير (ت ٩٤٢ هـ):
حبيب السير فى أخبار افراد البشر،الجزء الثالث، طهران سنة ١٣٣٣ هـ. ش.
١١ - فصيحى بن أحمد (من مؤرخى القرن التاسع الهجرى) :
" مجمل التواريخ والقصص" تحقيق محمود فرخ: المجلد الأول مشهد ١٣٣٩هـ. ش .
١٢ - كمال الدين السمرقندى :
" كتاب مطلع السعدين ومجمع البحرين " تحقيق د/ عبد الحسين نوانى، القسم الأول حوادث ٧٠٣ - ٧٧٢هـ، تهران ١٣٥٣ . هـ - ش .
١٣ - معين الدين نظنزى " عاصر النصف الأول من القرن الهجرى التاسع ."
منتخب التواريخ " تحقيق زان أوين، نشر مكتبة الخيام، مطبعة حيدرى، طهران ١٣٣٦ هـ. ش .
١٤ - معين الدين اليزدى :
مواهب الهى (تاريخ أسرة المظفر) تحقيق سعيد نفيسى،طهران١٣٢٦ هـ. ش.
١٥ - ميرخواند (ت ٩٠٢ هـ):
كتاب روضة الصفا، الجزء الرابع ، طهران ١٣٩٢ هـ. ش .
ثالثا : المراجع العربية الحديثة :
١٦ - أحمد السعيد سليمان :
كتاب "تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة " الجزء الثانى نشر دار المعارف بمصره القاهرة ١٩٧٢ .
١٧ - آرثر أربرى :
" شيراز مدينة الأولياء والشعراء" ترجمة إلى العربية د/ سامى مكارم، نشر مكتبة لبنان بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين ، بيروت ١٩٦٧ .
١٨ - عباس إقبال :
" تاريخ إيران بعد الإسلام "
من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (٢٠٥/ ٨٢٠هـ) نقله عن الفارسية د/ محمد علاء الدين منصور، راجعه دكتور السباعى محمد السباعى، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة .

١٩ – عبد السلام عبد العزيز فهمى :

" تاريخ الدولة المغوليه فى إيران "دار المعارف القاهرة ١٩٨١ .

٢٠ – لين بول :

كتاب "الدول الإسلامية " مع اضافات بارتولد وخليل ادهم، نقله إلى العربية عن التركية محمد صبحى فرزات، واشرف على الترجمة محمد أحمد دهمان، مكتبة الدراسات الإسلامية بدمشق ، دمشق .

رابعاً : المراجع الفارسية الحديثة :

٢١ – حبيب الله شاملوش :

(تاريخ إيران) ازماد تابهلوى (من الميديين حتى الأسرة البهلوية) طهران ١٣٤٧ هـ. ش.

٢٢ – حسين على ستوده :

كتاب " تاريخ آل مظفر " جزء آن الأول نشر جامعة طهران رقم ١/ ١١٤٥ طهران ١٣٤٦ ه. س، والثانى نشر جامعة طهران رقم ٢/ ١١٤٥، طهران ١٣٤٧هـ. ش.

خامساً : الدوريات العربية والفارسية :

٢٣ – **دائرة المعارف الإسلامية** ، العدد ٤، ١٣، ١٤ نقلها إلى العربية محمد ثابت، وأحمد الشيناوى، وإبراهيم زكى خورشيد، وعبد الحميد يونس .

٢٤ – **لفت نامة وهذا (دائرة المعارف الإيرانية)** العدد ٢٥، ٣٧، ١٤٥، ١٥٧، ١٦٩، ١٧٢، ١٩٥.

٢٥ – **محمد معين** : حواش على معجم "برهان قاطع" الفارس الجزء الأول ط أولى ١٣٤١ هـ. ش.

سادسا : المراجع الأجنبية :

26 - Arnold : T. Wilson

The Persian Gulf " - An Historical Sketch From the Earliest Times to the Begining of the twentieth century - with a fowered by the Right hon L, s, Amery, P, c. (London).

27 - Howorth : sir H.

History of The mongols vol III (London 1988).

أضواء جديدة على تاريخ بلغاريا تحت الحكم البيزنطي

(١٠١٨ - ١٠٩٧م)

دكتورة ليلى عبد الجواد اسماعيل

كلية الآداب - جامعة القاهرة

نجح الأمبراطور البيزنطى باسل الثانى(٩٧٦ - ١٠٢٥م) فى توجيه العديد من الضربات العنيفة للبلغار خلال عامى(١٠١٤ - ١٠١٦م) وتوج انتصاراته عليهم فى عام ١٠١٨م بدخول العاصمة البلغارية مدينة أوخريدا Ochrida(١)، وإخضاع أفراد الأسرة البلغارية الحاكمة(٢). وبخضوع بلغاريا للسيطرة البيزنطية عادت شبه جزيرة البلقان بأكملها إلى حوزة الدولة البيزنطية،وأصبحت جزءاً لايتجزأ منها ، وعادت حدودها تمتد من جديد من الدنواب شمالاً وحتى بلجراد(٣) جنوباً.

---

(١) تقع مدينة اوخريدا على بحيرة اوخريدا ، ولهذه المدينة أهمية خاصة لأنها تقع على الطريق الرومانى القديم المعروف باسم طريق احناتيا Via Egnatia الذى يمتد من سالونيك وحتى دورازو على بحر الادرياتيك . انظر السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٦٤٨،

Browning . R, Byzantium and Bulgaria, London 1975.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن دخول باسل الثانى أوخريدا واخضاعه للبلغار انظر ،

Cedrenus. G, Historiarum Compendium , in C.S.H.B, T. Ater, pp. 457 - 476, Scylitzes, Excerpta EX Breviario Historico in Cedrenus , in C.S.H.B, Bonnae 1849, pp.642 - 744. , Micheal Glycas, Annales, in C.S.H.B, Bonnae 1836, pp. 577- 81, Browning, Byzantium, pp. 74 - 75-, Todorov, Bulgaria. pp. 41 - 44, Brehier, Vie et Mort de Byzance, Paris 1947, pp. 227 - 232.

وسام عبد العزيز فرج ، الإمبراطور باسل الثانى سفاح البلغار (٩٧٦ - ١٠٢٥م) بحث منشور فى مجلة التاريخ الإسلامى والوسيط ، العدد الأول القاهرة ١٩٨٢م ، ص ١٧٨ وما يليها.

(٣) عن مدينة بلجراد انظر : Browning, Byzantium, pp. 98 - 99

ومن الجدير بالذكر أن فترة خضوع بلغاريا للسيطرة البيزنطية تمتد بين عامى ١٠١٨ - ١١٨٥م، إلا أن هذا البحث لا يغطى هـذه الفـترة الطويلـة بـل يتوقـف عند عام ١٠٩٧م بالتحديد لأنه يمثل وصول حملات الأمراء الصليبيين إلى الأراضى البلغارية ، وما أحدثه الصليبيون بهذه الأراضى من سلب ونهب وموقف السـادة البيزنطيين من ذلك ، ودور البلغار فى التصدى لهذه الحملات.

لم يحاول باسل الثانى أن يفـرض علـى بلغاريـا نظـام الحكـم البـيزنطى بعـد اخضاعها للسيطرة البيزنطية، بل أمر بأن يحكم البلغار قادة منهم ووفقـاً لتقـاليدهم وعاداتهم التى كانت سائدة أيام ملكهم وحـاكمهم صمويـل كمـا يذكـر المؤرخ البيزنطى سكيليتزيس Scylitzes(٤).

وقد عرض المؤرخ يحيى بن سعيد الأنطاكى لطبيعـة النظـام الإدارى الـذى وضعه باسل الثانى للبلغار على النحو التالى: "أنه فـى شـوال سنة ثمـان وأربعمائة (مارس ١٠١٨م) سار الملـك (أى باسـل) إلى البلغريـة، واستقبله جماعـة الرؤسـاء بها... وتسلم حصونهم، وأحسن اليهم ، ورتب كل واحد منهم علـى مـا يقضيـه استحقاقه، واستبقى الحصـون المنيعـة، وولى عليهـا ولاة مـن الـروم ، وأخـرب ماسواها، وأصلح أمور البلغرية ، وقرر فيها باسيليقيه وهم المتولون جميـع الأعمـال والأمور، وصارت مملكة البلغر مضافة إلى مملكة الروم، وجعلها قطبانية..."(٥)

---

(٤) Scylitzae, Ioannis, Excerpta EX Breviario Historia, pp. 714 - 15.

وانظر أيضاً :

Voynov. M, L. Panayotov, Documents and Materials on the History of the Bulgarian People, Sofia 1969, p. 38.

(٥) يحيى بن سعيد الأنطاكى ، تاريخ يحيى بن سعيد فى كتاب التـاريخ المجمـوع علـى التحقيـق والتصديـق ، للبطريـرك سـعيد بـن بطريـق ، بـيروت ١٩٥٠م ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وكلمة قطبانية مأخوذه من لقب كاتبان Catepan وهو لقب يطلق على الحـاكم البـيزنطى فـى الأقاليم البلغارية وكان يجمع بين السلطتين الإدارية والعسكرية انظر ما يلى .

ويمكن أن نلخص النظام الذى وضعه باسل لإدارة شئون البلغار من خلال عبارات يحيى بن سعيد على النحو التالى:

أولاً : أن باسل أحسن معاملة رؤساء البلغار أى الاستقراطية البلغارية، بل ويذكر الباحثون أنه حرص على استمالتهم له وذلك بما بذله لهم من الرتب والالقاب والوظائف والمناصب ليس فى بلغاريا وحدها بل وفى البلاط الإمبراطورى مما شجع الكثيرين منهم على الذهاب إلى القسطنطينية(٦) .

ثانياً : أن باسل بعد أن تسلم الحصون من رؤساء البلغار، استبقى المنيعة منها، واكتفى بوضع حاميات فيها، وعين عليها ولاة من البيزنطيين، أما الحصون الأخرى فقد قام بتخريبها خوفاً من أن تتخذ مواضع للتمرد والفتن.

ثالثاً: أن باسل جعل لبلغاريا - تلك البلاد الشاسعة التى تمتد بين الدانوب والبلقان وأعالى مقدونيا - حكومة خاصة ذات طابع عسكرى، وظهر ذلك من خلال عبارة ابن سعيد وجعلها قطبانية للدلالة على الصفة العسكرية لتلك الحكومة، وعلى أن حكام بلغاريا من البيزنطيين كانوا حكاماً عسكريين(٧) .

وقد اتضح من خلال دراسة اختام الموظفين البيزنطيين المحليين فى الأقاليم البلغارية الخاضعة للدولة البيزنطية أن الحاكم البيزنطى لتلك الأقاليم كان يحمل لقب كاتبان Catepan، أو قطبان كما كان يسميه يحيى بن سعيد، وأن موظفى بيزنطه فى بلغاريا كانوا موظفين عسكريين عاديين ولهم صفة الخصوصية، ولكنهم

---

(6) Nevill, Forbes, Toynbee. Thhe Balkans, p. 39, Banescu, "Les Premiers Temoignages Byzantins sur les Roumains du Bas - Danube" dans Byzantinisch Neugrie Chische Jahrbucher, 1922. Band III, p. 289.

السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٦٥٥ ، ٦٥٧ .

(٧) انظر : Brehier, Vie et Mort de Byzance, p. 232,

السيد الباز االعرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٦٥٧ .

لم يحملوا رتبة الاستراتيجوس كما كان الحال فى سائر الأقاليم الأخرى التابعة للدولة البيزنطية؛ بل حازوا ألقابا منها Pronetes أو Proveditеur أو Preteur (وتعنى الذين يسهرون على أمور البلاد)وهى رتبة مدنية وإدارية. ويتضح من ذلك أن حكام بيزنطة فى بلغاريا كانوا يجمعون بين السلطتين المدنية والعسكرية(٨).

وتجدر الإشارة إلى أن أول حاكم بيزنطى أرسله باسل الثانى لحكم بلاد البلغار بعد اخضاعها كان يدعى قسطنطين ديوجينيس Constantin Diogenes وجعل مقره فى مدينة سيريم Sirmium(٩).

أما فيما يتعلق بنظام القضاء والضرائب فقد قدر باسل الثانى أيضاً ظروف بلغاريا وعادات أهلها واساليبهم فاعفاهم من الالتزام بدفع الضرائب نقداً وذهبا كما كان مفروضاً على سائر أجزاء الدولة البيزنطية؛ وطلب منهم أن يدفعوها عينا، فكانت ضريبة الأرض تؤخذ من بلغاريا فى بدايات القرن الحادى عشر - أى فى عهد باسل الثانى - قمحاً أو شعيراً أو نبيذاً(١٠) .

وحافظ باسل الثانى أيضاً على النظم البلغارية فيما يختص بضريبة الغلال التى كان يؤديها أصحاب الضياع وكانت عبارة عن زوجين من الثيران(١١).

---

(8) Banescu, "Sceaux Byzantin Trouves a Silistrie" Dans Byzantion 1932, Vol VII, p. 289, Pericle Papahagi," Sceaux de Plomb byzantins inedits trouves a Silistrie" dans Revue Historique de Sud - Est European , vol VIII 1931. p.311., Banescu, Les premirers Temoignages , p. 291., Wolff "The Second Bulgarian Empire,Its origin and History to 1204" in Speculum, Vo. XXIV (1949)pp.173, 175.

(9) Cedrenus, Historiarum Compendium, T. II, p. 476., Banescu , Les Premiers temoignages, p. 289.

وتقع سيريم فى اقليم بانونيا وعلى امتداد نهر الساف انظر الخريطة .

(10) Ostrogorsky, History of the Byzantine state, New Jersay, 1957, pp.275 - 76., Browning, Byzantium, p. 8.

(11) Brehier, Vie et Mort, p. 233.

وامتـدت يد باسل الثـانى إلى الإصلاح الدينى ، ويتضـح ذلك من خلال المرسوم الذى أصـدره الأمبراطور ميخائيل الثـامن باليـولوجوس (١٢٦١ - ١٢٨١م) والذى يحتوى على قائمة باسماء الاساقفة. وظهر من خلال هذا المرسـوم أن باسل ألغى منصب البطريرك البلغارى وأحل محله منصب رئيس الأسـاقفة ، وأن مقره هو مدينة اوخريدا وأنه أمسى منصباً كبيراً(١٢). ومنح صاحبه العديد من الامتيازات وقد ظهر ذلك من خلال المرسوم الأول الذى أصدره الإمبراطور باسل الثانى فى عام ١٠١٩م وقد جاء فيـه: أن الراهب التقى يوحنا Ioan(١٣) يصبح رئيساً لأساقفة بلغاريا، وسيداً على جميع رؤساء الاساقفة، بل يخضع له جميع اساقفة البلاد التى تقع فى دائرة اسقفيته وهى أوخريدا Ochrida،وبرسيبا Prespa، وموكرو Mokro وغيرها من الأسقفيات التى تقع فى الأراضـى البلغارية والتى لم يرد ذكرها فى هذا المرسوم(١٤).وقد قدر ميلر Miller عددها بثلاثين أسقفية(١٥) .

وحصل رئيس أساقفة اوخريدا أيضاً على عدد من الحقوق السياسية والماليـة وقد اتضـح ذلـك مـن المرسـوم الثـانى الـذى أصـدره الإمـبراطور باسـل فـى مـايو ١٠٢٠م والذى تضمن أنه على جميع حكـام بلغاريـا العسـكريين وجميـع الموظفـين المدنيـين أن يدينـوا لـه بالطاعـة، ويقدمـوا لـه فـروض الـولاء، ويسـتمعوا لنصحـه

---

(١٢) انظر : Wolff, The Second Bulgarian Empire, p. 173.

(١٣) هو يوحنا كومنين Ioannus Comnenus ومن المحتمل أنه كان بلغارياً من إحدى قرى مدينة Debur البلغارية ، وقد عمل قساً فى دير العذراء المقدسة هناك . لمزيد من التفـاصيل انظر : Voynov, Documents and Materials, p. 17, note. 29.

(١٤) عن نص هذا المرسوم انظر : Voynov , Documents and Materials,p.17.

(15) Miller, "The rise and fall of the first Bulgarian Empire (679 - 1018) In Cam. Med . Hist . Vol. , p.243.,. الباز ، الدولة البيزنطية ، ص ٦٥٨

وإرشاده ، وتقرر أيضًا وفقًا لهذا المرسوم أن الامبراطور هو الذى يمنحه هذه السلطة وهو الذى يعينه بنفسه، كما تقرر اعفاء رجال الكنيسة البلغارية من ضرائب الحكومة البيزنطية(١٦) .

ويتبين من مرسوم باسل هذا أن الإمبراطور احتفظ لنفسه بحق تعيين بطريرك بلغاريا فى منصبه، وذلك ليكون اداة طيعة له، فهو يخضع للأمبراطور مباشرة وليس لبطريرك القسطنطينية، وهذا يعنى أن رئيس اساقفة بلغاريا أصبح يحتل منصباً ومركزاً أعلى فى الكنيسة البيزنطية عن غيره من رجال الدين الذين كانوا يدينون بالتبعية لبطريرك القسطنطينية(١٧) .

وحرص باسل الثانى أيضاً على تقوية الروابط الاجتماعية بين البلغار والبيزنطيين، فربط بينهما برباط المصاهرة، وفى هذا الصدد يذكر يحيى بن سعيد الانطاكى: "وزوج بنات البلغر أولاد الروم، وبنات الروم إلى بنى البلغر وخلطهم بهم، وأزال بذلك الضغائن القديمة التى بينهم" (١٨) .كذلك ساوى بين البيزنطيين والبلغار فجعل للبيزنطيين الحق فى الاقامة والاستيطان فى بلغاريا واستغلالها، ومنح البلغار نفس الحق(١٩) .

ويدل هذا على أن الشعب البلغارى لم يشعر بتغير كبير أو تحول خطير فى حياته بعد أن أخضعه باسل الثانى وذلك لأن الأخير راعى ظروف البلد المفتوح وعادات أهله وتقاليدهم ولهذا فإن السنوات الأولى للفتح البيزنطى كانت سلاماً

---

(١٦) انظر نص المرسوم الثانى لباسل فى : Voynov, Documents, pp. 18 - 19.

(١٧) انظر : Ostrogorsky, History of the Bazantine, p.276., Miller, The Balkans, Roumania. Bulgaria, p. 161., Obolensky, The Byzantine Commonwealth, Eastern Europe 500 - 1453, London 1971., p.210.

(١٨) يحيى بن سعيد الأنطاكى ، ص ٢١٧ .

(19) Nevill, Forbes, Toynbee, The Balkans, p.39.

دائماً، وذلك لأن البلغــار سئموا الحـروب المستمرة مـع بيزنطـه وتـاقت انفسـهم للسلام كما أن حكم الإمبراطور باسل كان قوياً(٢٠) .

ولكن بعد وفاة باسل فى عام ١٠٢٥م اختلت الحكومة البيزنطية ، وتطـرق الضعف والانحلال إليها(٢١) مما شجع اعدائها على الإغارة على حدودها الشمالية عند الدانوب خاصة البجناك (البشناق)(٢٢) الذين اصبحوا جيراناً مباشرين لبيزنطـه بعد اخضاعها لبلغاريا، ووقعت بلغاريا فريسة لهجماتهم حيث أغاروا عليها وقاموا بعمليات السلب والنهب، مما دفع الأمبراطور قسطنطين الثـامن Constantin VIII (١٠٢٦- ١٠٢٧م) خليفـة باسـل الثـانى- إلى التنبـه لأهميـة هـذا الحـد وجعلـه فى دفاع دائم لإنقاذ سكانه من ناحية ، وحماية العاصمة البيزنطية من ناحية أخرى، لذلـك قـام بتحويـل بلغاريـا الشـرقية بصفــة خاصــة إلى دوقيــة عرفــت باســم باريسـتريون Paristrion وأحيانـاً تسـمى بــ Paradounavis وتعنى دوقيـة الحــد البيزنطى Duche Frontiere Byzantin(٢٣).

---

(20) Todorov, Bulgaria, p. 44.

(٢١) عن أحوال الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة باسـل الثـانى انظـر : حسـنين محمـد ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٦٣ وما يليها .

(٢٢) البجناك Patzinaks شعب بدوى من أصـل تركـى ، سـكن السـهول الجنوبيـة لروسيا ونزل فى القرن التاسع للميلاد بالجهات الواقعة شمـال نهـر الدانـوب ، وبسـط سـلطانه على الأراضى الممتدة من الدانوب الأدنى وحتى الدينبير ، ثم اصبح جاراً مباشـراً لبيزنطـه بعـد اخضاعها للبلغار. لمزيد من التفاصيل انظـر : قسـطنطين السـابع ، إدارة الإمبراطوريـة ، ترجمـة وتعليق محمود سعيد عمران ، بيروت ١٩٨٠، ص٥٣ - ٥٧ ، ١٣٥ - ١٣٦، عبد الغنى عبـد العاطى ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٣٢ ، هامش ١١٧ .

Obolensky, The Byzantine, pp. 278 - 79.

(23) Banescu, "Apropos des Duches, Byzantins de Paristrion et de Bulgarie" dans Revue Historique du Sud - Est Europeen (1926) p. 322. Banescu, Les Premiers temoignages, p. 291 .

وقد جعل الإمبراطور قسطنطين الثامن لهذه الدوقية نظاماً خاصاً ، وعين لها حاكماً مستقلاً بلقب دوق Dux ، أما حكام المناطق التابعة لإشراف الدوق فقد اتخذوا لقب كاتبان Catepan ؛ وتشمل هذه الدوقية الجزء الشرقى من بلغاريا والذى يمتد على طول الدانوب الأدنى وحتى جبال البلقان(٢٤) . ومركز هذه الدوقية فى مدينة سيليستريا Silistria أو Dristro(٢٥) وكان قسطنطين ديوجينيس Constantin Diogenes- الذى سبق أن عينه الإمبراطور باسل الثانى حاكماً عامًا على بلغاريا - هو أول من شغل منصب دوق باريستريون ؛ ثم خلفه Jean Triacontaphyll فى هذا المنصب من قبل الإمبراطور رومانوس الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤م) بعد أن نقل قسطنطين إلى سالونيك(٢٦) .

واقتضت ضرورة الدفاع عن حدود الدولة البيزنطية من ناحية وقمع حركات التمرد التى قد يقوم بها البلغار من أهل البلاد من ناحية أخرى - إدماج باقى الأراضى البلغارية فى دوقية أخرى عرفت باسم "(دوقية بلغاريا) واتخذ حاكمها أيضًا لقب دوق ، ويساعده اثنين من الموظفين العسكرين أقل مكانة منه . ويقيم الدوق او الحاكم العام لهذه الدوقية فى مركزها وعاصمتها وهى مدينة Skoplye أو Skoplje فى مقدونيا(٢٧) أما عن الأقاليم التابعة لهذه الدوقية ومنها

---

(24) Banescu, Apropos des duches byzantins de Paristrion, p.323.

(٢٥) تقع هذه المدينة على الشاطئ الأيمن للدانوب ، ولعبت دوراً كبيراً فى كل العصور بسبب موقعها الجغرافى الممتاز . انظر لمزيد من التفاصيل ، Browning, Byzantium, p.99 Papahagi, Sceaux de plomb, p. 299., Banescu, les premiers, p.289.

(26) Cedrenus, Historiarum, T.IIp.497., Banescu, Lespremiers, pp. 290-91.

(٢٧) لمزيد من التفاصيل انظر : Banescu, Apropos des duches,pp.321 - 325., Wolff, The Second Bulgarian, p.175, Ostrogrosky, History of the Byzantine State, p. 276.

أوخريدا وبرسيبا Prespa ودوراز وعلى ساحل الأدرياتيك – فكان يشرف عليها موظف تابع للدوق ويحمل لقب استراتيجوس(٢٨) .

وتجدر الإشارة إلى أن تقسيم بلغاريا إلى دوقيتين باريستريون وبلغاريا ، لم يكن تقسيماً سياسياً ولكنه كان تقسيماً إدارياً وعسكرياً فى المقام الأول بغرض الحفاظ على أمن وسلامة الدولة البيزنطية من الأخطار الخارجية وقمع محاولات التمرد الداخلية(٢٩) .

ولكن ما لبث الخلل ان تطرق إلى هذا النظام نتيجة لضعف الحكومة المركزية وعجزها عن إحكام قبضتها على دوقات بلغاريا وحكامها المحليين من البيزنطيين الذين بدأو يشعرون بأن مركزهم فى خطر دائم لذلك اسرعوا إلى جمع الثروات على حساب الأهالى من البلغار(٣٠) كما عجزت الحكومة المركزية أيضًا عن إحكام قبضتها على الإرستقراطية البيزنطية التى بدأت تتكون فى بلغاريا نتيجة لإمتلاك هؤلاء مساحات شاسعة من الأراضى خاصة فى تراقيا وفى مقدونيا مقابل الخدمة العسكرية وفقاً لنظام البرونويا Pronoia(٣١) الذى طبقته الدولة البيزنطية فى الأقاليم التابعة لها .

---

(28) Miller, The Balkans, pp. 159 - 160.

(29) Banescu, Apropos des duches, p.322.

(30) Todorov, Bulgaria, p. 44.

(٣١) البرونويا قطعة من الأرض تمنحها الدولة لأحد الأشخاص فى مقابل خدمةيؤديها له، وكانت عادة خدمة حربية ، فصاحب البرونويا يقوم بتحصيل الموارد المالية فى أقليمه من موجريه الزراعين وفى مقابل ذلك يخدم فى الجيش مصحوباً بفرقته العسكرية بعد تجهيزها تجهيزاً حربياً .ومن ثم فنظام البرونويا أشبه بالنظام الأقطاعى الأوربى.لمزيد من التفاصيل انظر حسنين محمد ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٧٣، ١٩٩وما يليها .

وانظرأيضاً: Ostrogorsky, "La Pronia" dans Byzantion,(1952)Vol. XXII, pp. 437-518.

كذلك حاز رجال الدين مساحات واسعة من الأراضى وبصفة خاصة رئيس أساقفة أوخريدا - الذى لم يعد يختار من أهل البلاد بل من البيزنطيين وغالباً من اساقفة كنيسة أيا صوفيا نفسها باستثناء بعض الحالات(٣٢) .

كما امتلك رجال الدين وبصفة خاصة رجال ديرBachkovo فى رودوب Rodopes أملاكًا شاسعة ، وكان لها فلاحوها المستقلين(٣٣) .

ونتيجةلأوضاع الدولةالبيزنطيةغير المستقرةفىالقرن الحادىعشر بدأ أصحاب أراضى البرونويا البيزنطيين فىبلغاريا يظهرون بمظهر المستغلين الأغراب، وساعدهم على ذلك ما كانوا يتمتعون به من امتيازات كحق الإستفادةمن دخل الأراضىوالإعفاء من الضرائب والإلتزامات العامةوالسلطةالمطلقةعلىفلاحيهمفزادوا فىالضرائب(٣٤).

كذلك أثر الوضع الاقتصادى المتردى فى الدولة البيزنطية وإفلاس خزانتها فى عهد خلفاء باسل الثانى - تأثيرًا كبيراً على الفلاحين فى بلغاريا ، إذ فرض عليهم أعباءاً مالية جديدة إلى جانب ما كانوا يدفعونه من ضرائب ، وفوق ذلك لم يسلم فلاحو بلغاريا من أيدى جامعى الضرائب البيزنطيين الذين استخدموا طرقاً ابتزازية وتعسفية عند جمعهم الضرائب من البلغار(٣٥) وقد اتضح ذلك من خلال رسالة بعث بها ثيوفلاكت Theophylacte(٣٦) - رئيس أساقفة بلغاريا من مقره

(32) Miller The Balkans, p. 160., Obelensky, Byzantine, p. 216., Voynov, Documents, p.48.

(33) Obelensky, Byzantine Commonwealth, p.215.

(34) Obelensky, Byzantine , p.215.

(35) Obelensky, Byzantine , p. 211.

(٣٦) ثيوفلاكت ولد فى أيوبيا Euboea، ودرس فى القسطنطينية على يد الفيلسوف والمؤرخ البيزنطى ميخائيل بسللوس Micheal Psellus ، وكانت له علاقات وثيقة بالبلاط الإمبراطورى ، أما عن ظروف توليه عرش اسقفية اوخريدا فهى غير معروفة ، كتب العديد من الرسائل والخطابات التى تحمل شكاوى سكان المناطق التابعة للإمبراطورية . لمزيد من التفاصيل انظر : Obolensky , The Bzantine, p. 217.

فى اوخريدا إلى البلاط الإمبراطورى فى القسطنطينية، ودافع فيها عن أهل البلاد التى يحكمها ، وشكى من قسوة جامعى الضرائب المحلية من البيزنطيين ، كما اشتكى من السلوك السيء الذى يتبعه هؤلاء ، بل ووصفهم باللصوص وأكد على أن الفلاحين البلغاريين لابد أن يقوموا بثورة ، وحركة تمرد ضد هؤلاء الجباة المتعسفين ، وطالب السلطات البيزنطية أن تعاملاهم بالحيطة والحذر لأن صبر الفقير سوف ينفذ أخيراً(٣٧) .

وجاء أيضاً على لسان ثيوفلاكت فى إحدى رسائله إلى اسقف سيمنو أتعانى من محصلى الضرائب؟ أنهم بلا شك ليسوا أقسى من الذين فى ضواحينا ، فأنهم من كل خمسة أطفال يأسرون واحداً ، كما أنهم يأخذون من المواشى خمسها أو عشرها(٣٨) .

وعانى الفلاحون البلغار أيضاً من الحاميات والموظفين البيزنطيين الذين أخذوا يجمعونهم من حقولهم ويرسلونهم إلى ميادين القتال ، ليقاتلوا أعداء الإمبراطورية بعد أن تزايدت هجماتهم على أراضيها . ولذلك فقد تزايد سخط البلغار وضيقهم من السلطات البيزنطية. وقد عبر الفلاحون البلغار عن سخطهم هذا بأن قاموا بأولى حركات الثورة والتمرد ضد السلطات البيزنطية فى عام (١٠٤٠ - ١٠٤١م) وفى عهد الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤١م) .

وكان السبب المباشر لهذا التمرد هو قيام John The Orphanotrophos الذى أرسله الإمبراطور ميخائيل إلى بلغاريا لجمع الضرائب - بمطالبة البلغار أن يدفعوا ما عليهم من الضرائب نقدًا بعد أن كانوا يدفعونها عينًا ، فأثار ذلك غضبهم ، وقاموا بتنصيب شخص يدعى بطرس دوليان Peter Delyan أو

(37) Obolensky , The Bzantine, p. 217.

(38) Theophylact : Bulgariae Archiepiscopi. In Patrologia Greeca, T. 126, Col . 337.

Deljan(٣٩) قيصراً عليهم فى مدينة بلجراد عام ١٠٤٠م بعد أن أكد أنه ابن Aaron أخو صمويل القيصر البلغارى السابق .

وسرعان ما قاد القيصر الجديد التمرد ضد السلطات البيزنطية فى بلغاريا رغبة فى التخلص من سيطرتها . وشملت ثورة البلغار جانباً كبيراً من البلقان ، غير أن الإمبراطور ميخائيل الرابع تمكن من السيطرة على حركة التمرد وقمعها ، وهزم البلغار، وألقى القبض على دوليان، واصلح أمور بلغاريا وعاد إلى القسطنطينية وبصحبته قائد التمرد وعدد كبير من الأسرى البلغار فى ديسمبر من عام ١٠٤١م(٤٠).

وقام البلغار بحركة تمرد أخرى فى عهد الإمبراطور ميخائيل السابع دوقاس (١٠٧١ - ١٠٧٨م) وبالتحديد فى عام ١٠٧٣م وذلك لعودة البيزنطيين إلى الجهل بسياسة الإمبراطور باسل الثانى الحكيمة ، واستمرار السلطات البيزنطية فى بلغاريا فى القيام بعمليات ابتزاز البلغار(٤١)، وعجز البلغار عن الحد من شره الدوق البيزنطى نقفوروس كارانيتنوس Nicephorus Carantinus دوق

---

(٣٩) تذكر المصادر البيزنطية أنه من سكان القسطنطينية ، وأنه فر منها واتجه إلى بلغاريا واستطاع أن يكسب عطف البلغار بعد أن أكد لهم صلته بالقيصر السابق صمويل. لمزيد من التفاصيل انظر :

Psellos. M, Chronographie ou Histoire d'un siecle de Byzance (976 - 1077). Tran. Par Renauld. E., Paris 1926, pp.76 - 77, Scylitzes, Excerpta, in documents and Materials, pp. 34 - 35 .

(٤٠) لمزيد من التفاصيل عن هذا التمرد انظر :- Psellos, Chronographie , pp. 76 - 82., Scylitzes, Excerpta, in documents, pp. 34 - 37 ., Zanoras, Epitomae Historiarum. In . C. S .H .B .,pp.508 - 603 والترجمة الإنجليزية لهذه الرواية فى Voynov, Dcouments, pp. 52 - 53.

(41) Miller "The Rise and Fall of the First Bulgarian Empire" in Cam - Med - Hist, Vol. 4,pp. 244 - 45.

Skopje(٤٢) وحبه لجمع الأموال ، وكان هذا الـدوق قـوى الشـكيمة لا يسـتطيع أحد أن يقاومه(٤٣) .

ويـروى تفـاصيل هـذا التمـرد المـؤرخ البـيزنطى سـكيليتزيسScylitzes(٤٤) فيذكر أن قائد التمرد هذه المرة كان يدعى جورج فويتى Georgy Voyteh ، وأنه نجح بمساعدة البلغار فى إعلان شخص يدعـى بوديـن Bodin قيصـراً للبلغـار ، ثـم أعلن الجميع التمرد والعصيان علـى الحكـام البـيزنطيين فـى بلغاريـا ، ومـا أن سمـع الدوق نيقفوروس بذلك حتى خرج على رأس الجيش لقتالهم ، غير أن نيقفـوروس هزم فى هذه المعركة ووقع عدد كبير من البيزنطيين فى الأسـر ، وذاق البـيزنطيون مرارة الهزيمة .

ويتابع سكيليتزيس Scylitzes روايته فيذكر أن القيصـر الجديـد أطلـق علـى نفسه اسم بطرس ، واتجه نحو نيش(٤٥) ، حيث بدأ يمارس مهامه كقيصـر للبلغـار، فقام بتعيين القائد جورج دوقاً لمدينة Skopje بدلاً من نيقفــوروس . وعندمـا علـم الإمبراطور ميخائيل السابع بهزيمة الدوق نيقفوروس وإعلان بودين قيصـر ، أرسـل إلى البلغار أحد قادته ويدعى سارونيتس Saronytes على رأس جيش كبـير يتـألف من المقدونيين والبيزنطيين والفرنجة...وما أن وصل سـارونيتس إلى مدينـة Skopje حتى وعد دوقها الجديد جورج فويتى Georgy Voyteh بـالا يلحـق بالمدينـة أيـة أضرار غير أن الدوق جورج لم يأمن للبيزنطيين ، وأرسل سرا إلى رجاله فـى نيـش

(٤٢) عن مدينة Skopje انظر ما سبق .

(43) Scylitzes, Excerpta, in C.S.H.B,p.715 .

انظر الترجمة الإنجليزية فى :.Voynov, Documents, p.38

(44) Scylitzes, Excepta, in C.S.H.B, pp 715-20

. الترجمة الإنجليزية فى : .Voynov, Documents, p.38

(٤٥) عن مدينة نيش انظر ما يلى .

وطلب منهم أن يأتوا إليه على الفور ، وكان أن لبوا دعوته(٤٦) . كما انضم إلى صفوفه كل من الصرب والبجناك والكومان والكروات ، واتحدوا جميعاً حتى يصبحوا قوة يمكنها الوقوف فى وجه الدولة البيزنطية ، منتهزين فرصة انشغالها بالكوارث التى حلت بها نتيجة معركة مانزكرت ١٠٧١م(٤٧) .

وعندما شعر القائد البيزنطى سارونيتس بذلك ، تأهب لقتالهم جميعاً ونجح فى أسر القيصر البلغارى الجديد بودين ، وارسله مكبلاً بالأغلال إلى الإمبراطور ، كذلك أسر الدوق جورج ، ولكنه مات وهو فى طريقه إلى القسطنطينية . واجتاح المرتزقة البيزنطيون من ألمان وفرنج الإقليم وخربوه ، وتم تعيين نسطور Nestor دوقاً جديداً من قبل بيزنطه(٤٨) .

وبذلك فشلت محاولة البلغار التخلص من السيطرة البيزنطية هذه المرة أيضاً، وظل البلغار خاضعين للحكم البيزنطى حتى عام ١١٨٥(٤٩) ، والحقيقة أنهم لم يفكروا فى التمرد مرة أخرى خاصة منذ أن ارتقى عرش بيزنطة الكسيوس كومنين فى عام ١٠٨١م ، وهو رجل على درجة كبيرة من الكفاءة والمقدرة ، نجح فى انتشال الإمبراطورية من الحالة السيئة التى أمست عليها سواء فى الداخل أم فى الخارج(٥٠) ، وقد أحكم الكسيوس سيطرته على الأقاليم التابعة للدولة

---

(46) Scylitzes, Excerpta, in C.S.H.B,pp. 716 - 18.

الترجمة الإنجليزية لهذه الرواية فى :

Voynov, Documents, pp.38- 39.

(47) Oblensky , Byzantine, p,.213., Miller, The Balkans. p.163.

(48) Scylitzes, Excerpta, in C.S.H.B,p.719 .

الترجمة الإنجليزية فى :

Voynov, Documents, p.39.

(49) Painter, Western Europe on the eve of the crusade" in Setton, Hist of the crusades, I, p. 22.

(٥٠) لمزيد من التفاصيل انظر : عبد الغنى عبد العاطى ، السياسة الشرقية للإمبرطورية البيزنطية فى عهد الكسيوس كومنين (١٠٨١ – ١١١٨م) ، ص ١٠٩ وما يليها.

البيزنطية وبصفة خاصة بلغاريـا ، وعـين لها دوقـاً قـوى الشـكيمة يدعـى نيقتـاس Nicetas(٥١) .

ومع ذلك بدأت تتضح حقيقة هامة وهى أن بلغاريا اصبحت موضع نـزاع بين بيزنطة والبجناك والكومان من ناحية كمـا أنهـا أمسـت طريقـاً رئيسـياً لعبـور الجيوش الصليبية من ناحية أخرى . فقد كان هناك طريقان عبر شبه جزيرة البلقان.

الطريق الأول : وهو الطريق الشـمالى ويمـر بـالمدن البلغاريـة بلجـراد نيـش Naissus أو Nich ، صوفيا Sofia ثم يمـر بفيليبـو بوليـس Philippopoli ، أدرنـة Adrianople فالقسـطنطينية. وكـان هـذا الطريـق يعـرف بطريـق (بلجـراد – القسطنطينية)(٥٢) .

الطريق الثانى : هـو طريـق أجناتيـا Via Egnatia ويبـدأ مـن دورازو Dyrrachium علـى الشـاطئ الجنوبـى للإدريـاتيك ، ثـم يمـر عـبر أوخريـدا Ochrida(٥٣) من طرفها الشمالى ، ومنها إلى سالونيك فالقسطنطينية(٥٤) .

لذلك كان من الطبيعى أن تمر الجيـوش الصليبيـة القادمـة مـن الغـرب ببـلاد البلغار وهى فى طريقهـا إلى القسـطنطينية ، سـواء سـلكت هـذه الجيـوش الطريـق الأول (بلجراد – القسطنطينية) أم الطريق الثانى (وهو طريق أجناتيا) .

---

(51) Duncalf, The First Crusade : Clermont to Constantinople" In Setton, Hist. of the Crusades , Vol. I, p.259.

(52) Runciman, "The First Crusade , Journey across the Balkan Peninsula" In Byzanlion T. XIX (1949), p. 209. Obolensky. Byzantine, pp. 35 - 38.

وسام عبد العزيز ، قراءة فى التاريخ ، ص ١٥٤ .

(٥٣) عن مدينة اوخريدا انظر ما سبق .

(54) Obolensky . Byzantine., p. 22.

وسام عبد العزيزفرج، "قراءةفىالتاريخ المبكر لكرواتيا–البوسنة–الصرب فىالعصور الوسطى"مستخرج من مطبوعات جمعيةالآثار بالأسكندرية، الأسكندرية١٩٩٣م،١٥٦.

وكان من الطبيعي أيضاً أن تؤمن الدولة البيزنطية الطرق المؤدية إلى عاصمتها، ولذلك احتفظت بحاميات في المدن الكبيرة ، وعلى الحدود بصفة خاصة ، واستخدمت لهذا الغرض عناصر المرتزقة الأتراك وخاصة البجناك(٥٥) . كما أبقى البيزنطيون على الموانع الطبيعية الموجودة في طريق بلجراد - القسطنطينية ، وبصفة خاصة الغابة البلغارية ، التي تمتد بين بلجراد ونيش Nich(٥٦) ، وقد وصفها وليم الصوري بقوله : "كانت الناحية بأجمعها مغطاه بالغابات الكثيفة النباتات المتشابكة ، فلم يكن أحد بقادر على اختراقها ، حتى ولو رغب في ذلك ، ويرجع هذا إلى أن اليونانيين (البيزنطيين) وضعوا ثقتهم الكبرى في العوائق التي تعود إلى صعوبة الطرق وكثرة اشجار العوسج والشوك التي كانت تعتبر وسائل دفاعية تفوق ما تستطيعه قوات اليونان الدفاعية"(٥٧) ومن ثم كان من مصلحة البيزنطيين أن يحافظوا على هذا الجزء من الطريق كما هو قفر، صعب المنال حتى لا يشجعوا الغزاة الأجانب على العبور من خلاله .

وسوف يتناول هذا البحث بشيء من التفصيل مرور جيوش الحملة الصليبية الأولى ببلاد البلغار وما أحدثوا من تخريب وتدمير وسلب ونهب بها ، ورد فعل كل من البلغار والبيزنطيين على ذلك .

---

(55) Runciman, The First Crusade, p. 209.

(٥٦) تقع مدينة نيش على بعد أكثر من ٢٠٠ ك.م. إلى الجنوب الشرقي من بلجراد ، وعنها يذكر وليم الصوري أنها كانت مدينة شديدة الحصانة بفضل سورها وابراجها التي تحميها قوة كبيرة من الشجعان الأبطال . انظر : وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشي، الجزء الأول القاهرة ١٩٩١م ، ص ١١٧ ،

Runciman. The first Crusade, p.211.

(٥٧) وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، جـ١ ، ص ١٥٣.

أولاً : حملات العامة : حملة والتر المفلس فى بلاد البلغار :

بعد أن عبرت جموع الصليبيين الأول وعلى رأسها والتر المفلس Walter Sans - Avoir بلاد المجر(٥٨) وصلت إلى بلجراد فى(يونيه ١٠٩٦م) ، ويروى تفاصيل مرور حملة والتر ببلاد لبلغار كل من البرت دى اكس Albert d' Aix ووليم الصورى(٥٩) على النحو التالى : بعد أن عبر والتر بلاد المجر ، انطلق إلى بلجراد Belgrade – وهى أول مدينة بلغارية ، وعسكر فيها بكامل جيشه وأراد أن يشترى الضروريات من طعام ومؤن ، فطلب من حاكم المدينة أن يأذن له بعقد سوق يتبادلون فيه ، ولكنه رفض طلبه لظنه أن هذه خدعة ، ولأنه اعتبر الصليبيين جواسيس . ولما وجد عسكر والتر أنفسهم عاجزين عن الحصول على أى شىء من البلغار ، انطلقوا للبحث عن الطعام ، و لم يتحرجوا – كما يذكر وليم(٦٠) عن أية وسيلة لإلتماسه دفعاً للجوع الذى عضهم بنابه، واستولوا قسراً على قطعان الماشية والأغنام – التى كانت تمر هنا وهناك عبر الحقول بحثاً عن المرعى وساقوها إلى المعسكر .

ويتابع كل من البرت ووليم الرواية فيذكران أنه لم يكد أصحاب القطعان – من البلغار – يعلمون بما جرى ، حتى هبوا إلى اسلحتهم ، وكروا على

---

(٥٨) لمزيد من التفاصيل عن حملة والتر فى بلاد المجر انظر : ليلى عبد الجواد إسماعيل (بلاد المجر والحملة الصليبية الأولى) "بحث منشور فى كتاب أ.د. سعيد عاشور فى عيد ميلاده السبعين ، القاهرة ١٩٩٢م" ، ص ٢٣٦ – ٢٤١.

(٥٩) انظر الترجمة الفرنسية لرواية البرت فى :

Yves.Le febvre,Pierre L"Ermite et les croisades. Amiens1946. pp. 129 - 130.

والترجمة العربية فى قاسم عبده قاسم ، الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق ، ص ١٠٥ – ١٠٦ وانظر أيضاً : Hagenmeyer, Peter Der Eremite, Lepizig. 1870,pp.137 - 138.

وانظر الترجمة العربية لرواية وليم الصورى، الحروب الصليبية ، الجزء الأول،ص ١١٣ – ١١٤.

(٦٠) وليم ، الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ص ١١٣ .

الصليبيين كرة ضارية مجمعين العزم على استرجاعها ، وهاجموا اللصوص الذين يسوقون الأغنام أمامهم وفتكوا بهم .

وانفصلت جماعة من جيش الصليبيين - قدرها وليم الصورى بمائة وخمسين رجلاً - عن بقية رفاقهم ، ولجأوا إلى كنيسة صادفوها فى فرارهم ، فاضرم فيها البلغار النار ، وأحرقوا ستين شخصاً بداخلها كما يروى البرت(٦١) أما الباقى فقد لاذ بالفرار ، ومع ذلك لحق بهم البلغار واصابوهم بجراح خطيرة .

ولما أدرك والتر أنه يقود جيشاً عنيداً لا يعرف النظام ولا يكترث بما يفعل فقد انفصل عمن اتبعوا شهواتهم اتباعاً أعجزه عن كبح جماحهم ، وسلك ببقية عسكره مسلكاً فيه الحكمة والحرص ، فأجتاز بهم غابات بلغاريا الكثيفة حتى انتهى السير بهم إلى نيش (فى ١٨ يونيه ١٠٩٦م)(٦٢) فصرح لحاكمها بما لحق به من الخسارة ، وشكى إليه النكبة التى حاقت ظلماً بشعب الله على يد البلغار ، وطلب منه أن يعوضه عن ذلك كله ، فعامله هذا الدوق معاملة طيبة ، ومنحه اسلحةونقوداً على سبيل التعويض ، كما سمح له أن يشترى ما يحتاجه بثمن معقول، وكيل لا تطفيف فيه ، وأمدهم بمر شدين يدلونهم على بقية الطريق ، بل وآمن رحلتهم عبر مدن بلغاريا وحتى وصلوا إلى المدينة الإمبراطورية(٦٣).

---

(٦١) وليم الصورى، الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ص ١١٣ - ١١٤ ، الترجمة العربية لرواية البرت،ص ١٠٦ والترجمة الفرنسية لرواية البرت فى Febvre, pierre, p. 130.

(62) Runcinan. The first Crusade,p. 210.

(٦٣) انظر الترجمة الفرنسية لرواية البرت فى Le Febvre, Pierre,p.130. والترجمة العربية ، ص ١٠٦ ، وليم الصورى ، الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ص ١١٤ . وعن رواية البرت انظر أيضاً :

Hagenmeyer, Peter, p. 138, Michaud, Histoire des Croisades, T.I, p. 69., Chalandon, Hist.de La Premiere Croisade, Paris 1925, pp. 61 - 62., Duncalf, The First Crusade,p.259.

وبعد عرض رواية البرت ووليم عن مسيرة والتر فى بلاد البلغار لابد من وقفة أمام موقف القائد العسكرى البيزنطى فى بلجراد ، وموقف حاكم أقليم بلغاريا البيزنطى أيضاً فى نيش ، وأخيراً موقف البلغار من أهل البلاد من الجموع الصليبية التى وفدت إلى بلادهم .

لا نستطيع أن نلوم القائد البيزنطى فى بلجراد لعدم سماحه للصليبيين بشراء المؤن والضروريات اللازمة لهم ، وذلك لأنه لم يكن يعرف أن هناك ثمة اتفاق مع هؤلاء الصليبيين ، كما لم تكن لديه أية تعليمات عن وصول هذه الجموع وكيفية التعامل معها ، وذلك لأن الإمبراطور الكسيوس (١٠٨١ - ١١٨١م) لم يكن يتوقع وصول الصليبيين إلا بعد ١٥ أغسطس ١٠٩٦م ، وهو التاريخ الذى اقترحه البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) لرحيلهم من بلادهم ، ومن ثم فقد وضع الإمبراطور ترتيباته على أساس أن الحملة سوف تصل فى وقت متأخر عن هذا التاريخ(٦٤) . وأزاء ذلك فقد أخذت القائد العسكرى فى بلجراد - المفاجأة من قدوم الصليبيين إلى البلاد دون توقع لذلك اعتبرهم جواسيس كما ذكر ألبرت - ورفض مساعدتهم والتعاون معهم ، وأرسل على الفور إلى حاكم الإقليم فى نيش ليخبره بوصول والتر وجيشه . هذا وقد ارجع رنسيمان Runciman موقف القائد العسكرى فى بلجراد وعدم تعاونه مع الصليبيين إلى أنه لم يكن قد تم بعد جمع المحصولات ، ولم تكن محاصيل هذا العام قد نضجت ، ومن ثم لم يعرض إلا القليل من الطعام للبيع فى الأسواق(٦٥) .

---

(٦٤) انظر : رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ١٨٢ ،

Runciman. The first Crusade,p. 210.

بردج، تاريخ الحروب الصليبية،ترجمةأحمدغسان ونبيل الجيرودى،دمشق١٩٨٥،ص٤١.

(٦٥) رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ١٨٢ ، وانظر أيضاً بردج ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤١ .

أما عن موقف نيقتاس Nicetas الحاكم البيزنطى لبلغاريا ومقره فـى نيـش ، فترجع معاملته الحسنة لجموع والتر إلى أنه بعد أن وصلته رسالة القـائد العسـكرى ببلجراد ، أرسل بدوره على الفور رسولاً إلى القسطنطينية لينقل إليها خبر وصـول الجموع الصليبية ، ويتلقى تعليمات الإمبراطور بشـأن التصـرف حيـالهم ، وخـلال الفترة التى قضاها جيش والتر فى بلجراد وتقدر بأربعة أيام ، والأيـام التـى قضاهـا فى الطريق من بلجراد إلى نيش عبر الغابة البلغارية وتقدر بثمانيـة أيـام ، واحتجـاز نيقتاس للصليبيين فى نيـش لمـدة أسبوع ، وصـل رسـوله مـن القسـطنطينية ومعـه تعليمات من الإمبراطور بضرورة أن يحسن نيقتاس معاملتهم ، ونفذ نيقتـاس أوامـر الإمبراطور وأحسن أسـتقبال الصليبيـين وأمدهـم بـالمؤن والمرشـدين حتـى وصلـوا بسلام إلى القسطنطينية(٦٦) .

أما فيما يتعلق بمسلك البلغار نحو جند والتر فيبدو أمراً طبيعياً لأنهم تصرفـوا على هذا النحو بدافع من الحرص على ممتلكاتهم والرغبة فى الدفاع عن أرضهم .

بطرس الناسك فى بلغاريا :

تذكـر بعـض المصـادر المعـاصرة للحملـة الصليبيـةالأولىومنها اوردريـك فيتـاليس Orderici Vitalis أن بطـرس ذهـب مـن المجـر(٦٧) إلى بلغاريـا دون أن يعترضـه منـازع ودون أن تواجهـه عقبـات(٦٨) .

---

(66) Runciman. The first Crusade,p. 212.,

رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ١٨٢.

(٦٧) عن رحلة بطرس فى بـلاد المجـر انظـر : ليلـى عبـد الجـواد إسمـاعيل ، بـلاد المجـر والحملة االصليبية الأولى ص ٢٤١ – ٢٤٨.

(68) Orderici Vitalis, Historia Ecclesiastica, lib. IX, Col. 657 - 658 . In Patrologia Cursus Completus (Latina)T.188 (ed) Migne 1855.

غير أن عبارة فيتاليس غير صحيحة فهناك تفاصيل كثيرة حول مسير بطرس فى بلاد البلغار جاءت على لسان البرت دى اكس وكذلك وليم الصورى ويتضح من خلالها أن بطرس واجه الكثير من العقبات على نحو ما سنرى .

بعد أن يروى البرت ووليم الصورى تفاصيل رحلة بطرس الناسك فى بلاد المجر ، واعتدائه على احدى مدن الحدود المجرية البيزنطية وهى مدينة سملين[٦٩] الواقعة على نهر الدانوب عند التقائه بنهر الساف . يذكر البرت أن بطرس نجح من عبور نهر الساف فى ٢٦ يونيه ١٠٩٦م بعد مطاردة من قبائل البحناك - الذين وضعتهم الدولة البيزنطية على حدودها كحاميات للدفاع عن تلك الحدود - تمكن بطرس ورجاله خلالها من إغراق سبعة قوارب للبجناك، وأسر سبعة من رجالهم[٧٠] .

وبعد أن نجح بطرس فى عبور نهر الساف اتجه برجاله إلى بلجراد وهنا يفصل وليم الصورى لما حدث فى بلجراد فيذكر أنهم وجدوا المدينة مهجورة من سكانها ومن نيقتاس Nicetas دوق البلغار الذى أحس أنه المسئول عن رفض السماح لوالتر وجيشه بعقد السوق وشراء الضروريات وعندما سمع بخبر انتقام

(٦٩) لمزيد من التفاصيل عن اعتداء بطرس الناسك على مدينة سملين المجرية انظر : ليلى عبد الجواد ، بلاد المجر والحملة االصليبية الأولى ، ص ٢٤٣ - ٢٤٧.

(٧٠) انظر رواية البرت فى Hagenmeyer . Peter, pp. 145 -1 46 والترجمة الفرنسية فى Febvre, Pierre, pp. 133 - 134. والترجمة العربية فى قاسم عبده قاسم ، الحروب الصليبية، ص ١٠٨ .

عسكر بطرس من مدينة سملين بسبب المعاملة التى كان قد صادفها جيش والتر ، تسرب الخوف إلى نفسه من أن ينزل به هؤلاء نفس العقاب ، لأنه لم يكن بريئاً من هذا الموضوع(٧١) . ولما كان نيقياس غير واثق تماماً من وسائل الدفاع عن مدينة بلجراد - التى يحكمها - فقد هجرها ، وغادرها فى أثره سكانها جميعاً ومعهم مواشيهم ودوابهم ، ولاذوا إلى الغابات فراراً إلى ما بها من المخابىء والأماكن السرية(٧٢) . وإذا كان وليم قد فصل لوصول بطرس إلى بلجراد على النحو السابق فإن البرت الذى يعد المصدر المعاصر الأول للحملة الصليبية الأول لم يذكر شيئاً مما ذكره وليم الصورى لذلك لابد من الوقوف أمام رواية وليم والتأكد من سلامة ما جاء بها من معلومات .

اتضح من رواية وليم الصورى أن دوق بلغاريا وهو نيقتاس كان فى بلجراد وأنه ما لبث أن تركها عندما علم بقدوم بطرس ، وانسحب إلى نيش ، لسببين :

الأول : هو الخوف من أن ينتقم منه الصليبيون لأنه لم يسمح لجيش والتر بعقد السوق وشراء الضروريات .

والثانى : أنه لم يكن واثقاً من وسائل الدفاع عن مدينة بلجراد .

هنا تجدر الإشارة إلى أن نيقتاس لم يكن فى بلجراد على الإطلاق بل كان فى نيش - كما سبق أن ذكر البرت فى روايته عن مسيرة والتر فى بلاد بلغاريا - أما الموجود فى بلجراد فقد كان الحاكم العسكرى

---

(٧١) وليم االصورى ، الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، حـ١ ، ص ١١٦ .

(٧٢) وليم الصورى ، الحروب الصليبية ، نفس الجزء والصفحة .

نائب نيقتاس(٧٣) ، ولعل الأمر اختلط هنا على وليم الصورى فالذى انسحب هو الحاكم العسكرى وليس نيقتاس دوق البلغار ، وله الحق أن ينسحب لأن مشهد جيش بطرس وهو يقترب من مدينة بلجراد أثار مخاوفه ولاسيما وأن هذا الجيش اكتسب سمعة سيئة للغاية فى تلك الأنحاء كجيش من الجياع والمغامرين واللصوص. هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى جاء فى رواية البرت عن مسير والتر أن الدوق نيقتاس أحسن استقبال والتر وجيشه ، وأنه سمح له بعقد سوق وشراء المؤن والطعام مع حرية التجارة ، بل وأرسل معه مرشدين وأدلاء حتى وصل إلى القسطنطينية بسلام(٧٤) . أما الذى رفض السماح له بشراء الضروريات من المؤن والطعام فكان الحاكم العسكرى فى بلجراد ونائب نيقتاس . وإذا كان جيش والتر قد غادر نيش فى ١٨ يونيه ١٠٩٦م ، ووصل جيش بطرس إلى بلجراد فى ٢٦ يونيه ١٠٩٦م ، فليس من المعقول خلال تلك الفترة القصيرة أن يكون نيقتاس قد ترك مقر القيادة فى نيش واتجه إلى بلجراد ثم عاد وانسحب منها عندما علم بقدوم جيش بطرس .

تابع بطرس رحلته فى بلاد البلغار فسار من بلجراد ثمانية أيام ، اجتاز خلالها الغابة البلغارية وهى كثيفة بالغة الاتساع(٧٥) وخرج منها إلى

---

(٧٣) انظر ما سبق ص .

(٧٤) انظر ما سبق ص .

(٧٥) عن الغابة البلغارية انظر ماسبق ص .

نيش، وسار خلفه سائر الجيش بما معه من عربات ومركبات وقطعان الماشية والدواب(٧٦) ويذكر كل من البرت ووليم الصورى(٧٧) انهم بعد أن عبروا نهر مورافا - الذى يجرى إلى جوار المدينة - من جسر صخرى، ضرب بطرس ورجاله معسكرهم على ضفة النهر، ومن هناك أرسل بطرس سفارة إلى نيقتاس أمير البلغار، الذى كان موجودا عندئذ فى هذه المدينة - يتوسلون إليه فى لهجة رقيقة، أن يأذن لهم بإقامةسوق بشروط كريمة ، وأسعارمعتدلة ، وأن تكون السوق حافلة بمتطلبات الحياة اليومية الضرورية لهؤلاء القوم الحجاج الذين خرجوا امتثالاً للأوامر الألهية.

وقد أرجع وليم الصورىسبب إرسال هذه السفارةإلىنفاذ مؤن بطرس ورجاله أثناء الزحف عبر الغابةالبلغارية، ومعاناتهم من نقص الطعام نقصاً بيناً(٧٨).

ولبى نيقتاس طلبهم ولكنه اشترط عليهم أن يبعثوا له برهائن من رجالهم، حتى يضمن عدم قيامهم بإحداث إى شغب، وانهم لن يقدموا على أى عمل من أعمال العنف، يصيبون به الأهالى العاملين بالسوق، أو يقوموا بأعمال السلب والنهب، مثلما فعلوا فى بلجراد . وارتضى الطرفان هذا الشرط، وارسل بطرس

(٧٦) اختلفت آراء المؤرخين المحدثين حول التاريخ الذى وصل فيه بطرس بجيشه إلى نيش فيذكر دونكالف Duncalf أنهم وصلوا فى (٢ يوليو ١٠٩٦م) بينما يذكر كل من جروسيه Grousset ورنسيمان أنهم وصلوا فى (٣ يوليو ١٠٩٦م) . انظر : Duncalf, The First Crusade, p.260, Grousset, Hist. des Croisades, T.I, p.7., Runciman, The First Crusade, p.213., ورنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ١٨٥ .

(٧٧) انظر رواية البرت فى :

Hagenmeyer, Peter, p. 147., Le Febvre, Pierre, P.134.

ووليم الصورى ، الحروب ، الترجمة العربية ، جـ١ ، ص ١١٧ .

(٧٨) وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١١٧ .

لنيقتاس الرهائن وهم : جوتييه جاليريه Gautier de Galeran، وجودفرى بوريل استامبس Godefroi Burel de Etampes (٧٩)، فاستقبلهم الدوق نيقتاس، وعندئذ مضى المواطنون البلغار حاملين معهم بضائعهم إلى السوق، كما سمح للحجاج بأن يشتروا جميع ما يحتاجون إليه، وتوافرت بذلك كميات هائلة من الزاد لكل الجيش وجرى التعامل بين الجانبين بيعاً وشراءً على أحسن ما يكون التعامل، بل وأحسن سكان المدينة من البلغار الى الحجاج، واعطوهم بسخاءواعطوا الفقراء منهم مجاناً، بل وطلب بعضهم الانضمام إلى الحجاج(٨٠).

وما لبث الرهائن أن عادوا إلى قومهم، وتأهب الجيش للرحيل فى طريقه إلى مدينة صوفيا Sofia، ولكن احدث مائة من الألمان شغباً أثناء شرائهم بعض ما يلزمهم من رجل بلغارى(٨١) .

انسحب هؤلاء من مؤخرة جيش بطرس - الذى أخذ طريق الرحيل - وأضرموا النار فى سبع طواحين، كانت قائمة قرب الجسر المقام على نهر مورافا خارج المدينة، كما أشعلوا النيران أيضاً فى عدد من المنازل التى تقع خارج أسوار المدينة، ثم أسرعوا للإنضمام إلى بقية الجيش، غير شاعرين بما ارتكبوه من الإثم كما يذكر ووليم الصورى(٨٢) .

---

(٧٩) جوتييه من قلعة Breteuil أما جود فرى فهو من سكان مدينة استامبس وكان سيد أو حاملاً لراية مائتين من الجنود المشاة .

(80) Hagenmeyer, Peler, p. 147, Le Febvre, Pierre, p. 134.

وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١١٧ .

(٨١) انظر رواية ألبرت فى :

Le Febvre, Pierre, p.134, Hagenmeyer, Peter,p.147.

وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، الترجمة العربية ص ١١٨ .

(٨٢) وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١١٨ .

وعندما رأى البلغار من سكان المدينة النيران تلتهم منازلهم وطواحينهم أسرعوا على الفور إلى دوقهم نيقتاس يشكون إليه، فأمرهم بحمل السلاح والإستعداد لقتال الصليبيين، كما استدعى جميع الفرسان والخيالة الذين تجمعوا فى نيش، وخرج على رأسهم جميعاً لتعقب الحجاج . ويروى البرت أنه قد انضم إلى صفوفهم عدد من الكومان والمجريين والبجناك، وقد حمل هؤلاء أقواسهم المصنوعة من الحوافر والعظام، ووضعوا أعلامهم وبيارقهم على حرابهم، وأخذ الجميع يتعقبون بطرس الذى كان قد سار فى أمان مع جيشه(٨٣) .

وتقدم البلغار وعلى رأسهم نيقتاس نحو جيش بطرس، وكروا عليه كرة عنيفة، وراحوا يعملون سيوفهم فيه، واستولوا على العربات التى كانت تحمل المؤن والطعام، واصطحبوا النساء والفتيات والفتيان والشيوخ والعجزة، الذين لم يستطيعوا اللحاق ببقية القوم، وساروا بهم إلى المدينة، ومعهم الغنائم، على نحو ما يروى البرت ووليم الصورى(٨٤) .

وبينما تجرى هذه الأحداث كان بطرس قدتقدم بطليعة الجيش وكبار رجال الحملة دون أن يدرى بالكارثة التى حلت برفاقه حتى طالعه رسول يدعى لامبرت Lambert وأخبره بتفاصيل تلك الكارثة . عندئذ جمع بطرس كبار رجالات الجيش، وأوضح لهم أنه لا سبيل أمامه سوى العودة إلى الدوق نيقتاس فى نيش، والتفاوض معه حول السلام، على أن يعيد لأتباعه ماسلب منهم(٨٥).

---

(٨٣) انظر رواية ألبرت ، الترجمة الفرنسية : . Le Febvre, Pierre,p.135

انظر الترجمة الألمانية : .Hagenmeyer, Peter, p.147

(84) Le Febvre, Pierre, p. 135, Hagenmeyer, Peter, p.148.,

وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، الترجمة العربية ، ص ١١٩ .

(٨٥) انظر رواية ألبرت فى : .Le Febvre, Pierre, p.136

ووافق الجميع على ذلك، وعاد بطرس ثانية إلى نيش وأرسل من هناك رسلاً إلى المدينة وحاكمها لتقصى الحقائق وعندما تبين لهم أن الأهالى لم يعمدوا إلى حمل السلاح بلا مبرر يدعوهم للغضب، فقد بذل الرسل غاية جهدهم لمحاولة إعادة السلام إلى مجراه، على أن يعاد إلى رفاقهم ما فقدوه من متاع وغنائم(٨٦).

وبينما يسعى رسل بطرس سعياً حثيثاً للوصول إلى اتفاق يرضى الطرفين، هاجم ألف شاب من المتهورين - كما يصفهم البرت ووليم الصورى - أسوار المدينة وبوابتها فى محاولة للإنتقام لزملائهم، وعجز بطرس عن تهدئة الثائرين لذلك أصدر أوامر صريحة إلى الجيش بإلتزام الطاعة وعدم تقديم أية مساعدة لهم، فإستجاب الجيش لأوامر بطرس، وانتظر نتيجة هذه المعركة(٨٧) .

واستغل البلغار الإنقسام الذى حدث فى صفوف جيش بطرس -كما يذكر البرت -(٨٨) وأيقنوا أنه من السهل عليهم هزيمة الثائرين، وعندئذ فتحوا أبواب المدينة، وخرجوا يحملون السهام والحراب مندفعين نحو الصليبيين، فقتلوا منهم ما يقرب من خمسمائة رجل - كما يقدرهم وليم الصورى(٨٩) - وفر الباقون فغرق بعضهم فى النهر أثناء الفرار(٩٠) .

وأرسل بطرس - بعد هذه الكارثة - رسولاً وهو بلغارى كان قد قام برحلة حج إلى بيت المقدس - إلى نيقتاس من أجل الوصول إلى اتفاق سلام ، واتفق الطرفان بالفعل كما يذكر البرت(٩١)، هذا فى الوقت الذى أعلن فيه خيالة

---

(٨٦)وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

Le Febvre, Pierre, p. 136, Hagenmeyer, Peter, p.148.,

(87) Le Febvre, Pierre, p. 136, Hagenmeyer, Peter, p.149.,

وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٨٨) انظر : Le Febvre, Pierre, p. 137.

(٨٩) وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١٢١ .

(90) Le Febvre, Pierre, p. 137, Hagenmeyer, Peter, p.150.

(٩١) انظر ألبرت فى : Hagenmeyer, Peter, p.150. Le Febvre, Pierre, p. 137,

الجيش التمرد، وهبوا إلى أسلحتهم لمساعدة رفاقهم، ولم يستطع رجال بطرس، وفى مقدمتهم رينو Renaud وفوشيه Foucher أن يثنوا الثائرين عن عزمهم، ودارت معركة جديدة بين الجانبين، أسفرت عن مذبحة مروعة، ولم يستطع عامة الصليبيين أن يصمدوا أمام ضغط البلغار عليهم، فتخلوا عن موضعهم ولاذوا بالفرار، وتبعهم الجيش كله(٩٢) .

وجد البلغار فى أثرهم، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، واستولوا على خزانة بطرس ونقوده وكميات من الذهب، وأسروا كثيراً من النساء والأطفال والرجال، وعادوا بالغنائم إلى مقر الدوق فى نيش.أما من نجوا من أيدى البلغار فقد اختفوا فى الجبال والغابات والأماكن المهجورة(٩٣).

وارجع البعض هزيمة الصليبيين إلى أنهم كانوا أشبه بعصابة منهم بجيش منظم، ولم يكونوا ليضاهوا جنوداً محترفين ، ولذلك هزموا هزيمة منكرة وقتل الكثير منهم ، وأسر أكثرهم مع نسائهم وأطفالهم(٩٤) .

أما عن موقف البيزنطيين من هزيمة جيش بطرس فيذكر ميشو Michaud أنهم قد صفقوا وهللوا سراً لشجاعة البلغار ، ونظروا بعين السرور والفرح إلى المحاربين القادمين من الغرب ، وقد عانوا من الفقر والعوز والحاجة ؛ وارجع ذلك إلى كراهية البيزنطيين للاتين(٩٥) .

على أن جيش بطرس ما لبث أن تجمع من جديد إذ تقابل بطرس مع كل من رينو دى بريه Renaud de Breis ، وجوتييه جاليريه Gautier, Galeran،

---

(92) Le Febvre, Pierre, p. 137, Hagenmeyer, Peter, p.150.
وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١٢١ - ١٢٢.

(٩٣) وليم الصورى، الحروب، جـ١،ص ١٢٢. Le Febvre, Pierre, p.138 - 139,
Hagenmeyer, Peter, pp.150 - 151.

(٩٤) بردج ، الحروب الصليبية ، ص ٤٣ .

(95) Michaud, Histoire des Croisades, I, p.73.

وجود فـرى بوريـل Godefroi Burel ، وفوشـيه أورليـان Foucher D'Orleans ومعهم خمسمائة من الفارين ، ويذكر البرت(٩٦) أنهم اجتمعوا جميعاً فوق سفح جبل ، وبدأ لأول وهلة أن هذا العدد هو الذى تبقى من جيش بطرس الذى بلغ تعداده أربعون ألف رجل .. ولم يكن بطرس يتوقع أن هناك من هو مختبأ أو لاجىء ، وأن كثيراً منهم لازالوا على قيد الحياة بعد هذه الكارثة التى ألمت بهم .

ويتابع البرت فيذكر أن هؤلاء الذين وقفوا على قمة التل ، وضعوا علامات من أجل أن يسترشد بها الحجاج الذين اختفوا فى الجبال والغابات والقفار(٩٧)، أما وليم الصورى فيذكر أنهم اخذوا يدقون لهم الطبول وينفخون فى الأبواق حتى تجمع حول بطرس ما يقرب من سبعة آلاف رجل ممن تعرفوا على العلامات أو الإشارات أو سمعوا الأبواق والطبول(٩٨) .

وتابع الجميع سيرهم فى الأراضى البلغارية حتى وصلوا إلى مدينة بيلا بلانكا Bela Palanka ، وأقاموا فيها معسكرهم ن وانتظروا باقى زملائهم لينضموا إليهم ، ووصلوا إلى هذه المدينة فى شهر يوليو ١٠٩٦م، حيث كانت المحاصيل وخاصة القمح والفاكهة قد نضجت ، فقاموا بجمعها والعيش عليها وظلوا فى هذه المدينة لمدة ثلاثة أيام ، قاموا خلالها بجمع الغذاء والمؤن ، كما ظهر خلال الأيام الثلاثة عدد ممن اختفوا فى الغابات والأحراش ، حتى تجمع ما يقرب من ثلاثين ألف رجل(٩٩) . وأخذ الجميع طريقهم نحو مدينة صوفيا البلغارية .

---

(٩٦) رواية ألبرت فى : Le Febvre, Pierre, p. 138, Hagenmeyer, Peter, p.151.

(٩٧) رواية ألبرت فى : Le Febvre, Pierre, p. 138, Hagenmeyer, Peter, p.152.

(٩٨) ووليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١٢٢ .

(99) Le Febvre, Pierre, p. 139, Hagenmeyer, Peter, pp.152 - 153

وكان نيقتاس الحاكم العام لبلغاريا - قد أرسل رسلاً إلى الإمبراطور فى القسطنطينية ليخبره بما نزل بالبلغار من آلام ، وبما فعله الحجاج فى مدينة نيش وسكانها ، وأنهم لم ينالوا العقاب حتى الآن . وما أن علم الإمبراطور بهذه الأخبار حتى أرسل رسلاً إلى بطرس ، قابلوه هو واتباعه عند مدينة صوفيا أو (Sternitz) التى وصل إليها - كما يذكر رنسيمان فى ٩ او ١٠ يوليو سنة ١٠٩٦م(١٠٠) واورد البرت نص رسالة الإمبراطور إلى بطرس على النحو التالى : "وصلت الإمبراطور شكاوى ضد بطرس وجيشه ، لما قاموا به من انتهاكات فى مملكته ، وعمليات للسلب والنهب ، وإشاعة للفوضى والإضطراب فى كل مكان، ومن أجل ذلك يأمر الإمبراطور بعدم الإقامة فى أى مدينة من مدن الإمبراطورية أكثر من ثلاثة أيام ، وإن عليكم أن تشدوا رحالكم سريعاً إلى القسطنطينية فى انضباط ونظام تامين ....وسوف نمدكم فى كل مدينة تمرون بها بالضروريات ، وسوف نزلل لكم العراقيل والعقبات كما أن الإمبراطور سوف يتغاضى عن الأخطاء التى ارتكبها جنود بطرس ضد الدوق نيقتاس والبلغار..(١٠١).

ويذكر وليم الصورى أن رجال بطرس راحوا يشرحون للمبعوث الإمبراطورى الظروف التى أدت إلى الإضطراب الأخير ، مدافعين عن أنفسهم ومبرئين عنده ساحتهم ، وتحدثوا عن تزرعهم بالصبر فى احتمال البلايا التى انزلها البلغار بهم ظلماً وعدواناً(١٠٢) .

---

(100) Runciman The First Crusade, p. 213, note .I.

(١٠١) انظر رواية ألبرت فى : Le Febvre, Pierre, p. 139.,

Hagenmeyer, Peter, pp.153 - 154.

(١٠٢) وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

أما بطرس فقد تلقى رسالة الإمبراطور بفرح عظيم ، وحمد الله لأنه اكتسب عطف الإمبراطور ، وأطاع بطرس أوامره ، وشرع فى تنفيذها إذ ترك مدينة صوفيا بعد ثلاثة أيام ، ثم تابع طريقه إلى القسطنطينية دون أحداث أى شغب أو القيام بعمليات سلب أو نهب(١٠٣) .

ويبدو أن الإمبراطور الكسيوس كان يأمل أن يجد جيوشاً نظامية من الصليبيين ولكن إذا به يجد فرقاً عديدة مكونة من أناس لا يعرفون النظام، ولا يفكرون إلا فى السلب والنهب ، ولذلك كان من الضرورى أن يتخذ احتياطات كافية وعاجلة لحماية القرى والمدن التابعة لإمبراطوريته من الأفواج الصليبية الزاحفة من الغرب صوب بلاده ، ومن ثم فقد حرص على إرسال سفراء لمقابلة الحملات الصليبية ولتسهيل مهمتهم فى الحصول على ما يلزمهم من طعام من أسواق المدن البيزنطية ، ليقلل من فرص السلب والنهب والاعتداء على أهل البلاد، وللإفادة من هذه الجموع الصليبية الوافدة من الغرب .

وأصدر الإمبراطور الكسيوس فى نفس الوقت أوامره للكتائب الإمبراطورية والقوات المساعدة التى تعمل فى خدمة بيزنطة من بجناك وكومان وغيرهم بتعقب الصليبيين عن بعد ومراقبتهم ، وذلك لحماية الأهالى من اعتداء الصليبيين أو قيامهم بعمليات السلب والنهب ، ومن ناحية أخرى حاول الكسيوس أن يحقق طموحاته باستخدام القوات الصليبية لذلك لم يجهل على الإطلاق أن يكسب قادتهم ، كما فعل مع بطرس الناسك واجتهد فى أن يشبع غرورهم(١٠٤) .

---

(١٠٣) لمزيد من التفاصيل انظر :

Le Febvre, Pierre, p. 140, Hagenmeyer, Peter, pp.154 - 155.

(104) Chalandon, Histoire de la Premiere Croisade,pp.69 - 70

وانظر أيضاً ، إسحاق عبيد ، روما وبيزنطه ، ص ٩٢.

حملات الأمراء الصليبيين فى بلاد البلغار :

تمثل هذه الحملات القسم الثانى من الحملة الصليبية الأولى ، وهو القسم المتميز لكونه نظامياً وقاده أمراء وفرسان ، ولم يسلك من هذه الحملات طريق بلجراد القسطنطينية ماراً ببلغاريا سوى حملة جودفرى دى بوايون Godefroy de Bouillon ، أما باقى حملات الأمراء فقد سلكت الطريق الثانى وهو طريق اجناتيا Via Egnatia بعد أن تعطل طريق بلجراد القسطنطينية نتيجة لما حل ببلاد البلغار من تخريب وسلب ونهب على يد الحملات الشعبية التى مرت به(١٠٥) .

وبالنسبة لجودفرىفبعد أن عبر بلاد المجر(١٠٦) ، سار بجيشه إلى بلاد البلغار، ووصل إلى بلجراد فى منتصف أغسطس سنة ١٠٩٦م(١٠٧) ، وقد أمست مدينة خربة مهجورة تنعى من بناها بعد أن تعرضت للسلب والنهب والتخريب على يد جيش بطرس الناسك ، وعندما وصل إليها جودفرى نصب خيامه أمامها ، ويذكر وليم الصورى(١٠٨) أن الجيش بعد أن فرغ من ترتيب امتعته تهيأ للرحيل ، وشقوا طريقهم عبر غابات بلغاريا وأدغالها الشاسعة الكثيفة متجهين نحو مدينة نيش.

وقابل جودفرى - فى الطريق إلى نيش - سفارة من قبل الإمبراطور البيزنطى الكسيوس ، وكانت هذه السفارة تحمل رسالة للدوق جودفرى من الإمبراطور جاء فيها : "من الكسيوس إمبراطور القسطنطينية ، ومملكة اليونان للدوق جودفرى ، ولأتباعه ، أسألك بكل الود ألا تتسبب أنت وأتباعك فى

---

(105) Runciman, The First Crusade, p.214.,

يوشع براور ، عالم الصليبين ، ص ٥١.

(١٠٦) لمزيد من التفاصيل عن رحلة جودفرى فى بلاد المجر انظر : ليلى عبد الجواد ، بلاد المجر والحملة الصليبية الأولى ، ص ٢٦٦ - ٢٧٤.

(107) Runciman, The First, p. 214.

(١٠٨) وليم الصورى، الحروب الصليبية، الترجمة العربية، جـ١، ص١٥١.

تخريب مملكتي ، وتدمير أقاليمى التى تدخلها ، وسوف أمنحك إذناً بشراء كل مـا تود شراءه أنت وأتباعك من أسواق إمبراطوريتنا"(١٠٩) .

وقرر الكسيوس فى نفس الوقت - كما يذكر البرت - ارسال جنـود أمـام كـل فرقـة مـن الفـرق الصليبيـة مـن أجـل أن توفـر لهـم المؤن مـن ناحيـة وتتخـذ الإجراءات اللازمةلمنع قيامهم بالسـلب والنهـب مـن ناحيـة أخـرى(١١٠). وبذلـك تكون الدولة البيزنطية قد تعلمـت مـن درسـها السـابق مـع حملـة بطـرس الناسـك وافادت منه .

وفى نيش كان الحـاكم البيزنطى نيقتـاس قـد استعد للقـاء جودفـرى عنـد وصوله ، وأرسل الحرس البيزنطى لأستقبال جودفرى عند الغابة البلغارية التى تقـع فى الطريق بين بلجراد ونيش ، وأصطحـب الحـرس البـيزنطى الجيـش الصليبـى إلى نيش ، وهناك حصل جودفرى وجيشه على كميات كبيرة من الطعام ، وعلى كل ما يحتاج إليه من مؤن بدون مقابل ، كما وجد تسهيلات كبيرة فى البيع والشراء، ومنح جنوده حرية شراء ما يلزمهم من مؤن(١١١) .

ويروى البرت أن جودفرى كان يريد السلام لذلك أمر جنوده بعـدم القيـام بعمليات السلب والنهب أو الأعتداء على سكان المـدن البلغاريـة التـى يعبرونهـا ، ومن ثم فقد تابع جيشه الطريق دون أن يدخل فى صراع مع البلغار أو مع القوات البيزنطية التى كانت تتعقبه من بعيد سواء فى نيش أم فى صوفيا أم فـى غيرهـا مـن

---

(١٠٩) انظر رواية البرت فى Le Febvre, Pierre, P.177.

وانظر أيضاً : Lebeau, Hist. du Bas Empire, T. xv, P. 316.

(١١٠) Le Febvre' Pierre, p.177. وانظر :

Chalandon, Histoire de la premiere croisade, P. 115., note 2.

(111) Lebeau . Hist. du Bas Empire, T. xv, PP. 316- 17.,

رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ١، ص٢١٥.

مدن البلغار ، إذ كان الجيش يتوقف فى كل مدينة لشـراء احتياجاته فحسب ثـم يعاود الرحيل ، حتى وصل إلى القسطنطينية دون أن يقع منه حادث مؤسف(١١٢).

أما فيما يتعلق بباقى أمراء الحملة الصليبية الأولى فقد سـلكوا طريق اجناتيا الذى يمر عبر بلاد البلقان والبلغار ، ويذكر فوشيه دى شارتر Fulcher de Chartres(١١٣) أن أول من استخدم هذا الطريق هو هيو العظيم شقيق فيليب ملك فرنسا(١١٤) ويذكر أيضاً أن هيو نزل مع رجاله فى دورازو على البحر الأدرياتى - وهى مدينة بلغارية(١١٥)، ولكن اندفع بطيش فى قوة ضئيلة ، فقبض عليه سكان المدينة، وحملوه إلى إمبراطور القسطنطينية . هذا فى حين تـروى المؤرخـة البيزنطية آنا كومنين Anna Commena(١١٦) تفاصيل أوسع عن هيو وحملته فى بلاد البلغار فتذكر : أن هيو عندما عزم علـى الخروج إلى الشرق أرسل رسالة غير مقبولة

---

(112) Le Febvre, Pierre, P.177.,

وانظر أيضاً : Duncalf, The First Crusade, P.269., Lebeau, Hist . du Bas Empire, T. xv, pp. 316 - 17.

(١١٣) فوشيه دى شارتر ، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلى، بيروت ١٩٩٠م، ص٤٠.

(١١٤) هو هيو كونت فرماندو Hugh of Vermandois، وهو الأخ الأصغر لهنرى الأول ملك فرنسا من زوجته الاسكنديناوية الأصل آن أميرة كييف، رغم أنه لم يتجاوز الاربعين من عمره إلا أنه احتل من المكانة والقدر ما يفوق ما لديه من ثروة، لمزيد التفاصيل انظر: رنسيمان ، الحروب، جـ١، ص٢٠٧ - ٢٠٨.

(١١٥) كانت دورازو فى ذلك الحين مدينة بلغارية، ولكنها خاضعة للسيادة البيزنطية شأنها فى ذلك شأن المدن البلغارية الأخرى: وهنا تجدر الاشارة إلى أن بلاد البلغار كانت تشمل فى ذلك الحين تراقيا وشمال مقدونيا.

(116) Anna Commena, The Alexiad, Trans. by E.R.A. Sewter, Penguin 1982, p.313.

وانظر أيضاً قاسم عبده، الحروب ، ص١٥٦.

للإمبراطور يطلب منه فيها أن يستقبله بمزيد من التمجيد والتشريف ، بما يليق بأمير تجرى فى عروقه الدماء الملكية ، وتذكر آنا ما جاء فى هذه الرسالة على لسان هيو وهو : "فلتعلم أيها الإمبراطور أننى ملك الملوك ، وأعظم من عاش تحت السماء...أن مشيئتى اقتضت أن تلقانى عند وصولى ، وأن تستقبلنى بما يليق من التشريف والإحتفال الذى يتناسب مع شخصى النبيل" .

وتتابع آنا روايتها فتذكر أن هذه الرسالة عندما وصلت إلى الكسيوس كان حنابن إسحاق(١١٧) دوقاً على دورازو ، وكان نيقولاس مافروكاتاكالون Nicolas Mavrocatacalon قائداً للأسطول ، فأرسل الإمبراطور تعليمات إلى هذين الرجلين ، فعهد إلى الدوق بأن يراقب البر والبحر ترقباً لوصول هيو ، وأن يخبر الكسيوس بوصوله فى الحال ، وأن يستقبله أيضاً الأستقبال اللائق به ، كذلك ألزم قائد الأسطول بأن يبقى فى حالة اليقظة الدائمة. ووصل هيو إلى ساحل لمبارديا فى آمان ، وبعث من بارى سفارة إلى دوق دورازو على رأسها الكونت وليم النجار William The Carpenter والياس Elias تخبره بأن هيو على وشك الوصول ، وأنه يجب عليه أن يعد له الأستقبال الذى يليق بمقامه ومكانته ، وأن يخرج بنفسه للقائه(١١٨) .

وتذكر آنا أن هيو عندما ابحر من بارى(١١٩) إلى الليريا Illyrium داهمته عاصفة هوجاء ، خسر بسببها كثيراً من سفنه وبحارته ، ولم تنج سوى سفينته ،

(١١٧) هو حنا بن إسحاق كومنين ابن أخت الإمبراطور الكسيوس كومنين، بعثه الأمبراطور إلى دورازو بتعليمات خاصة باستقبال الصليبين بعد تجربته مع جيوش والتر المفلس وبطرس الناسك.

(118) Anna Commena, Alexiad, p. 314.

وانظر أيضاً قاسم عبده قاسم، الحروب ، ص ١٥٦.

(١١٩) بارى احدى مدن ابوليا الساحلية بإيطاليا ، انظر وليم الصورى، الحروب، جـ١، ص١٧٥.

التى ألقتها العاصفة على الشاطئ عند مكان يعرف باسم باليس Pales(١٢٠) ، وقد جنحت وكادت تغرق، لولا انقذها أثنان من حرس السواحل فى دورازو واصطحبا هيو إلى سيدهم حاكم دورازو ، الذى أحسن أستقبال هيو ، وأولاه اهتماماً خاصاً ، وسمح له بأن يستريح ، ولكنه لم يكن مطلق الحرية كما تروى آنا(١٢١) .

وتستمر آنا فى روايتها فتذكر أن الدوق حنا قام على الفور بإبلاغ الإمبراطور بوصول هيو ، وانتظر التعليمات الجديدة وبمجرد أن تلقى الكسيوس هذه الأنباء ، أرسل بوتوميتيس Boutoumites إلى تراقيا لكى يحضر هيو فى حراسته ، ليس عن الطريق المباشر ، ولكن عن طريق آخر عبر فيليبو بوليس إلى العاصمة البيزنطية ، حيث رحب به الإمبراطور الكسيوس ، واسبغ عليه مظاهر التشريف(١٢٢) .

ويلاحظ من العرض السابق أن هناك ثمة اختلاف كبير بين الرواية الصليبية التى رواها فوشيه دى شارتر وبين الرواية البيزنطية التى جاءت على لسان آنا كومنين . فقد جاءت الأولى مختصرة موجزة ، تظهر سوء معاملة أهل دورازو من البلغار لهيو ، وأنهم ألقوا القبض عليه وسلموه للإمبراطور . هذا فى حين جاءت الرواية البيزنطية مفصلة وتظهر أنه لولا الحرس البيزنطى لغرق هيو بسفينته مثلما غرقت سفنه الأخرى ، كما تظهر المعاملة الحسنة التى عومل بها هيو من جانب دوق دورازو ، حقيقة أن الأخير اشتد فى مراقبته ، ولم يكن هيو - كما ذكرت

---

(١٢٠) تقع باليس Pales على مسافة بضعة اميال إلى الشمال من دورازو.

(121) Anna Commena, The Alexiad, P. 315.

وانظر أيضاً : قاسم عبده قاسم، الحروب، ص ١٥٧.

(122) Anna Commena, The Alexiad, P. 315.

وانظر أيضاً قاسم عبده قاسم ، الحروب ، ص ١٥٧ .

آنا - مطلق الحرية - ألا أن دوق دورازو لم يسىء معاملته و لم يقبض عليه البلغار كما ذهب فوشيه دى شارتر . كما أن الدوق كان محقاً فى أن يشتد فى مراقبه هيو وذلك بعد التجارب المريرة للبيزنطيين والبلغار مع حملات العامة ، والتى علمت البيزنطيين ألا يتركوا شيئاً للصدفة فى علاقتهم مع القادمين من الغرب الأوربى .

أما عن ثانى الأمراء الذين سلكوا طريق اجناتيا عبر بلاد البلغار فكان روبرت النورمانى(١٢٣) دوق نرمنديا ، والذى خرج على رأس الجيش من شمال فرنسا فى أكتوبر من عام ١٠٩٦م ، متجهاً صوب الجنوب حيث اجتاز جبال الألب إلى إيطاليا ، ثم وصل إلى بارى حيث عبر الأدرياتيك ، ونزل فى دورازو ، وسار فى بلاد البلغار ، ويصف فوشيه رحلة روبرت فى بلاد البلغار بقوله : "وصلنا البر قرب مدينة دورازو (٩ أبريل ١٠٩٧م)...وعبرنا أمام المدينة المذكورة وهكذا سرنا عبر أراضى البلغار ، وسط جبال شاهقة ، ومناطق مهجورة ثم وصلنا إلى نهر سريع يسميه الناس بنهر الشيطان(١٢٤) ، وتلك تسمية حقة ، إذ شاهدنا كثيراً من العامة تغرق فى هذا النهر....فقد جرفهم التيار بقوة هائلة ، و لم يستطيع أحد أن ينقذ أيا منهم...ولولا أن قدم الفرسان العون للمشاة، فأجازوهم على ظهر خيولهم لهلك عدد غفير منهم . ثم ضربنا الخيام قرب النهر ، وقضينا تلك الليلة هناك ، تحيط بنا جبال شاهقة ، خالية من السكان من كل اتجاه ، وتطل علينا كالأبراج . وعندما لاح ضوء النهار ، ومع دقات الطبول والإشارات ، بدأنا

---

(١٢٣) هو الابن الأكبر لوليم الفاتح ، وكان حين خرج بالجيش من الغرب فى الأربعين من عمره، مع أنه كان لين الجانب، دمث الخلق، تنقصه الكفاية والإقدام إلا أنه لا يفتقر إلى الشجاعة. لمزيد من التفاصيل انظر: رنسيمان، الحروب ، حـ١ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(١٢٤) هو نهرSkumbi ويقع على الطريق من دورازو إلى القسطنطينية.انظر قاسم عبده، تاريخ الحملة إلى القدس ، ترجمة فوشيه الشارترى ، الكويت ١٩٩٣م ، ص ١٠٥ ، هامش ٢.

نتسلق الجبـال التـى يسـمونها جبـال (البـاجولاتوس) أى (البـاجورا Bagora) ثـم احتازنا العديد من المدن حتى وصلونا إلى نهر الفردار... ثم تـابعوا رحلتهـم حتـى وصل روبرت إلى القسطنطينية فى آمان(١٢٥) .

ويتضح من رواية فوشيه أنه لم يكن هناك ثمة احتكاك بـين جيـش روبـرت النورمانى وبين أهل البـلاد مـن البلغـار، وأن جيشـه مـر عـبر بلادهـم دون القيـام بعمليـات سـلب أو نهـب ، ومـرت قواتـه فـى هـدوء وسـلام تحت سمـع رجـال الأمبراطور وبصرهم.

ويعد ريموند الصنجيلى ثالث الأمراء الذيـن مـروا ببـلاد البلغـار عـن طريـق اجناتيا فقد خرج ريموند(١٢٦) من فرنسا فى نفس الوقت الذى خرج فيه روبـرت النورمانى إلى الشرق أى فى أكتوبر ١٠٩٦م، مصطحباً معه القائد الروحى للحملة الصليبية الأولى وهو ادهيمار اسقف بوى(١٢٧)، وانضم إلى حملتـه عـدد كبـير مـن نبلاء جنوب فرنسا(١٢٨).

---

(١٢٥) فوشيه دى شارتر ، تاريخ الحملة إلى القدس الترجمة العربية،ص ٤٣ - ٤٤.

(١٢٦) هو ريموند الرابع كونت تولوز ، ويشتهر عادة باسم كونت سان جيل ، ويعتبر أول نبيل استشاره البابا أوربان الثانى فى مشروع الحملة الصليبية ، وأول من أعلن قراره لها . وكان من أكثر الأمراء الصليبيين مكانة ، وهو الوحيد الذى يقاسم جودفـرى المكانـة والسـلطة والحكمة والخبرة . لمزيد من التفاصيل انظر : رنسيمان ، الحروب ، جـ١ ، ص ٢٢٩ - ٢٣١، Lebeau, Hist. du Bas Empire, T.XV,P.331.

(١٢٧) هو ادهيمار دى مونتيل Adhemer de Monteil ، وقد اتخذ مجمع كليرمونت ١٠٩٥م قراراً بالإجماع ليصبح أدهيمار مندوباً من البابا ، وهو مبشر بارع ، ودبلوماسى ماهر. لمزيد من التفاصيل انظر : رنسيمان ، الحروب ، جـ١ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(١٢٨) لمزيد من التفاصيل عن الإعداد لهذه الحملة انظر : رنسيمان ، الحروب ، جـ١، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

عبرت الحملة جبال الألب واخترقت شمال إيطاليا حتى رأس البحر الأدرياتي وسار ريموند ازاء ساحل هذا البحر مجتازاً استريا ودالماشيا(١٢٩)، واستمر في سيره، حتى وصل إلى الحد البيزنطي البلغاري شمال دورازو (أوائل فبراير ١٠٩٧م).

ويروى ريموند أجيل رحلته عبر الأراضي البلغارية بقوله:

"وضربنا الخيام بالقرب من دورازو، وكنا على اقتناع بأننا في بلادنا لأننا صدقنا أن الأمبراطور واتباعه اخوان وحلفاء لنا، والواقع أنهم انقضوا على رجالنا المسالمين... وسرقوا منهم ما استطاعوا سرقته، وذبحوا بعضهم ليلاً في أماكن بعيدة عن المعسكر، وبينما هم يفعلون ذلك إذا بقائدهم حنا كومنين يعدنا بالسلام"(١٣٠).

ويتابع ريموند روايته فيذكر: "ولكن خلال فترات السلام ، قتلوا بونتينس رينو Pontins Rainaud، وجرحوا شقيقه بطرس جرحاً قاتلاً، وهما أميران في منتهى النبل(١٣١). وتوافرت لنا فرصة الانتقام، ولكننا أثرنا أن نواصل مسيرتنا، مفضلين إثبات الظلم الذى وقع بنا"(١٣٢).

وبينما يواصل الصليبيون طريقهم ، تسلموا خطابات من الأمبراطور تتحدث عن الأمن والسلام والأخوة... ولكن كانت هذه كلمات جوفاء كما

---

(١٢٩) لمزيد من التفاصيل عن القتال مع الدلماشيين انظر: وليم ، الحروب ،حـ١، ص١٧٧ -١٧٩.

(١٣٠) ريموند أجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة حسين محمد عطية ، الأسكندرية ١٩٨٩م، ص ٦٠ - ٦١.

(١٣١) هما فارسان من القوات البروفنسالية . انظر ريموند أجيل ، الترجمة العربية ، ص ٦٥ ، هامش ٢٠ .

(١٣٢) ريموند أجيل ، تاريخ الفرنجة ، الترجمة العربية ، ص ٦١ .

جاء على لسان ريموند لأن من أمامنا ومن خلفنا، وعن يميننا وعن يسارنا ، كان الأتراك والكومان والبجناك والبلغار(١٣٣) متربصين بنا ويعدون لنا الكمائن والفخاخ"(١٣٤).

والحقيقة أن رواية ريموند رواية غير مقبولة وغير منطقية ، فهى تصف البلغار والبيزنطيين بالوحوش الذين يذبحون الصليبيين ، ويسرقون ما معهم، دون أن تقدم ولو سبب واحد لوحشيتهم هذه، أو دافعاً دفعهم لأن يفعلوا ذلك بالصليبيين . ولكن من الواضح أن رجال ريموند لم يسهل ضبطهم ، و لم يخضعوا للنظام، وقاموا كعادة من سبقهم من الصليبيين بعمليات سلب ونهب واعتداء على الأهالى، مما اسفر عن حدوث مناوشات بين الطرفين، وفى أحدى هذه المناوشات لقى اثنان من البروفنساليين مصرعهما، ولذلك صمت ريموند عن ذكر السبب وراء مصرع هذين البروفنساليين.

وإذا كانت فرصة الانتقام من البلغار والبيزنطيين قد تهيأت للصليبيين فلما آثروا مواصلة الرحلة دون أن ينتهزوا هذه الفرصة ويثأروا لانفسهم! كذلك لم يكن ريموند محقاً عندما وصف دعوة الأمبراطور للسلام، وكلماته التى تتحدث عن الأمن والأخوة بل والبنوة، بأنها كلمات جوفاء، لأن الأمبراطور كان صادقاً فيما قاله، واتضح ذلك من خلال مسلكه مع جودفرى وروبرت النورمانى بل من مسلكه تجاه ريموند نفسه ، فبعد أن استراح جيشه فى دورازو أياماً، واستأنف المسير، أرسل إليه الإمبراطور عدداً من كبار موظفيه، يصحبهم مترجمين من اللاتين

---

(١٣٣) كانت هذه العناصر تعمل كجنود مرتزقة فى الجيش البيزنطى انظر :
Lebeau, Hist. du Bas Empire, T.XV. p.332.

(١٣٤) رواية ريموند أجيل ، الترجمة العربية ، ص ٦١ . وانظر أيضاً قاسم عبده قاسم، الحروب ، ص ١٤٨.

وقوات المرتزقة، مزودين بتعليمات تقضى بضرورة الترحيب بالصليبيين كأخوة لهم، واعطائهم الفرصة لجمع المؤن التى تكفيهم من كل مكان يمرون به، مع ملاحظتهم إذا ما حاولوا القيام بعمليات السلب والنهب، ومنعهم فى هذه الحالة بمناوشات خفيفة(١٣٥).

وكان الأمبراطور البيزنطى الكسيوس على حق حينما احاط الصليبيين بقواته المرتزقة، كما كان عليه الا يأمن لهم بعدما الحقوه بالبلاد التابعة له من اضرار وخاصة جيش ريموند فقد جاء على لسان وليم الصورى: "أن المخاوف الكثيرة حاصرت الأمبراطور من تقدم الكونت، لما كان عليه هذا الأمير من العقل والفطنة، إلى جانب ما كان تحت قيادته من جيش بالغ الضخامة "(١٣٦).

أما فيما يختص بادهيمار - الذى صاحب ريموند فى رحلته - فيروى ريموند أنه ذات يوم كنا فى وادى بلا جونيا، عندما اسر البجناك اسقف لى بوى، الذى ابتعد عن المعسكر قليلاً، بحثا عن مكان مريح ليقيم فيه، فأنزلوه من على بغله، وجردوه من ملابسه وضربوه على رأسه بشدة. ولكن أحد البجناك فى سعيه وراء ذهب ادهيمار أنقذه من زملائه من قطاع الطريق... وعندما سمعت الجلبة فى المعسكر هجم الصليبيون، وأنقذوا الأسقف من البجناك، الذين لم يسرعوا بالأجهاز عليه(١٣٧).

وهناك رواية أخرى جاءت على لسان وليم الصورى فيما يتعلق بادهيمار تذكر أنهم ساروا أياماً كثيرة حتى نزلوا فى الأقليم المسمى بلاجونيا ، ونصبوا

---

(135) Anna Commena, The Alexiad, p. 310.,
Runciman , The First Crusade, p.210.

(١٣٦) وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١٨٠ .

(١٣٧) ريموند أجيل ، تاريخ الفرنجة ، الترجمة العربية ، ص ٦٩.

معسكرهم به . أما اسقف بوى... فقد انتقى من دون الجند مكاناً قصياً ينشد فيه الراحة، ونصب معسكره هناك ، ولكن ما لبث البلغار أن هاجموه، وأخذوه اسيراً، وحدث أن طلب منه أحدهم أن يسلمه ما معه من الذهب ليبسط عليه فضل حمايته ، فأعطاه ما طلبه فأغضب هذا بقيتهم فثارت بينهم فتنة، ... عندئذ هب عسكرنا جميعاً إلى سلاحهم ، وانقذوا الاسقف من ايديهم.(١٣٨)

ويظهر بين الروايتين اختلاف واحد فى تحديد الجماعات التى اغارت على اسقف بوى، فيذكر ريموند انهم البجناك، فى حين يذكر وليم أنهم البلغار، وربما كان البلغار هم الذين هاجموا ادهيمار وذلك لأن بلاجونيا تقع فى الشمال الغربى من مقدونيا، والأخيرة كانت منطقة بلغارية وسكانها من البلغار، هذا إلى جانب أن البلغار قاسوا الأمرين على ايدى الصليبيين الذين مروا ببلادهم ، وقد تكون رغبة الإنتقام هى الدافع وراء هجومهم على أسقف بوى ، يضاف إلى ذلك أن البجناك لم يكونوا من أهل البلاد بل هم جند مرتزقة، عهد اليهم الإمبراطور بمهمة محددة وهى حراسة الصليبيين وحمايتهم حتى يستكملوا طريقهم إلى القسطنطينية، ومن ثم فكيف يهاجمون أسقف بوى وهم المكلفين بحراسته، وعلى علم بمكانته بالنسبة للصليبيين؟ .

على أية حال فإن حملة بوهيموند النورمانى(١٣٩) كانت آخر حملات الأمراء التى مرت بالأراضى البلغارية ، ويذكر صاحب كتاب (أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس) أن بوهيموند قد استعد بكل ما فى طوقه للتوجه إلى

---

(١٣٨) وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١٨١.

(١٣٩) بوهيموند النورمانى هو ابن روبرت جويسكارد ، وكان أميراً لتارانتو من أعمال ايطاليا .

الضريح المقدس، وعبر بحر الادرياتيك بجيشه وفى صحبته العديد من الأمراء(١٤٠)... وبعد عبورهم الادرياتيك، وصلوا إلى دورازو، ثم تابعوا الزحف فى بطء شديد عبر غابات بلغاريا حيث وجدوا وفرة بالغة من الحنطة والحبوب والنبيذ، وغير ذلك من المؤن والأطعمة النافعة.(١٤١) ثم انحدروا إلى وادى اندرونوبوليس(١٤٢)،وأقاموا معسكراً انتظاراً لوصول بقية الجيش، وعقد بوهيموند مجلساً - كما يذكر صاحب كتاب أعمال الفرنجة - لتشجيع رجاله وحضهم على الطيبة والتواضع والكف عن تخريب تلك البلاد، التى يمتلكها مسيحيون، وامرهم الا يأخذوا أشياء ازيد مما يحتاجون إليها فى طعامهم ومعاشهم(١٤٣).

ومع ذلك لم يحاول الصليبيون الالتزام فيروى صاحب كتاب أعمال الفرنجة أنهم عندما وصلوا إلى كاستوريا - فى غرب مقدونيا - مكثوا بها بضعة أيام حاولوا شراء المؤن والأطعمة، وبحثوا عما يتزودون به، غير أن أهل البلاد (من البلغار) رفضوا أن يبيعوهم شيئاً، وارجع صاحب كتاب أعمال الفرنجة سبب ذلك إلى شدة تخوفهم من الصليبين ، وأنهم لم ينظروا إليهم كحجاج، بل خيل إليهم ، على حد تعبيره- "أننا طامعون فى تخريب أرضهم قادمون للفتك

---

(١٤٠) لمزيد من التفاصيل انظر : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشى ، ص ٢٦ ، بطرس توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ترجمة حسين عطية، الأسكندرية ١٩٩٢م ، ص ٧٦ - ٧٧ ، ووليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١٦٩.

(١٤١) أعمال الفرنجة ، ص ٢٦ ، بطرس توديبود ، ص ٧٧ ، وليم الصورى ، الحروب، جـ١ ، ص ١٦٩ .

(١٤٢) من المحتمل أن تكون هى درمبول Dropuli التى تبعد مسافة ستين ميلاً عن أفلونا من جهة الجنوب الشرقى،انظر:بطرس توديبود ، الترجمة العربية ، ص ٩٥، حاشية ٢٩.

(١٤٣) أعمال الفرنجة ، ص ٢٦ .

بهم ، فاستولينا على الثيران والخيل والحمير ، وعلى كل ما وجدناه فى طريقنا"(١٤٤).

ويحاول بعض المؤرخين الصليبيين أنفسهم ومنهم وليم الصورى أن يبرر مسلك أهل كاستوريا وتصرف الصليبيين معاً بقوله : "أنه لم يكن يعقد فى هذه المدينة أسواقاً لمن يمر بالناحية من الناس ، ومن ثم اضطر الصليبيون للإستيلاء قسراً على قطعان الماشية والدواب ونهب كل ما يحتاجونه للعيش، مما أدى إلى خسارة الأهالى الذين نظروا إليهم نظرتهم للاعداء"(١٤٥).

وبعد أن ترك بوهيموند ورجاله كاستوريا، دخلوا أقليم بلا جونيا، وضربوا معسكرهم فيه، ويروى صاحب كتاب أعمال الفرنجة ووليم الصورى، أنه كانت توجد بهذا الأقليم مدينة خصبة يسكنها الهراطقة، فأوسعوا خطاهم نحوها ما وسعتهم السرعة، واستولوا عليها بالسلاح ، وأضرموا النار فى مبانيها وراح من بها بين هالك بالسيف أو صريع التهمته النار، ثم عاد الصليبيون محملين بالغنائم الضخمة والأسلاب الوفيرة(١٤٦) .

ودفعت هذه الحادثة - كما يذكر وليم الصورى - الأمبراطور الكسيوس إلى أن يوعز سراً إلى مقدمى جيوشه الذين ارسلهم فى مشاتى ذلك المكان أن يظلوا سائرين مع جميع قوات تلك الناحية إلى جانب القوات المسيحية ، حتى يصلوا إلى نهر الفردار، على أن يغتنموا الفرصة أن لاحت لهم ليلاً أو نهاراً للاغارة على طليعة الجيش سراً أو جهراً...(١٤٧) وتابع بوهيموند طريقه بعد ذلك حتى وصل إلى العاصمة البيزنطية محاولاً الالتزام بالأسلوب الطيب.

---

(١٤٤) أعمال الفرنجة ، ص ٢٦ - ٢٧.

(١٤٥) وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ـ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(١٤٦) أعمال الفرنجة ، ص ٢٧ ، وليم الصورى ، الحروب ، جـ١ ، ص ١٧٠ .
وانظر أيضاً بطرس توديبود ، الرحلة ، ص ٧٧ .

(١٤٧) وليم ، الحروب ، جـ١ ، ص ١٧٠ - ١٧١.

يتضح من العرض السابق أن البلغار ذاقوا الأمرين من جراء مرور الصليبيين ببلادهم، فقد قتل الكثيرون منهم، وخربت مدنهم وقراهم وتعرضت للسلب والنهب، وقد تجلى شعور أهل بلغاريا من خلال عدة رسائل كتبها ثيوفلاكت رئيس اساقفة بلغاريا من مقره فى اوخريداً التى تقع الطريق الرئيسى ، طريق اجناتيا Via Egnatia الذى سلكه الأمراء الصليبيون فى طريقهم إلى العاصمة البيزنطية، وكتب ثيوفلاكت عن الأهوال التى الحقها الصليبيون بهم كهنة وعلمانيين ، والخسائر التى الحقرها بالأراضى التى كانوا يعبرونها . ومن هذه الرسائل رسالة إلى اسقف كيتروس(١٤٨) جاء فيها : "لقد طال الصمت فيما بيننا إليها الأخ ... أما أنا فقد اعجزنى عن الكلام مرور الفرنج بل غزوهم ، ولست أدرى كيف استولى علينا جميعاً حتى لم نعد فى وعينا، لقد اسكرتنا تلك الكأس حتى فقدنا الادراك... بل أن شئت تعبيراً مقتبساً من كتبنا" شربنا الحثالة المهيأة للخطأة، فاضطربنا وارتعدنا كالسكارى، وذهب عقلنا كله"(١٤٩).

ويضيف ثيوفلاكت فيذكر أنه هو ورعيته أخذوا يتعلمون كيف يتحملون فى صبر وأناة هذا العبء إذ جاء على لسانه: "أما الأن وقد الفينا مساوئ الفرنج.. لم نعد نشعر بالضيق، كما فى الماضى (ذلك أن الوقت هو خير معلم للحياة"(١٥٠).

وعرض ثيوفلاكت فى رسالة أخرى(١٥١) أرسلها إلى أحد الاساقفة الأثار التى تركها الصليبيون فى بلاد البلغار بقوله: "اتعانى من الكومان.. من هؤلاء لو

---

(١٤٨) انظر نص الخطاب فى :

Theophylacti Bulgariae Archiepiscopi Epistolae, In Patrologia Greeca, T. 126, Cols 324.

(١٤٩) مزمور ٨ ، ١٢ .

(150)Theophylacti Bulgariae Archiepiscopi Epistolae, In Patrologia Greeca, T. 126, Col.325.

(151) Theophylacti, In P.G.T.126, Col. 337.

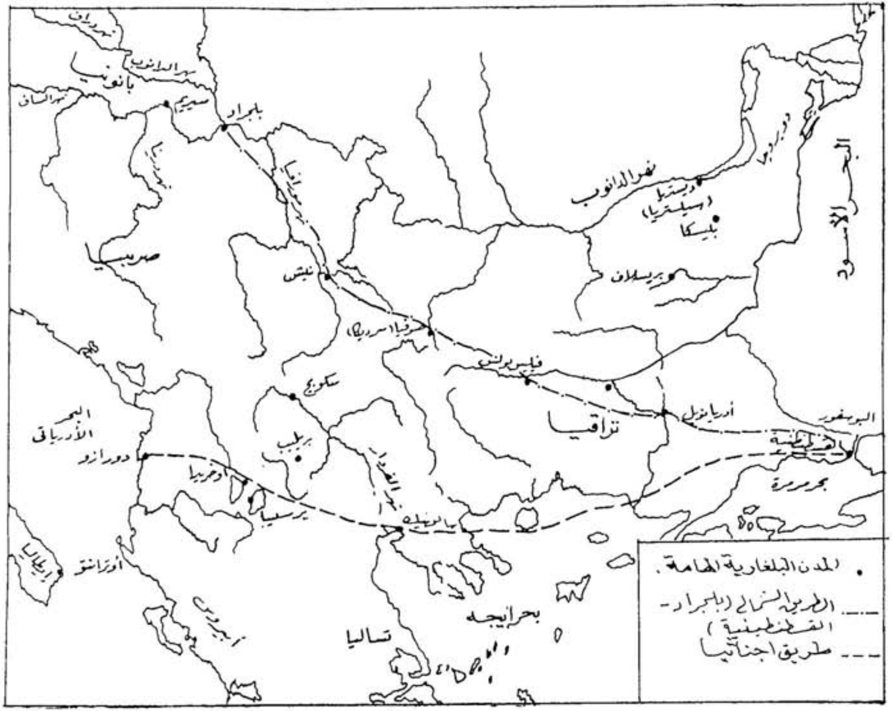
قارنتهم بالذين ينحدرون إلينا من مدينة اوخريدا، انهم يعتبرون القـدوم إلى مدينتنـا متعة وربحاً، يسرقون وينهبون كل شئ "وليس من منفذ ولا منج"(١٥٢).

ويتضـح مـن العـرض السـابق ايضـاً أن بلغاريـا لعبـت دوراً هامـاً فـى فجـر الحروب الصليبية و لم يقف أهلها مكتوفى الايدى أمام الصليبيين بل حـاولوا عرقلـة تقدمهم وخاصة حملات العامة التى كانت تفتقر إلى النظام ، والتى كانت تنظر إلى البلغار خاصة وشعوب البلقان عامة بعين العداء وتعتبرهم هراطقـة لاختلافهـم فـى الكنيسة واللغة بل والعادات والتقاليد.(١٥٣) وهكذا تكون هذه الدراسة قـد القـت بعض الأضواء على فترة غامضة فى تاريخ بلغاريا فى العصـور الوسـطى، وفتحـت الطريق أمام الباحثين للخوض فى هذا الميدان البكر.

---

(١٥٢) مزمور ٤٩ ، ٢٢ .

(١٥٣) يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، ومحمد خليفة محمد ، القاهرة ١٩٨١م ، ص ٤٩ .



Byzantium and Bulgaria

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر الأجنبية :

Anna Comnena, The Alexiad, trans. from the Greek by E.R.A. Sewter, Penguin 1982.

Cedrenus G., Historiarum Compendium, in C.S.H.B., T. Ater, Bonnae 1839.

Chronique de Matthieu D'Edesse (962-1136), tran. par Edouard Dulaurier, Paris 1858.

Orderici Vitalis, Historia Ecclesiastica. In Patrologia Cursus Completus T. 188. (ed) Migne 1855.

Psellos, M., Chronographie ou Histoire d'un Siecle de Byzance (976-1077). T.I Traduit par Emile Renauld. Paris 1926.

Scylitzae Ioannis. Excerpta Ex Breviario Historico, In Cedrenus. Tomus After, Bonnae 1839. pp. 642-744.

Theophylacti Bulgariae Archiepiscopi Epistolae. In Patrologia Greeca. T. 126 (ed) Migne.

ثانيا : المصادر المعربة :

بطرس توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس .

نقله إلى الإنجليزية جون هيوج هيل ولوريتال هيل وإلى العربية حسين محمد عطية ، الأسكندرية ١٩٩٢ م .

ريموند إجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس .

ترجمة وتعليق حسين محمد عطية ، الأسكندرية ١٩٨٩ م .

فوشيه الشارترى : تاريخ الحملة إلى القدس (١٠٩٥-١١٢٧م)

ترجمة زياد العسلى ، بيروت ١٩٩٠م .

مجهول ، أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس .

ترجمة وتقديم وتعليق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٥٨ م.

وليم الصورى،الحروب الصليبية،الجزء الأول،ترجمةحسن حبشى،القاهرة ١٩٩١م.

ثالثا : المراجع الأجنبية :

Banescu N., "les Premiers Temoignages Byzantins sur les Roumains du Bas-Danube" dans.
Byzantinisch Neugrie Chische Jahrbucher, Band III 1922, pp. 287-310.
- " Apropos des duches byzantins de Paristrion et de Bulgarie" dans Revue Historique du Sud-Est Europeen, 1926, PP. 321-325.
- " Les Sceaux Byzantins Trouves a Silistrie "Dans Byzantion 1932, vol VII pp. 321-331.
Browning R., Byzantium and Bulgaria. A Comparative Study Across the Early Medieval Frontier. London 1975.
Chalandon, Histoire de la Premiere Croisade Jusqu' a Election de Godefroi de Bouillon, Paris 1925.
Duncalf, " The First Crusade Clermont to Constantinople " In Setton, History of the Crusades, Vol. I, Philadelphia 1955.
Hagenmeryer. H.Peter Der Eremite. Lepizig 1870.
Lebeau, Histoire du Bas-Empire, Vol. XV, Paris 1833.
Le Febvre, Yves, Pierre L'Ermite et la Croisade, Amiens 1946.
Michand, Histoire des Croisades, Vol. I.Paris 1867.
Miller. W, The Balkans : Roumania, Bulgaria Servia and Montenegro, London 1908
- " The Rise and Fall of The First Bulgarian Empire (679-1018). In Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 230-45.
Nevill, Forbes, Arnold. Toynbee, The Balkans. A History of Bulgaria, Serbia, Greece, Oxford 1915.
Obolensky. D, The Byzantine Commonwealth Eastern Europe 500-1453. London 1971.
Ostrogorsky. G, History of the Byzantine State, trans. by Joan Hussey. New Jersay 1957.
Pericle Papahagi, " Sceaux de Plomb Byzantins Inedits Trouves a Silistrie " dans Revue Historique de Sud-Est Europeen, Vol. VIII (1931) pp. 299 - 311.
Runciman. S, " The First Crusade, Journey Across the Balkan Peninsula " In Byzantion T. XIX (1949) pp. 207-221.
Todorov, N, Bulgaria, Sofia 1965.
Voynov. M, L. Panagotov (ed), Documents and Materials on the History of the Bulgarian People. Sofia 1969.
Wolff. R. L., " The Second Bulgarian Empire, Its Origin and History to 1204." In Speculum, Vol. XXIV (1949-N. 2).

رابعاً : المراجع العربية والمعربة :

انتونى بردج : تاريخ الحروب الصليبية .
ترجمة أحمد غسان سبانو ونبيل الجيرودى، دمشق ١٩٨٥م.

حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٨٣م.

رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الأول .
ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٧م .

السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١م) ، القاهرة ١٩٦٥م .

عبد الغنى محمود عبد العاطى : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور الكسيوس كومنين ، القاهرة ١٩٨٣م .

قاسم عبده قاسم : الحروب الصليبية (نصوص ووثائق)
الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٥ - ١٠٩٩م ، القاهرة ١٩٨٥م .

وسام عبد العزيز فرج : "الإمبراطور باسيل الثانى سفاح البلغار(٩٧٦-١٠٢٥م) العوامل التى أثرت على السياسة فى عصره" بحث منشور فى ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ص ١٦٩ - ٢٠٢ المجلد الأول ، القاهرة ١٩٨٢م .

- دراسات أثرية وتاريخية .

قراءة فى التاريخ المبكر لكرواتيا - البوسنة - الصرب فى العصور الوسطى بحث مستخرج من مطبوعات جمعية الآثار بالأسكندرية . الأسكندرية ١٩٩٣م . ص ١٥٤ - ١٩٩ .

يوشع برادر : عالم الصليبين .
ترجمة قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ، القاهرة ١٩٨١م .

عرض الكتب

قيام وسقوط الفاشية

مع مقدمة فى منهج التحليل النفسى للتاريخ

للأستاذ الدكتور سيد أحمد على الناصرى

عرض : الدكتور السيد عشماوى

عندما كنت طالباً منذ أكثر من ربع قرن فى جامعة القاهرة، كنت استظهر متأملا محاضرات الأستاذ الدكتور سيد الناصرى فى التاريخ القديم، أرى عوالم مختلفة وأشكالا متنوعة من المعرفة حيث يتصادم القديم مع الحديث، فهو يعتمد فى أسلوبه على استخدام مجموعة كبيرة من المعارف القديمة ويعيد توزيعها بأسلوب جديد، كالموسيقار الذى ينوع ألحانه الهادئة وتلك السريعة الصاخبة. والآن، ومع توحد الزمان والمكان، يعود إلينا من خلال كتابه (قيام وسقوط الفاشية) لكى يطلق صرخة صامتة، استغاثة مشحونة بالتراجيديا، ومن خلال قراءات له فى التحليل النفسى للتاريخ بدأ يرسم لوحة فنية لمؤسس الفاشية (بنيتو موسولينى) .

فى دراسته هذه، يلغى الالتزام التقليدى، بتلك العادة الأكاديمية، التى تحرص على ألا يتجاوز العالم الفنان مجال تخصصه، فهو يحرص على التأكيد على القانون التاريخى القديم الحديث والذى يفرز الأشكال المختلفة للدكتاتورية والتى كانت الفاشية احدى مظاهرها فى التاريخ الحديث والمعاصر.

هذا العمل يدعوك إلى التوقف أمامه، تتأمله وتحاول قراءته، فالعنوان يجتذب بصر المتلقى فورا، وفى ذات اللحظة يحرك بصيرته ليغوص وراء الأسطر ، ويرصد لحظات الصراع والحركة التى اطلقت لموسولينى العنان : الطفولة والحرمان، الهجرة وسنوات التيه الفكرى، الحرب العالمية الأولى ومولد وصعود الفاشية ووصول موسولينى رئيسا للوزراء، العلاقة العاطفية بين نازية هتلر وفاشية موسولينى، ثم المشهد الأخير حيث تخبط الفاشية فى ظل ظروف الحرب العالمية

الثانية والهزائم المتتالية للمحور، والقبض على موسولينى وايداعه المعتقل، ثم عملية خطفه من معتقل جران ساسو بواسطة قوات الكوماندوز الألمانية وينتهى المشهد بهروبه إلى ميلانو ومطاردته من جماعات الخلاص الوطنى والقبض عليه واعدامه .

والقيمة الحقيقة لسطور هذا الكتاب تكمن ليس فقط فى الدراسة التطبيقية لمنهج التحليل النفسى للتاريخ، ولكن أيضاً فى لحظات من الوعى الاجتماعى التاريخى، التطبيقى والنظرى، الأول الذى ينشأ يومياً من الشروط التطبيقية للحياة الاجتماعية وفيه تعبير عن حاجات ومطالب الفرد أو الجماعة أى الوعى المحدد بالاطار الحياتى اليومى، وبعكس الوعى اليومى يتجاوز الوعى (الادراك) النظرى النفسى اطار ظروف الوجود الفعلى التطبيقى للأفراد، يطمع إلى التعبير عن جوهر الظواهر الاجتماعية التاريخية وكشف قوانين وجودها الفعلى وتطورها وليس فقط البقاء على سطح الظواهر، كانت شحنة الأحاسيس والتصورات والمفاهيم وسواها من التكوينات العاطفية والارادية والعقلانية أكثر العناصر بساطة فى بناء هذا الكتاب، بل أنه فى المنظور الاجتماعى بعكس العناصر والمعارف والآراء والمعتقدات والضوابط والرموز والقيم التى تبدو كأهداف ومثل عليا وبواسطتها يوحد البشر أنفسهم توحيدا عضويا مع حياة المجتمع، مثلما فعلت الفاشية، (والنازية والشيوعية كذلك) لتنظيم فاعلية الإنسان الفرد ولنشاط الفئات والطبقات الاجتماعية وذلك لحماية ضوابط السلوك .

ومن الآراء التى ناقشها المؤلف رأى يرى وجوب اعتبار الفاشية مسألة مصدرها وعى (نفسية) الجماهير لا إلى شخصية موسولينى أو سياسة الحزب الفاشى فقط، والتساؤل المطروح : كيف يتحول جمهور متعارض فى مصالحه الاجتماعية ويتحد حزب فى مغرق فى رجعيته؟

من هنا تصبح دراسة الأشكال المختلفة، الصريحة والرمزية والتى نجح بفضلها الفاشيون فى الانتقال إلى البنى الليبرالية الجماهيرية، هامة ، مثل الدعاية حسب الشرائح الاجتماعية التى توجه إليها ، واستخدام الحساسية الصوفية للجماهير والتعابير الثورية لتوحيد الجماهير، حيث لا بد من ربط المتذمرين فيما بينهم عن طريق ضرورة إيجاد القيود التى توحدهم، صوفية يراد لها أن تكون غامضة، يشترك فيها الجميع كائنة ما كانت التناقضات فى مصالحهم ومفاهيمهم .

لقد أظهر المؤلف أن الفاشية تمتعت بحظ التوجه إلى البؤساء والمستائين، والمعروف أن البؤس كان يمهد للصوفية دائماً، وهى ظاهرة قديمة فى العالم القديم ، حيث ينتظر البائس معجزة من السماء ويطلب مخلصاً من المغيب (المهدى المنتظر) ويبدى استعداده للحاق بهذا المخلص والتضحية بنفسه من أجله .

هكذا غدا موسولينى ممثلا للرأسمال الاحتكارى، وممثلا فى نفس الوقت للاشتراكيين ومن المعروف أن موسولينى كان يفاخر علنا بتجربته فى القدرة على معرفة نفسية ووعى الجماهير، وقد وفرت له هذه الحساسية الكفاية المفرطة معرفة ما تريده هذه الجماهير، فقد كان يستظهر عند حديثه عن تجربته الشخصية كتاب جوستاف لوبون Gustave le Bon (نفسية الجماهير)ويردد بعض أحكامه.

إن الجماهير هى الثورة فى كل مكان. وهى غير جديرة بأية آراء سوى المفروضة عليها من الخارج ولا يمكن قيادتها وفق مؤسسة تقوم على الإنصاف النظرى الخالص، بل بالبحث عما يمكنه التأثير عليها وسحرها، ولا تعرف الجماهير سوى العواطف البسيطة والمتطرفة ولا يمكن التأثير عليها إلا بواسطة الصور .

لقد أظهرت هذه الدراسة أن الفاشية كانت أشبه بالدين، بل يؤكد موسولينى (أن الفاشية مفهوم دينى) ولو لم تكن الفاشية إيمانا فكيف تمنح هذه الصلابة وهذه الشجاعة لمعتنقيها: فقد جاء فى Lo Credo di Balilla " إنى أؤمن بالأب المقدس:

الفاشية " وكان موسوليني يدعو إلى احتقار ما هو مادى (لأن الفاشية تؤمن بالقداسة والبطولة، أى الأعمال التى لا يحركها أى دافع اقتصادى لا من قريب ولا من بعيد) ودعت الفاشية إلى عبادة رجل العناية الإلهية قد كتب موسوليني عام ١٩٢١ (أنه طيلة العقود القريبة المقبلة، سيشعر البشر بحاجة إلى دكتاتور) بل تحول موسوليني حسب قول الكونت سفورتزا Sforza إلى نصف إله واعتبر معصوما من الخطأ وأن موسوليني دائما على حق ، هذا ما تقرأه فى الوصايا العشر لرجل الميليشيا، وتقرأ أيضاً فى الـ Credo di Balilla " إنى اؤمن بعبقرية موسوليني، تقدم المجلة الرسمية (الميليشيا الفاشية) : تذكر أن تحب الله ولكن لا تنسى أن إله إيطاليا هو الزعيم الدوتشه ، بل كتب مراسل التمبو Tempo فى روما يقول : (أن الفلاحين ونساءهم يسجدون بمجرد رؤيتهم ، على تلة بعيدة، الحصن الذى إرتاح الزعيم فيه قليلا، إذ أن هالة من المثالية والشاعرية أصبحت تحيط به، لقد تحول الزعيم بالنسبة للبعض إلى شخصية خرافية ، فعندما يظهر فى تظاهرة ما، تبدو وجوه العديد من المشاهدين وكأنها مضيئة).

لقد أظهرت ثنايا الدراسة مدى التطابق بين عبادة الفرد (الدكتاتور) وعبادة الوطن، حيث يظهر الزعيم وكأنه تجسيد للأمة ، وتصبح عبادة رجل العناية الإلهيه عبادة للوطن، وخدمة البلاد خدمة للقائد المحبوب، بل عندما يتم الاستيلاء على السلطة تصبح الأوامر الشخصية للدوتشة قوانين للدولة. لقد كتب أحد الفاشيين الطليان (أن الفاشية هى دين الوطن) وعشية المسيرة إلى روما أعلن موسوليني نفسه (أن اسطورتنا هى الأمة، أن اسطورتنا هى عظمة الأمة) .

لا عجب كذلك أن تحافظ الفاشية على عدد معين من الطقوس الجانبية مثل تكريم الذين سقطوا فى الحرب (الجندى المجهول) ويجرى تقديم الدوتشه، وكأنه جندى مجهول خاض الحرب الكبرى ونشر يومياته عن الحرب كما نشر هتلر انتصاراته فى (كفاحى) .

أما دور الدعاية، فقد استخدمت فيها الرموز البصرية والسمعية، حزمة حامل الفأس Faisceau du Licteur (شعـــار الفاشـــية الإيطاليـة) والرمـوز الصـــوتية (إيا إيا إيلالا Eia Eia Elala أو الرمـوز المتغـيرة المطواعـة (التحيـة علـى الطريقـة الرومانية)، الخ .

هناك فاعلية الكلمة وتكرارها، ومقدرتها الســحرية علـى جـذب المسـتمعين، الاجتماعات الموسعة، لقد تعلم موسولينى من جوستاف لوبـون أن الجمهـور قـابل للايحاء بشكل مدهش وأن القادة ؛ ارسون على الجمهور ســحراً مغناطيسـياً فعليـا: السير معا، الزى المميز، بل تولد اس عرضات الفرق الفاشية تأثيراً مماثلا، ففى الــزى النظامى يسير الفاشيون فى الطرقات ويصفق البشر الطيبون لهم وهم ينشدون إيطاليا.

هذه الدراســة القيمـة تعيـد للقـارئ التـوازن النسـبى بـين مـا هـو (عـام) فـى الدراسات التاريخية الاكاديمية ، وبين ما هـو (خـاص) أو ذاتـى ، والعنصـر الأخـير أهمل إهمالاً يكاد أن يكون تاماً، ما أحوجنا إليـه حقـا لإعـادة الوجـه الآخـر مـن العملة إلى نصابه الصحيح .

ثمة قيمة أخرى حقيقة لهذا الكتاب، وهو وأن درس بتمعن شديد أكثر المظاهر الملموسة للإتجاهات العامـة فـى تطـور الفاشـية الإيطاليـة آمـلا أن يصـل إلى تلـك الحقيقة النسبية المتغـيرة المتطـورة والتـى تسـتكمل باسـتمرار ، لاعـن طريـق إزاحـة العناصر الذاتية، بل وضعهـا كمـا قلـت فـى الاعتبـار ، فإنهـا عـن طريـق النظـام، الاتساق التماسك ما أدى إلى هذا الصدق التاريخى أثناء كتابة الموضوع .

والفاشية، واقع تاريخى، خاص فى تطوره، هى ملمح أوروبى حقا، هى عملية تطورت وكانت جديرة بالمعرفة فى حركتهـا التاريخيـة حتـى وصلـت إلى مسـتوى خاص من النضج لتصبح حدثا تاريخيا، لا أوروبيا فحسب، بل عالميا كذلـك، لقـد كان التعامل مع هذا الحدث التاريخى بعقلية العالم الفنان ، والذى قارب بين العلـم

والفن، فإذا كان العلم ينزع إلى ما هو موضوعى وعام ، والفن ينزع إلى ما هو خاص وذاتى ويسمو بالواقع، فكلاهما شكل من أشكال الإدراك الاجتماعى أو الحالة النفسية للشعور، وكلاهما ينشد الحقيقة الانسانية الاجتماعية، حقا أن العلم ينساق إلى حيز المفاهيم والقوانين التجريدية والشمولية، ينزع عن الذاتى لونه، غير أن الذاتى لا يمكن عزله عن العالم . أسلوب هذا الكتاب ينحو منحنى فنى من خلال بساطته فى التعبير، أليست الحقيقة هى البساطة الجمالية، من خلال التوافق والانسجام للوحدة الداخلية للموضوع ما يبعثان لدينا بحس الجمال حقا منذ العشرينات، وكما يقول العقاد فى كتابه (الحكم المطلق فى القرن العشرين) والذى نشره فى فترة صعود الفاشية وازدهارها (أواخر العشرينيات واوائل الثلاثينيات)، أنه قد (كتبت عن "الفاشزم" فى أوربا وأمريكا عشرات من الكتب ومئات من الرسائل والمقالات أكثرها لا يمكن التعويل عليه لما هو معلوم من سعة الدعوة التى يقوم بها الفاشيون فى كل مكان وكثرة الأغراض التى تدور حول الدفاع عن المذهب بين أصحاب أموال يحبون أن تشيع القوانين الصارمة فى معاملة الصناع أو محافظين يكرهون الديمقراطية والاشتراكية ، أو خصوم سياسيون لخصوم موسلينى يساعدونه للنكاية بابناء وطنه الأخرين) . فقد أثبت التاريخ أن الفاشية، نظام ديكتاتورى عسكرى بيروقراطى على النمط البونابارتى، ودفعت سنوات ظهورها، إيطاليا وغيرها من البلدان إلى نظام أشد الكوارث هولا فأضحت مكروهة فى العالم ومعزولة من قبل البلدان الديمقراطية والاشتراكية، ووجدت نفسها وحيدة، غير أن الفاشية المعاصرة، سرعان ما أطلت برأسها لا فى إيطاليا نفسها ولكن فى أجزاء مختلفة من العالم، ومن هنا تنبع ضرورة قراءة هذا الكتاب، والذى يعتمد على تراث مدرسة التحليل النفسى التاريخى فى ثنايا سطوره .

All Correspondence to be directed to:

Editor - in Chief: PROF. S. A. EL - NASSERY,

Cairo University, Faculty of Arts,

Orman, Giza, A. R. E.

رقم الإيداع : ٧٣١٧/٨٨

الترقيم الدولى ٩ – ٠٢٦ – ٢٣٨ – ٩٧٧

Cairo University
Faculty of Arts

THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Editor - in - Chief: Porf. S. A. EL - NASSERY

Volume 14 (JANUARY 1995)

Cairo University
Faculty of Arts



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Editor - in - Chief: Porf. S. A. EL - NASSERY

Volume 14 (JANUARY 1995)

محتوى العــدد